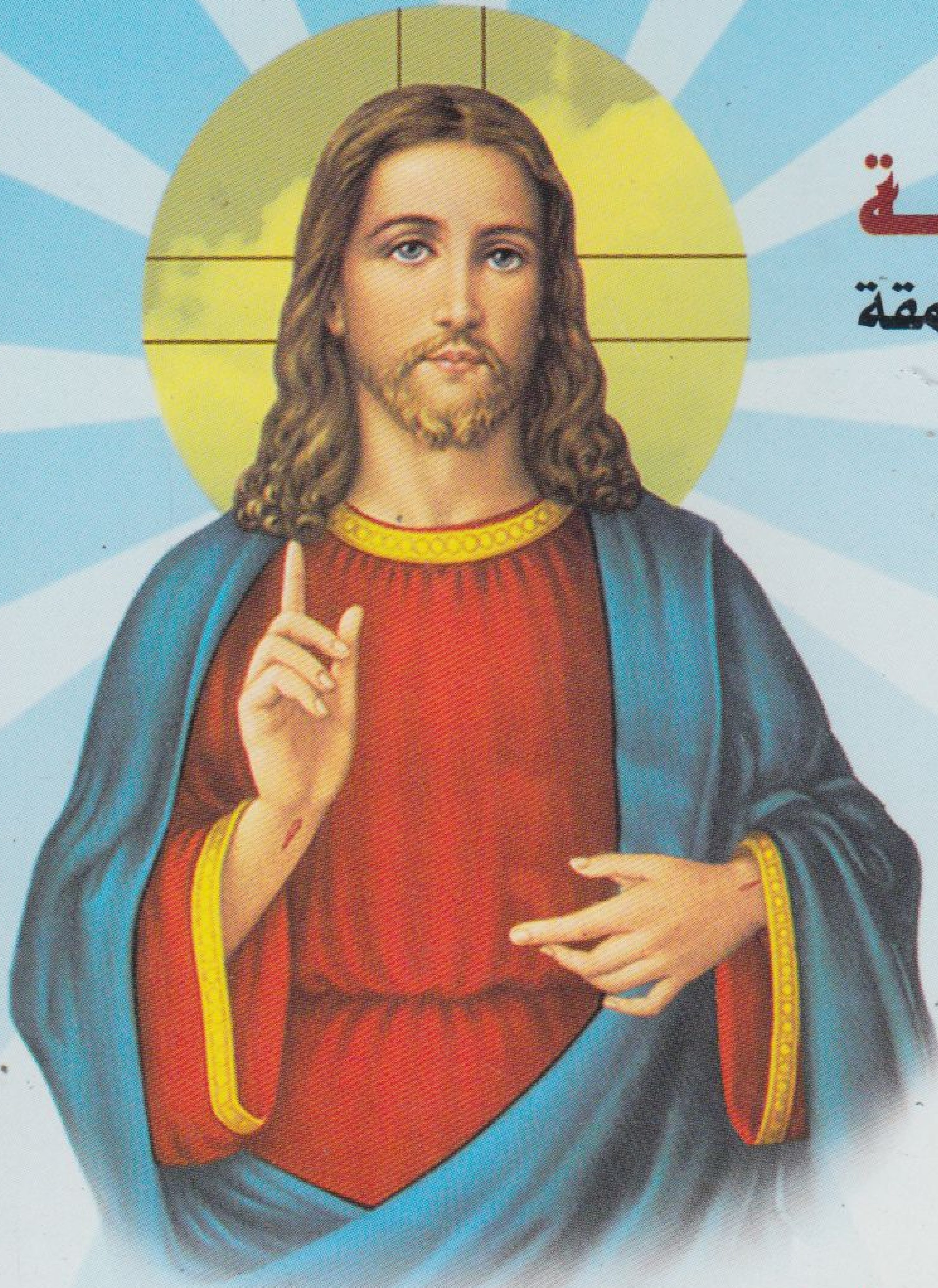
مكتبة المحبة

سلسلة دراسات تاريخية متعمقة



إلى الباحثين والخُدام ومُحبى التاريخ المقدس نقدم:

تاريخ المسيحية الشرّقية

(الكنائس : القبطية، الأثيوبية، النوبية، السريانية، الآشورية ، الأرمينية ، الهندية ، المارونية)

A History of Eastern Christianity

تأليف العلاّمة القبطى الكبير:

المؤرخ الدكتور عزيز سوريال عطية

Aziz S. Atiya

مدير المعهد العالى للدراسات القبطية سابقاً

وأستاذ التاريخ بجامعات أمريكا

(١٨٩٨ - ١٩٨٨م)

ترجمة وتعليق

أرشيدياكون د. ميخائيل مكسى إسكندر

مكتبة المحبة

سلسلة دراسات تاريخية متعمقة

إلى الباحثين والخُدّام ومُحبّي التاريخ المقدس نقدم :

تاريخ المسيحية الشرّقية

(الكنائس:القبطية، الأثيوبية، النوبية، السريانية، الآشورية، الأرمينية، الهندية، المارونية)

A History of Eastern Christianity

تأليف العلاّمة القبطى الكبير :

المؤرخ الدكتور عزيز سوريال عطية

Aziz S. Atiya

مدير المعهد العالى للدراسات القبطية سابقاً
وأستاذ التاريخ بجامعات أمريكا
(١٨٩٨ - ١٩٨٨م)

ترجمة وتعليق

أرشيدياكون د. ميخائيل مكسى إسكندر

طبع بشركة هارمونى للطباعة
تليفون ٦١٠٠٤٦٤ (٠٢)

رقم الإيداع 2005-9574
الترقيم الدولى 8-0809-12-977



قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة عن الكاتب

وُلِدَ الدكتور عزيز سوريال عطية فى ٥ يوليو سنة ١٨٩٨ بمركـــز زفتـــى بالغربية وإلتحق بكلية الطب سنة ١٩١٤ .

ولما كان بالسنة الرابعة شارك فى ثورة سنة ١٩١٩ . وتم اعتقاله مرتيـن ، ثم فصله الإنجليز من كلية الطب .

ثم حصل على البكالوريا مرة ثانية من قسم أدبى ، وحصـــل علـــى شـــهادة المعلمين العليا بتفوق ، فتم إرساله إلى جامعة ليفربول سنة ١٩٢٥ وتخصص فى تاريخ العصور الوسطى، حيث حصل على الدكتوراه من تلـــك الجامعـــة ســـنة ١٩٣٨ عن الحروب الصليبية، وعلى دكتوراه الفلسفة من جامعة لندن.

وقد عمل بعدة جامعات أجنبية، كما عمل بوزارة المعارف المصرية ، وقـــام بالتدريس بجامعة القاهرة ، وصار رئيساً لقســم التـــاريخ، ووكيـــلاً بكليـــة آداب الإسكندرية.

وأنشأ مع مجموعة من العلماء الأقباط " معـــهد الدراســـات القبطيـــة" ســـنة ١٩٥٤ وكان أول مدير له .

ثم قام بالتدريس فى عدة جامعات بأمريكا، وحقق عدة مخطوطات وأشـــرف على تصوير مخطوطات بدير سانت كاترين.

كما أشرف على مشروع إصدار دائـــرة المعـــارف القبطيـــة بالإنجليزيـــة (Coptic Encyclopedia) التى ضمّت ٨ مجلدات، سنة ١٩٩١ . كما شارك فـى تحرير دوائر معارف أخرى، منها دائرة المعارف الإسلامية، والعربية، وغيرها.

وقد ألف نحو ٤٠ كتاباً وحوالى ٧٠ مقالاً علمياً. ومن أشهر كتاباته الكتـــاب الذى بين أيدينا " **المسيحية فى الشرق** " وقد توفى بأمريكا فى ٢٤ ديسمبر ســـنة ١٩٨٨ م.

ويتضمن هذا الكتاب معلومات تاريخية تُنشر لأول مرة عن الكنائس الشرقية، الأرثوذكسية وغيرها.

ونقدم هذا الكتاب خدمة للباحثين والدارسين ومُحبّيِ تاريخ الكنيسة. ولكل راغبى المعرفة السليمة ، راجين أن يكون نافعاً للجميع، بصلوات **قداسة البابا شنودة الثالث، وشريكه فى الخدمة الرسولية نيافة الحبر الجليل الأنبا متاؤس** أسقف ورئيس دير السريان العامر ، والمشرف على هذهِ السلسلة من الدراسات،ونيافة الأسقف **الأنبا سلوانس** النائب البابوى لمصر القديمة وفم الخليج والمنيل، أدام الله حياتهم جميعاً، آمين.

أرشيدياكون د. ميخائيل مكسى إسكندر

الجيزة فى :٢٠٠٥/١/٧ (عيد الميلاد المجيد)

مقدمة الكاتب

برزت فكرة إعداد هذا المجلد، خلال عملى كأستاذ لتاريخ الكنيسة الشرقية بمعهد بنيويورك (١٩٥٦ –١٩٥٧). واقتصرت الدراسة على أسرة الكنائس الأرثوذكسية القديمة الغير يونانية. وهى القبطية والأثيوبية واليعقوبية والنسطورية والأرمينية والهندية والمارونية ، والكنائس التى انقرضت فى النوبة وشمال إفريقية.

وقررت تجهيزها من المحاضرات التى كنت ألقيها، بناءً على مشورة بعض الزملاء، للاستفادة بها. وتم إعداد هذه الدراسة على ضوء المصادر المتاحة، كمحاولة أولى متواضعة أُقدمها للدارسين ، وخاصة فى الغرب، على أمل أن يأتى بعدى من يحمل الشعلة العلمية حتى تظهر حقيقة حياة وحكمة آباء الإيمان الأرثوذكس العظام، ولتصل تعاليمهم لكل العالم.

وتشمل هذه الدراسة تلخيصاً لقصة كل الكنيسة، منذ تأسيسها حتى وقتنا هذا (١٩٦٨م) مع تحليل العوامل التاريخية التى دعت إليها الأحداث الدينية ، مثل مناقشات الحركة المسكونية فى القرنين الرابع والخامس. وأثر السياسة فيها، وكيف أن كنائساً صغيرة الآن ، كان لها دور كنسى هام قديماً. والكتابات المتعددة والموجودة ، سواء من الآباء ، أو من الهراطقة المنشقين.

ولفهم ظروف كل كنيسة، أشرنا إلى النواحى التعليمية والثقافية، وعادات كل مجتمع. وتلخيص أُسس النظام الكنسى الإدارى (hierarchical organization) والطقوس (rites) والفن الكنسى والمعماري، والألحان والأدب، وأهم الوثائق والمراجع الهامة.

ولى أمل فى أن يسد فراغاً، فى تاريخ الكنيسة الشرقية ، وخاصة للباحثين والدارسين.

د. عزيز سوريال عطية.

الجزء الأول

مسيحية الإسكندرية
(الأقباط وكنيستهم)

مقدمة عامة :

تم التقليل من مكانة الأقباط فى التاريخ العام للمسيحية . وأحياناً قد جرَى نسيانه، لأن الشعب القبطى نفسه قد فضّل أن يعيش قروناً فى طىّ النسيان. وقرر أن يبتعد عن سلطة الكنيسة الغربية، للحفاظ على إيمانهم السليم والاحتفاظ بكرامتهم الوطنية.

وتم هذا الانفصال منذ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م . وأحداث هذا المجمع ستتم دراستها فيما بعد. وقد لعب اللاهوت الرومانى - البيزنطى، وعوامل سياسية أخرى، دوراً هاماً فى قرارته، وتمسك الأقباط بإيمانهم، وانعزلوا عنهم.

وبعد مجىء العرب لمصر فى القرن السابع، أدارت مصر وجهها بعيداً عن الغرب، واتجهت نحو المشرق، كما أن نمو الديانة الإسلامية الجديدة - فى الشرق الأوسط – قد أثر على المجتمعات المسيحية فى المنطقة.

ونسَى العالم الغربى دور الأقباط فى الإيمان المسيحى، ماعدا إشارات لهم فى مذكرات الرحالة الأوربيين - فى القرون الوسطى - إلى أن زاد الاهتمام بدراسة التراث المسيحى القبطى فى القرن ١٩ م .

وظهرت ثلاثة مدارس انشغلت بالمصادر القبطية ، وأولها المدرسة "البروتستانتية " ، وكتب مؤلفوها عن الكنيسة القبطية بعاطفة شديدة، ولكن بفهم محدود.

وكانت المدرسة الثانية من علماء الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وكان رأيها عِدائياً. وكانت المدرسة الثالثة من مواطنين معتدلين، إلى جانب بعض الباحثين الغربيين الأكثر نزاهة، والذين اعتمدوا على المصادر القبطية الرئيسية. كما جذب الفن والعمارة والأدب القبطى الانتباه، فصار مجالاً لدراسات حديثة.

- **كلمة "ِقبَط" (Copt) :**

كلمتا **قبطى** ، **ومصرى** مترادفان، وكلاهما مُشتق من الكلمة اليونانية: " aigyptos" ، التى استخدمها الهلينيون للتعبير عن كل من مصر والنيل ، وهو نطق صوتى خطأ عن الكلمة المصرية القديمة " ممفيس " التى هى " **هاكبتاح** " (Hak-ka-Ptah) التى تعنى دار – أو معبد-روح بتاح، وهو أحد أقدس آلهة مصر. كما جاء فى أساطيرها . وكان إله كل الخليقة، التى كانت تتم عبادته قبل كل آلهة ممفيس.

واشتقت اللغات الأوربية الحديثة أسم مصر (Egypt) من اليونانية[1]. وهناك تقاليد أخرى، أن الكلمة مشتقة أساساً – طبقاً لمصادر عربية وسماعّية – من "Kufliam" ابن مِصرايم حفيد نوح، الذى أستقر فى وادى النيل، والذى أُطلِقَ اسمه على المدينة القديمة ِقفط (Quft , Guft) المجاورة لطيبة، العاصمة القديمة لمصر.

وقد أسمى العرب مصر " **دار القبط** "، ونظراً لأن المواطنين الأصليين كانوا مسيحيين، لذلك فإن كلمتى " قبطى " ، " ومسيحى" لهما نفس المعنى. وأن "الكنيسة القبطية" تعنى الكنيسة المصرية .

---

(١) **كلمتا** : " Qibt , Gybt " من أصل لغوى قبطى أى مشتقة من اسم مدينة قفط (Keft kepto) ، وقد نهبها دقلديانوس فى القرن الثالث، وسقطت فى يد الفُرس سنة ٧١٥ ، وصارت مركزاً للتجارة مع الجزيرة العربية تحت الحكم الإسلامي ، وقد ثارت ضد صلاح الدين الأيوبى. فسحق الثوار وذبح منهم ثلاثة آلاف، فتضاءلت أهميتها، وحلت محلها قوص (Qus) .
Cfr. Amélineau, La Geographie de l'Egypte à L'époque Copte (Paris 1893 pp .213-215).

ومن الناحية الأثنوغرافية (السلالات البشرية) ، فإن الأقباط ليسوا ساميين ولا حاميين، ولكنهم من جنس البحر المتوسط. وقد وُصِفوا بأنهم منحدرين مباشرة من سلالة قدماء المصريين (أبناء الفراعنة).

وقد بُذِلت بعض المحاولات لإثبات تشابههم مع السكان القدماء لوادى النيل. ومهما كانت حقيقة الأمر، فمن الواضح أن ديانتهم قد حفظتهم من الاختلاط مع الموجات المتتالية من الغُزَاة، من إيمان آخر .

لذلك ، فإن نقاوة جنسهم ليست أسطورة بحتة، إذ أنه بالنسبة للأقباط، فإن ديانتهم (المسيحية) قد كانت رابطاً قوياً لمجتمعهم، وأن الأرثوذكسية هى طريقة حياة ، وكذلك أسلوباً للعبادة.

ومن الناحية المعيشية، فإن الأقباط قد ظلوا يعيشون معاً فى نفس القُرَى ، وفى نفس الأحياء بالمدن الكبرى، واستمرّت الحال على هذا المنوال إلى نهاية القرن ١٨ م .

وفى يومنا هذا ، يحيا الأقباط – فى كل مكان – جنباً إلى جنب مع جيرانهم المسلمين، بدون تفرقة عنصرية سياسياً أو جنسياً، ويتمتعون بحريتهم الدينية وتتزايد أعداد كنائسهم فى كل مصر .

- **اللغة القبطية :**

يتكلم أقباط اليوم العربية، ولكنهم يستخدمون اللغة القبطية فى كنائسهم. " **والقبطية**" هى آخر مرحلة فى تطور لغة قدماء المصريين. والمراحل الأولى تتمثل فى الأشكال الهيروغليفية والهيراطيقية والديموتيقية.

وكانت الأولى هى الشكل المقدس المستخدم فى الكتابة على جُدران المعابد، وفى المقابر ، وأوراق البردى (مثل كتاب الموتى). أما الثانية فكانت مبسطة

نسبياً، واستخدمها الكهنة فى الوثائق الرسمية والملكية، ثم اقتصرت أخيراً على الصلوات فى المعابد.

وبمرور الوقت صارت الديموتيقية أقل فى أشكالها المصورة، ولكن كانت لم تزل غير سهلة الاستعمال، حسب المتطلبات اليومية.

وبقدوم اليونان، ثم بانتشار المسيحية فى مصر ، اتضح أن الديموتيقية غير كافية للكتب المقدسة، فاستخدمت الحروف اليونانية، ولكنها لم تكن متضمنة أصواتاً أخرى، فأُضيفت سبع حروف من الديموتيقية.ومن الصعب تحديد موعد محدد لهذا الأسلوب الكتابى الجديد ، وربما تطلب ذلك وقتاً طويلاً.

ومن الجدير بالذكر أن الكتابة بأحرف يونانية لأول وثيقة مصرية كان قبل الميلاد بنحو ١٥٠ سنة . واكتشفها الأثرى جريفث (Griffith)(١).

وتفرعت عن القبطية اللهجات البُحيرية والصعيدية والفيومية والأخميمية والبشمورية (شمال الدلتا)، وقد تأثرت لهجات الدلتا باليونانية أكثر من اللهجات الصعيدية .

ويمكن أن يُقال ، أنه فى نهاية القرن الثانى وبداية الثالث ، كانت معظم الكتب المقدسة القبطية قد كُتِبَت بالقبطية . وقد عُثِر على أجزاء كثيرة من رسائل القديس بولس مكتوبة بها على البردى. ويُقدّر أنها كانت مدوّنة نحو عام ٢٠٠م ، كما تم العثور على كنوز كثيرة من المخطوطات القبطية ترجع للفترة من القرن الثانى والخامس، وأغلبها كتابات دينية مقدسة.

وظلت اللغة القبطية مستخدمة فى السجلات الرسمية خلال الْحكم العربى. وفى عام ٧٠٦ م أصدر **الوالى عبد الله بن عبد الملك** أمراً بإحلال اللغة العربية

---

(1) Alfred Nawrath, Egypt, the Land between Sand and Nile (Bern, 1962) p .132.

وترى بعض المصادر القبطية أن العلاّمة الإسكندرى " بونتينوس " هو الذى استخدم الحروف السبعة المصرية مع الحروف اليونانية التى تكونت منها القبطية.

محل القبطية فى الأعمال الرسمية للدولة، ومع أنه لم يتم تنفيذ ذلك فوراً، إلا أنه كان دافعاً للكتبَة الأقباط لتعلُّم لغة الغُزاة. وقد ظهر ذلك فى كتابات مسيحية بالعربية فى القرون التالية .

وقد ظلت القبطية هى لغة الكلام والعبادة إلى حوالى القرن الـ١٣، حيث وضع علماء الأقباط قواميساً للكلمات القبطية وترجمتها بالعربية، ومنهم أولاد العسال، وأبو البركات ابن كبر ، الذين اشتهروا خلال حكم الفاطميين والأيوبيين.

وقد اقتصرت القبطية على الوجه القبلى، حيث ذكر الرحّالة الألمانى " فانسيب " (Vansleb) الذى زار مصر سنة ١٦٦٤م ، أنه رأى آخر قبطى يتكلم القبطية واسمه أنسطاسيوس، وإن كان بغض الرحّالة قد أشاروا بعد ذلك إلى أنهم قابلوا من يتكلم القبطية بطلاقة.

وقد قامت جماعة مدارس الأحد بالاهتمام بتعليم القبطية، ومصطلحاتها الكنسية، للأسر القبطية (كما نشطت المعاهد الدينية بنشرها، ولاسيما فى عهد قداسة البابا شنودة الثالث، أدام الله حياته).

- **الديانة المصرية القديمة :**

يميل المصرى – منذ أقدم العصور – إلى التديُّن، بحكم طبيعته وتربيته، وقد أمتد ذلك إلى العصرين المسيحى والإسلامى (وإلى الآن).

وقد وُجد تشابه بين العقائد القديمة والحديثة، مما ساعد على سرعة انتشار تعاليم المسيح فى مصر .

فأولاً، فكرة **وحدة الإله** ، لم تكن بعيدة عن ذهن المصرى ، الذى عاش " **ثورة التوحيد** " التى قادها الملك إخناتون (١٣٨٣ – ١٣٦٦ ق . م) فى الأسرة الـ ١٨ . ومع أنها كانت حادثة قديمة لكنها كانت مرحلة هامة فى الفكر الدينى المصرى .

كما كان لاهوت وناسوت المسيح معادلاً لأوزوريس[١] ، الذى كان إلهاً وإنساناً، وفى الواقع كان كل الفراعنة بشراً متألّهين .

وأما مبدأ التثليث فى الإيمان الجديد ، فقد كان له نظيره لدى قدماء المصريين ، عن طريق الثلاثى :. أوزوريس ، إيزيس ، حورس. وأن قيامة أوزوريس من الموت كانت مشابهة لقيامة السيد المسيح بعد آلامه وقبره . كما أن إيزيس وحورس يُذكرانا بالأم والطفل يسوع[٢]!

وكان التصوير القديم "لأم النور" (Madonna) هو أصدق تمثيل لرسم الأم إيزيس وهى تُرضِع طفلها حورس، وهو ما ساد فى الأيقونات القبطية القديمة. وأما قصة البشارة ، وحلول الروح القدس على أم النور ، والميلاد المعجزى للمسيح من العذراء مريم ، فلم تكن أموراً جديدة على العقل المصرى . إذ أن بقرة بكراً قد نفخ فيها إله الخلق (Puh) من روحه المقدسة ، فولدت الإله أبيس (Apis).

من الأمثلة الأخرى المعروفة أيضاً – على سبيل المثال – قصة الفرعون المصرى الأخير " حورمُحِب " ، الذى حبلت أمه به عن طريق روح الإله آمون، وُولِد من عذراء !! .

أما مسألة الحياة بعد الموت ، التى هى جزء هام فى التعليم المسيحى، كانت **هى نواة الفِكر المصرى، وهى حقاً عامل حيوى فى تطوّر الحضارة المصرية.**

وكانت قيامة الأموات – بالنسبة للمصرى القديم – هى عملية طبيعية ، تعود بها روح الميت (Ka) إلى جسد يشبه الجسد التى كانت تقُيم فيه . ولتحقيق مبدأ الخلود سعى المصريون إلى حِفظ أجسادهم سليمة، فاخترعوا فن التحنيط (embalm). وقد أتقنوه لدرجة لم تُعْرَف قبلهم ولا بعدهم . وسعوا أيضاً لإخفاء

(١، ٢) لا يمكن قبول تعبيرات المؤلف الخاصة عن هذه التشبيهات الغير سليمة.

المومياات عن اللصوص. وكذلك عمل مِثَال (تمثال) حتى إذا لم تجد الروح الجسد تحل فى التمثال الخاص بالميت .

ولذلك برَع المصريون فى فنون التصوير والنحت ، كما تفوقوا فى الهندسة المعمارية ، والأثاث الجنائزى ، والأهرام والمقابر والمعابد،التى كانت أعظم ما تكون ، وتقاوم عوامل الزمن .

وعلاوة على ذلك ، يبدو أن المصريين ربطوا بين الصليب وعلامة الحياة الأبدية :" عنخ " (Ankh) ، التى كان يمسكها الخالدون ـ كالآلهة والفراعنة ـ فى أيديهم ، كما بدت فى الآثار .

وكانت علامة " عنخ " على شكل صليب له قمة مستديرة (☥) ، والتى استخدمها المسيحيون ، منذ فجر المسيحية فى مصر ، ووضعوها على حفرياتهم ورسومهم ، ووسائل الإضاءة (المسارج الفخارية) والزخارف الحائطية والنسيج [١] .

وكان الصليب قد صار هو الرمز الحقيقى للمسيحية فى عهد قسطنطين الكبير ، ولكن من المؤكد أن علامة الحياة قد استخدمها الأقباط فى العصر المسيحى فى تاريخ مبكر .

ومن الفن الخاص بعمل الأيقونات ، اتخاذ رسم لحورس وهو يحارب شيطان الشر " ست " (Seth) ، لرسم القديس مارجرجس الرومانى وهو يحارب التنّين [٢] .

ولنشر الدين الجديد من خلال الترنيم ، استخدمت ألحان مصرية قديمة فى مديحة الشهيد القديس مارمينا (العجايبى) فى القرن الثالث . كما استعملت نفس النغمات القديمة لنفس الغرض .

---

(1) Ahmed Fakhry, The Necroplis of El-Bagawat (Cairo 1951) pp. 36-37.

(2)Scott-Moncrieff , Paganism & Christianity in Egypt (Cambridge 1913) pp. 137-40.

القديس مارمرقس الرسول مؤسس كنيسة الإسكندرية :

يذكر الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين فى سيرة القديس مرقس الرسـول ، أن والديه عاشا فى منطقة الخمس المدن الغربية (شمال شرق ليبيا) إلى أن أغار البربر على أسرته ، فذهبت إلى أورشليم ، حيث يُرَجح ولادة ابنهما هناك، بعد فترة قصيرة من ميلاد المسيح .

وقد تعلم مرقص اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ، وكانت أسرته مُتدَيِّنة جداً ، وأنه تعلم الإيمان المسيحى من خاله القديس برنابا(١) .

كما عرف السيد المسيح، الذى كان يزور بيته، مرات عديدة. وأنه أختاره كأحد التلاميذ السبعين . وفى داره (عُلّيَة صهيون) حل الروح القدس على التلاميذ والرسل. وهناك أنشئت أول كنيسة فى العالم .

وبذلك فإن مارمرقس هو أقرب شاهد لحياة الرب يسوع، مما أهله تماماً لكتابة إنجيله ، الذي نقل منه القديسان متي ولوقا ! والذي أول من أشار إليه "بابياس" (papias) أسقف هيرَابوليس في آسيا الصغرى، في القرن الأول (نحو ٦٠-١٣٠ م) ، والذي يُشير أنه أستقىَ معلوماته من القديس بطرس(٢).

والواقع أن مرقس العَالِم المُستتير ، كان يترجم للقديس بطرس الصياد البسيط (إلى اللاتينية) عندما كانا معاً فى روما(٣)، وإن كان باقي الرسل يعرفون

---

(١) راجع كتابنا " تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية" لمناقشة هذا الموضوع.

(٢) راجع كتاب قداسة البابا شنودة الثالث " عن مارمرقس " للرد على هذا الفِكر الكاثوليكى ، (وترجمتنا " قديسو مصر" Cheneau, Les Saints d'Egypte. I. p. 497. – طبعة المحبة) .

(3) Kamil Nakhla, p.86-92.

(ولكن تجدر الإشارة إلى أن الروح القدس قد علّم الرسل لغات عديدة) .

معلومات تفصيلية عن أقوال وأعمال السيد المسيح . وإنجيل مارمرقس يدل علي إنه شاهد عيان . وقد كتب باليونانية أو باللاتينية أو ربما كتَب بهما معاً .

ويذكر القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٧٠م) أن القديس مرقس كتبَه في الإسكندرية باليونانية ، وهناك رأى آخر بأنه كتبَه بعد شهادة الرسولين بطرس وبولس ، ولكن هذا الرأى مثار نقاش ، لأنه قيل إن إنجيله ظهر بعد صلب المسيح بإثني عشر عاماً (أى سنة ٤٥م) وأن شهادة القديسين تمت في عهد نيرون (٥٤-٦٨) وربما كتبَه سنة ٦٤م.

ومهما كان موعد كتابته ، فمن المؤكد أنه أحضره معه إلى الإسكندرية. وقد استفاد به أهلها، الذين أجادوا اليونانية . كما قيل إنه أُعدِت نسخة باللغة المصرية (القبطية) لأهل البلاد ، الذين لم يجيدوا اليونانية. وبشّر مارمرقس ، بدون كلل، مع القديس بولس وبرنابا في إنطاكية ، ثم عاد إلي أورشليم ، ثم أصطحب برنابا إلى قبرص (حتى تمت شهادته) وكان مع القديس بطرس في روما وإيطاليا، وكان الرسول يحبه ويدعوه " إبنه ".

ولكن أهم أعمال مارمرقس كانت فى أفريقيا. فقد عبَر البحر المتوسط أولاً – إلى سيرينيكا (Cyrenaica = Pentapolis) حيث كان يقيم والده فى الماضى. وكان يحتل هذا البلد (شرق ليبيا) الإغريق، والكثير من اليهود، الذين آمنوا على يديه بكثرة.

وبعدما قام بعدة معجزات وبذر الإيمان (فى ليبيا) ذهب إلى الإسكندرية عبر واحة سيوة إلى بابليون (مصر القديمة) ثم إلى العاصمة المصرية[1] الهامة، والتى كانت حصناً قوياً للوثنية، فكانت الخدمة بها شاقة.

(١) هناك رأى آخر بأنه سافر عن طريق البحر للإسكندرية مباشرة (راجع كتابنا عن الخمس المدن الغربية).

وهنا نواجه مشكلة موعد مجيئه لمصر. ويحدده البعض ما بين عـــامى ٤٨ م – ٦١ م [١] ، ولكن المؤكد إنه استشهد سنة ٦٨ م بعدما كسب كثير من المؤمنين.

وتُشير القصة إلى أنه لما دخل الإسكندرية من الباب الشرقى انقطـــع سـير حذائه، فمضى إلى إسكافى لإصلاحه، وبينما كان يصلحه دخل المخراز فى يــده فصرخ قائلاً :" (باليونانية) "ياالله الواحد" (Heis ho Theos) فشفا الرسول جرحه بمعجزة، وتكلم معه عن الإيمان المسيحى.

وكان **أنيانوس** (Anianus) الإسكافى أول مؤمنيه، وأول خلفائه (البطريــرك الثانى على الكرسى المرقسى الإسكندرى). وقد اعتمد مع أسرته وآخرين كثـيرين بعدما أخذه الإسكافى إلى بيته ، وأضافه عنده.

ولما نمت الخدمة، أُشيع أن جليلياً جاء إلى المدينة لتحطيم الأصنـــام، فثـار الرأى العام ضد مارمرقس. ولما اشتد الخطر عليه رســم "أنيــانوس" أســقفاً، ٣ كهنة، ٧ شمامسة ، للخدمة والأشراف على المؤمنين إذا ما حل به مكروه.

وبعد ذلك قام – كما يبدو – برحلتين. فسافر إلى روما حيث إلتقى بالقديسـين بطرس وبولس ، وترك العاصمة بعد استشــهادهما ســنـــة ٦٤م (والأصــح ٦٧م)، ثم خدم فى أكويليا قرب البندقية (Venice) قبل عودته للإسكندرية .

ولما وجد أن قطيعه قد تشدد فى الإيمان ، قرر أن يزور بنتابولس ، حيــث قضى عامين ، يقوم بالمعجزات ويرسم الأساقفة والكهنة.ويكســب الكثـير مــن المؤمنين فى ليبيا الشرقية.

ولما عاد إلى الإسكندرية، فرح عندما وجد أن المسيحيين قد تكاثروا ، حتــى أنهم استطاعوا أن يبنوا كنيسة كبرى ، فى ناحية بوكاليا (دار البقر) حيث كــانت الماشية ترعى على الشاطئ .

---

(١) أثبتنا فى بحثنا العلمى أنه جاء للإسكندرية عام ٥٦ م.

ولما انتشرت الإشاعات بأن المسيحيين يهددون الآلهة (الأوثـان) غضب الوثنيون ، ولما حل عيد القيامة سـنـة ٦٨م فى نفس يوم الاحتفال بسـيرابيس ، أجتمع الغوغاء فى السيرابيوم ، وهجموا على المسيحيين ، عندما كانوا يحتفلـون بالعيد فى بوكاليا .

وتم القبض على القديس مرقس، وجروهُ بحبل مربوط حول رقبتـه، فـى شوارع الإسكندرية ، وحبسوه ليلا . وفى صبيحة اليوم التالى تكرر نفس العمـل حتى أسلم الروح ، وكان جسده قدم تهرأ وتصفى دمه الطاهر . وكـانوا ينـوون حرق بقايا جسده ، ولكن هبت الرياح وسقطت الأمطار سيولاً، فأختفى الأشرار .

وحمل المؤمنون جسد القديس الشهيد ، ودفنوه فى قبر حفروه فى الصخـر ، تحت مذبح الكنيسة ، وفى عام ٨٢٨م تمت سرقة الجسد، ونُقِل إلـى البندقيـة ، حيث حملت المدينة اسم "جمهورية مارمرقس"[١] !! .

عصر الاضطهاد : (Persecution) .

بالنسبة للسلطات الرومانية الحاكمة بالإسكندرية ، فإن شـهادة مـارمرقس اعتبُرت من أعمال العُنف التى تمت بيـد الوثنييـن الثـائرين ، وأمـا للسـكان الإغريق، فقد كان مارمرقس بالنسبة لهم يهودى مكروه ، وأن شـيعته الجديـدة والغامضة، قد اعتبروها غير مقدسة وغير أخلاقية ، ومضادة للمجتمع والدولـة. وأن مؤسسها لا يحترم آلهة الإمبراطورية ، وبسببه حلت المصائب والمجاعـات والجفاف ، وأنه فرّق العائلات ، وأفسد الفضـائل الرومانيـة والعقـل اليونـاني (الفلسفة) .

ولم يتم فهم تعاليم المسيحية ، وطالبت الطبقات العليا بالقضاء عليها وتمـم القول بأن السكان هم الذين اضطهدوها. وصارت الدولة (الرومانية) هـى أداة

---

(1) Forster , Alexandria , (N .y. , 1961) PP. 86 – 87 .

التنفيذ ، وحتى الإمبراطور الفيلسوف العاقل مرقس أوريليـوس (١٦١ - ١٨٠ م) رأى ضرورة ممارسة سياسة الاضطهاد ضد المسيحيين فى أيامه.

وكان مجتمع المسيحيين فى الإسكندرية ــ قد ركن إلى العبادة فى الخفــاء . ولذلك فان مصادر تلك المرحلة قد صمتت عن ذكر حوادث هامة ضدهم .

وفى الواقع ، فان تاريخ البطاركة لم يسجل سوى قائمة برسامات للبطاركة العشرة الذين تلوا مارمرقس (٦٨ـــ ١٨٨م)، ولا يقدم أية تفاصيل عنهم ، حتــى البطريرك ديمتريوس الأول (١٨٨ـــ٢٣٠م) المعــاصر للعلامــة أوريجــانوس، والذى شهد عهد أول اضطهاد ترعاه الدولة ضد المسيحيين المصريين .

وكان الإمبراطور سبتميوس سافيروس (١٩٣ـــ ٢١١م) قد أصدر قــراراً بوقف كل تحول من الوثنية إلى المسيحية مهما كانت تكاليفه . أما قـــراره عــام ٢٠٢م فقد تم تنفيذه على الكل ، بدون تمييز ، سواء على الإغريق أو اليـــهود أو المصريين .

وتم إغلاق مدرسة الإسكندرية المســيحية ، ورغــم ذلــك كــان تلاميذهــا يجتمعون للدراسة فى أماكن سرية .

وقد تم استبعاد المسيحيين من ميزة عدم تقديـــم اليـــهود للبخــور للتمثــال الإمبراطورى . وكان كل المسيحيين الذين امتنعوا عن تقديم البخــور يجتمعــون من كل البلاد وُينقلون إلى الإسكندرية ، حيث ينتظرَهم مصير مُرعِب .

فالبعض قُطعت رؤوسهم ، وآخرون تم إلقائهم للأسود ، وغيرهم تم إحراقهم وهم أحياء ، والكل ــ بصفة عامة ــ كانوا عُرضَة لعذاب شديد ، دون اعتبـــار للسن أو للجنس (ذكر أو أنثى) .

وأستشهد والد أوريجانوس فى تلك المذبحة ، أما هو فقد أنقذته أمه بإخفـــاء ملابسه عنه ، لمنعه من مقابلة المضطهدين للمسيحيين .

وتبع ذلك فترة هدوء قصيرة ، حيث تولـــى إمــبراطور ، لـــم يكـــن يعبـــأ بالاختلافات الدينية ، ومع ذلك استمر الحاكم الرومانى فى تعذيب المؤمنين .

وأما الموجة الكثيفة من الاضطهاد الرومانى ــ بالذات فى مصرــ فكـــانت فى عهد " ديسيوس " القصير الحُكم (٢٤٩ــ ٢٥١م) . فقد أصدر قراراً عـــام ٢٥٠م يدعو كل مواطن بتقديم شهادة معتمدة (libellus) من الحاكم المحلى ، تشـــهد بأنه قدم ذبيحة وسكب الخمر إكراما للآلهة (Oblation) . و الذين رفضوا تعرضـــوا للعذاب بدون رحمة . فاستشهد آلاف الشهداء فى عدة مدن وقرى ، علاوة علـــى الإسكندرية واستمر الاضطهاد فى عـــهد خليفتــه ڤاليريــان (٢٥٢ــ ٢٦٠) . وبعض المسيحيين (بالاسم) ارتدوا عن الإيمان ، لإنقاذ حياتهم (مـــن عـــذاب مؤقت بالدنيا ، وانتظاراً لعذاب أبدى) !!.

وأما البابا ديونسيوس الإسكندرى (٢٤٦ــ ٢٦٤) الذى هرب كل الوقـــت (خلال الاضطهاد) قد استخدم سياسة للتوبْة (بعد رجوعهم للإيمان) .

وفى عهد جالينوس (٢٥٣ــ ٢٦٨) بدأ المسيحيون يشعرون بالراحة (عام ٢٦٢) حيث أنه نظراً لمتاعبه ، أصدر قراراً بالعفْو الدينى ، وتم السماح بفتـــح الكنائس ، وتم استرداد أملاك المسيحيين المُستولَى عليها من السلطات.وبدأوا فـــى بناء كنائس فخمة .

ولكن تغيرت الأحوال فى عهد " دقلديانوس " (٢٨٤ــ ٣٠٥م) حتى بلغـــت قمة الاضطهاد على الأقباط .

وشهادة للحق ، فقد بدأ دقلديانوس حُكمَه بشهامة غير عادية .

وقام بتحصين أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية من هجمات قُطاع الطـــرق (Blemyes) الآتين من النوبة .

ولما ثار الضابط الرومانى لوسيوس وأعلن نفسه إمبراطوراً فى الإســـكندرية جاء دقلديانوس بنفسه. واستولى على المدينة، بعد حصـــار دام ٨ أشـــهر ، بعـــد

تدمير أجزاء منها ، وحلت بها المجاعة والأمراض ، إلى أن سمح دقلديانوس بإعطاء الإسكندرية جزءاً من القمح المُصدر لروما ، وقام أهلها بتخليد ذكراه بإقامة عمود من الجرانيت الأحمر ، ووضعوا فوق قمته تمثالاً من البرونز للإمبراطور ، ولا يزال العمود موجوداً هناك (عمود السوارى) بينما أختفى التمثال .

وأراد دقلديانوس أن يزيد من قبضته على الولايات ، ورأى أن المسيحية هى العقبة الخطيرة فى سبيل تحقيق أهدافه . وفى سنه ٣٠٢م قام بطرد كل جندى فى الجيش ، لا يقدم الذبائح للأوثان ، وفى السنة التالية أصدر أكثر من قرار ، بهدم الكنائس وحرق الكتب المقدسة والاستيلاء على أملاك المسيحيين ، وطرد الموظفين منهم، من أعمال الحكومة،فى كل الإمبراطورية، ومنع الاجتماعات الدينية ، وإعدام المخالف .

ولما رفض المسيحيون الكثيرون، لم يشفق عليهم ، مما أدى إلى وجود موجة شديدة من الاضطهاد والشهادة . وقد اختلفت درجة كثافة اضطهاده من بلد إلى بلد ، ولكن مصر كانت أشد البلاد اضطهاداً ، حيث تعرض الأقباط لعذابات وحشية ، من كل الطبقات والأجناس . وإن كان من الصعب قبول تقرير الكنيسة بأن الشهداء الأقباط كانوا ما بين١٤٤،٠٠٠ – ٨٠٠،٠٠٠ شهيد !!

واستمر الاضطهاد فى عهد مكسيميانوس ديا Daia (٣٠٥ـ ٣١٣) الذى خلَف دقلديانوس فى حكم الشرق . وقيل إن المذابح استمرت عشر سنوات ، وكانت حصيلتها ضخمة جداً، من الشهداء المصريين .

وكان من بين شهداء مكسيميانوس البطريرك السابع عشر " بطرس الأول " (٣٠٢ـ ٣١١) الذى حمَل اسم " خاتم الشهداء " .

ومن الصعب حصر أعداد الشهداء فى عهده . ويضم السنكسار القبطى وغيره من سير الشهداء نماذجا منهم . ومن أشهرهم القديسة الشهيدة " صوفيا " ،

وهى من مواطنى ممفيس (البدرشين) . واستشهدت فى عـــهد أومـــانيوس البابـــا السابع (Eumenios) (١٢٩ــ ١٥١م) والمعاصر للإمبراطورين هدريـــان (١١٧ــ ١٣٨م) وأنطونيوس بيوس (١٣٨ــ ١٦١م) . وتم نقل جسدها فيما بعـــد إلـــى القسطنطينية ، فى عـــهد الإمـــبراطور قســـطنطين الكبـــير (٣١٣ــ ٣٣٧م). وكُرِسَت لها الكنيسة المسماة باسمها (أجيا صوفيا) .

والقديسة " دميانة " وهى ابنة حاكم شمال الدلتا ، التى انعزلـــت فـــى ديـــر (Nunnery) مع أربعين عذراء ، وكلهن نلن إكليل الشهادة بيد دقلديانوس الكافر .

أما القديسة كاترينة فقد استشهدت فى سن الثامنة عشرة بيد مكسيميانوس سـنة ٣٠٧م ، ولا يزال ديرها بسيناء يحمل اسمها .

والقديس مارجرجس (الرومانى) القائد العظيم ، كان من الراجح أنـــه مـــن عائلة عظيمة فى كبادوكية بآسيا الصغرى ، وقد تحدى دقلديانوس واستشهد علـــى يديه ، ومن الممكن أنه دُفن بفلسطين ، وقيل إن أعضاءه قد أُحضرت إلى مصـــر بمعرفة البابا غبريال الثانى (١١٣١ــ ١١٤٥ م) .

وأما القائد مرقوريوس ــ الشهير بأبى سيفين ــ فقـــد استشـــهد فـــى عـــهد ديسيوس سنه ٢٥٠م.وتم دفنه بفلسطين ، وقام بابا قبطى بنقل أعضائـــه ــ إلـــى مصر القديمة ــ فى القرن ١٥م ، حيث لا تزال توجد كنيســـة وديـــر للراهبـــات يحمل اسمه هناك .

ونظراً لعُمق الشهادة ــ فى عهد دقلديانوس ــ على حيـــاة الأقبـــاط.لذلـــك قرروا اعتبار أول عهده (٢٨٤م) بداية للتقويم القبطى (الشهداء)Anno Martyrii، الذى أصبح بالنسبة لهم مثل التقويـــم الميـــلادى (المســـيحى) Anno Domini ، واستمدوا الشهور من السنة الفرعونية القديمة ، وكان فلاحـــو العصـــر القبطـــى يستخدمون هذا التقويم ، وكذلك لا يزال يستخدمه الفلاحون المسلمون إلـــى الآن فى مصر .

وبعد دقلديانوس ومكسيميانوس خـف مـدّ الاضطـهاد ، إلـى أن أصـدر الإمبراطور قسطنطين الكبير قراره فى ميلانو سنه ٣١٣ ، بعدما صار الحـاكم الوحيد للإمبراطورية الرومانية ، وساعد على انتشار السماح الدينى .

وبعد سنه ٣٢٣م ، انقلب الوضع على الوثنية ، حيث تم منع كل ممارستها ، على حساب المسيحية ، التى أصبحت الديانة الرسمية للدولة ، وبذلك جـاء دور اضطهاد الأكثرية المسيحية للأقلية الوثنية(١).

وقد قاد البابا ثاؤفيلس (٣٨٥ـ ٤١٢م) الحملة ضد معابد سيرابيس ، فقـد تهدم معبد كانوبس Canopus (أبى قير) سـنه ٣٨٩م • والمعبـد الرئيسـى فـى العاصمة (الإسكندرية) تم تدميره سنه ٤١١م ، وبسقوطه تم تدمير جزء كبير مـن المكتبة البطلمية (٢).

وقامت جحافل من الرهبـان المسـيحيين ـ المعسـكرين بالإسـكندرية ـ بالهجوم على باقى الوثنيين، كما اعترضوا سبيل "هيباشيا" (Hypatia) آخر أسـاتذة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وكانت عائدة من إلقاء محاضرة بالمتحف. وجرّوهـا إلى مبنى قيصرية (Caesareum) ومكانه كنيسة الآن، ورجموها حتى الموت(٣) !!.

---

(١) ويبدو لنا أن تعبير الكاتب هنا ليس دقيقاً تماماً . والأدق أن الكنيسة المصرية سـعت إلـى تحويل المعابد إلى كنائس ، لأنها كانت فى حاجة إليها ، وللقضاء على بقايا الوثنية وطقوسـها وكهنتها ، ولم يكن هناك أى اضطهاد للوثنيين أنفسهم .

(٢) وقد أثبتت الأبحاث الكثيرة عدم صحة هذا الرأى ، بل أنها دُمرّت فى بداية الغزو العربـى فى القرن ٧ م.

(٣) هذا الموضوع تُثار حوله مناقشات عديدة، والبعض يتهمون البابا ثاؤفيلس بأنه كان السـبب الرئيسى فى قتلها، وآخرون ينسبون هذا العمل إلى الغوغاء. ومن المعروف أنها كانت عالمـة فى الفلسفة والرياضيات ، وعلمت الوثنيين والمسـيحيين. ومـن تلاميذهـا الأسـقف الليبـى "سينسيوس" (Synesius) . راجع كتابنا عن سيرته. وكذلك راجع:-

+ Socrates. Eccles. History . vii, 15 .

ثم جاء الوقت الذى اضطهد فيه مسيحيون غيرهم من المسيحيين ، بعد مجمع خلقيدونية المشئوم (٤٥١م) ، حيث حدث غيرة غير مقدسة ضد آباء الكنيسة القبطية ، واللاهوتيين العظَام فى مدرسة الإسكندرية ، وظهرت الهرطقات . ودافع الأقباط بدون خوف عن الإيمان الأرثوذكسى (السليم) ، ومضوا إلى الصحارى والمغارات ، ونال الكثيرون الشهادة ؛ لصراعهم مع المسيحيين المتمسكين بمبادئ عقائدية غير سليمة عن طبيعة المسيح (dogmatic, or doctrinal) .

مدرسة الإسكندرية المرقسية اللاهوتية :

اعتمدت على التعليم القائم على أسلوب السؤال والجواب (catechism) وكانت أهم معهد لاهوتى فى فجر المسيحية . وأصبح علماؤها مسئولين عن وضع أُسس اللاهوت المسيحى ، وأهم قواعد التفسير ، للكتاب المقدس (exegesis) .

ومن الخطأ الاعتقاد بأنها اقتصرَت على مواد اللاهوت ، إذ كانت تُدرس بها العلوم الطبيعية والإنسانية ، علاوة على الدين بالذات. وأما رأى علماء الكنيسة القبطية المعاصرة عن أن مؤسسها هو مارمرقس فهو بغير دليل(١) ، وذلك لأن أشهر علمائها الأوائل هو " بنتينوس " (Pantaenus) الذى مات سنة ١٩٠م ، ومنذ ذلك الوقت صارت نِداً قوياً للمدرسة الوثنية فى المتحف الإسكندرى (Pagan Museion) إلى أن انقرَضت باغتيال الأستاذة هيباشيا سنه ٤١٥م(٢) .

---

(١) هذا هو الرأى الغربى السائد، ولكن التقليد القبطى القديم يُرجعها للقرن الأول ، كما أنه قد سبق بنتينوس كثير من رؤسائها من البطاركة الأقباط الأوائل من خلفاء مارمرقس ومعاصريه، وبالتالى لم تتأسس فى عهد بنتينوس بل قبله بقرن كامل على الأقل.

(٢) علماً بأن البابا ثاوفيلس تنيَّح سنة ٤١٢ م .

كما أن معظم وأشهر قادة كنيسة الإسكندرية قد تعلقوا بها ، سواء كمدرسين أو طلاب علم ، وأنهم أسهموا فى تقديم علوم اللاهوت ، ووضع أُسسها.

وأول من يظهر على السطح ، رئيس المدرسة " بنتينوس " ، الذى يرجح البعض أنه كان من جزيرة صقلية (Sicily) ، مع أنه لا يوجد أى دليل على أصله . وإن كان الأقباط يصفونه بأنه مواطن قبطى ، لأنه غيرته فى الكتابة بالقبطية جعلته يستخدم الأبجدية اليونانية مع سبعة أحرف مصرية قديمة للأبجدية القبطية ، التى لا تزال الكتابة بها للآن .

وقد ضاعت مؤلفاته التفسيرية. ولجلال خدمته اختاره البابا ديمتريوس الأول للذهاب إلى الهند للخدمة بها .

وقد تم اختيار مرشحه " اكليمنضس السكندرى " (Clement) ليكون مديراً للمدرسة خلفه ، وكان من أشهر تلاميذه ، ويرجح أنه كان من أثينا ، ووُلِد نحو سنه ١٥٠م من أبوين وثنيين.ومات نحو سنه ٢١٥م ، وصار مديراً للمدرسة قبل عام ١٩٠م ، فى أثناء اضطهاد سافيروس .

وقد درس " الغنوسية " (Gnosticism) ، التى يبدو أنه كان لها أتباع كثيرون فى أيامه . وتُنادِى بأن المعرفة الدينية (gnosis) هى أساس الكمال المسيحى ومثل سقراط ، اعتبر اكليمنضس الجهل (الدينى) أردأ من الخطية .

وقد طوَّر فكرة أن الفلسفة أساسها دينى ٠وكان هدفه أن يُثبت أن الفلسفة لا تتعارض مع الكتب المقدسة وتعاليم الكنيسة ، وأن الدارسين لا يجب تخويفهم من متابعة التعليم الإغريقى (الفلسفة والمنطق) .

ولذلك نجد أن اكليمنضس يتحمس لتدريس الفلسفة جنباً إلى جنب مع اللاهوت (Theology) .

وقد كتب كثيراً ، ولكن معظم كتاباته قد ضاعت ، ومن أشـــهر كتبـــه عـــن الحياة المسيحية والأخلاق ، وقد حاول أن يعقد صُلحاً بيـــن الثقافـــة الإغريقيـــة والمسيحية . وهو يُعد بحق أحد أوائل الرسل الداعيـــن لليبراليـــة (التحرريّـــة) المسيحية (liberalism) .

وقد تلاه " **أوريجانوس** " (Origen) نحو عام ٢١٥م ، وهو قبطى صميـــم . وقد وُلِدِ من والدين مصريين مسيحيين غيورين ، نحو عام ١٨٥م، ســـواء فـــى الإسكندرية ، أو فى مكان آخر بمصر ، ومات سنه ٢٥٤م . وكـــان مـــن ألمـــع تلاميذ اكليمنضس . وقد أستشهد أبوه بسبب أيمانه المسيحى، وكان أوريجـــانوس فى شبابه ميالا للزُهد بطبيعته. وقام بتنفيذ كلمات الكتاب المقدس حرفياً، حتى أنـــه خصَى نفسه (eunuch) الأمر الذى أوقعه فى المشاكل مـــع البابـــا ديمـــتريوس الأول.

وقد درس بعمق على يد أكليمنضس وتشرب من روحه . كما درس الفلســـفة والأدب الوثنى بيد أمونيوس السـّقاص (Saccas) [١٧٤ــ ٢٤٢] والمؤســـس الحقيقى للفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

كما سافر إلى عدة جهات. وتعرَّف على أشـــهر علمـــاء زمانـــه، وامتـــدت رحلاته من بلاد العرب وسوريا إلى اليونان وروما، حيث حضر عظات القديـــس هيبوليتوس، وقد صار أوريجانوس أعظم علماء ومفسرِى الكتاب المقـــدس فـــى العالم .

وكانت حصيلة أعماله ضخمة ، فلم يوجد أى سفر كتابى إلا وقـــام بشـــرحه بالتفصيل. وضم كتابة " السُداسى" (Hexapella) نصوصاً للعهد القديم فـــى ســـتة أعمدة متوازية، من النصوص اليونانية والعبرية، استفاد به القديس چـــيروم فـــى قيصرية (بفلسطين)، كما ترجم روفينوس كتابه (Scbolia) إلى اللاتينية، ولا توجد منه سوى أجزاء قليلة . كما تُعد عظاته نموذجاً للتبشير المسيحى القديم.

أما بالنسبة للاهوت ، فإن أهم أعماله فيه بعنوان " عن المبادئ" (De Principiis) وفيه وضع أُسس العقيدة المسيحية فى أربعه كتب : عن الله وعالم السماء ، عن الإنسان والمادة ، عن حرية الإرادة ونتائجها ، وعن الكتب المقدسة (Scriptures) .

وقد كتب دفاعه عن المسيحية بعنوان : " ضد كلسس " (Contra Celsum) وهو فليسوف وثنى فى القرن الثانى . كما كتب عن " البحث عن الاستشهاد " (Exhortation) سنه ٢٥٥م خلال اضطهاد الإمبراطور مكسيميانوس .

كما أن بحثه المكثف " عن الصلاة " (Prayer) يدل على مدى الفهم لروح الصلاة فى الكنيسة الأولى . (١)

وقد بدأت متاعبه تظهر من جديد (٢) ، خلال زيارته الأولى لفلسطين عندما دعاه أسقفا إيليا (Aelia = أورشليم) وقيصرية للوعظ فى إيبارشيتيهما .ولم يكن ـ النظام الطقسى الكنسى الإسكندرى ـ يسمح لعلمانى (Layman) أن يعظ فى وجود أساقفة . ولم يقبل ديمتريوس هذه المبادرة الغير منضبطة ، حتى ولو كانت لصالح شخص عظيم مثل أوريجانوس .

فاستدعاه ديمتريوس إلى الإسكندرية ، نحو عام ٢١٨م . وظل أوريجانوس منشغلاً بالكتابة والتعليم لمدة ١٢عاماً ، ولكن رياح الشر زادت ضده ، وعُقِدَت مجامع محلية (Synods) لمناقشة ونقد سيرته وكتاباته .

وأخيراً جاءت ساعة الخلاص، عندما هرب عائداً إلى فلسطين سنه ٢٣٠م ، حيث تم تكريمه ورسامته للكهنوت. وقيل إنه قد رُقِّيَ إلى درجة الأسقفية . وكما هو متوقع فقد أسرَع البابا ديمريوس وألغى هذه الرسامة ، وحرم خصمه الذى لا ينثنى ، كما طرده من التدريس بالمدرسة اللاهوتية المرقسية .

---

(١) أمتاز أوريجانوس بالتفسير الرمزى ، مما خلق مجادلات كثيرة ، سببت مشاكل عديدة .

(٢) حيث سبق أنه عانى من الاضطهاد والحبس ، على يد الرومان فى الإسكندرية .

وصار أوريجانوس منفياً فى قيصرية (بفلسطين) ، حيث أقام مدرسة جديدة، وانتظم بها تلاميذ نابهون ، ومنهم القديس غريغوريوس صانع العجائب (Thaumaturgus) أسقف قيصرية الجديدة فى بنطس (بآسيا الصغرى) .

وقد دخل في خلافات حول آرائه اللاهوتية بداخل وخارج فلسطين ، ولكن عظمته تجلت فيما أنجزه من كتابات فى خلوته بقيصرية .

وخلال اضطهاد ديسيوس سنه ٢٥٠م ، عانى الأستاذ بشدة ، ولكنه احتمل بصبر ، وقد تم سجنه وتعذيبه . ومع انه استرد حريته ، لكن بدأت صحته تتدهور . ومات فى مدينة صور سنه ٢٥٥م ، فى سن التاسعة والستين .

وكان أوريجانوس كاتباً خصباً وعميقاً (قيل إنه كتب نحو ٦٠٠٠ كتاب) وكان مشهوراً فى حياته وبعد مماته ، وتعرَّضت آراؤه للقبول وللرفض من البعض . ومن الذين دافعوا عنه القديس بمفيليوس Pamaphglius (الشهيد سنة ٢٠٩م) ، والقديس البابا أثناسيوس الرسولى ، والقديس باسيليوس ، والقديس غريغوريوس النزينزى ، والقديس ديديموس الضرير، وغيرهم .

وفى المعسكر المعادى له ، القديس إبيفانيوس أسقف سلاميس بقبرص ، والقديس چيروم ، والبابا ثيؤفيلس الإسكندرى ، الذى ثار ضد أفكار أوريجانوس، فى أواخر أيامه .

وقد عُقدِت عدة مجامع لمناقشة آراء أوريجانوس ، ومنها مجمع سنة ٥٤٢م، ومجمع سنة ٥٥٣م بالقسطنطينية . وحُرِّمَت آرَاؤه !!.

وبعد فرار أوريجانوس لفلسطين ، وطرده من مدرسة الإسكندرية ، صارت تحت الإشراف المباشر لسلطة الكنيسة . وقد تولى إدارتها " هيراكلاس " (Heraclas) تلميذه السابق ومساعده ، والذى تولى فيما بعد الأسقفية (البطريركية) من ٢٣٠ــ ٢٤٦م .

وكان من أول أعماله رفع الحَرم الكنسي عن أوريجانوس.وحثه على العودة إلى الإسكندرية ، (ولكن بدون جدوى) . وكانت أهم أعماله زيادة عدد الأساقفة المحليين العشرين .

وأراد رجال الكهنوت أن يميزونه عن باقى الأساقفة فأسموه "**بابا**" ، ولو كان ذلك صحيحاً ، لكان هو أول رجل دين فى المسيحية يحمل هذا اللقب ، فى بداية القرن الثالث الميلادى ، وقبل أن تعرفه روما ، بوقتٍ طويل [١].

وكان مدير المدرسة التالى من مشاهير تلاميذ أوريجانوس هو القديس ديونيسيوس الإسكندرى الكبير . وشغل هذا المنصب إلى أن صار بطريركاً (٢٤٦ــ ٢٦٤ م) .

وكان عصره مليئاً بالمتاعب ، ففى عام ٢٥٠م دفع اضطهاد الإمبراطور ديسيوس البطريرك ديونيسيوس إلى مخبأ سرى ، مع أنه سبق القبض عليه وهرب . وفى عام ٢٥٧م تعرض لاضطهاد ڤاليريان ، كما تعرّضت البلاد لغزوات البربر .

وقام الوالى الرومانى أميليانوس (Aemilianas) بإعلان نفسه إمبراطوراً فى الإسكندرية. وقامت حرب مدنّية ، وانتهت بالقبض على هذا الثائر، وأُرسِل مُقيداً بالسلاسل إلى روما ، وقد خربت الحرب المدينة وأضرّت بالسكان ، كما عانت من المجاعة. والطاعون كان على الأبواب !!.

وقد واجه ديونيسيوس مشكلة المرتدين عن الإيمان (Apostates) وكان حكيماً فى إعادتهم إلى الكنيسة، وفوق ذلك منع إعادة عماد الهراطقة العائدين للإيمان.

---

(1) Cfr., Lobanca, " Del nome Papa nelle Chiese Cristiane di Oriente ed Occidente (Roma 1899).
+ Cross, "Pope", The Oxford Dict. (London 1957).
+ Iris El-Masry, ascribes, this fact to Sa'id ibn Batriq (10-th century)
+ Worrell, Short Account of Copts, p.17, uses the term "pope" in relation to Alexandras , at the Council of Nicaea (325).

ومن المدهش أنه وجد متسعاً من الوقت لتأليف عدداً من الكتب اللاهوتيـــة ، أثبتت أنه يحمل عقلاً واعياً. وقــد اتهمـــه ســـمّيه أســـقف رومـــا (ديونســـيوس الرومانى)، بأنه دعا إلى مبدأ ثلاثة آلهة (Tritheism) [وليس ثلاثة أقانيم] . وقد دافع عنه البابا أثناسيوس، والقديس باسيليوس. كما أنه بالنسبة للثـــالوث القـــدوس (Trinity) فإنه قد رفض هرطقة بولس السيمســـــاطى (Samosata) بطريـــرك إنطاكية الثرى ووكيل الملكة زنوبيا فى بالميرا (فتم محاكمته فى سوريا وحرمه).

وبعد ذلك ، كلف البابا أثناسيوس الرسولى القديس ديديموس الضرير (مـــن ٣١٥ـــ ٣٩٨م) برئاسة مدرسة الإسكندرية. وقـــد عـــاش فـــى وقـــت زوابـــع الأريوسيين ومجمع نيقية (٣٢٥م) . وكان من بين تلاميذه القديسين غريغوريـوس النزينزى وچيروم والمؤرخ روفينوس الرومانى .

وكان مؤلفاً عبقرياً ، ولكن معظم كتاباته فُقدت للأسف الشديد .

وقد قيل إن المقالة التى تحمل " ضد أريوس وسابليوس " ، المحفوظة باســم غريغوريوس النيصى ، قد قام ديديموس بتمليتها له . وقد اهتم بفاقدى البَصـــر — وكان هو نفسه قد فقَدَه – فى سن الرابعة – واخترع له نظاماً للكتابـــة بحـــروف بارزة (قبل برايل بعدة قرون) .

وبعد ديديموس ندخل فترة مظلمة فى تاريخ مدرسة الإسكندرية ، التى لعبـت دوراً هاماً فى تحديد مبادئ الإيمان واللاهوت، فى تلك السنوات ، ثم بدأ الحمـلس والمعرفة الدينية يقلان ، باختفاء ضوء هذا المعهد الدينى العظيم (١) .

---

(١) ومن أشهر علمائها ومديرها، فى القرن الثالث:**تيوغنوسطس**(**Theognostos**) مـــن نحـــو ٢٦٢-٢٨٢ م ، وتلاه **بييريوس** (Peirius) المشهور بزُهدِه المـــادى وميلـــه لتعليـــم الفلســـفة بالمدرسة، وبطرس (نحو ٣٠٠م) ، وهيزكيوس (Hesychius) فى القرن التالى .
(Cfr. Qusten Patrology . II. 109-18. III , 85-100).

قديسون وهراطقة : (Heretics)

عصر أثناسيوس وكيرلس الاول (عمود الدين) :

كان حكم قسطنطين الكبير ، عهد انتصار للمسيحية على الوثنية ، وانقــلاب سياسة الدولة من اضطهاد الكنيسة إلى تشجيعها على نشر المسيحية بين الوثنيين، ماعدا فترة مؤقتة خلال حكم الإمبراطور البيزنطى يوليانوس الجـاحد (المرتـد للوثنية) Apostate (٣٢٢ــ ٣٦٣م) .

وبدأت الوثنية تفقد أنفاسها الأخيرة . وأما بالنسبة لولاية مصر فقد كـان رد الفعل الذى أثاره يوليانوس المرتد على الأقباط ، هو ازدياد الثورة والعنف هناك.

وقام رهبان مريوط وتتريا بحملة ضد بقايا عبادة سرابيس فى الإسـكندرية ، كما قام القديس أنبا شنودة رئيس المتوحدين فـى أخيـم (Panopolis) بحمـلات لاقتلاع الوثنية من طيبة (مصر العليا) أو تدمير،أو تحويـل المعـابد المصريـة الوثنية القديمة إلى كنائس مسيحية .

وقد ظهرت مشاكل لاهوتية وعانت منها الكنيسة ، وخاصة أنها بـدأت مـن هراطقة مسيحيين، ومتعمقين فى الدين، وبذلك دخلنا عصر القديسين والهراطقة .

وقد ظهرت هرطقتان ــ فى تتابع ــ فى مصر ، ويحتاجان منا إلى تلخيـص آرائهما وتحليلها . وإحداهما هـى " الغنوسـية " (Gnosticism) ، التـى ثبتـت جذورها فى القرن الثانى . والثانية هى " الأريوسية " (Arianism) التى أفقـدت السلام فى مصر وفى كل الإمبراطورية فى القرن الرابع .

أما بداية الغنوسية المصرية [١] ، فقد كانت فى الأصل مرتبطة بـإثنين مـن المُعلمين فى القرن الثانى بالإسكندرية ، يسميان : ڤالنتيانوس وباسيليدس . وقـد

---

(١) وهى من الكلمة اليونانية (genosis) أى "**معرفة**" (knowledge).

ألفًا عقيدة تجمع بين مبادئ وثنية ســابقة علــى المســيحية، ومحاولــة ربطــها بمصطلحات من الكتاب المقدس، وهو نظام سادته الرمزية (Symbolism)، فــي مجتمع لا تزال الوثنية والسحر المصرى القديم فى ذاكــرة الشــعب، فتطــورت الغنوسية إلى نوع من العبادة السرية، ذات خصائص غامضــة. ورأت التعــاليم الغنوسية أن المسيح قد ظهر بالروح، ولم يكن له جسد مادى ملموس، وأنــه تــم إنقاذه بمعجزة من الصلب، أو أن يهوذا الاسخريوطى، أو سمعان القرينى، همــا اللذان صُلبا بدلاً منه، وهى نفس فكرة هرطقة انتشرت فى فترة أسبق قليلاً مــن الغنوسية (فى بداية القرن الثانى) وعُرِفَت باسم " الدوســـطية " (Docetism) وهى تُشبه نفس ما ورَد فى القرآن الكريم، عن المسيح، ويؤمن به الإسلام (١).

وقد تم حرم كلتا الهرطقتين. وقد هاجم القديس أغناطيوس الانطاكى نظريــة الظهور الخيالى للمسيح (نحو ٣٥ــ ١٠٧م).

كما تعرَضت الغنوسية للنقد عن طريق القديــس إيرينــاوس أســقف ليــون (١٣٠ــ ٢٠٠م) وترتليانوس (١٦٠ــ٢٢٠م) فى قرطجنة ، والعــالم اللاهوتــى هيبوليتوس الرومانى (١٧٠ــ ٢٣٦م) .

وأما فى مصر ، فيبدو أن الغنوسية قد بقيت بعض الوقـــت فــى مصــر ، والتحمت بالهرطقة المانوية ، التى زعمت وجود إلهين (للخير والشر) .

وقد تم اكتشاف الكتب السرية (البرديات) الخاصة بالغنوســيين المصريــين قرب نجع حمادى (Chenoboskion) بقنا ، وهى ترجمة قبطية من القرن الرابــع للأصول اليونانية من القرن الثانى. وتضم مجموعـــة مــن الكتــب الأبوكريفــا

+ Cfr., **Grant,** Gnosticism and Early Christianity (New York, 1959).
+ **Doresse,** An Introd. to the Gnostic Coptic manuscripts, discovered at Chenoboskion (Nag-Hammadi) and The Gospel According to Thomas (New York ,1960).

(1) Surah IV, 156.

(الغير معترف بها فى الكنيسة) من الكتب الدينية (وتشمل ٤٩ نصا بالقبطية ، فى ١٣ مجلدا، وهى محفوظة فى المتحف القبطى بالقاهرة [١].

وأعقب إختفاء الغنوسية ظهور البدعة الأريوسية،التى استمرت معركتها أكثر من نصف قرن . وتتعلق بمسألة وحدة الثالوث القدوس ، والعلاقة بين المسيح ابن اله والآب ، ومكان الروح القدس فى الذات الإلهة .

ووجد المؤمنون أنفسهم مُتفرقين بين مدرستين للفكر المسيحى . فبينما كان فريق يتبع البابا ألكسندروس المصرى ، أو بالأكثر رأى القديس أثناسيوس،من أن الابن مساوٍ للآب فى الجوهر (Homoousios) وبين فريق آخر أخطر وأكبر وافق على الرأى الأريوسى الهرطوقى بأن الابن مُشابه للآب (Homoiousios)، أى أنه يزعم أنه كان الإبن من أصل اللاهوت، لكنه مشابه له فقط فى الجوهر (Essence) . ومولده من الآب ، كأداة لخلق العالم، وبالتالى ليس مساوٍ له فى الأزلية (eternity).[٢]

ورغم أن اندلاع المناقشات الحادة – بصفة عامة – قد بدأ فى أيام البابا أسكندر (المتنح عام ٣٢٨ م)، إلا أن بطلى الدراما هما الهرطوقى أريوس Arius (نحو ٢٥٠-٣٣٦م) وأثناسيوس (نحو عام ٢٩٦-٣٧٣م)، والأخير كان سكرتير البابا المسن والقوة الدافعة وراءه، إلى أن خلفه (على الكرسى المرقسى) سنة ٣٢٨ م .

وكانا كلاهما لاهوتيين عالمين وناسكين، وشخصيتين لا تشوبهما شائبة. مع حماسة وتصميم شديد، ومقدرة غير عادية فى الوعظ .وربما كان أريوس ليبى

---

(1) Doresse, Ibid. pp. 141-5.

(2) Cfr., Nicene & Post-Nicene Fathers Library.

+ Hermant, La vie da Saint Athanase , 2 Vols. Paris 1671-79.

المولد، وقد تعلّم فى المدرسة اللاهوتية الإنطاكيـــة تحـــت إشـــراف لوســـيان[1] Lucian (نحو عام٣١٢) وتنـــــاول المشـــكلة مـــن الزاويـــة الجدليـــة الحـــادة .(dialectic)

بينما كان أثناسيوس إســـكندرى الموطـــن، ودرس بمدرســـة الإســـكندرية اللاهوتية (التى كانت تُعلّم بطريقة السؤال والجواب = Catechetical) وقـــد تربّى على النظرة الصوفية (الباطنية العميقة) mystic لأمور الإيمـــان، بينمـــا استمد أريوس أفكاره من عناصر إغريقية (فلسفية).

وكان المصريون وآباء البرية وراء آراء أثناسيوس بصلابة ، بينما وجـــدت الأريوسية مجالاً أخصب – فى البداية – ولاسيما خارج حدود مصر، ولذلك وجد أثناسيوس نفسه واقفاً ضد العالم ، فأطلِق عليه عبارة: "**أثناسيوس ضـــد العـــالم** " فقال :" وأنا ضد العالم ":

(Athanasius Contra mundum, et . mundus contra Athanasius)

وقد بدأت قصة الصرَاع عندما رسم البابا إسكندر أريوس قساً لكنيسة بوكاليا الأثرية . وكان علم اللاهوت المتعلّق بالمسيح (Christology) قد تم وضعه بيـــد لوسيان الانطاكى ، على أُسس هرطقة غامضة ، وضعت المسيح والروح القـــدس فى مكانة أدنى نسبياً (Subordinate) من الآب .

ولم يُدرك البابا إسكندر خطورة الموقف ، حتى أشعلَ أريوس نـــار تعاليمـــه الغير أرثوذكسية (الغير سليمة) . وأراد البابا إيقاف هذه الموجـــة بعقـــد مجمـــع محلى (Synod) ضم نحو مائة أسقف (من مصر وليبيا) بالإسكندرية. وفيـــه تـــم الحُكم بإدانته، ثم إيقافه من الخدمة. وحرمه من شركة الكنيسة (excomunicted)

---

(١) وهذا المعلم الانطاكى هو أساس المشكلة ، لأنه حاول أن يطبق مبادئ الفلسفة والمنطـــق الأرسطى على اللاهوتيات، وتأثر به تلميذه أريوس، فسار على منهاجه فى الرأى والتفسير.

وفى نفس الوقت لم يسكت أريوس فقد لجأ لنشر آرائه الهرطوقية عن طريق تأليف ترانيم على وزن أغانٍ شعبية (Thalia) بثها خلالها، وكان يُغنيّها النـــاس. فانتشرت فى كل مكان أفكاره المبتدعة عن المسيح.

كما وجد طريقَه إلى القصر الإمبراطورى، عن طريق زميله الســـابق فـــى الدراسة أوسابيوس أسقف نيقوميديا، وكان صديقاً للإمبراطور قسطنطين الكبـــير، وهو الذى قامَ بتعميده فيما بعد .

وكان الإمبراطور مُهتماً بوحدة الإمبراطوريـــة ، فـــوق كـــل الاعتبـــارات الأخرى، فسعَى لكى يوقف الخلاف الدينى الجديـــد. فأرســـل الأســـقف المُسِـــن "أوسيوس" Hosius (نحو ٢٥٧ – ٣٥٧) أسقف قرطبـــة (Cordova) لفحـــص الموضوع، وتقديم تقرير له عن الوضع.

ولما وجد قسطنطين أن الموضوع لا يمكن تجاوزه، استسلم لرأى أوســـيوس، والبابا إسكندر المصرى لعقد مجمع مسكونى (Oecumenical) فى نيقيـــة فـــى بيثنية (بآسيا الصغرى) فى صيف عام ٣٢٥ م.

ولذلك كان أول مرة فى التاريخ استطاع الإمبراطور أن يجمع أســـاقفة مـــن الشرق والغرب ومن أفريقية، وكان عددهـــم التقليـــدى ٣١٨ ، لحـــل المشـــاكل العقائدية. ونتج عن مداولات المجمع المسكونى الأول، وضـــع قـــانون الإيمـــان المسيحى (Creed) الموجود حتى الآن.

وقد تم الحُكم على أريوس بالإدانة، مع أربعة أساقفة رفضوا التوقيـــع علـــى نص قانون الإيمان، وتم خلعهم ونفيهم. وكان هذا الأمر هو أول مثـــال لعقـــاب مدنى لهراطقة ، ولهرطقة دينية .

وكان وراء الانتصار الذى تحقق فى مجمع نقيـــة فصاحـــة وقـــوة إقنـــاع أثناسيوس ، الذى كان لم يزال شماساً شاباً (deacon). وكان قد جاء إلـــى المجمـــع بمُصاحبة البابا إسكندر، الشيخ المُسِن. وبعد نياحته تولى بعده أثناسيوس سنة ٣٢٨،

كرسي الإسكندرية ، خلال فترة عصيبة، قاوم فيها الأريوسيين . وعـــانى النفـــى (Exile) عن كرسيه خمس مرات .

وقام قسطنطين الكبير بنفى بطل الأرثوذكسية إلـــى تريــر (Trier) ســنة ٣٣٦م، ثم سُمِح له بالعودة لكرسيه ، بعد موت الإمبراطور سنه ٣٣٧م .

وأما النفى الثانى (٣٣٩م ــ ٣٤٦م) فكان بمؤامرة الأريوســيين . ومضـــى إلى روما فى ضيافة الأسقف يوليوس الأول ، وأدخل الرهبنـــة (Monasticism) القبطية إلى الكنيسة الرومانية (وكان قد حمَل معه سيرة القديس أنبا أنطونيـــوس العظيم ، الذى تتلمذ على يديه وكتب سيرته) .

وأما أهمية النفيين الثالث (٣٥٦م ــ ٣٦١م) والرابـــع (٣٦٢م ــ ٣٦٣م) ، فترجع إلى أن أثناسيوس مكث فيها مع آباء البرية المصرية ، وعمل على مســاندة الرهبان ضد الأريوسية والانشقاق (Schism) .

وكان النفى الخامس قصيراً (٣٦٥م ــ٣٦٦م) ، فقد رأى الإمبراطور فـالنس (Valens) ضرورة عودة البابا أثناسيوس إلى كرسيه، لمُصالَحـــة الأرثوذكـــس المصريين .

وكان أثناسيوس مجاهداً طوال إقامته على الكرسى المرقسى ، ورغم تذرّيـــة التراب الأريوسى فى وجهه حتى ساعة نياحته سنة ٣٧٣م، فقد عَمِل بكل قوتـــه لاقتلاع جذور هذه الهرطقة . وتم القضاء عليها نهائياً فى مجمـــع القســطنطينية سنه ٣٨١ م ، وحينذاك تم تثبيت دعائم الأيمان النيقوى طوال التـــاريخ المســيحى التالى .

عندما يتأمل المرء دور أثناسيوس البطولى والمؤثر طوال حياته ، وجوَلاتـــه فى أوربا وغرب آسيا ، والصحارى الأفريقيـــة ، والمجـــامع التـــى حضرَهـــا ، والمتاعب التى تحملّها ، ومسئولياته الدينية اليومية ، فإن الإنسان يعجب عندمـــا يراه يجد الوقت لتأليف الكتب اللاهوتية العميقة.

ففى شبابه ألّف كتابين ، أحدهما عن تجسد الكلمة الإلهى ، وضد الإغريق (لإثبات فساد الوثنية) ، ويُثبتان أصله القبطى[1] . أما مؤلفاته العقائدية فهى عديدة، ومعظمها عن الهرطقة الأريوسية. فقد كتب كتاباً بعنوان " تاريخ الأريوسيين " وقد أعده ما بين ٣٥٨ــ ٣٦٠م ، لتدعيم إيمان الرهبان ، بالإضافة إلى كتابين بعنوان " ضد أبوليناريوس " دفاعا عن الناسوت الكامل للمسيح . وفى التفسير الكتابى (Exegesis) كتب تعليقاً على المزامير (Psalms) وهو تفسير رمزى (Allegorical) ودراسة مقارنة للأسفار المقدسة ، وأما الموضوعات النسكية فهى كثيرة ، ولكن أشهرها حديثه عن سيرة القديس أنطونيوس (Vita S.Antonii) .

وأما المشاكل المثارة عن لاهوت المسيح فى القرن التالى ، فقد تصدى لها بطل قبطى أرثوذكسى آخر ــ مثل أثناسيوس ــ وهو عالم تخرج على يد علماء دير أبى مقار، الذى كان مركزاً للدراسات اللاهوتية، وكان **هو القديس كيرلس الأول** (Cyril) الإسكندرى، المدعو الكبير (عمود الدين = ٤١٢م ــ٤٤٤م) .

وبمجرد أن خلف خاله البابا تاوفيلس (٣٨٥م ــ ٤١٢م) على الكرسى المرقسى عمل فى عدة محاور . فقد كان تحت إمرته جيش من الأتباع المكرسين، عُرفوا باسم " Parabolani" ، أى الذين كرسُوا حياتهم لخدمة أهداف الكنيسة ، ووجههم لهداية الباقين من الوثنيين، الذين اعتنقوا مبادئ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة فى الإسكندرية . ورغم أنه لا يوجد دليل على أن له يداً مباشرة فى اغتيال الأستاذة هيباشيا (Hypatia) سنة ٤١٥م ، لكنه كان من نتاج حملته السابقة ضد الفلاسفة الوثنيين فى الإسكندرية !!.

---

(١) زعم البعض أنه لم يكن من أصل قبطى. راجع ملحق كتابنا:" موجز تاريخ المسيحية " للأنبا ديوسقورس ، أسقف المنوفية الراحل (طبع مكتبة المحبة).

كما أن اليهود قد تعرضوا أيضاً لنفس المعاملة من رجاله الرهبان ، وكان نتيجة لذلك أنه دخل فى صراع مباشر مع الحاكم البيزنطى " أورستيس" (Orestes) ، والذى كانت سلطته فى الإسكندرية مهددة.

وخارج مصر ، هاجم البابا الهراطقة النوفاتيين (Novatianist) المنشقين وكان هؤلاء يُكونون جماعات منعزلة ، من أصل رومانى. وكان زعيمهم نوفتيان (Novatian) معاصراً لاضطهاد الإمبراطور ديسيوس (داكيوس) ٢٤٩-٢٥٠ م ، وكان ينادى بسياسة عدم التساهل، مع الذين يريدون الرجوع للمسيحية بعد ارتدادهم (بسبب الاضطهاد). وقد ظلت بقايا النوفاتيين إلى القرن الخامس، إلى أن عمل البابا كيرلس على القضاء عليهم . وكان أكبر صراع فى حياة البابا كيرلس مع **نسطور** (Nastorius) بطريرك القسطنطينية وهرطقته، وكان يرفض إطلاق لقب "**والدة الإله**" (Theotokos) على القديسة مريم، ودعاها أم المسيح فقط. كما حدث خلاف بين البطريركيتين **حول طبيعتى المسيح** .

وكتب كيرلس رسالة إلى نسطور لتصحيح رأيه ، ولكن بدون جدوى.ولذلك كتب للإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى (Theodosius) وإلى زوجة الإمبراطور أفدوكيا (Eudocia) وإلى أخت الإمبراطور بوليكريا (Plcheria) . وتضايقت الأسرة المالكة – فى الواقع – من هذه المشاحنات فى الكنيسة ، وتحدثت عن إمكانية عقد مجمع مسكونى، ليسود النظام فى الدولة والكنيسة.

وفى نفس الوقت ، كتب البابا كيرلس إلى سلستين (Celestine) أسقف روما عن انحرافات نسطور. ونظراً لأن نسطور كان قد استقبل بإكرام البلاجيين[1] ، وكانوا أعداء العاهل الرومانى.

---

(١) وكان زعيمهم الهرطوقى بلاجيوس من أصل إنجليزى أو إيرلندى، وزعم أنه يمكن للإنسان أن يخلص دون الحاجة إلى عمل النعمة الإلهية (Divine Grace).وكان الغنوسيون سابقاً يزعمون أيضاً أن الخلاص يتم بالمعرفة فقط.

لذلك استجاب العاهل الرومانى للبابا القبطى، وعقد مجمعاً فى روما، شجب فيه آراء نسطور. بينما أصدر كيرلس الكبير إثنى عشر حرماً (Anathemas) ضد تعاليم نسطور.

وتم عقد مجمع مسكونى ثالث فى أفسس سنة ٤٣١م.وتم توقيع على الدعوة من كل من الإمبراطور ثيؤدوسويس الثانى بالشرق، فالنتيان الثالث فى الغرب. وجاء نسطور إلى أفسس بصُحبة ١٦ أسقفاً وعدد من الحراس بقيادة قائد الحرس الإمبراطورى. وجاء البابا كيرلس بالبحر مع ٥٠ أسقفاً.وعدداً آخر من الكهنة. وكان معه القديس أنبا شنودة رئيس المتوحدين، وإن كان ذلك لم يثبت يقيناً.

كما كان إلى جانب البابا كيرلس ممنون (Memnon) أسقف أفسس،الذى حشد أربعين أسقفاً مساعداً (Suffragan) من آسيا، وإثنى عشر من بامفيليا. كما أرسل سلستين الأول أسقف روما أسقفين وكاهناً، ليقفا إلى جانب كيرلس المصرى .

وأراد كيرلس أن يبدأ المجمع ، بينما امتنع نسطور عن الحضور، لأنه كان فى انتظار مناصرَة صديقه القديم الأسقف يوحنا الإنطاكى .

وقام ٢٠٠ من الأساقفة بحرم نسطور، بعدما ثبَت هرطقته.

وبعد قليل ، وصل يوحنا أسقف إنطاكية ومعه ٤٢ أسقفاً، وعقَد نسطور مجمعه المنافس، الذى قام بدوره بخلع وحرم كلا من كيرلس وممنون. وقام الفريقان برفع حكميهما إلى الإمبراطور، الذى لم يرَغب فى التوقيع على القرارين، ووجد كل القادة أنفسهم مقبوضاً عليهم. وبعد عدة مكائد، تم الإفراج عن الفريق الكيرلسى، وتم حبس نسطور، فى ديره (Cloister) القديم. وتم نفيه عام ٤٣٣م فى بترا (Petra) ثم إلى واحات الصحراء الغربية (المصرية)، حيث مات سنة ٤٣٩م، فى الوقت الذى بلغ فيه كيرلس الكبير قمة سلطانه.

وقد ترك كيرلس وراءه عدداً من المؤلفات اللاهوتية والتفاسير والعظات والدفاعات عن الإيمان (الأرثوذكسى). واعتمد على الجوهر (essence) والحوار المنطقى، وليس على جزالة الأسلوب أو الألفاظ المنمقة.

وكان استعماله لكلماتى "**طبيعة**" (Physis) "**وأقنوم**" (hypostasis) [١] بدون تحديد، أو تمييز دقيق (indiscriminate) قد قاد إلى وجود الارتباك الذى جرى فى مجمع "خلقيدونية" المذموم (Chalcedon) الذى نشأ عنه ما دعوه بمبدأ "**الطبيعة الواحدة**" (Monophysite) [٢] .

كما أن احتجاج (دفاع) القديس كيرلس الكبير، على الإمبراطور يوليانوس الجاحد (المرتد Apostate) يُعد وثيقة تاريخية (ولاهوتية) هامة. كما أن العديد من رسائله (epistles) هى وثائق هامة للمؤرخ الكنسى. كما أن رسائله الفصحية (Paschal Homolies) التسعة والعشرين، تحدد لنا موعد عيد قيامة المسيح فى زمانه (Easter) .

وعلى كل، فإن لاهوتياته قد اعتُبِرَت – فى اعتقاد كل الطوائف والمذاهب (sects) – مفتاح الأرثوذكسية (الإيمان السليم)، رغم أن عدداً من اللاهوتيين التاليين له قد اختلفوا فى تفسيرها.

وفى زمانه، كانت كنيسة الإسكندرية تشغل مركز الزعامة، التى لا تُنازَع فى كل العالم المسيحى .

\+ + +

---

(١) hypostasis فى اليونانية يعنى "**مادة**" (substance) وكذلك "**شخص**" (person).وهو أكثر استخداما فى اللاتينية، وكان الالتباس (الغموض) بين الكلمتين هو الذى قاد لهذا الارتباك **(هامش أصلى)**.

(٢) وهو اصطلاح غير دقيق، حيث يؤمن الأرثوذكس الشرقيين بأن السيد المسيح له طبيعة لاهوتية وأخرى ناسوتية، وأنهما معا بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، كروح الإنسان فى جسده.

(٣) الأقباط والعالم :

النهضة الكرّازية :

كانت المسيحية – منذ نشأتها – ديانة تبشيرية (كرازية) (missionary) ، ولا يضارِع الأقباط الأوائل – فى أية أمة أخرى – فى أعمالهم التبشيرية بالإنجيل (evangelizing) . . رغم نقص الوثائق المتوفرة حالياً يُجِد من معرفة الدور الهام الذى لعبوه فى هذا الميدان، فى كل مكان خارج حدودهم الجغرافية.

فمنذ عهد البطالمة، كانت الإسكندرية ملتقى طرق العالم القديم. وكمركز تجارى هام، كان يؤمها التجار من كل الأمم . كما كانت مدرستها اللاهوتية المرقسية تضم الدارسين من كل بلاد العالم المسيحي.

ولذلك تعرَّف أبناء مصر على كل جنس ، كما وجد النُساك الأقباط كل الأبواب مفتوحة لهم. وقد وصل المصريون إلى كل قارات العالم القديم، وعلى رأسها أفريقيا، التى كان نشر الإيمان فيها أكثر نجاحاً.

ولا يمكن إنكار أن علاقات الأقباط وصِلاتهم بشمال أفريقيا – وخاصة سيرانيكا أو بنتابوليس (الخمس المدن الغربية) قد بدأت بقدوم المسيحية إلى مصر[1]. ففى خلال زيارات القديس مارمرقس الرسول، لابُد أنه قد اصطحب معه إلى الخمس مدن كثير من خُدام الإسكندرية.

وكان سكان الخمس الغربية يتعلمون فى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية والمدرسة الوثنية (Catechetical, Museion) . وكان سينيسيوس Synesius (نحو ٣٧٠ – ٤١٤ م) أسقف بتوليمايس الليبية قد تعلم فى الإسكندرية، وكان يُكِن احتراما لأستاذته هيباشيا. وقد رسمه البابا ثيؤفيلس سنة ٤١٠ م.

---

(١) للمزيد من التفاصيل ، راجع كتابنا :" تاريخ كنيسة الخمس المدن الغربية".

وقد أقر مجمع نيقية المسكونى الأول (٣٢٥م)بتبعية الخمس المدن الغربية القديمة إلى صاحب الكرسي الإسكندرى (مادة ٦ من القرارات).ولا تزال ضمن ألقابه. وامتدت المسيحية جنوب السودان، وكان المصريون يعرفون (النوبة) منذ الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة، أى منذ نحو ٥٠٠ عام قبل المسيح، وانتشرَت معابدهم وآثارهم فى كل النوبة.

وهناك عاملان ساعدَا على إرسال الحملات التبشيرية جنوب أسوان، فقد ساعدت الاضطهادات على هرب المسيحيين أمام الطُغاة إلى واحات الصحراء الغربية (Oases) وإلى وراء الشلال الأول فى النوبة. والعامل الثانى الرهبان الأقباط قَدِموا إلى تلك المناطق وصاروا قدَماً للمسيح هناك .

وتدل الحفريات الأثرية فى جنوب السودان أن المسيحية وصلت إلى هذه المناطق البعيدة فى القرن الرابع(١) .

وفى القرن الخامس ، نجد تسجيلاً للعلاقات الطيبة بين القديس شنودة رئيس المتوحدين، وبين النوبيين، وقبائل الباجة (paga) فى الجنوب .

وفى بداية القرن السادس كان يوجد أسقف مسيحى لجزيرة فيلة: وقد حل محل رئيس كهنة إيزيس هناك منذ العصر الرومانى.

وفى نفس القرن، أصدر الإمبراطور البيزنطى جستنيان Justinian (٥٢٧م -٥٦٥م) أمراً إلى قبائل البرفيرى (periphery) الوثنية فى الإمبراطورية البيزنطية للتحوّل إلى المسيحية.

وكان هذا الأمر الإمبراطورى قد ساعد علي الإسرَاع بعملية نشر المسيحية التى كانت تجرى فى النوبة . وإزاء ذلك كان على الأقباط الأرثوذكس مقاومة

---

(1) + Dunham, " The Romano-coptic Egypt and the Culture of Meroe" , in Coptic Egypt (New York ,1944) p. 31.
+ Groves, The Planting of Christianity in Africa, 4 vols. (London 1948).

الوثنية (paganism) والمؤمنين بقرارات مجمع خلقيدونية الفاسدة، في نفس الوقت !! وقد انتصر الأقباط نهائياً سنة ٥٥٩ م .

وبناءً على تشجيع الإمبراطورة "ثيؤدورا" (Theodora) (١) ، التي تحدَّت إنذارات القصر، تمت رسامة أسقف أرثوذكسي - يُدعى لونجينوس Longinus - لكرسي نباطا (Nabata) عاصمة مملكة النوبة .

وقد تحولت المعابد القديمة إلى كنائس مسيحية ، وتم تشييد كنائس جديدة، علاوة على انتشار الرهبنة (القبطية) بين النوبيين، الذين أقاموا العديد من الأديرة على حافة وادى النيل ، ومن أشهرها دير القديس سمعان ، الذى كان على مقربة من أسوان . ورغم أن القوات الإسلامية قد أغارت عليه فى أيام صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٧٢ م ، لكن لا تزال خرائبه تشهد للعمارة والفن والصمود الروحى .

وفوق تحوُّل مملكة النوبة، بطريقه رومانسية قديماً، كان نفس الشئ بالنسبة لمملكة أثيوبيا المنعزلة. وطبقاً للتقليد القديم ، كان القصر الملكى فى أكسوم يعرف الله الواحد (monothesim) !! .

فرحلة ملكة سبأ(٢) إلى قصر سليمان الحكيم فى القرن العاشر قبل الميلاد، وزواجهما، وميلاد منليك الأول الأثيوبى (الحبشى) رغم احتمال كونها أسطورة، فقد أعطت الملك الأثيوبى لقب " أسد يهوذا" (٣) .

وزيارة منليك لوالده فى أورشليم وعودته ومعه تابوت العهد الإسرائيلى المصنوع فى عهد موسى القديم، والذى قيل إنه محفوظ فى كاتدرائية أكسوم، -

---

(١) كانت أرثوذكسية وقد شجعت البعثات التبشيرية القبطية على نشر المسيحية فى السودان، رغم أوامر زوجها جيستنيان بأن يبشرها الخلقيدونيون.

(٢) أى مملكة الجنوب.

(٣) ولا يزال الأسد من أسلحة إثيوبيا، وكان الإمبراطور يضع أسداً عند بوابة قصره .

وترجع لنفس القصة[1]. والارتباط الثانى بالوحدانية ، حدث عندما تقابل الخصى الحبشى ، الذى كان فى خدمة كنداكة Condace ملكة إثيوبيا والذى تقابل مع فيلبس الرسول لدى عودته من أورشليم عن طريق غـزة (أع ٨ : ٢٦ - ٤٠) ، ويبدو هنا أنه قد حدث خلط بين ملكة النوبة ، وملكة الحبشة (ولو أن كثيرين يرون أن لقب "كندواكة" خاص بملوك الحبشة مثل لقب "فرعون" فى مصر) !! .

ولكن على أية حال، ظلت الحبشة (إثيوبيا حالياً) وثنية إلى بداية القرن الرابع، حينما بدأ التبشير بالمسيحية هناك.

إذ أن الأخين فرومنتيوس وأدسيوس (Frumentius & Aedesius) المقيمين فى صور، ولكن أصلهما من الإسكندرية ، قد ركبا سفينة تجارية فى طريقها إلى الهند، وتحطمت على شاطئ البحر الأحمر ، قرب إثيوبيا، فأخذهما رجال ملك إثيوبيا، وربما كان هو Ella Amida (وكان حكمه نحو ٣٢٠م-٣٢٥م) فضمهما إلى خدمته. وصار أدسيوس ساقياً له، وصار فرومنتيوس سكرتيراً له ومعلماً خاصاً لإبنه الأمير Aeizanas (أو عيزانا Ezana) ولى العهد، وقد علمه - بدون شك - تعليماً مسيحياً.

فلما تولى عيزانا الحكم تحوّل للمسيحية هو ورجال بلاطه، وأعلن المسيحية ديانة رسمية للدولة. وفيما بعد سمح لإدسيوس بالعودة إلى صور ، بينما عاد فرومنتيوس إلى الإسكندرية، لإخبار البابا أثناسيوس بما حدث فى إثيوبيا، وطلب منه أن يرسل لها أسقفاً لرعاية هذا الشعب البعيد.

وربما كان لقاؤه مع البابا المصرى بين عامى ٣٤١- ٣٤٦ م فقام برسامة فرومنتيوس نفسه أسقفاً لإثيوبيا تحت إسم "أنبا سلامة" ، أى أب السلام (أو أبونا كسات بربان سلامة، أى كاشف النور أنبا سلامة).

---

(١) القصة مشتقة من مخطوط من القرن ١٤ قيل إنها ترجمة من نص عربى من أصل قبطى فى مصر ، وقد استفادت بها أسرة زاجوا (Zagué) التى اعتلت العرش الأثيوبى سنة ١٢٧٠م، فى محاولة لاستمرار سلسلة النسب المنتمى إلى سليمان الحكيم فى إثيوبيا :-
Cfr., Jone & Munroe, A History of Ethiopia (Oxford 1960) pp. 10-21.

وعاد هذا الأسقف أخيراً إلى أكسوم قبل عام ٣٥٦، وبدون شك كـــان معـــه كهنة[1] لمساعدته فى التبشير وتأسيس الكنائس فى كل إثيوبيا. وفى عـــام ٣٥٦م كتب الإمبراطور قسطنطينن Costantius (الصغير) الأريوسى إلى الملك عيزانـــا لطرد الأسقف الأرثوذكسى أنبا سلامة، ولكنه لم يســـتجيب لـــه. وبعـــد مجمـــع خلقيدونية سنة ٤٥١ م ظل الإثيوبيون على الرأى القبطى الأرثوذكسى.

وكان كسب إثيوبيا للمسيحية تتويجاً لبشارة الأقباط ، فى إفريقيا[2] .

كما تقدم الأقباط فى خدمة آسيا ، ولوْ أنها كانت **بنطاق محدود**، وخصوصـــاً فى فلسطين ، وسوريا، وكبادوكيا (آسيا الصغرى) وقيصرية.ولحدٍ ما إلى بـــلاد العرب . فقد استُدعِّى العلاَّمة القبطى أوريجانوس إلى بوســـترا Bostra (شـــرق الأردن) لعلاج خلافات عقائدية هناك.

وكان القديس "**يوجين**" القلزُمى Augin of Clysma (السويس الحاليـــة) هـــو مؤســـس الرهبنـــة فـــى أرض مـــابين النـــهرين (العـــراق) Mesopotamia ، والإمبراطورية الفارسية (إيران حالياً).ولها تأثيرها الكبير على الرهبنة الســـريانية والآشورية .

وفى القرن الثانى إرسال البابا ديمتريوس (الكرَّام) العلامة بنتينـــوس (نحـــو ١٩٠م) مدير المدرسة اللاهوتية الإسكندرية ، لكى يبشر بالإنجيل فى الهند. وبعـــد الانتهاء من مهمته زار بلاد العرب السعيدة (اليمن الحالية) ، حيث استمـــر فى

---

(١) تذكر التقاليد الإثيوبية أنهم كانوا تسعة قديسين من الـرهبان المصريين.
(Groves, op . cit. I, 55).

(٢) من الجدير بالذكر أن هناك إتجاهاً لانضمام كنائس إفريقية للكنيسة القبطية الأرثوذكســـية، فقد نشرت مجلة (The Arab World) (عدد ١١٠ فى ٣٠ يوليو سنة ١٩٦٢) مقالاً بعنـــوان : " الأفارقة المسيحيون يعودون إلى الكنيسة الأولى التى نشأت فى أفريقيا " (المصرية) وبـــدأت الخدمة فى أفريقيا فى عهد قداسة البابا كيرلس السادس، وامتدت فى باقى بلاد أفريقية الجنوبيـــة والشرقية والغربية، فى عهد قداسة البابا شنودة، أدام الله حياته.

خدمته هناك . ويذكر المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصرى إنه وجد هناك النسخة الأصلية لإنجيل مارمتى بالعبرية، والتى كان قد أتى بها الرسول للقديس برثلوماوس[١].

وفى القرن السادس كانت هناك مغامرة، قام بها قبطى إسكندرى (Cosma Indicopleustes) [٢] ، الذى صار كاهناً فيما بعد، وترك رواية عن رحلاته، ويتحدث عن مجتمعات مسيحية،ولهم أساقفتهم على شواطئ الخليج الفارسى (العربى حالياً) وعن مسيحيين في جزيرة سقطرُة، وكذلك العديد من المسيحيين، الذين تبعوا القديس توما الرسول فى الهند (ساحل ملبار)، واشتهر بأنه أول من سافر إلى جزيرة سيلان (سريلانكا حالياً).

وأما دور الأقباط التبشيرى فى أوربا، فيمثله ما قام به البابا أثناسيوس الرسولى خلال نفيه المرتين الأوليتين. والنفى الأول بدأ فى القسطنطينية وانتهى فى ترير، حيث قضى فيها القديس عامَّى ٣٣٦م - ٣٣٧م ، ومن الصعب تصديق أنه لم يبشر خلال كل تلك المدة فى هذه المنطقة (ألمانيا الحالية).

ومعظم فترة النفى الثانية (من سنة ٣٣٩م - ٣٤٦م) فى ضيافة العاهل الرومانى يوليوس الأول، ونقل إلى الأوربيين حياة وأعمال النُسَّاك الأقباط فى الصحارى المصرية. وكان لذلك أثره فى ظهور مبادئ الرهبنة المصرية فى أوربا، وحفظ الثقافة وتقدم الحضارة الأوروبية .

وفى تلك الأيام جاء تيار من الزوار من الغرب ، لزيارة البّرية المصرية بما فيها من نسَّاك وسياح ومتوحدين، وحملوا معهم تعاليمهم إلى بلادهم.

---

(1) Eusebius . Eccles. History . v. 10-11.

(2) Critical edition of his Christian Topograph, by : Winstedt (Combridge 1909).

ومن أشهرَهم يوحنا كاسيان (نحو ٣٦٠-٤٣٥م) وكان مواطناً مــن بــلاد الغال (فرنسا) ، وكان إبناً لوالدين غنيين، علماه تعليماً جيداً. وقــد ســافر مــع صديق يُدعى جرمانوس للأراضى المقدسة.وفى بيت لحم تعاهدا على الرهبنــة ، ثم مضيا إلى مصر ، حيث قضيا ٧ سنوات فى زيارات للرهبان والمتوحدين فــى وادى النطرون وطيبة (جنوب الصعيد) خلال أواخر القرن الرابع.

وفى ذلك الوقت جمع مادة كتابيه:عن المعــاهد (Institutes) والمؤتمــرات (Conferences) ويتعلقان بسِيَرَ وعادات الرهبان المصريين وتعاليمهم ومجامعــهم. وقد ذاعت شهرتهما فى أوربا فى العصور الوسطى، واستخدمهما الراهب بندكت (Benedict) فى إعداد نظام الرهبنة،الذى وضَعه فى القرن ٦ م .

وبعد أن قضى يوحنا كاسيان بعض الوقت مع القديس يوحنا ذهبى الفم فــى القسطنطينية فى طريق عودته من رحلته ، تمت رسامته كاهناً، وربما فى رومــا، قبل أن يستقر بالقرب من مارسيليا، حيث أدخل الرهبنة القبطية فى بــلاد الغــال (فرنسا). وعند هيكل القديس بقطر (St. Victor) الذى استشهد بيد الإمــبراطور مكسيميان (٢٨٦-٣٠٥) فى آخر اضطهاد مسيحى رومانى، أسس يوحنا كاسـيان ديراً للرهبان (monastery) وآخر للراهبات (nunnery) علــى نظــام الشــرَكة (caenobia) الذى شاهده فى مصر(١) .

وفى المقابر التى تقع تحت قلعة القديس بقطر الحالية نجد العديد مــن بقايــا أثرية، تتضمن توابيتاً (Sarcophagi) محفور عليها رسوم حيوانية ونباتية قبطيــة الأصل . وعلى جزيرة القديس أُنورًا (St.Honorat) أمام شــاطئ مدينــة كــان (Cannes) نجد ديراً قديماً، يشرح فيه الرهبان للزائرين أنهم يســتخدمون نفــس القواعد الرهبانية التى وضعها القديس باخوميوس المصرى.

---

(1) + Cfr. Nicene & Post-Nicene Fathers' ser., 2, vol. XI (1894).
+ Chadwick, Jhon Cassian (Cambridge 1950).

وفى أى مكان كانت تذهب إليه الفرق الرومانية العسكرية (legions) كـــان يتبعها مبشرون (missionaries) مسيحيون. وقد وصلـــت إلـــى سويســـرا بعثـــة تبشيرية من طيبة (الأقصر) عام ٢٨٥م بقيادة القديس موريـــس (St.Mauritius) مع الفرقة العسكرية الصعيدية. وقد نال إكليل الشهادة لرفضه التضحية للأوثـــان. وتمثاله مُقام اليوم فى إحـــدى الميـــادين العامـــة للمدينـــة التـــى تحمـــل اســـمه (St.Moritz)، وقد وُضع جسده فى هيكل (chapel) بإســـمه فـــى مدينـــة ڤاليـــه . (St.Maurice in Valais)

وقد قام رفاقه القائد "**فيلكس**" (Felix) وأخته "**رجولا**" (Regula) وشـــخص ثالث إسمه " إكسبرانتيوس " (Exuperantius)واختبأوا فـــى أرض (Glarus) ثـــم وصلوا أخيراً إلى بحيرة زيورخ (Zurich) وقـــاموا بكســـب كثـــيرين للإيمـــان المسيحى، إلى أن قبض عليهم رجال الإمبراطور ديسيوس.وأوقفوهم أمام الوالـــى الرومانى ، ولما رفضوا التضحية للأوثان تم تعذيبهم .

وأثناء قطع رقابهم سمعوا صوتاً من السماء يقول لهم :" قوموا لأن الملائكـــة ستأخذكم إلى الفردوس، وستوضع على رؤوسهم أكاليل الشهادة ". وعلـــى ذلـــك قاموا وحملوا رؤوسهم فى أيديهم وساروا نحو ٤٠ (ells = ياردة) نحو تل بـــه خندق، حيث رقدوا بداخله، وهو حاليـــاً مغـــارة Grossmunster فـــى زيـــورخ (بسويسرا).

وفى مكان استشهادهم أُقيمت كنيسة (Wasserkirche) ، حيث يوجد فسيفســـاء من العصور الوسطى، تمثل كل مرحلة من مراحل حياتهم واستشـــهادهم . وأمـــا القديسون الثلاثة الذين بلا رؤوس ويحملون رؤوسهم علـــى أيديـــهم،هـــو رَمـــز مرسوم على السلاح الخاص بمدينة زيورخ.

وتُحكى قصة مشابهة عن مدينة Solothurn مع بعض الاختلاف، ويُذكَر فيها رسم القديس ڤيكتور (بالقبطية بقطر) كبطل للقصة.

وُيقال إن البعثات التبشيرية القبطية قد وصلت إلى الجُـزُر البريطانيـة فـى أوربا،فى العصور الوسطى، وقبل وصول القديس أغسطينوس (St.Augustine of Canterbury) سنة ٥٩٧م حيث كانت المسيحية قد انتشرت بين البريطانيين فعلاً.

ويقول المؤرخ ستانلى لين بول (Lane-Poole) :" إننا الآن لا نعرف كيـف أننا مدينون – فى الجزر البريطانية – إلى هؤلاء الرهبان المتوحدين بأنـهم أول مبشرين بالإنجيل فى إنجلترا، وإلى أن جاء أغسطينوس، سادت القواعد الرهبانيـة المصرية".

ويُضيف بقوله :" ولكن الأكثر أهمية أن المسيحية فى أيرلنـدا – والعـامل الحضارى فى بداية القرون الوسطى – بين شعوب شمال أوربا هى لبنة الكنيسـة المصرية، وأن ٧ رهبان مصريين مدفونين فى منطقة Disert Uldith ".

" وان هناك الكثير من طقوس وعمارة أيرلندا فى العصور القديمة، تُذكِّرنـا بآثار المسيحية المصرية. وكل إنسان يعرف أن الحِرَف اليدوية التـى مارسـها الرهبان الايرلنديون فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، والتى فاقت غيرهـا فى أوربا، نجد لها أثراً مُستمَداً من البعثات التبشيرية المصرية. ويجب أن نشـكر الأقباط على كل ذلك"(١).

وحتى حينما نستعرّض الهرطقات والهراطقة الذين ظهروا فى مصر، نـرى أنه يجب أن نعرف أن أبناء النيل المُتحمسين لأفكارهم والذين مُنعوا من ممارسـة

(1) Stanely Lane-Poole, Cairo – Sketches of its History, Monuments & Social Life (London 1898) pp. 203-4.

+ وأخبرنى الأسقف الأنبا صموئيل (الراحل) الذى زار الأكاديمية الملكية بدبلن، عـن وجـود مخطوطة مسجل بها " مديحة " للإستشفاع بسبعة رهبان أقباط ، ومخطوط آخر يصف الرحلـة إلى وادى النطرون. وهناك مؤلفون كثيرون يذكرون دور الأقباط فى الفن الايرلندى راجع :
Cfr. Chadwick, Irish Art in the Christian Period (London 1939).

شعائر مذاهبهم فى فترة السلام (pax-Romana) التى تلت الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية فى الإمبراطورية الرومانية قد عبروا حدود الإمبراطورية، واتصلوا بشعوب بربرية، ونشروا بينهم المسيحية حسب عقائدهم (الفاسدة).

والمثال الصارخ هو انتشار الأريوسية فى وسط القوط والوندال والبرجانديين واللمبارديين، عن طريق خدام أريوسيين، وزعيمهم Ulphias (نحو ٣١١م-٣٨٣م) وكان من الراجح أنه كبادوكى المولد وعرف لغة القوط، واللغة اليونانية، وترجم الكتاب المقدس إلى لغتهم، لأول مرة.

إذا كان مهد الأريوسية هو مصر، ومعلمها أريوس الليبى الإسكندرى الموطن، فمن المنطقى أن نفترض أن تلاميذه (disciples) كانوا مسئولين عن نشر هرطقته من مصر إلى القبائل الألمانية والبربرية، خلف نهّرى الدانوب والراين[1] .

+ + +

- **الحركة المسكونية : (Oecumenical)**

قامت لمحاولة القضاء على الهرطقات والخلافات العقائدية التى ظهرت بين مختلف مراكز المسيحية، وتعاملت معها المجامع المسكونية الثلاثة (couciles) وهى مجمع نيقية (٣٢٥م)، والقسطنطينية (٣٨١م) وأفسس (٤٣١م).

وكان قانون الإيمان النيقوى، هو ميثاق الإيمان. وقد قبلته كل الشعوب المسيحية. أما بالنسبة للتعريف اللاهوتى الخاص بالمسيح وعلاقة الطبيعتين الإلهية والناسوتية فى شخص المسيح ، والذى وضعه القديس كيرلس الكبير (السكندرى) قد أُعتِمد فى مجمع أفسس سنة ٤٣١م.

---

(1) Thompson , " Christianity & the Northern Barbarians" , in The Conflict between Paganism & Christianity, in 4th Century, p. 56-78.

ومن وجهة نظر مؤرخ للكنيسة القبطية ، فإن أهم ملامح المجامع الثلاثة وحقيقة الوضع فيها، أن الذى سيَّطر عليها هو القيادة الروحية والعملية لكنيسة الإسكندرية، التى كانت موطن المدرسة اللاهوتية (المرقسية) ومركز الدراسات اللاهوتية العُليا، وقد أثبتت الإسكندرية أنها منبع العلم المسيحى السليم، والمرجعية الأصلية للاهوت المسيحى (authority) ، مما أعطى باباوات الإسكندرية قوة عُظمَى، فى مصر، وفى كل العالم المسيحى. وقد وُصِفوا بأنهم "**فراعنة الكنيسة**"(١) .

وهو الموقف الذى أزعج أساقفة روما والقسطنطينية. وأن تراث (heritage) أثناسيوس وكيرلس (عمود الدين) قد وصل إلى أيدى البابا ديوسقورس المصرى، لكنه لم يساويهما فى اللباقة والدبلوماسية (٢) !!.

وكانت الخلافات العقائدية الكبيرة – بين الشرق والغرب – قاصرة على تفسير درجة الاتحاد بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية فى شخص المسيح .

وكرّد فعل للهرطقة النسطورية، فإن أوطاخى Eutyches (نحو ٣٧٨م–٤٥٤م) والذى كان رئيساً ورعاً لدير يونانى بالقسطنطينية قد نادى باتحاد الطبيعتين منذ التجسد (Incarnation) ، وقام فلافيان (Flavian) أسقف القسطنطينية-على الفور- بحرمه وخلعه من منصبه فى مجمع محلى.

إلا أن أوطاخى كان له نفوذه فى القصر الإمبراطورى، عن طريق خصىّ له مركز رفيع هناك،وإسمه Chrysaphius • وقد نجح فى إقناع الإمبراطور

---

(1) Hardy, Christian Egypt, p.79.

(٢) ولكننا نرى أن الموقف كان يتطلّب الحزم، والتمسك بشدة بالرأى الأرثوذكسى، وإلى النهاية، وأن غيرة وحسد عاهل (كرسى) روما (لاون) هى سبب المصيبة التى جرّت فى مجمع خلقيدونيا المشئوم (٤٥١م) وانتهت بنفى البابا ديوسقورس ظلماً وعدواناً. كما أثبته كثير من المؤرخين الغربيين المنصفين، وطبقاً لما جاء فى نصوص محاضر – وأحداث – المجمع الفاسد.

ثيؤدوسيوس الثانى، بعقد مجمع عـام لفحص قضيته، تحت رئاسة البابا ديوسقورس الإسكندرى.

وقبل ديوسقورس الدعوة، وتم عقد المجمع الثانى بأفسس سنة ٤٤٩م ، ومن المناسب أن نترك هنا وصف أحداث هذا المجمع، كما روتها المصادر القبطية . **(ولو أن كلام الكاتب يتطابق تماماً معها، ومع الواقع، على ضوء المصادر** المنصفة، والتى ذكرت الحقيقة).

وفد وفد على أفسس ممثلو روما وإنطاكية والقسطنطينية، ومعظم الأسقفيات الأخرى، بناء على الدعوة الإمبراطورية.

وتم السماح لأوطاخى أن يستعرض آراءه. فأعلن أنه يقبل قانون الإيمان النيقوى، والصيغة التى وضعها البابا كيرلس الإسكندرى ، وكلاهما يمثلان العقيدة الأرثوذكسية (السليمة) . ولذلك تم إعاده أوطاخى إلى وظيفته كرئيس دير (archimandrite) ، وتم حرم فلافيان وخَلعِه من كرسى القسطنطينية هو أعوانه، الذين طردهم الحرس الإمبراطورى، ربما بإيعاز من كريسافيوس الخصى.

وكان انتصار ديوسقورس قد أثار حسد العاهل الرومانى البابا ليو (Leo) فوصف مجمع أفسس الثانى – فى رسالة إلى الإمبراطور ثيؤدوسيوس بأنه كان "مجمع خطافين" (Latrocinium) .

وربما كان ديوسقورس غير حكيم فى عدم اطلاع المجمع على رسالة كان البابا ليو قد أرسلها مع مندوبيه (Tomus Leo) (١).

ومن الجدير بالذكر، أن تغيير الأباطرة فى نفس اللحظة قد غيّر الوضع، فإنه نتيجة لموت الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى، تولى ماركيان (٤٥٠م–٤٥٧م)

---

(١) لو رجعنا إلى محاضر المجمع ، نجد أنه لم يمنع قراءتها، وإنما الظروف هى التى لم تسمع بقراءتها فى حينه (راجع كتاب :"**عصر المجامع**" للقمص كيرلس الأنطونى، من إعدادنا، وطبعة مكتبة المحبة).

مكانه مع زوجته بوليكاريا، التى كانت راهبة سابقة وأختا للإمبراطور الراحل، قد قلبت السياسة الإمبراطورية نحو الكنيسة (المصرية).

وبالتالى تم عقد مجمع خلقيدونيا سنة ٤٥١م، ليس لمناقشة وحدة أو ثنائية طبيعتى المسيح، ولكن للإدعاء بأن ديوسقورس قد وافق على رأى أوطاخى، الذى عاد يتمسك برأيه الخاطئ (بالزعم بأن اللاهوت قد ابتلع الناسوت، كقطرة خل فى محيط).

وبدأت السياسة تلعب دوراً أساسياً – لمواجهة التوسع الذى طرأ على نفوذ بطاركة الإسكندرية – فحشدت السلطات الإمبراطورية عام ٤٥١ نحو ستمائة أسقف فى خلقيدونيا التى تقع على مضيق البسفور، فى مقابل القسطنطينية.(بآسيا الصغرى)•وقد تمت قراءة رسالة ليو الرومانى، وتم نفى البابا ديوسقورس إلى جزيرة غاغرا (Gangra) فى فيلاجونيا !!. وحتى الأساقفة الذين سبق أن وقعوا على قرارات مجمع أفسس الثانى، أيدوا قرارات مجمع خلقيدونيا الظالمة ، ماعدا الأساقفة الأقباط.

وأصدر المجمع المشئوم ٢٨ قانونا[١] ، وأهمها الأخير ، الذى نصه : " أن المدينة المكرمة بالسلطان ومجلس النواب (القسطنطينية) يجب أن تتمتع بكل الإمتيازات، وبالمساواة مع روما القديمة، وينبغى أن تعظم مثلها، فى الأمور الكنسية، وتكون تالية لها "، وهو ما لم تقبله روما[٢].

ويذكر وليم وُيرِل (Worrell) " إن كرسى الإسكندرية كان أهم الكراسى، لأن هذه المدينة كانت أهم مدن الشرق كلها، وأنه مع شهرة مصر، والإسكندرية الهللينية، أضيفت شهرتها فى المعرفة المسيحية، وقوة الزعامة الروحية"[٣].

---

(1) + Hefele, Histoire des Conciles , 11,2.

(2) Fortescue, Lesser Eastern Churches, p.181.

(3) William , Worell, A short Account of the Copts (Michigan 1945) p. 17.

ويضيف بقوله :" ولكن الكنيسة المصرية فقدت قيادتها (للعالم المسيحى) لسبب رئيسى، وهو وقوف البابا ليو الأول (٤٤٠م-٤٦١م) ضدها، وأن المصريين لم يخضعوا لمجمع خلقيدونيا، وأنهم اتحدوا وراء بطريرك الإسكندرية. وزاد الشعور الوطنى، وبدأت الكنيسة المصرية تمارس دورها الوطنى"[1].

ويعتقد الأقباط أن وراء حملات الغرب ضد الكنيسة المصرية عوامل سياسية ومصالح خاصة. ونظراً لأن روما مالت نحو مبدأ "الطبيعتين"، فقد كان ذلك مكسباً للأساقفة النساطرة.

وأما كرسى القسطنطينية الجديد نسبيا – والمدعم من الإمبراطور لأسباب واضحة – بافتراض أنه المركز التالى لروما، قد عمل على إذلال ديوسقورس.

وإلى هذا اليوم (١٩٦٨م) ،فإن الأقباط يتذكرون مأساة خلقيدونيا بحزن شديد، ويحتجون ضد الزعم بأنهم أوطاخيين. والكثير من رجال الأكليروس المصرى – من القدامى والمحدثين – يرفض آراء أوطاخى، ويهاجمون أفكار نسطور، وهم لا ينكرون أبداً وجود الطبيعتين، ولكنهم يُصرون على الوحدة بينهما (بدون امتزاج ولا تغيير)، كما أنه من الصعب قبول تفاسير الغرب لآراء كيرلس (عمود الدين) والتى تعتبر حُجة فى هذا المجال .

كما أن الأقباط ينكرون مسكونية مجمع خلقيدونيا وكل المجامع التالية. ويعتقدون أن قرارات خلقيدونيا تناقض روح قانون الإيمان النيقوى، وقرارات مجمع أفسس (الأول).

ولا يطلقون على أنفسهم لقب :" أصحاب الطبيعة الواحدة " (Monophysite) أبداً، وهو إصطلاح يليق أكثر بالأوطاخية، وقد اخترعه الإغريق (الروم) والرومان لإذلال الأقباط وحلفائهم : اليعاقبة (السريان) والإثيوبيين والأرمن.

---

(1) Worrell, Ibid. p. ١٣.

ومن الغريب للغاية، أن الأقباط أحجموا عن محاربة هذا اللقب الجديد، ولكن يبدو أنهم قبلوه، كدلالة على تمييزهم عن المسيحيين المؤمنين "**بالطبيعتين**" (diophysite) .

وكان من نتيجة قرارات مجمع خلقيدونيا حدوث انشقاق لا يمكن إصلاحه. ونظراً لتمسُّك الأقباط بعدم خضوعهم لروما، بل أنهم موازون لهم . فقد استخدم المؤرخون الكاثوليك الاصطلاح :" "**المنشقين**" (Schismatic) لإطلاقه على الكنيسة المصرية الأخت، كما وُصِفوا بالاصطلاح «(Monophysites)»، لتعارضهم فى آرائهم معهم،عن طبيعة المسيح.

وبالنسبة للفكر القبطى ، فإن كراسى الإسكندرية وإنطاكية وروما متساوية؛ وقد سبق أن عاشوا معاً فى تناغم كامل واهتمام متبادل، حتى عندما كانت الإسكندرية فى أوج عظمتها.

وإن كان نتيجة مجمع خلقيدونية حدوث الانشقاق (بين الكنائس الشرقية الأرثوذكسية والغربية) فقد كان أيضاً سبباً فى ظهور الوطنية فى الكنيسة المصرية، وصاحبها امتداد أُسس الرهبنة المصرية خارج حدود مصر، وأنها هى التى أشعلت لهيب الروح الوطنية المصرية.

ولكن رجال الإكليروس الرومانى المعاصرين مثل يوحنا/١٨، وبولس السادس، قد ساهما فى الصُلح (reconciliation) مع الكنائس الشرقية. فإن خطاب البابا بولس فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٦٣ فى اجتماع المجمع الفاتيكانى الثانى، يبدو أنه قد ساهم فى توقيع إعادة الوحدة بين روما والكنائس الشرقية، منذ الانشقاق الخلقيدونى سنة ٤٥١ م[١].

---

(١) تمت اتفاقية فى عهد قداسة البابا شنودة الثالث مع عاهل كرسى روما، على أساس أنهما كلاهما يشجُبان بدعتَى نسطور وأوطاخى.

أُسس الرَهبنة :

كانت الرهبنة القبطية هى هدية مصر للعالم المسيحى. ومثل كل الحركات الهامة والعامة، فإن هذا النظام الدينى، مر بمراحل متتابعة وطويلة، من بداياتها المتواضعة على حافة الصحراء، إلى أن تطورت إلى حياة روحية قوية، أثارت إعجاب العالم المسيحى القديم.

ومعظم المؤلفين ينسبون أصول الرهبنة إلى القديس أنطونيوس (نحو ٢٥١م-٣٥٦م)، الذى يُفترَض أنه مضى فى البداية إلى الصحراء فى وسط الصعيد، وأن سيرته الشهيرة ، قد انتشرت ، بعدما دونَّها البابا أثناسيوس الرسولى.

وبدون التقليل من مكانة أنبا أنطونيوس، فى قصة الرهبنة، فهناك سبب للإعتقاد بأنها تأسست (نمت) فى زمان الاضطهاد، بهروب كثيرين إلى الصحراء، ومثالها فى عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس (١٣٨م-١٦١م) عندما تمكن شخص يُدعى فُرنتونيوس (Frontonius) من إقناع سبعين آخرين ليتبعوه إلى صحراء وادى النطرون.

كما قيل إن القديس أنطونيوس نفسه، عندما توغل فى عمق الصحراء الشرقية، نحو منتصف القرن الرابع، اكتشف بالمصادفة (بإرشاد الله) القديس أنبا بولا السائح (St. Paul the Hermit) وكان عمره ١١٣ سنة وكان على وشك الرحيل من الدنيا.

وكان منذ شبابه قد وجد أن الحياة الفُضِلَّى فى التوحد بالبرية. ونفترض أنه كان واحداً من بين كثيرين عاشوا مثله ولم نعرُفهم.

وعلى أية حال ، فإن بدء الرهبنة القبطية كان بيد الأنبا أنطونيوس، فقد كان متوحداً تقياً (reculse , Anchorite) وعاش فى نُسك (asceticism) وجهاد شديد (austerity) ، مُعذِباً جسدَه (بالصوم والسهر) لتخلُص روحه.

وكان شاباً يتيماً وغنياً مسيحياً من قرية Coma (قمن العروس ببنى سـويف) التابعة لمدينة هرقل (Heracleopolis) ، وفى سن العشرين، تخلَّى عـن العـالم، وقام ببيع عزبته ووزع ثمنها على المساكين، عندما سمع كلمـات الإنجيـل فـى الكنيسة " أسرع وبع كل مالك .. " (مـت ١٩: ٢١). واحتفـظ فقـط بمـا هـو ضرورى لإعاشة أخته الصُغرى، وأدخلها بيتاً للعذارى، قبل عبور شاطئ النيـل إلى الصحراء الشرقية.

ويبدو أنه أخذ دروسَه الأولى فى الزُهد وتكريس الحياة (devotion) للمسـيح، من متوحدين آخرين فى مغارات الصحراء المجاورة والقبور الفرعونية القديمـة، المُطلة على وادى النيل.

وخلال ٨٥ سنة كان يندفع أبعد وأبعد إلى قلب الصحراء، وزاد من جـهاده، وأطال من أصوامه، وصراعه مع الشياطين ، طبقاً لما سـجلَّه كـاتب سـيرته (biograpger) (١). وكان القديس أثناسيوس قد جلس معه، ليتعلّم منه. كما بعـث الإمبراطور قسطنطين (الكبير) طالباً صلواته (شفاعته).

وقد نزل أنبا أنطونيوس من مغارته، المُطلة على البحر الأحمر، إلـى وادى النيل مرتين فقط. الأولى سنة ٣١١م لتدعيم إيمان المسيحيين خـلال الاضطـهاد الرومانى الشديد والأخير، الذى أثاره مكسيمينوس (Maximinus)، ومـرة ثانيـة سنة ٣٣٨م لتدعيم قضية البابا أثناسيوس ضد بقايا الهراطقة الأريوسيين.

ولشُهرَة الأنبا أنطونيوس تتلمذ على يديه كثيرون، وعاشوا فى وحدة بجـوار مغارته. ومن ثم ، بدأ قيام العديد من المستوطنات (قلالـى) للمتوحديـن، حـول الآباء القديسين.

---

(1) Athanasius, Vita Sancti Antonii (Migne Patr. Greaca, xxvi, 835-976).

ثم جاءت المرحلة الثانية من الحياة الرهبانية عندما تكونت الجماعات الرهبانية – فى شركة مجمعة – حول القديس أنطونيوس، فى منطقة بِسبير (Pispir)، وانتشروا نحو الشرق، فى الجبال، فى المنطقة التى تُعرَف اليوم بالصحراء العربية، فى اتجاه البحر الأحمر، حيث يقع دير الأنبا أنطونيوس.

وقامت جماعة رهبانية أخرى فى منطقة طيبة (الصعيد الأعلى) بالقرب من المتوحد القديس "**بلامون**" (Plaemon) ، الذى تتلمذ على يديه القديس "**باخوميوس**" (Pachomius) الكبير.

وكانت تلك هى منطقة (Chenoboskion) وهى حالياً قرب نجع حمادى ، والتى اكتشفت فيها المخطوطات الغنوسية ، السابق الإشارة إليها.

وكانت هناك ثلاثة مناطق رهبانية فى الصحراء الغربية، على مسافة رحلة يوم من الإسكندرية ، وهى نتريا، وكيليا والأسقيط (Nitrea , Cellia, Sectis) .

وعاش القديس "**آمون**" (Amoun) فى نتريا. وقيل إنه تخلى عن عروسه سراً بالاتفاق معها بعد زواج ١٨ سنة، وكانا يقضياها فى سهر وصلاة (بعيداً عن الجنس). وفى عام ٣٢٥ اعتزل فى "**نتريا**" ،لمدة ٢٢ سنة التالية، حيث اجتمع حوله عدد كبير من الرهبان (monks).

أما منطقة "**كيليا**" (القلالى) فهى تقع إلى الشمال قليلاً من نتريا (غرب محافظة البحيرة حالياً). وكانت موطن القديس " مكاريوس الإسكندرى"، الذى قضى عدة سنوات عارياً فى مستنقعات موبوءة بالبعوض فى مريوط. وفاق كثيرين من معاصريه فى الجهاد الروحى. وقد تنيَّح فى عمر المائة (٣٩٣م).

وعاش القديس "أرسانيوس" أستاذ قسطنطين (والأصح هو معلم إبنَّى الإمبراطور ثيؤدوسيوس الكبير، وهما هونوريوس وأركاديوس) ، فى كيليا.

أما المكان الثالث، فكان الأسقيط (=برية شيهيت) جنوب شرق نتريا، وهـى صحراء طاردة للسكان، وعاش بها القديس مكـاريوس الكبـير (أبـو مقـار المصرى)، والذى أسس ديراً آخر هناك نحو سنة ٣٣٠ م(١).

وكان مكاريوس الإسكندرى تلميذاً للقديس أنطونيوس، وله أعمـال نسكية تفوق الطبيعة البشرية. ويروى المؤرخ القديس بلاديوس فى بستانه(٢) (Paradise of Palladius)– أن القديس مكاريوس هذا قد ذهب إلـى ديـر بـاخومى، فـى طبنسيس Tabenesis (= نخل إيزيس = دندرة بقنا حالياً)، وقد أدخله رئيس الديـر لكبر سنّه . ولما بدأ الصوم الكبير (Lent) ، وبدأ الرهبان الشبان الصوم . وكـان بعضهم يفطر بعد صلاة الغروب (Vespers) ويصوم آخرون يومين متتـاليين ، وآخرون خمسة أيام . بينما وقف القديس مكاريوس (الإسكندرى) في ركن يجـدل الخوص ، ويصلى لمدة ٤٠ يوماً ، دون أن يلمس خبزاً ، أو ماءً ، سـوى أكـل بعض أعواد من الكُرنب – كل أحد– ولم ينم ، أو يتكلم !!..

فتذمر الرهبان من هذا الغريب العجيب ، وطالبوا بطرده من الديـر ، ولمـا علم القديس باخوميوس بما حدث ، عرف مَنْ هو ، وقبّلَه وشكرَه علـى إعطـاء الدرس للرهبان المغرورين بطول أصوامهم ، وعلى بناء حياتهم الروحية.قبـل أن يسمح له بمغادرة الدير ، والعودة إلى وادى النطرون .

وهناك أماكن رهبانية آخرى ، أقل في شهرتها ، فى أمـاكن مختلفـة مـن مصر ، مثل الموجودة في بابيلون Babylon (تـلال المقطـم بمصـر القديمـة) وممفيس (صحراء البدرشين) وهيراكليا والبهنسا في بنى سويف (Oxyrynchus).

---

(1) Evelyn-White, The Monasteris of Wadi n'Natrun, 2 Vols.. (New York 1926-1933).

(٢) راجع ترجمتنا له بعنوان :"بستان القديسين" ، (طبعة مكتبة المحبة).

وفي نفس الوقت ، بدأ فصل جديد ، في قصة الرهبنة ، في طابنسيس (دندرة) ، وهو المرتبط باسم "باخوميوس" (= نسر) . وكان وثنياً ، وكان مُجّنداً في شبابه في قوات قسطنطين وليسينيوس[1] .

وقد تقابل مع مجتمعات مسيحية خلال حملاته مع الجيش الرومانى . ورأى كرم أخلاق هؤلاء المسيحيين ، الذين جاءوا لغسل أقدام الجند ، وتقديم الطعام لهم، رغم تعاملهم بقسوة مع هؤلاء القرويين الفقراء . ويبدو أنه قد تأثر بهم (بعدما عرف ديانتهم) وقرر أن يصير مثلهم (وما أعظم ثمار القدرة الصالحة).

فلما ترك الجندية ، صار مسيحياً ، وتبع القديس بلامون المتوحد ، الذى درّبه على الجهاد لضبط الجسد . وقام بقيادة الرهبان في "**نظام الشركة**" . وبذلك نشأ النظام الباخومى (٢٩٠م-٣٤٦م) وكان هو ثالث وآخر مرحلة فى تطور الرهبنة المصرية .

وقد ذكر مؤرخ كنسى معاصر له أنه استلم لوحاً من ملاك سماوى ، يضم قواعد تلك الرهبنة .

ولم تكن تلك القواعد قاصرة على التعليمات، ولكنها كانت طريقة متطورة لحل المشاكل .

ونرى فى حياة باخوميوس ، وصفاته كجندى عرف النظام ، ومعلم يُقدّر المعرفة ، ومدير ينظم إدارة المجتمعات الرهبانية بطريقة عملية ناجحة ، وكرجل قديس يقدس الصلاة والحياة الفُضلى .

ولما تنيحّ سنة ٣٤٦ ، ترك وراءه عدداً كبيراً من الأديرة ، ونظاماً امتد تأثيره إلى كثير من المراكز الرهبانية الأخرى . وتدل الإحصائيات على عمق

---

(1) Amélineau, Histoire de St. Pakhome, Doc. Coptes et Arabes inédits (Paris 1889).

الرهبنة في زمانه . فقد ضمت أديرة باخوميوس في طابنسيس ٧٠٠٠ راهب ، وفى جنوب الصعيد ٥٠٠٠ راهب، وفي أرسينوى (الفيوم) أكثر من ١٠,٠٠٠ راهب .

وفي تحليل للنظام الباخومى ، نجد أنه علامة هامة في التاريخ المسيحى . وقد شملت التعليمات نشاط الراهب بالنهار وبالليل وملابسه وطعامه وساعات نومه وتنقلاته وساعات عبادته ، وأسلوب عقاب المُخطئين . ولم يكن قاسياً في أسلوب عقابه ، ولا في أسلوب حياة الراهب ، الذى لم يكن يهدف من جهاده أن يحطم قوة جسده في سبيل خلاص نفسه .

ومن الملامح المتطورة في نظامه تقديم العمل اليدوى ، وجرعة كبيرة من التعليم للرهبان . وكان يخضع المستجد لفترة اختبار من عام إلى ثلاث سنوات ، وإثبات جديته قبل قبوله رسمياً في الرهبنة . وساعد على نشر القراءة والكتابة ، وحفظ أجزاء من الكتاب المقدس (حفظ ٢٠ مزموراً ، ورسالتين من العهد الجديد).

وكان الراهب مجتهداً للحصول على قوته بيده ، وإثراء فكرة بالمعرفة وبدون إهمال واجباته الروحية . وكان العمل العادي يشمل صناعة السلال والحبال . كما كان كل دير مكتفٍ بحاجاته اليومية ، بوجود طُهاة وخبازين ونساجين وخياطين وفلاحين ، وطحانين وبنائين وناسخى مخطوطات،ومدرسين ومهندسى آلات، وسائقين للجِمال ، كما رآه بلاديوس في زيارته .

وكان الدير في صورة بناء حصين مُحاط بحوائط سميكة ، سواء على حواف الوادى أو في جوف الصحراء ، وبداخله دار ضيافة.

وكان للرهبان مساكنهم وهياكلهم ، وقاعة عامة ومكتبة للمخطوطات (Scriptorium) ، ومطعم ومستشفى وطاحونة ومخبز ومطبخ ومكان لعمل الملابس . وحصن للخطر له سلالم تُرفع عند هجوم البربر . وكانت كل قلاية

(Cell) تضم ٣ رهبان ، أما المتوحدون فكان لهم مكان خاص بهم . ومكان للدفن، وباقى المكان يخصص كحديقة ، وللعمل اليدوى في الهواء الطلق ، ويشمل إدارة السواقى وحظائر الحيوان .

وكانت للنظام الباخومى إدارة موحدة لكل ثلاث أو أربع أديرة ، ولها رئيس منتخب من بين الآباء . وكان الرهبان يجتمعون دورياً ، لمناقشة مشاكلهم الخاصة ، بعد موسم الحصاد ، وعند عيد الفصح ، حيث تقدم تقارير سنوية . وتعيين رؤساء جُدد ، وإصدار عفو عام للإخوة المُخطئين.

وكان بالأديرة الباخومية علاوة على الرهبان الأقباط ، رهباناً من أمم مختلفة مثل الإغريق والرومان والكبادوكيين ، والليبيين ، والسريان ، والنوبيين، والأثيوبيين وغيرهم . وكان لكل منهم قائد من مواطنيهم ، يعلمهم ثم يعطيهم عظات بلغاتهم.

وكان آباء الكنيسة – من كل أنحاء العالم– يأتون إلى الأديرة بأعداد كبيرة ، حيث كانوا يزورون مغارات الرهبان وسكان الأديرة الصحراوية ، كما كان العديد منهم يدرسون في مدارس رهبان البرية بيد المعلمين القديسين .

ومن بين الزوار ممثلى الأباطرة . وقد استقر القديس يوحنا ذهبى الفم (نحو ٣٤٧م–٤٠٧م) في طيبة (مصر العليا) من ٣٧٣م–٣٨١م ، وزارها القديس جيروم (نحو ٣٤٢م–٤٢٠م) وروفينوس (نحو ٣٤٥م–٤١٠م) المؤرخ،جاء من إيطاليا ومكث فترة في مصر .

وأما القديس باسيليوس (٣٣٠م–٣٧٩م) الأب الكبادوكى ، وواضع القداس الذى يحمل اسمه ، والذى لا يزال مستخدماً في الكنائس الشرقية ، أدخل الرهبنة إلى بيزنطة (القسطنطينية) على النظام الباخومى .

وقضى القديس يوحنا كاسيان (نحو ٣٦٠م-٤٣٥م) سبع سنوات في الصعيد وفي وادى النطرون ، قبل نقل الرهبنة إلى بلاد الغال ، بعدما استفاد من خبرة الرهبان الأقباط .

وقد ألّف القديس بلاديوس (نحو ٣٦٥م-٤٢٥م) كتابه عن "بستان الآباء" (وقد ترجماه إلى العربية مع كتاب يضم سِيرًا بقلم چيروم).

كما جاءت إلى أديرة مصر كثير من النساء ، ومنهن الراهبة الأسبانية (abbess) إتريا (Etherea) في القرن الرابع ، وميلانيا الأرملة الرومانية الأرستقراطية (نحو ٣٤٥م-٤١٠م).

وبعد النظام الباخومى ، ظهر في القرن الخامس **نظام الأنبا شنودة رئيس المتوحدين** وهو من أتريب (Atripe) وتقع على الضفة الغربية للنيل بالقرب من سوهاج ، وتُقابل بانوبوليس Panopolis (أخميم).

وقد تولى رئاسة الدير الأبيض الذى أسسه خاله بيجول (Pgol) عبر النيل بسوهاج سنة ٣٨٣ وقد تنيحّ إما سنة ٤٥١ أو سنة ٤٦٦ وأدار الدير ٦٥ سنة ، ووضع نظاماً خاصاً أكثر شدة وأكثف فى العمل اليدوى (عن النظام الباخومى).

وقد أمكنه تقديم قمح من مخازنه لإطعام اللاجئين من غزو البلماى (Blemye) للصعيد ، ويذكر Milne أنه عال نحو عشرين ألفا من الرجال والنساء والأطفال لمدة ٣ أشهر، وأطعمهم بنحو ٨٥٠٠٠ أردب قمح، علاوة على أغذية أخرى[1] .

وكانت الوثنية قد خسرت آخر جولة بتدمير معبد "السيرابيوم" واغتيال هيباشيا سنة ٤١٥م(أستاذة الفلسفة الأفلاطونية فى المدرسة الوثنية التى كانت تحتضر هى الأخرى).وقاد الأنبا شنودة حملة من الرهبان لتحويل معابد قدماء المصريين إلى كنائس ، رغم معارضة كهنة الأوثان بشدة.

---

(1) Milne , Roman Egypt , pp. 223-25.

وقد صحب الأنبا شنودة البابا كيرلس الكبير في مجمع أفسس سنة ٤٣١م . وكانت مأساة مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م قد كثفت من الشعور الوطني لدى الأنبا شنودة ، وقام بحملة لتطهير كل الطقوس والأدب القبطي من كل عنصر إغريقي (وكتب بالقبطية بدلاً من اليونانية التى كانت لغة المستعمر).

وكان واعظاً لا يكل ، وكاتباً عظيماً ، وقد جعلت كتاباته اللغة الصعيدية هي السائدة.واقتصرت اللهجة القبطية الأخميمية على الكلام العامى.

ولم يكن لاهوتياً، بل كان أديباً وإدارياً، وعدواً للوثنية والهللينيّة (اليونانية السائدة في الأقطار المحتلة). وصار أتباعه أكثر من ألفين من الرهبان ، ومثلهم من الراهبات ، وكلهم أقباط . وهى حقيقة قد أدت إلى اختفاء اسمه من كل الأدب الأوربى المكتوب عن آباء البرية المصرية .

وطبقاً لرأى الكاتب Worrell :"كان الأنبا شنودة رجلاً من أعظم ما أنتجته الكنيسة القبطية . وهو حقاً مؤسس المسيحية القبطية"(١) . وهو مانقبله بتحفُّظ ، وخاصةً فيما قاله أيضاً :"إن شنودة كان أعظم الكُتابّ باللغة القبطية"(٢) .

ويذكر المؤرخون أن وادى النطرون كان يضم ٥٠ ديراً ، وقد أشار الأمير عمر طوسون إلى نحو ٢٥ ديراً، ولم يتم الحَفر فيها . وفي القرن ١٥ ذكر المقريزى ٨٦ ديراً في كل مصر ، ولكن العدد الأصلى لابُد أن يكون اكثر من ذلك بكثير (ولاسيما أنه كان على الساحل الشمالي الغربى لمصر نحو ٦٠٠ ديراً، قبل أن يهدمها الفُرس فى القرن السابع) .

+ + +

---

(1) Worrell , Short Account of Copts, p. 22.

(2) Idem .p. 20.

نتائج مجمع خلقيدونيا :

• أصحاب الطبيعة الواحدة ضد أصحاب الطبيعتين :

(Monophysitism Versus Diophysitism)

كان حصيلة مجمع خلقيدونيا سنة ٤٥١ حدوث أول وأكبر إنشقاق في الكنيسة الرسولية . وقد أطلق أهل الغرب على مسيحّيى المشرق monophysite ، بينما وصف الشرقيون الغربيين بأنهم diophysite.

وقد تزعمت الكنيسة المصرية الكنائس الشرقية (الأرثوذكسية)، ونمت فيها الروح الوطنية تجاه الاستعمار البيزنطى، الذى بلغت قمة اضطهاده للأقباط في عهد جستنيان (٥٢٧م-٥٦٥م).

ويتبّرأ الأقباط من اتهام الغرب بأنهم أوطاخيون . وهى البدعة التى نشأت في القسطنطينية ، وهى بدعة شريرة ، نادت بأن لاهوت المسيح قد ابتلع تماماً ناسوته ، بينما يؤمن الأقباط بمبدأ الطبيعيتين- اللاهوتية والناسوتية- المتحدتين سرياً في واحدة ، بدون امتزاج ولا تغيير .

وقد استند علماء اللاهوت الأقباط على النصوص الكتابية ، وعلى نص قانون الإيمان النيقوى، وصيغة البابا كيرلس الكبير. وقد تمسّك الأقباط برأيهم[1]، وبالنسبة لليعاقبة (السريان) كتب الأب الهندى صموئيل (V. C . Samuel) رسالة بجامعة ييل (Yale) عن "لاهوت المسيح" (Christology) عند البطريرك ساويرس الإنطاكى واقترح الاصطلاح : "Meaphysitism" لتوضيح صيغة الاتحاد، بدلاً من الاصطلاح الخاطئ :"Monophysitism".

---

(1) Wahib A. Girgis (Bishop Gregorius), The Christological Teaching of the Non-Chalcedonian Churches. Cairo 1962)

والقمص كيرلس الانطونى (أنبا باسيليوس مطران القدس الراحل) عصر المجامع ١٩٥٢ ، ص ١٧٢ وما بعدها (من أعدادنا ، وطبعة مكتبة المحبة).

وأما الكاتب فرنسيس العتر ، فهو يُشير إلى الرأى القبطى ، ولكنه يعتمد في ردّه على الوثائق الكاثوليكية(٢) . (والكثير منها يشهد بصحة العقيدة القبطية الأرثوذكسية وُيبرِئ البابا ديوسقورس).

وقامت السلطات البيزنطية بخلع ونفى البطريرك الوطنى ديوسقورس ، ووضع آخر بدلاً منه على كرسى الإسكندرية. وهو المدعو بروتيريوس Proterius (٤٥٢م-٤٥٧م) وكان سهل الانقياد للمستعمر البيزنطي ، وتحت حمايته العسكرية .

وعلى الفور ، كان رد الفعل القبطى ، هو انتخاب منافس وطنى له،هو البطريرك "تيموثاوس" (Timothy Aelurus). وبذلك أصبحت بطريركية الإسكندرية تضم إثنين : البطريرك الملكانى، ويعين من القسطنطينية والمطيع لقرارات مجمع خلقيدونيا ، والثاني وُصِف بأنه بطريرك الطبيعة الواحدة وهو وطنى ، ووقف صامداً أمام البطريرك الدخيل ، ونمت بسرعة الروح الوطنية(٣)، وسار الوضع البطريركى المزدوج في سلسلة لفترة طويلة.

وقد انتهز البعض انشغال الحاكم البيزنطي العام في الإسكندرية في حرب الوندال والبلمير في الصعيد ، فانقضت الجماهير الغاضبة على البطريرك الدخيل بروتيريوس ، فاغتالوه وجرّوه في شوارع المدينة وأحرقوه. وبذلك صار تيموثاوس هو البابا الوحيد ، وتدعّم مركزه سنة ٤٧٥م ، عندما قام باسيليوس بطرد الإمبراطور زينون (Zeno) من عاصمته ، وكان الأول يميل بشدة نحو الطبيعة الواحدة .

---

(٢)Fransis El-Itr, The Coptic Nation (Cairo 1953) pp. 39-63.
(3) + Woodward , Christianity & Nationalism in the Later Roman Empire (London 1916)
+ Aziz S. Atiya , "The Coptic Church and the Nationalist Trend , in Byzantine Egypt (in Arabic) Bult. of the Royal Society of Historical Studies, 111, I (Cairo 1952), 1-14.

ولم يستمر هذا الوضع طويلاً ، إذ سرعان ماعاد زينون إلى عرشه . وتنيَّح البابا تيموثاوس قبل أن يخلعه زينون . وأختار زينون المدعو تيموثاوس (T. Salophaciolus) في مقابل البطريرك الوطنى المنتخب بطرس منغوس (P. Mongos) ، ومات البطريرك الدخيل سنة ٤٨١م ، وصار البابا المصرى هو الوحيد على الكرسى المرقسى .

ودون رغبة الإمبراطور، أعطاهم أسقفاً متمسكاً بالأرثوذكسية يسمى يوحنا (J. Talaia) والذى تمتع بدعم روما . وزاد الاضطراب باختيار الأقباط يوحنا آخر (John of Tabenna) ليخلف البابا بطرس ، ولكن لا هذا ولا ذاك تمتع برضا الإمبراطور البيزنطي .

فإن الأسقف البيزنطي أرتكب أعمالاً حمقاء ، وهرب إلى روما ، بينما الثانى احتقره زينون .

وكانت قد قامت صلات تقارب بين أكاشيوس (Acacius) (٤٧١م-٤٨٩م) بطريرك القسطنطينية وبطرس منغوس المصرى ، بينما كان زينون قد بدأ يفقد الأمل في إخضاع الأقباط بالقوة ، لذلك فقد تم اختراع فكر جديد، لاسترداد سلام ووحدة الكنيسة والإمبراطورية .

منشور الاتحاد: (Henoticon)

وتم وضع صيغة عُرِفَت باسم **"قانون الاتحاد"** ؛ في محاولة لإيجاد صيغة تكون مقبولة لدى الأقباط، بدلاً من رأى مجمع خلقيدونيا . وفي الواقع كان أكاشيوس ومنغوس هما مهندسى هذا القرار ، ويهدفان إلى إرجاع الكنيسة إلى لاهوت ما قبل خلقيدونية . وفي عام ٤٨٢م استطاعا بسهولة إقناع الإمبراطور زينون بالموافقة على تلك المحاولة.

ونص منشور "الاتحاد" على اعتماد قرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى، وحرم نسطور وأوطاخي وأنصارهما ، وأن المسيح هو من نفس طبيعة الآب ، وأنه يجمع الطبيعتين . وفي صياغة القرار (Henoticon) بُذلت عناية خاصة لتجنب ذكر الطبيعة والطبيعتين . وحرم كل ما يعارض غير هذا النص .

وكان خطوة هامة نحو قبول ذوى الطبيعة الواحدة ، واقتراب كنيستّى الإسكندرية والقسطنطينية من بعضهما ، رغم أن هذا الترتيب لم يسعد روما على الإطلاق.

وبمجرد أن تدارس الناس هذه التطورات ، فلم تلقَ قبولاً تاماً من الجانبين ، وقد تأثر الإغريق (الروم) بقرارات العاهل الرومانى فيلكس (Felix) وحرَم مجمع روما سنة ٤٨٤م لأكاشيوس ، وقد تم القبض على ممثلى روما في القسطنطينية. وحبسهم الإمبراطور زينون .

كما لم يكن من السهل على الطرفين المصرى والقسطنطينى قلب آراء مجمع خلقيدونية . وقام أكاشيوس بعدم ذكر أسم البابا الرومانى فى صلوات القداس . وحدثت جفوة بين القسطنطينية وروما ، عُرِفت في كتابات مؤرخى الرومان بالانشقاق الأكاشى (Acacian Schism) واستمرت لمدة ٣٥ سنة .

ورغم موت أكاشيوس سنة ٤٨٩ ، وبطرس منغوس سنة ٤٩٠ وزينون سنة ٤٩١م ، فقد ظل منشور الاتحاد معترفاً به ، في عهد الإمبراطور الجديد "**أنسطاسيوس الأول**" (٤٩١-٥١٨) حتى موته.

وفي ذلك الوقت ظهر "**الأنبا ساويرس**" بطريرك إنطاكية وكان لاهوتياً أرثوذكسياً بليغاً.

ولما تولى الإمبراطور يوستنيوس الأول (٥١٨-٥٢٧) انقلب الوضع بتشجيع من ابن أخيه جستنيان ، وكانا كلاهما من أتباع آراء مجمع خلقيدونيا .

وتم طرد ساويرس من كرسيه وهرب سراً لمصر ، لأنه كان هناك عزم على قتله . وتم إعادة الاتحاد مع روما بيد البابا Hormisdas ، الذى أرسل مندوبيه إلى روما بصيغة أخرى حرمت أوطاخي ونسطور وديوسقورس وأكاشيوس ، وكل أصحاب الطبيعة الواحدة .

وعندما تولى جستنيان العرش (٥٢٧م-٥٦٥م) تدخل في الخلافات الدينية . وفي البداية مال نحو رأى مجمع خلقيدونيا ، ولكنه تجنب النزاع مع أصحاب الطبيعتين . وعمل على استرداد وحدة وقوة الإمبراطورية.

وكانت الإمبراطورة ثيؤدورا (Theodora) زوجته تدافع عن أصحاب الطبيعة الواحدة بكل ما أُوتيت من قوة . وقد أقنعت زوجها لعقد صُلح للجماعات اللاهوتية والدينية المتعادية.

وفي عام ٥٣٣م شعر ساويرس الانطاكى بدرجة من الأمان حتى أنه جاء إلى القسطنطينية مع مندوبين من مصر ، ولكن لم تُتخذ أية قرارات حاسمة .

ولكى يُرضى جستنيان أصحاب الطبيعة الواحدة (الأرثوذكس) ويجذبهم للاتحاد ، أصدر قراراً سنة ٥٤٤م ، أدان فيه ثلاثة أقطاب من النساطرة ، ويُسمَّى :"الفصول الثلاثة" (Tria Kephalaia) وهم ثيؤدوريت المبسوسى ، وثيؤدوريت أسقف قيرش وإيباس (Ibas) من إديسا (Edessa).

وأما أحوال مصر وسياسات البيزنطيين تجاهها – في تلك الفترة– فقد تميزت بالتعقيد ، وفساد الإدارة ، والانقسامات الدينية .

وقد تدعَّم الملكانيون بقوات إمبراطورية ، وحل الخراب والفقر في الأديرة القبطية ، وقل الدخل وعدد الرهبان . وبينما كان الحُكام يقاومون الروح الوطنية، **كان الفُرس ، والبربر ، والبلميز** (النوبيون) يهاجمون الحدود ، كالنسور التي تنقضّ على الطيور الضعيفة.

وقسّم جستنيان مصر إلى قسمين إداريين (الدلتا والصعيد) وجعل لكل منهما حاكماً عاماً. لكي يخفف الحِمل على الحاكم العام الوحيد ، في تلك الظروف المضطربة ، ولكن دب الصراع بين الحاكمين .

ولما عيَّن أبوليناريوس (Apollinarius) لكرسي الإسكندرية سنة ٥٤١م، دعمه بقوات عسكرية ، لتنفيذ سياسته الدينية ، ولم يُعطِه الحق في جمع الضرائب المباشرة من الكنائس ، ليتم ترميمها، ولمصاريف رعايتها .

وقد سبّب ذلك مزيداً من المشاكل للأباطرة التاليين ، فقد أعطوا سلطات الكنيسة المصرية (الدُخلاء) مزيداً من السلطات (الإدارية)، مما أدى إلى بدء مرحلة جديدة من الاضطهاد للأقباط . وكانت بين مسيحيين (أرثوذكس) ومسيحيين (روم). وماترتب على ذلك من نتائج ضارة، ومنها معاناة الأقباط من الظلم والقتل ، بيد مسيحيين مثلهم للأسف!!.

وقد سعىٰ جستنيان لنشر المسيحية بين الشعوب الوثنية على حواف الإمبراطورية ، فشجع على التبشير في النوبة ، وإن كانت زوجته "ثيؤدورا" قد سعت لإرسال مبشرين من الأرثوذكس بدلاً من الملكانيين .

كما أغلق معبد إيزيس في جزيرة فيلة (في أسوان) وآمون في واحة سيوة ، وجعلهما كنائس مسيحية . ويعتبر من أهم مُشيديّ الكنائس في المسيحية الأولى . وقد بنىٰ دير "**سانت كاترين**"(٤) في سيناء (ولا يزال عامراً بالرهبان الروم إلى الآن).

+ + +

---

(٤) كما سعى إلى نشر المسيحية في جنوب ليبيا ، وبنى ديرين – في نفس الفترة– في واحتيّ أوجلة وغدامس (راجع تفاصيل ذلك في كتابنا عن **الخمس المدن الغربية**).

وحدة المشيئة الإلهية (Monotheletism):

تُشكِل الأيام الباقية – للحُكم البيزنطى لمصر – أكثر أوقاتها أسىً. وليس فقط في مشاكل تتابع الأباطرة واستغلال السُلطة في القسطنطينية ، انعكست على سوء الإدارة في مصر ، ولكن التنظيمات الجديدة لجستنيان قد جعلت البلاد في فوضى بسبب صراع الحُكام ، فعانت مصر من سلطان المستعمرين بالداخل، ومن الغُزاة بالخارج .

وقامت جماعات السطو المنظمة بنهب المدن مثل : أبو صير (Busirius) ، كينوبوليس (Kinopolis) وهما قريبتان من مركز السُلطة في الإسكندرية . بينما انشغل كل والٍ بخلع آخر، في تلك المدينة العظمى .

وكان يهتز عرش الإمبراطور فوكا (Phocas) البيزنطي (٦٠٢م–٦١٠م) تحت أقدام القائد البيزنطي هرقل (Heraclius).فعبَر بجيوش أفريقيا البحر المتوسط ، وطرد خصمه (فوكا) سنة ٦١٠م وتولى حكم الإمبراطورية الشرقية.

وبينما كان ذلك الأمر يحدث ، كانت القوات الفارسية – بقيادة خسرو – تتقدم نحو ولايات سوريا وفلسطين البيزنطية .

وفي اللحظة التى تولى فيها هرقل الحُكم (٦١٠م–٦٤١م) كان خسرو على مرئى من مدينة إنطاكية العُظمىَ ، وفي عام ٦١٣م دخل دمشق وفي سنة ٦١٤م استولى على أورشليم ، وحمل الصليب المقدس ، وكل أدوات آلام المسيح ، وأهداها للملكة اليعقوبية المسيحية "شيرين" في عاصمته "ستيسفون" (Ctesiphon).

بينما كان أحد قواده يتجه مباشرة نحو البسفور ،وكان قائداً (فارسياً) آخر يغزو مصر. وبقَى فيها الفُرس نحو ١٠ سنوات.

وكانت حالة الإمبراطورية البيزنطية ، يُرثىَ لها ؛ وبدَى عليها التدهور ، ولكن استطاع هرقل عبور البحر المتوسط وهبط بجيشه في خليج الإسكندرية واستطاع سنة ٦٢٢م طرد الفُرس من هذه النقطة ، ثم اتجه إلى آسيا الصُغرى وفاجًأ مركز الفُرس هناك ، فاضطروا أن ينسحبوا من مصر سنة ٦٢٧م.

وزادت شهرته بعد اكتشاف صليب المسيح ،وعودته به منتصراً ووضعه في القبر المقدس بأورشليم .

وعادت مصر للُحكم البيزنطي ؛ ولكن هرقل لم يتعلم شيئا من الدرس القاسي ، ولم يعد يحيى سياسات جستنيان في مصر ، ولكنه كثفها أيضا !! ، فقام بتعيين بطريرك ملكانى، وصار حاكماً عاماً لكل مصر ، وله سُلطات دينية وحربية ومالية وإدارية وقانونية واسعة !

وفى حرصه على كسب الغالبية الأرثوذكسية القبطية ، التجأ إلى فكرة جديدة لتحل محل منشور الوحدة (Henoticon) الغير ناجح ، فأعلن سنة ٦٢٢م المبدأ الجديد عن وحدة المشيئة "Monotheletism" على أن يسود في الولايتين المضطربتين سوريا ومصر، ودون لمس المسألة المشتعلة بين وحدة وطبيعتىّ المسيح ، فإن لاهوت وحدة المشيئة Monothelete يرتكز على وحدة المشيئتين البشرية والإلهية ، اللذين كانا متطابقتين (Identical) وغير متغيرتين ، وفي تناسق معاً .

وكان الأمل في قبول الأرثوذكس لهذه الصيغة بسهولة ، بينما كان مؤيدو مجمع خلقيدونية يرون أنها لا تتعارض مع الطبيعيتين ، وأن السيد المسيح له مشيئة واحدة ومتحدة . ولهذا يبدو أنها توافق بعض الآباء من الفريقين .

ومن الجدير بالذكر أن من بين الذين قبلوها أثناسيوس (٦٢١م-٦٢٩م) بطريرك إنطاكية ، أنوريوس الأول (٦٥٢م-٦٣٨م) بابا روما ، ومن الملاحظ

أن موافقة أهل إنطاكية عاشت بين المارونيين (Maronites) في لبنان ، بينما قابل العاهل الروماني معارضة شديدة من أساقفة الغرب .

وفي سنة ٦٣٨م أصدر هرقل قراره (Ecthesis) ناوياً إرغام الكل على قبول **مبدأ وحدة المشيئة ، وقد رفضه الأقباط كالعادة ، خوفاً من أن يكون خروجاً على مبادئ عقيدة لاهوت المسيح** التى نادى بها كل من أثناسيوس وكيرلس الكبير ، وكذلك الحذر الوطنى جعلهم يترددون في التحرُّك من التقليد الثابت للتقابل – مع السلطة الاستعمارية– في منتصف الطريق، في أمور الإيمان .

ونظراً لأن مصر كانت هى مصدر الحبوب للإمبراطورية . ولذلك كان من العسير على هرقل أن تنفصل عنه لأسباب دينية ومدنية ، فأراد أن يفرض رأيه على تلك الولاية بوسائل حمقاء. وفي سنة ٦٣٠م تذكّر واحداً من أول مؤيديه في مبدأ المشيئة الواحدة ، وكان أسقفاً لمدينة Phasis في القوقاز ، بالقرب من البحر الأسود. وكان اسمه قيرش (Cyrus) وكانت له ميول للنسطورية .

وكان أصله مثار شك ، ولكنه كان صالحاً تماماً لتنفيذ الفكر الإمبراطوري والخاص بسياسته الدينية .

لذلك جعله هرقل بطريركاً للملكانيين في الإسكندرية والحاكم البيزنطي العام لمصر ، بشرط أن يجعل الأقباط يؤمنون بآراء مجمع خلقيدونيا ووحدة المشيئة بالعنف .

وكان قيرش هذا – الذى دعاه العرب المقوقس– ربما قد وصل الإسكندرية سنة ٦٣١م ، وبدأ ينفذ خططه بدون رحمة . ولمدة عشر سنوات، كان من أكثر الرجال الطاغية المكروهين في مصر ، وانحطت شعبية هرقل الذى كان قد استرد الصليب من الفُرس إلى الحضيض ، وانتهى كل وجه للولاء للقسطنطينية بسبب تصرفات البطريرك الاستعماري ، والذى فرض على الكهنة والشعب القبطى قبول آرائه أو قتلهم !

وهرّب البابا بنيامين الأول (٦٣٣م-٦٦٢م) إلى أماكن مجهولة وبعيدة في أديرة الصعيد الأعلى. وظل هناك في السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطى لمصر، وحتى مجيء العرب (٦٤١م).

وتم استشهاد مينا ، وهو أخو البابا بنيامين ، بيد قيرش ، في موجة الاضطهاد الجديدة التى اكتسحت كل البلاد.

وطبقا لما ورد في كتاب "تاريخ البطاركة" (لابن المقفع)[٥] بأن :"قيرش عذبه بوضع مشاعل حول جسده، وكسر أسنانه، لأنه اعترف بالإيمان (الأرثوذكسي)، وأخيراً أمر بملأ جوال من الرمل وألقاء القديس مينا فيه ، وغرقه في البحر"!!.

وكان قيرش يقوم بزيارات للمدن والقرى بالدلتا والوادى ، مُخلِفاً وراءه الدمار والفزع والسجن والقتل.مع مصادرة أدوات وأموال الكنائس القبطية ، **كما ذهب إلى الأديرة لمعاقبة رافضي آرائه ، وحتى المتوحدين والنُساك كان يقبض عليهم ويعذبهم حتى الموت .**

وسيرة صموئيل (المعترف) الناسك بدير القلمون في برية أرسينوى (جنوب الفيوم) مثال لاحتمال عذابات البطريرك الدخيل والحاكم العام .

وقد تم جره من صومعته بعد تقييده بالسلاسل ، وحلقة حديدية حول رقبته مثل أشد الوحوش ضراوة .

وتم نقله إلى الفيوم ، حيث تم ضربه على فمه، والهُزء به ، وتعرض لكل أنواع العذابات الشيطانية ، وتم أمر الجند بذبحه ، ولكن تم إنقاذه بيد تلاميذه ليلاً، حيث حملوه بين الحياة والموت .

وعانت الكنيسة من هذا المستعمر الملكانى الملعون . وقد سجل تاريخ البطاركة[٦] عذابات كثيرة للأباء ومنهم مثلاً بقطر أُسقف الفيوم (Piom)، وقيرش،

---

(٥) قمنا بإعداده ونشرته مكتبة المحبة (٢٠٠٤م).

(6) Cfr. History of Part. Ed. Evetts, 11, 227.

أسقف نيقيوس (Nikiou) بالمنوفية ، ولكن ظلـــت الغالبيـــة القبطيـــة مؤمنيـــن بالأرثوذكسية حتى النهاية ، وكرهوا الطُغاة البيزنطيين ، وزادت الثغـــرة اتساعـــاً بينهم ، **ووقفوا يتفرجون على ما فعلَه العرب بهم** ، حتى سجد البيزنطيون تحـــت أقدامهم !! (وغادروا البلاد رغم أنفهم).

+ + +

٥- الأقباط تحت حُكم العرب : (Arab Rule)

• الغزو العربى لمصر : (Conquest)

كان مجيء العرب لمصر[1] – كمجيء القديس مار مرقـــس للإســـكندرية- حادثاً له نتائج عديدة. وتأثيره كان كبيراً في تاريخ مصر كلها.

ولم تكن مصر مجهولة للعرب ، لأن ابن العاص – الذى غزَاها- يظهر أنـــه قاد الكثير من قوافل التجارة إلى الإسكندرية ، وعرِف فخامتها وغِناها .

ولهذا لا نستغرّب أنه بعد الاستيلاء العربى على سوريا بعد معركة الـــيرموك (١٠ أغسطس٦٣٦م) والاستيلاء على أورشليم (٦٣٨م) ، فإن ابن العاص رجـــا الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤م-٦٤٤م) ليسمح له بغزو مصر ، أعظم الولايات البيزنطية غنىً. كما كان عمرو معتاداً على مواقعها وتحصيناتها الحربية.

وإذا كان الفُرس قد استطاعوا السيطرَة على مصر مرتين ، فإن العرب الذيـــن غلبوا الفرس في معركة القادسية (٦٣٦م) يمكن أن يقوموا بنفس العمل وأكـــثر . كما ظهر ضعف قوة الجيش البيزنطي ، خاصةً بعد الاستيلاء على الشام .

وكان الخليفة قد ترددت مخاوفه ، بعد الاستيلاء على القدس وعودته إلى بلاد العرب ، لذلك أسرع بإرسال رسالة إلى قائده (ابن العاص) لـــيرجع ، لـــو أنـــها

(1) Butler, The Arab Conquest of Egypt, and the Last Thirty years of the Roman Dominion (Oxford 1902)

وصلته قبل عبور الحدود المصرية ، وإن وصلته بعد ذلك فليستمر في الغـــزو ، وسُيدعَم بقوات إسلامية مكثفة .

ولم يفتح ابن العاص الرسالة ، ألا بعدمـــا وصـــل الأربعـــة آلاف فـــارس الراكبين الخيل إلى حدود مصر ، عند مدينة العريش ، ثم تقدموا في شمال سـيناء إلى الفرما (Pelusium) وهى القلعة القوية على حدود مصر ، والتى اعتُـــبرَت بوابة الدلتا ، والتى سقطت في أيديهم بعد شهر واحد ، في بداية سنة ٦٤٠م .

وبعد شهر آخر ، تم الاستيلاء على بلبيس (شرق الدلتا) ، وتم قتل ألف مـــن حاميتها البيزنطية ، وأسر ٣٠٠٠ جندى آخر.

ثم وقف الغزاة العرب عند قلعة بابليون Babylon الإستراتيجية عنـــد رأس الدلتا[1] ، وكان البيزنطيون يحكمون مصر منها .

وحاصرها العرب ، إلىْ أن وصلت قوات أخرى بقيادة الزبير بـــن العـــوّام فوصل عددهم إلى عشرين ألفاً . واستولى العرب على عين شـــمس وممفيـــس ، وأغاروا على الفيوم ، وكل ذلك تم سنة ٦٤٠م .

واختار كيرش – الذى أسماه العرب خطأ عظيم القبط– أن يتفـــاوض علـــى تسليم الحصن ، وهو ما حدث يوم الجمعة العظيمة الموافق ٦ أبريل سـنة ٦٤١م. وقد حاول هذا الأناني أن يتمتع بامتيازات خاصة مـــن الغـــزاة ، ولكـــن كـــانت شروطهم الثلاثية ، إما قبول الإسلام ، أو الاستسلام غير المشـــروط مـــع دفـــع الجزية ، أو السيف (الحرب) حتى يحدد الله مصير المتحاربين .

---

(١) وقد بناها الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧م) على أساسات قلعة فارسية قديمة ، والنُطـــق العربى (Bab-al-yun) هو النطق اليونانى للعبارة المصرية "Pi-Hapi-n-On" أى بلدة النيل أون ، وسماها العرب قصر الشمع ، حيث كانت تُضاء ليلاً بالشموع أو الشُـــعلات (**هـــامش أصلى**).

وكان سقوط هذا الحِصن العظيم صدمة كبيرة لكلاً من الأقباط ، والمستعمرين البيزنطيين. ثم سقطت عدة مدن أخرى في الطريق إلى الإسكندرية، ومنها نيقيوس (في رأى كاترَمير هى شبشير) على فرع رشيد ، وقد تم ذبح كل حُراسها في مايو سنة ٦٤١م .

وكان حصار الإسكندرية يبدو أطول ، بسبب تحصين أسوارها وقوة قلاعها، وكان يحميها عشرة آلاف من المسلحين بآلات الحرب ، والنار الإغريقية المُرعِبة ، وكان البحر مفتوحاً لهم لوصول المَدد.

ومن ناحية أخرى ، فقد كان العرب غير مدربين على أسلوب الحصار ، ويتفوقون فقط في المعارك المكشوفة ، وكانت الإسكندرية يمكن أن تُقاوِم ، لولا أنها كانت تحت يد قيرش ، الذى سحبه هرقل من مصر ، وكان قد تولى إبنه الحُكم البيزنطي بعد موت أبيه سنة ٦٤١م.ثم عاد قيرش لمصر!

وأُعيد فتح المفاوضات بين قيرش والعرب ، وكان يأمل أن يظل مسئولاً عن الكنيسة المصرية تحت رعاية الغزاة. وتضايق سكان الإسكندرية من تسليم المدينة للعرب في سبتمبر سنة ٦٤٢م • وكذلك من موافقة قيرش على أن يدفع كل شاب – للعرب– جزية قدرها دينارين من الذهب .

فأرسل أهل الإسكندرية للإمبراطور الجديد،الذى أرسل لهم أسطولاً من ٣٠٠ مركب بقيادة الأدميرال مانويل ، فاستعاد الروم المدينة مؤقتاً ، ولكن سرّعان ما استردها العرب بسبب الخيانة !!.

وهدم العرب أسوار المدينة لمنع أية حوادث مماثلة . وأصبح مصير مصر كلها بيد العرب . وتوّج ابن العاص غنائمه بالاستيلاء على ٤٠٠٠ قصر ، ٤٠٠٠حمّام عام ، ٤٠٠ مسرح في الإسكندرية . وكان بها ٤٠,٠٠٠ يهودى يدفعون الجزية ، ٦٠٠,٠٠٠ مسيحيّ، ماعدا النساء والأطفال .

وتضمن غزو الإسكندرية مأساة حرق مكتبتها العظيمة بيد عمر بن العاص ، بناء على تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب . وهذا الموضوع أشار إليه – لأول مرة– الرحّالة الفارسي :"عبد اللطيف البغدادى" (المتوفى سنة ١٢٣١م)(١) والأسقف السرياني حبريوس(٢) (Hebraeus) (المتوفى عام ١٢٦٨م).

وأن ابن الخطاب كتب لابن العاص قائلاً إن كانت تتوافق مع القرآن فلا داعى لها ، وإن كانت لا توافق فيجب إزالتها ، لأنها خطيرة على روح الإسلام، ويجب حرقها .

ولذلك استُخدِمت مجلداتها كوقود للحمامات العامة في الإسكندرية لمدة ٦ أشهر . ولكن لم يُشِر أحد المؤرخين المعاصرين لهذا الحدث إلى هذه الرواية . وكان هناك شك في أن آثار المكتبة البطلمية قد ظلت حتى الغزو العربى ، حيث أن جزءاً كبيراً منها قد تدمر ، حلال حروب يوليوس قيصر في الإسكندرية سنة ٤٨ق.م ، كما أنه فيما بعد – في القرن الرابع – قام المسيحيون بتدمير وإحراق المباني الوثنية ، وربما حدث ذلك للمكتبة والمتحف ، أو ما بقى منهما من آثار .

وبعبارة أخرى ، فإن حرق حمامات الإسكندرية العامة ، ومكتبتها ، من الموضوعات التاريخية التى لم يتم التأكد من صحة المعلومات عنها.

أما بالنسبة لموقف الأقباط ، في هذه الأوقات المضطربة ، فإننا نستفيد من المعلومات المحدودة أنه يبدو أنهم اتخذوا سياسة **"الحياد"** (في الصراع الرومى– العربى) . ورغم أن العرب كانوا يعرفون طرق القوافل على حواف الصحارَى المصرية ، فإنهم احتاجوا إلى مرشدين محليين للمناطق الداخلية . وقيل إن الذين قاموا بذلك هم اليهود وليس الأقباط .

---

(1) Historia Aegypti Compendiosa, (Oxford,1800) p.114.
(2) Historia Dynastiarum (Oxford,1663) p.114 Latin, p.180,Arabic text.

ومع ذلك قد تخلى الأقباط عن العطف على مضطهديهم الملكانيين القاسيين. وبالتالي لم يقدموا لهم أية مساعدة في حربهم للعرب.

ومنذ عهد جستنيان انقسمت القوات البيزنطية إلى وحدات محلية منفصلة ، وكان ينقصها العمل في وحدة ، وهذا العامل بالإضافة إلى الموقف العدائي للأقباط، قد أضعف الروح المعنوية للروم في وقت الأزمات (المعارك) الكبرى .

وكانت شخصية قيرش البغيضة قد أكدت عدم إمكانية تقديم المساعدة للروم، مما أسرع بوقوع الكارثة التى حلت بهم.

وفي هذه الأوقات الصعبة من تاريخ مصر ، لم يفقد الأقباط شيئاً بتغيير الحُكام . وكان الروم قد حاولوا القضاء على الحرية السياسية والدينية ، بينما جاء العرب – على الأقل في البداية– بإعطاء الأقباط حرية العبادة ، مع أنه قُدِر لهم أن يفقدوا استقلالهم السياسي ، على أية حال.

وكان موقف المسلمين نحو أهل الكتاب – أو أهل الذمة في مُسَمّاهم – الالتزام بما أتخذه عمر من موقف ديني معتدل نحو الأقباط ؛ وهو لم يتمتعوا به في أيام الاستعمار البيزنطي ، لفترة طويلة.

وقد أصبح هذا الموقف واضحاً بعد الحُكم العربى ، فقد عاد البطريرك القبطي بنيامين إلى كرسيه ، بعد أن ظل هارباً ومختبئاً لمدة عشر سنوات ، من المطاردين الملكانيين (الروم) . وأكرمه عمر بن العاص وأعطاه عهد أمان ، للقيام بمسئولياته الدينية في سلام.

وصفح البابا عن رجال الدين الذين آمنوا بعقيدة المشيئة الواحدة ، واسترد الكثير من الكنائس (التى استولى عليها الروم من قبل) ، وكثير من المؤسسات الديرية القبطية.

وفي أيامه ، وفي عهد خلفائه ، تمت استعادة الكنيسة الأرثوذكسية كل فنونها وآدابها ، ولمس الأقباط حرية العقيدة ، وتحرروا من سلطان الإغريق (الروم) ، ووجدوا لهم موضعاً في الإدارة الجديدة .

ومن ناحية أخرى ، فمن الخطأ افتراض أن العرب قد فضلوًا الأقباط على الروم، أو أن الأقباط ساروا في طريق مساعدة العرب.

فالعرب في الواقع لم يصنعوا أى تمييز طائفي بين الأرثوذكس والملكانيين. فالأقباط الذين كانوا يعيشون تحت إرهاب ديني ومدني ، وجدوا أنفسهم يُعاملون بالمساواة مع الملكانيين . ولكن من الجدير بالذكر ، أن العرب– على أية حال– لم يضعوا شخصيات رومية في مراكز رفيعة في الإدارة ليُرضوا الأقباط.

وكان كل هَمْ العرب في البداية جمع الضرائب، دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى[١] .

وقد قام العرب بفصل ثلاثة من كبار الحكام الروم ، والذين كان الأقباط يكرهونهم ، وهم "مينا" حاكم الدلتا ، وسانوتيوس حاكم الأرياف ، (Rif) وفيلوكسينوس حاكم أركاديا (مصر الوسطى) أو الفيوم[٢] . ويعطى ألفريد بطلر الانطباع إن الثلاثة كانوا مرتدين (renegades) ويذكر هذه العبارة المدهشة : " يعجب المرء إن كان سلوك المقوقس (قيرش) نفسه كان يبدو كما لو كان قد تّحول للإسلام سراً " !![٣].

---

(١) إذا كان العرب قد اهتموا بزيادة دخولهم من البلدان المسئولى عليها ، لكنهم أيضاً – فيما بعد – قد مارسوا سياسة الاضطهاد الدينى الشديد للأقباط ، والعمل على استخدام سلاح الضرائب لتحويل الأقباط للإسلام ، ابتداء من الولاة الذين جاءوا بعد ابن العاص ، بعد فترة هدوء قصيرة ، بعدما تمكنوا من بسط كامل نفوذهم على مصر ، كما سنرّى فيما بعد .

(٢) يذكر بطلر (من٣٦٢-٣٦٣) أن سانوتيوس كان قبطياً ، وليس رومياً ، وأن اسمه شنودة (كما قال كامل نخله) وأنه لعب دوراً هاماً في تدعيم العلاقات بين البابا بنيامين وابن العاص .

(3) Butler, Arab Conquest, Ibid. p. 263.

ويبدو أن الموظفين المحليين ، والصيارفة ، كانوا من الأقباط . وأن اللغة القبطية قد حلت محل اليونانية في المعاملات اليومية ، حتى ظهرَت اللغة العربية، كما نراه في البرديات المزدوجة اللغة .

وكان كل اهتمام العرب بدخل الولاية المصرية ، والذى شمل ضريبة عامة، عُرِفَت باسم "**الخَرَاج**" ، أو "الجزية" ، وتُحصل من كل شاب ، لإعفائهم من الخدمة العسكرية . وقد جمع ابن العاص ١٢ مليون دينار ذهبى(١) .

وأما الوالي الطاغية التالى –عبد الله بن سعد بن السرح– فقد جمع أكثر من هذا المبلغ بمليونى دينار ، مما أوجد سلسلة من الثورات المحلية القبطية ، وأكثرها دموية كانت ثورة البشامرة ، التى حدثت عام ٨٢٩م–٨٣٠م في مستنقعات الدلتا. وقد انتهى عنادهم الأحمق بطردهم إلى سوريا (والأصح إلى العراق) بعد هزيمتهم المحتومة .

وعلى أية حال ، كانت قسوة العرب الغزاة لمصر – بصفة عامة– لا تعادل الحملات الدينية (الاضطهادات البيزنطية المتوحشة(٢) على الأقباط !!.

وظلت جملة الضرائب تقل خلال الحكم الأموي – ثم العباسي – وإلى أن بلغت في متوسطها ثلاثة ملايين دينار ، في القرن التاسع . وكان التناقص في الدخل كنتيجة التحول المستمر للإسلام ، للهرَب من الضرائب الباهظة ،

---

(١) ونضيف إليها ضرائب عينية من الحبوب والماشية والملابس ، وكل الاحتياجات اليومية للجيش العربى ، وراجع :

Adolf Grohmann, Arabic Papri in the Egyptian Library, 6 vols. (Cairo, 1934-62).

(٢) ولا توافق الكاتب على هذا الرأى ، لأن الظلم الذى عاناه الأقباط والاضطهاد العربى كان فوق الوصف (راجع د. سيدة كاشف ، مصر فى عصر الولاة) حتى انكمش عددهم من نحو ٢٤ مليونا إلى عدد ضئيل للغاية ، بتوالى الزمن، بعد فترة هدوء قدرها ٦٠ سنة فقط.

المفروضة على المسيحيين ، وظل الارتداد للإسلام بشدة ، حتى أن الولاة المسلمين لم يشجعوا عليه، لحماية دخل الدولة من المال (الجزية).

وقد بدأ الأقباط يتعودون على أن يعيشوا تحت ظل الاستبداد (الاضطهاد الاقتصادي العربى) والظروف الجديدة الصعبة ، على نقيض مسيحيَّ شمال إفريقية[1] والنوبة .

وإذا ما لخصنا الفوائد التى جناها الأقباط من الغزو العربى لمصر ، نجد أولها الحرية الدينية ، والاستيلاء على الكثير من كنائس الملكانيين (الروم) وغيرَها من المؤسسات التى أفرَغها الروم (بعد رحيلهم مع قوات الاستعمار البيزنطى).

وفي مجال الإدارة المحلية ، فقد احتكروا الأعمال الحكومية (المالية+ الإدارية). فقد أصبحوا كتبة وصيارفة ، كما تم إحياء الثقافة المصرية ، لملء الفراغ ، الذى نشأ عن الاختفاء المفاجئ للنفوذ البيزنطي !!.

وكان تدفق المال إلى جيوب الخلفاء الراشدين والأمويين ، قد توقف بقيام أُسر حاكمة مثل الطولونيين (٨٦٨م-٩٠٥م) ، والإخشيديين (٩٣٥م-٩٦٩م) الذين سيطروا على مصر من قبضة الخليفة العباسى في بغداد ، ثم تلاهم الخلفاء الفاطميون (٩٦٩م-١١٧١م) الذين استقلوا بمصر تماما عن الخلافة العباسية .

وكان الأقباط قد تعرضوا لبعض المضايقات من الولاة العرب ، مثل إرغامهم على ارتداء ملابس معينة (لتمييزهم عن المسلمين) ومنعهم من ركوب الخيل (والاكتفاء بركوب الحمير) !!.

ولما أصدر الوالى الأموي عبد الله بن عبد الملك قراره سنة ٧٠٥م **بجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية في كل المعاملات الرسمية** ، فقد دفع الأقباط

---

(١) حيث اختفت المسيحية من هناك فى وقت مبكر (راجع أسباب ذلك فى كتابنا "كنيسة الخمس المدن الغربية" الفصل الأخير).

إلى معرفة هذه اللغة ، علاوة على لغتهم ، التى ظلت سائدة – لعدة قرون– في المعاملات اليومية ، ثم لم تستمر القبطية كلغة كلام في نهاية العصور الوسطى ؛ رغم أنها لا تزال مستخدمه في الطقوس بالكنائس القبطية حتى الوقت الحاضر.

وكانت المتاعب التى تحدُث للأقباط ، راجعة –لحدٍ كبير– إلى نزوات الولاة، اكثر منها سياسة عامة لكل الحُكام . وقد جاءت فترات ازدهر فيها الأقباط تحت الحُكم العربى. وفى الواقع ، فإن معجزة بقاء الأقباط للآن ، **يمكن أن ترجع إلى سببين :**

وأولهما : إن المصائب التى تحملوُّها من العرب لم تكن دائمة ، وأن الضغوط المتقطعة عليهم ، كانت توصل إلى فترات هدوء ، وتفاهم بين أتباع الديانتين المتصارعتين ، ماعدا في حالات جنون الحُكام، مثل أيام حكم **الحاكم بأمر الله** . فإن الحاكم المسلم لم يحاول إبادة كل رعاياه المسيحيين ، بل على العكس ، كان الأقباط فى نظره مصدر دخل مناسب للدولة .

وثانياً : إن الأقباط أنفسهم قد تميزواً بالولاء والوفاء والانتماء التام لكنيستهم، وأن بناءهم الاجتماعي قد وحّد مجتمعهم ، وجعلهم الإيمان يحتملون الآلام عبر السنين (بحكمة روحية وعملية) .

وأن صفاتهم الخاصة ، كانت محل تقدير من جيرانهم المسلمين ، ومن حكامهم ، وعلاوة على ذلك ، فإن الأقباط قد أصبحت لهم قدرة خاصة على التعامل مع الحُكّام ، ولكن دون أن يفقدوا أسلوب حياتهم الداخلية (تقاليدهم) ولا شخصيتهم الدينية (المسيحية).

وقد احتملوا كل متاعب الحياة ، ولا يزالون في أمن وقوة . حقاً إنهم أقلية شُجاعة وصابرة (وهو درس هام لكل نفس الآن ، وفي كل زمان ومكان).

+ + +

القرون الخمسة الأولى :

بحلول السلام وإعلان الحرية الدينية - أو على الأقل - المساواة بين الأقباط والملكانيين المسيحيين، في عيون العرب ، وتقليل قيمة الضريبة البيزنطية من عشرين مليوناً ، إلى الخرَاج العربى ، وهو ١٢ مليون دينار ، وموقف الحاكم العربي (ابن العاص) من البطريرك القبطي بنيامين .

فإن الأقباط ، لابُد وأنهم قد عاشوا في فترة أقل تعباً ، كنتيجة لانسحاب السلطات البيزنطية الكريهة ، من العسكريين ومن رجال الدين ، بالإضافة إلى إتاحة الفرصة لامتلاك الأراضي والمنازل وأخذ الكنائس التى أخلاها الروم . وبإستثناء بعض المرتدين القلائل من الملكانيين ، فإن غالبية الوظائف الحكومية كانت من نصيب الأقباط .

ولكن أخطر رِدَّة حدُثت في عهد الوالى الذى تلى ابن العاص ، وهو عبد الله ابن سعد ، الذى جمع مليونين زيادة من الجزية عن سابقه ، وأثرَى من الحصول على المال بطرق الابتزاز .

وفي الواقع ، يبدو أن هذا هو النموذج السائد للقرنين التاليين تحت حكم الأمويين والعباسيين . واعتاد الخلفاء على اختصار مدة الولاة ، لمنعهم من تثبيت أقدامهم في حكم مصر ، واستقلالهم بتلك الولاية الغنية .

وطبقا للجداول التى أعدها ستانلى لين بول[1] ، فإن مصر قد حكمها خلال الفترة الأولى من الحُكم العربى - وهى ٢٢٦ سنة - ١٠٨ والياً على الأقل ، حتى عام ٨٦٨م ، عندما نجح الطولونيون في تكوين أول أسرة حاكمة مسلمة مستقلة في مصر .

---

(1) Stanely Lane –Poole, Ibid. pp. 45-58.

وكنتيجة لتلك السياسة ، فإنه لا أحد من الولاة – الذين كان متوسط حكمهم نحو سنتين ، قد اهتم بالبلاد وسكانها من قلبه .

ورغم جشعهم ، فقد تضاءلت جملة مبالغ الجزية المحصلة !! وهى حقيقة تحتاج إلى تفسير . فإذا نظرنا إلى تكرار انخفاض مياه النيل وانتشار المجاعات والطاعون ، وانعدام السياسة المركزية للاهتمام بالقنوات والسدود ونظام الرى ، قد نتج عنها دمار زراعي يتعذر علاجه ، مما قلّل من قدرة الفلاحين على دفع الضرائب .

وقد حدث ذلك ، رغم زيادة الرسوم المالية.وفرضِها على الرهبان والكهنة (الذين كانوا معافين منها من قبل). وتم عمل حصر جديد ، ووضع المزيد من الأراضي تحت الضرائب ، واستخدام الشهور العربية (القمرية) الأقصر ، بدلاً من الشهور القبطية الشمسية في المحاسبة مع الزرّاع[1] .

وكان فرض ضرائب مرتفعة ، في وقت انخفاض الدخل الشخصي ، قد أثار الأهالي ، ولكن تم قمع ثوراتهم بوحشية .

وقد حدثت خمس ثورات بين عامي ٧٣٩م-٧٧٣م ، ومن الجدير بالذكر أن بعض المسلمين قد شاركوا الثوار الأقباط ، في الاحتجاج على الضغط المالى الذى وقع على المسيحيين والمسلمين . وكانت أخطر تلك الثورات "التمرد البشمورى" سنة ٨٣١ في عهد الخليفة المأمون (العباسى) ، فإنه بعدما ساد السلام

---

(١) وتم ذلك في عهد الوالى عبد الله بن الأحدث (٧٢٤-٧٢٥) ، وبذلك زاد الدخل ٤ ملايين دينار ، رغم انخفاض أسعار الحبوب في ذلك الوقت . وتشير بردياته إلى التقديرات الضرائبية الجزافية . وعلى سبيل المثال تذكر بردية أن مزرعة ، تضم ١٥٩ فدانا ، تم تقدير ضرائب لها ٢٠٠ دينار ، وبعد الشكوى تم تخفيض المبلغ إلى ١٤٨ دينار (جاك تاجر ، أقباط ومسلمين ص٨٩).

بعد زيارته لمصر، والتصالح مع سكانها ، تجددت الضغوط حتى سنة ٨٦٩، عندما تولى الوالى العباسى الأخير أحمد بن المُدبِّر ، وعاد إلى إجراء إحصاء لكل رجال الدين المسيحيين والرهبان في أديرتهم ، وفرض على البابا سانوتيوس (شنودة) أن يدفع له حصة كبيرة من المال.

فاختار هذا البطريرك إثنين من أراخنة (كبار) الأقباط ، وهما ساويرس وإبراهيم ، وأرسلهما إلى الخليفة المعتز (٨٦٦م-٨٦٩م) لكى يخفف الضرائب عن كاهل الأقباط ، ويبدو أنه قد وافق .

كما تم إعفاء رجال الدين من الضرائب في عهد الخليفة التالى وهو المُهتدى (٨٦٩م-٨٧٠م) وأنه في خلال حكمه استطاع الطولونيون (٨٦٩م-٩٠٥م) ومن بعدهم الإخشيديون (٩٣٥م-٩٦٩م) الاستقلال بمصر (عن الخلافة العباسية).

ويبدو أن الأقباط قد تحسنت أحوالهم - بصفة عامة - مع هؤلاء الحكام الغير عرب ، الذين رفضوا أن يحل عربى محل الوالى ابن المدّبر ، بعد انسحابه، ولكنهم استخدموا الأقباط في الوظائف الهامة تحت إشرافهم المباشر. وأثبتت هذه الخطوة أنها نافعة لكلاً من الأقباط والحكام الجُدد.

وأما المشكلة الخطيرة الوحيدة ، التى عانى منها البابا شخصياً ، فقد رجعت إلى مؤامرة قام بها أسقف محروم[1] .

ويدين ابن طولون الفضل في بناء جامعه الشهير ومبنى مقياس النيل بالروضة إلى المهندس القبطى "ابن كاتب الغرغانى" ، وهما لا يزالان من أهم

---

(١) راجع تاريخ البطاركة لابن المقفع ، وروفيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، وقد تسبّب أسقف سخا الغير حكيم في الإيقاع بين البابا خائيل الثالث وبين أحمد بن طولون الذى طالبه بسداد مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، بدون مبرر ، ثم حبسه ، واضطر البابا أن يبيع من أملاك الكنيسة ، بما فيها كنيسة (الملاك ميخائيل) بمصر القديمة لليهود ، وهى مجمعهم الحالى بها ، وسدد نصف المبلغ ، وبعد موت ابن طولون أسقط إبنه خمارويه باقى الدين.

الآثار الإسلامية في القاهرة . وكان هذا المهندس القبطي هو مخترع القناطر (الأقواس) المُدببة قبل أن تظهر في المعمار القوطي بقرنين ، في أوربا . وكان هذا المهندس الوفي استخدم أعمدة من الطوب الأحمر ، لتجنب أخذ الأعمدة الرخامية من الكنائس لبناء جامع ابن طولون ، كما جرت عليه العادة في العصر الإسلامي السابق عليه .

وبلغت قيمة عظمة ، وكذلك شدة اندحار الأمة القبطية – في العصر الإسلامي– تحت حكم الدولة الفاطمية ، التى غزت مصر، وقَدُمَتً من تونس ، عام ٩٦٩م وظلت تحكمها حتى سنة ١١٧١م.

وأسس الفاطميون مدينة القاهرة ، التى صارت مركزاً لإمبراطورية تمتد من مراكش (المغرب) حتى سوريا • وازدهرت بها الأنشطة الثقافية ، حتى صارت القاهرة نِداً لبغداد، في العالم الإسلامي .

وكان الفاطميون الأوائل متسامحين جداً مع المسيحيين واليهود. وكان أول خليفة لهم –في القاهرة– هو المعز لدين الله الفاطمى (٩٥٢م–٩٧٥م)، وكان أكبر وزرائه القبطى قزمان بن مينا، المُكنّىَ "بابن اليُمن"، وقد ظل مسيحياً أميناً لدينه.

وكان نائباً للمعز في سوريا ، وأثبت جدارُة في الحُكم.وثباتاً في الحرب ضد الأتراك . وقد مات بتولاً ، وترك كل ثروته للبطريرك القبطى ، لصالح الكنيسة، وفقرُاء الأمة القبطية .

ويبدو أن المعز قد مال إلى الأقباط (بسبب أمانتهم وأخلاصهم التام في عملهم الرسمى) ، لدرجة أن كثير من المؤرخين الأقباط يشيرون إلى عطفه عليهم بعد إتمام معجزة نقل جبل المقطم(١) .

---

(١) فقد حاول الوزير اليهودى يعقوب بن كلس الإيقاع بين البابا وبين الخليفة المعز ، بدعوته له أن يطلب منه نقل جبل المقطم ، كما جاء في الكتاب المقدس (مت١٧–٢٠) ولما صلى البابا

والخليفة التالى له ، هو ابنه "**العزيز بالله**" (٩٦٧-٩٩٦م) الذى استمر على سياسة أبيه في التسامح الدينى، وتزوج بمسيحية ملكانية، وبتأثيرها عيّن أخويها : أرسانيوس وارستيدس بطريركيين (ملكانيين) للإسكندرية وإنطاكية .

وأزال العزيز كل تمييز اجتماعي بين المسلمين وأهل الذمة (الأقباط + اليهود) وعَيَّن مسيحيين في أكبر الوظائف بالدولة .

واستبعد الأقباط من كل ضرائب إضافية ، وسمح للبابا باسترداد الكنائس القديمة ، علاوة على بناء أخرى جديدة .

ولما ثار الغوغاء المسلمون الغاضبون وهاجموا الكنائس ، منح البابا حماية عسكرية ، وأصدر قراراً لاستكمال ترميم الكنائس، مع تقديم مساهمة مالية لهذا الغرض .

وقبل البابا شاكراً العرض ، ولكنه أعاد المنحة المالية إلى خزانة الدولة ، وسمح العزيز بالله للذين أسلموا بالعودة للمسيحية ، وقيل إنه لم يعاقب مسلماً تحول للمسيحية (الواضح بن رجا) على نقيض التعليم الإسلامي.(١)

= وصام مع شعبه ٣ أيام ظهرت العذراء مريم -في رؤيا له- وأرشدته إلى سمعان الدباغ (الخرّاز) ، الذى على يديه تمتّ المعجزة.وشهد المعز بصحة الإيمان المسيحى ، وتعرّف عليه، وتم تعميده. وقضى بقية حياته في دير ، وتنازل عن العرش لابنه ، وقد سجل هذه المعجزة الأسقف ساويرس (ابن المقفع) في تاريخه وكان معاصراً لهذا الحدث ، الذى تم في عهد البابا القبطى ابرام بن زرعة السريانى الجنس (٩٧٥م-٩٧٨م) وقد رفض الكُتاب المسلمون هذه المعجزة ومهم أحمد زكى باشا ، والدكتور عبد الله عنان (راجع جاك تاجر ، ص ١٢٠-١٢٢).

(١) ذكر كاترَمير ، ونيل،صواباً، أن "الواضح بن رَجا" صار مسيحياً ، في عهد البابا فيلوثاوس (٩٧٩م-١٠٠٣م) في عهد الحاكم بأمر الله ، وليس في عهد العزيز :

+Quatremère, Mémoires, 2 vols. (Paris 1811)

+ Neale, Hist. of Eastern Church, vol. 11, pp. 193-6.

وتم السماح للأقباط بحمل أرفع الألقاب الرسمية ، وتـــم تشـــجيع الحرفييـــن الأقباط ، العاملين في الفنون الحرفية مثل صُناع الخلِـــى والأثـــاث والأصبـــاغ والحدادة والبناء والدهان والهندسة والعمارة والزجاج ، وازدهرت الحِرَف التـــى تملأ المتحفين القبطي والإسلامي بالقاهرة ، بالإضافـــة إلـــى زخرفـــة الكنـــائس والجوامع المعاصرة .

وظهر الكثير من الأطباء الأقباط. والكُتابّ والإداريين ، مع أن معظم أدبـــهم الممتاز قد يرجع إلى عهد الدولة الأيوبية التالية. وتم تـــأليف تـــاريخ البطاركـــة الأقباط، وكان مُستمّدَاً من مصادر مختلفة بالأديرة ، خصوصـــا ديـــر القديـــس مكاريوس في وادى النطرون. وكتَبَهَ ساويرس أسقف الأشمونيين في عهد الحـــاكم بأمر الله (٩٦٦م-١٠٢١م) ، كما ترك ســـاويرس مؤلفـــات لاهوتيـــة صغـــيرة (مقالات) كثيرة ، وحوارات مع الواضح بن رجا ، وكان صديقاً له. وقد اعتمـــد على اسم المسيح ، وكذلك يهودى آخر صـــار مســـيحياً اســـمه "عبـــد المســـيح الإسرائيلى" ، الذى كتب في القرن ١١م ، وكان معاصراً للبطاركة خريستوذولس (١٠٤٧م-١٠٧٧م)، كيرلس الثانى (١٠٧٨م-١٠٩٢م) ، وغبريال بـــن تريـــك (١١٣١م-١١٤٥م) الذى وضع عدة قوانين كنسية ، ومقـــالات عـــن الإيمـــان ، وإصلاح حال الأقباط الذيـــن اعتـــادوا علـــى أخـــذ زوجـــات مـــن الســـرارى (Concubines) مثل المسلمين !!.

كما ظهر كثير من الإصلاحيين الأقباط مثل أبى ياسر بن القسطل ، والكـــاتب مرقس بن القُنّبر .

وأختفى مجد الأقباط – في عهد الفاطميين- خلال الاضطهادات المخبولـــة التى تمت في العصور الوسطى ، في أيام الخليفة "الحاكم بأمر الله" وكان مُصابـــاً

+ Sawiris, Hist. of Patr., Vol. 2, part 2, pp. 100-115.

بالجنون والشيزوفرانيا ، وقد دفعه ذلك إلى سفك دماء وتعذيب المسيحيين واليهود ، والمسلمين بدورهم ووقعت عليهم تصرفاته الحمقاء أيضا.

وفي البداية أرغم المسيحيين على لبس ملابس مميزة لهم ، كما أمرهم بحمل صليب وزنه ٥ أرطال ، وعلق في رقبة اليهود جرساً ثقيلاً .

وتم طرد الأقباط من أعمال الحكومة . وهدم كنائسهم بالسماح للغوغاء بتخريبها . ومن أخطر أعماله هدم كنيسة القيامة (القبر المقدس) وسوّاها بالأرض .

كما تم الاستيلاء على أملاك الأقباط وإذلالهم وحبسهم . وغيرها من كل أنواع الإرهاب الشيطاني ، وكان ذلك شيئاً عادياً كل يوم . وتم هدم حارة اليهود، وهلاك كل سكانها . وتم إغلاق معظم الحمامات العامة، وعدم السماح للنساء بالذهاب إليها ، ومنع النساء من الظهور في الشوارع ، ومنع أكل طعام معين (مثل الملوخية) وإلا تعرضوا للموت !!.

وفي آخر أيام الحاكم تصادق مع بعض الكهنة الأقباط ، وكان يتردد كثيراً على ديرهم في جنوب القاهرة ، في صحراء حلوان . ونتيجة لذلك تم التخفيف عن المسيحيين ، بينما شدد على أهل "السُّنَّة" المسلمين .

وأخيراً اعتنق مبادئ الاسماعيليين (الشيعة) وكان ينادى بها شخص يُدعى "دُوزى" (المتوفى سنة ١٠١٩م) ، والذى أُطلِق اسمه على **مذهب الدروز** (في لبنان وسوريا وإسرائيل للآن) وزعم الحاكم بأمر الله – في جنونه– بأنه الله المتجسد على الأرض ، ودعا رعيته لعبادته !! وكان اختفاؤه المفاجيء ، عندما كان يمارس التنجيم في جبل المقطم . بينما زعم أتباع أنه يحيا في هيئة إلهية إلى أن يعود للدنيا في نهاية العالم .

والواقع أنه تم قتله في مؤامرة دبرتها له أخته "ست الملوك" ، التى تعرضت للخطر ، لعدم موافقة الخليفة على شخصيتها وأخلاقها .

والقصة التى حدثت بعد ذلك – تحت حكم باقى الأسرة الفاطمية – للأقباط هى مختلطة ، بين الحرية الدينية التى تم استردادها مع باقى الكنائس التى تم تدميرها. وقد تم بناء كنيسة القيامة (القبر المقدس) Holy Sepulcher بالقدس في عهد الذى خلف الحاكم بأمر الله ، وهو الخليفة الزاهر (١٠٢٠م-١٠٣٦م).

وقد تم نقل الكرسى البطريركى من الإسكندرية إلى "دمرو" ، وهى مدينة قديمة في الغربية ، ووصفها كاتب تاريخ البطاركة بأنها "القسطنطينية الثانية" ، وكانت بها ١٧ كنيسة .

وأخيراً استقرت الدار البطريركية في القاهرة ، بالقرب من قصر الخليفة ، وتحت رعايته .

وقد حدث كل ذلك في عهد البابا خريستوذولوس (١٠٤٦م-١٠٧٧م) ، الذى تلاه البابا "كيرلس الثانى" ، الذى اتخذ مقره في كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل في جزيرة للروضة ، بالقرب من الحي القبطى الكثيف السكان ، في مصر القديمة .

وأعيدت الاحتفالات القبطية ، التى كان الحاكم بأمر الله قد ألغاها ، وشارك فيها موظفو الدولة . وكان الوزير "بدر الجمالى" المسيحي والأرمنى الأصل ، قد مال للأقباط وأتى بعدة آلاف من الأُسَرَ الأرمينية ، ليعيشوا معهم في مصر .

وصارت العلاقات ممتازة مع مسيحيّي ممالك النوبة والحبشة (إثيوبيا) ، من خلال حكمة البابا القبطى . وتمت تسوية الخلافات مع الكنيسة في "مجمع" عُقِد بأمر بدر الجمالى .

ويكشف هذا المجمع (المحلى) عن عدد الأسقفيات القبطية (في مصر والخارج) في ذلك الوقت (وأشار ابن كبر ، إلى أنها ٩٩ أسقفية ، بينما كانت قائمة "Pococke" سنة ١٧٢٢م تضم ٨٣ كرسى أسقفي قبطي).

وكانت المتاعب القبطية في أواخر حكم الدولة الفاطمية قد كشفت عن الفوضى والثورات بدار قصر الخليفة ، بالإضافة إلى المجاعات والطاعون اللذين سادا في ذلك الوقت في كل البلاد .

وحدثت خلافات بين رجال حرس الخليفة من الأتراك والسودانيين ، للسيطرة على القصر الحاكم . وحلت الكارثة الوطنية في مصر ، إذ سقط الخلفاء الضُعفاء تحت سلطان الصليبيين. ثم مجيء القائد شيركوه – السُنى التُركمانى – الذى أتى معه ابن أخيه "صلاح الدين" الأيوبي ، لنجدة البلاد.

وفي هذا الموقف، كان هناك صراع عرقى (جنسى) ودينى ومذهبى ، للإستيلاء على العرش الفاطمي الضعيف . وكانت النتيجة سيطرة الوزير السُنى شاور على الخلافة . وأقام صلاح الدين السلطنة الأيوبية التى دامت نحو قرن (١١٦٩م–١٢٥٠م) فى وقت كان فيه الصليبيون، قد عززوا وجودهم فى المشرق .

+ + +

حكم الصليبيين : (Crusades)

في وقت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦م–١٠٩٩م) وتكوين المملكة اللاتينية في أورشليم ، كانت سلطة الدولة الفاطمية في قبضة يد الوزير الأفضل، ابن سابقه الشهير بدر الجمالي ، وهو مسيحى أرمنى تحولّ للإسلام (وإن كان البعض ينفى ذلك) واتبع سياسة اللين مع الأقباط .

وفي الواقع ، كانت سياسات الفاطميين ، بعد اختفاء الحاكم بأمر الله – بصفة عامة– هى مواجهة الأقباط (Vis-à-vis)، وقد تأثرت بعاملين رئيسيين :

زيادة العداوة في قلوب الطبقات الدنيا من المسلمين، من الصيارفة الأقباط الذين كانوا ينفذون أوامر الحكومة لجمع الأموال اللازمة للخزانة لمحاربة الصليبيين.

وكثيراً ما فشلت الحكومة في كبح جماح الغوغاء المطالبين بطـرد الأقبـاط من الإدارة الحكومية. ومع ذلك كانت مضطرة لإعادتهم لعملهم بعـد فصلـهم لأنه لا يمكن الاستغناء عنهم لخبراتهم الإدارية والمالية النادرة .

وعلى أية حال ، لم يتم القبض على البابـا أو حبسـه ، رغـم احتجاجـات الغوغاء المسلمين • وفى عدة مرات كان العنف يأتى للكنيسة بعد خلال راهـب أو أسقف شرير.

وكان أسوأ مثال قد حدث في عهد البابا خريستوذولوس (١٠٤٧م-١٠٧٧م)، عندما رفع راهب شرير شكوَى ضد البابا ، وكان قد رفض رسامته أسقفاً ، فتـم القبض على البابا خريستوذولوس في دمرو ، وتم تغريمه مبلـغ ٦٠٠٠ دينـار . وأما خليفته البابا كيرلس الثانى (١٠٧٨م-١١٠٢م) فقد عانى من شكوى مماثلـة من أسقف سخا ، وقرر مجمع ضم ٤٧ أسقفاً إدانة الأسقف وتبرئة البابا .

ومع تسامح غالبية الخلفاء الفاطميين للأقباط ، لكنهم لم يتوقفوا عن الحصول على المال منهم . فزادوا الضرائب عليهم ، خصوصاً بعـد قيـام الحـرب مـع الفرنجة في سوريا (الشام)، واحتاجت إلى مزيد من الأموال .

وكان على الأمة المصرية أن نحتمل وطأة العبء الإضافي ، وكان الأقبـاط هم دائما أول الضحايا . وكان من الطبيعي أنه عند قيام الحـرب الصليبيـة، أن يشك الولاة المسلمون في عواطف الأقباط ، المشابهين لهم في الدين (المسيحي) ، وقد جاءوا من غرب أوربا للهجوم على الأرض المقدسة (فلسطين).

ولم يعلم الولاة ما حدث بين الأقباط ومسيحيّى الغرب في مجمع خلقيدونيـة وعن الخلافات حوله طبيعة المسيح ، وإنما كانوا يعرفون أنهم كلهم مسـيحيون ، وكان على حاكم مصر أن يراقبهم، ويزيد في ابتزازهم مالياً لصالح الحرب .

وكان ذلك هو موقف الدوائر الرسمية خلال كل مراحل الحروب الصليبية وكوارثها .

ومن ناحية أخرى ، فإنه من وجهة النظر القبطية ، فإن الصليبيين كانوا من أكبر الكوارث التى حلت بالمجتمعات المسيحية الشرقية .

وإن كانوا في الواقع لم يعيشوا على فراش من الورود ، تحت الحكم الإسلامي ، كما لم يكونوا يتوقعون أبداً أن ينالوا قسطاً من المساواة مع جيرانهم المسلمين . وأنه كان عليهم أن ينتظروا حتى حلول فجر الحرية والديموقراطية ، الذى أتى في أيامنا .

وقد أدرك الأقباط أنه كان عليهم أن يتخلوا عن العديد من الميزات المادية ، لكى يحتفظوا بتراثهم (heritage) الروحي .

وكانوا قبل مجيء الصليبيين قد تأقلموا – على أية حال– مع ظروف الحُكم الإسلامي ، دون أن يفقدوا أسلوب حياتهم الخاص بهم . وكان الخلفاء عادة يقبلونهم ، وأحيانا يحترمونهم بشدة (لأمانتهم وخبْرتهم ودقتهم في أعمالهم).

ولذلك كان منهم الكتبة والصيارفة وأُمناء الخزائن الخاصة بالخلفاء ، وكان رؤساء الدولة دائما يثقون في نزاهتهم . وقد استطاع الأقباط أن يجعلوا من أنفسهم أساس جهاز القيام بالخدمات العامة . لذلك لم يكن من السهل الاستغناء عنهم في الخدمة المدنية.

وقد أثارت الحروب الصليبية عداوة أتباع **محمد** ، ضد "**عبدة الصليب**" !! سواء كانوا من اللاتين ، الروم (الإغريق) أو الأقباط . ولذلك بدأ فصل جديد من الأحزان ، في صبر الأقباط الذى لا يلين .

فمن الناحية المقابلة ، كانت الكارثة أكثر تدميراً ، لأن اللاتين نظروا إلى المسيحيين الشرقيين (Monophysites) على أنهم منحرفون عن الإيمان المسيحى، بل أنهم عدوّهم.وأردأ حتى من الهراطقة (heretics) !

ومن خلال هذا الفِكر الأحمق ، اعتبروا الأقبـــاط ، واليعاقبــة (الســريان) والأرمينيين (والأحباش) ، هرَاطقة منشقين (schismatics) واستبعدوا المــارونيين اللبنانيين ، عندما خضعوا لبابا روما ، رغم أنهم تعلقـــوا بطقوســهم وعاداتــهم الشرقية .

وقد تجلت العداوة اللاتينية نحو مسيحيّى الشرق ، في منعهم من الذهاب إلــى أورشليم لزيارة القبر المقدس . وكانت طبيعة القبطـــي **المُتَدَيـن** تُلزمـــه بزيــارة الأرض المقدسة ، وخاصة للقادر على السفر للحج (pilgrimage) ، وأن الحرمان من السجود عند قبر المسيح ، ومن زيارة أماكن الآلام المقدسة تُتعِـــب ضمــير القبطي التقى .

وكان خلو الكرسي المرقسى لمدة عامين ، بعد نياحة البابا مكاريوس الثـــانى في عام ١١٢٨م ، يمكن أنْ يفسَر – لحدٍ ما– بعاملين، أولهما: أن الأقباط وصلت بهم حدود الفاقة إلى عدم إمكان تدبير مبلغ ٦٠٠٠ دينار، الرسم الرسمي للخزانـة العامة لاستصدار قرار برسامة بطريرك جديد، وكان هذا بالضرورة راجعاً إلـــى عبء الضرائب الغير عادية ، اللازمة لحرب الفرنجة (الصليبيين) Franks .

والسبب الثانى ، هو أن أراخنة الكنيسة كانوا يخشون رفض الوزير الموافقـة على انتخاب بطريرك جديد بسبب الأحوال السياسية الدولية الســائدة (الحــروب الصليبية) .

وعلاوة على ذلك ، كان الموقف صعباً نتيجة حقد أثنين من كبــار رجــال الدولة أحدهما مسلم ، والثاني سامرى ، ويُسمى إبراهيم ، والذى أوغــر صــدر الخليفة بأن الأقباط يجمعون دخول الكنائس ، ويرسلونها لمساعدة الفرنجة .

ولذلك أمر الخليفة بالاستيلاء على كل ما فى خزينة الكنيسة. وظلت معانــاة الأقباط طوال بقاء هذين الموظفين ، إلى أن تم قتلهما أثناء ثورة للقوات المســلحة العربية.

وقد حل محلهما شخص ملكانى (رومى) مسيحى . ومن خلال واسطته للوزير أحمد ، حفيد بدر الجمالى ، سمح للأقباط برسامة بطريرك جديد لهم .

وقد وقع الاختيار على كاتب بالديوان يُسمّى أبو العلا ، وكان عفيفاً وبتولاً وسيرته بلا لوم . وبعد رسامته حمل اسم البابا غبريال بن تريك (١١٣١م-١١٤٥م) ، وقاد الكنيسة بحكمة في تلك الأيام العاصفة[1] .

وانتهت الدولة الفاطمية بكارثة أثرّت على الأقباط أكثر من المسلمين ، وهى حرق مدينة الفسطاط سنة ١١٦٨م بمعرفة شاور ، وزير آخر خليفة فاطمى، وهو العاضد (١١٦٠م-١١٧١م) ، لِيُنقذها من السقوط في يد "أمالريك" Amalric ملك أورشليم اللاتيني ، الذى كان يهدف أن يجعلها قاعدة، للانطلاق منها إلى الاستيلاء على كل أرض مصر .

وأراد شاور أن يفوّت عليه غرضه ، بصبّ عشرين ألف برميل من النفط ، في الأماكن الإستراتيجية بالفسطاط ، واستخدم رجاله عشرة آلاف شُعلة لإشعال النفط . واستمّرت النيران مشتعلة فيها ٤٥ يوماً ، وهرب سكانها .

ويذكر المؤرخون الأقباط أن غالبية سكان الفسطاط (مصر القديمة) كانوا من الأقباط[2] ، وكلهم لم يعد لهم مأوى . وهذه إحدى المآسى الناتجة أيضا عن الحرب الصليبية. والتى أصابت الأقباط بدون ذنب.

وفي هذا الوقت ، حدث تغيُّر هائل في التاريخ المصرى . إذ بينما كان الشيعة الفاطميون يتعرضون لأخطار الاعتداءات الصليبية ، وإذا بجيوش السلطان السُنّى "نور الدين" في سوريا ، تأتى تحت قيادة القائد "شيركوه" ، للمساهمة في الدفاع عن مصر ، ضد عدوهما المسيحي المشترك .

---

(١) راجع سيرته المفصلة في كتاب تاريخ البطاركة لكامل صالح نخله (القاهرة ١٩٤٧) ص ٣٧-٤٤.

(2) Lane- Poole, p. 184, and O'Leary, pp. 240-2.

وبعد انسحاب الصليبيين من مصر ، بقيت قوات شيركوة بدعوى حماية الخليفة . وبعد قليل ، تم اغتيال الوزير شاور ، وجعل الخليفة شيركوه وزيره ، إلى أن انتهت الوزارة إلى صلاح الدين، بتشجيع من عمه ، بانتقال السلطة إليه . فقضى على الخليفة الفاطمي الأخير الضعيف ، وأقام الدولة الأيوبية . وكانت فترة الانتقال من الحكم الفاطمي إلى الأيوبي مرحلة اضطراب وفقدان للأمن لكل سكان مصر .

وبدأ صلاح الدين حكمه بطرد الأقباط من أعمالهم الحكومية . كما أمعن في إذلال الأقباط بإرغامهم على ارتداد ملابس معينة ، ومنعهم من ركوب الخيل ، وتحميلهم ضرائب فوق طاقتهم ، وكان عليهم أن يبيعوا أملاكهم لسدادها .

والبعض سلموا أراضيهم للعرب لكى يحموهم ، والبعض تحولوا للإسلام ، ولاسيما الذين كانت لهم مراكز رفيعة، لكى يستردوها . ومن أشهر أمثلتها أرخون شيخ قبطى يُدعى زكريا بن المماتى ، الذى شكا من شدة الضرائب ، ولما لم يفلح تحوّل مع أسرته للإسلام ، وبذلك بقى في منصبه كأمين خزائن الدولة ، وكان شاعراً كبيراً ، ومسجلاً لأحوال مصر في عهد صلاح الدين ، وله في ذلك كتاب " قوانين الدواوين " ، وقد مات في حلب سنة ١٢٠٩ م.

ومن أهم آثار صلاح الدين بالقاهرة "القلعة" التى تحمل اسمه . وقد شيدّها له المهندسون المعماريون الأقباط – أبو منصور وأبو مشكور – على تلال المقطم.

وأمرت السلطات الأيوبية بهدم كاتدرائية مارمرقس بالإسكندرية ، التى كانت تقع على مينائىّ المدينة وكانت ضخمة ، وقد بناها البابا أغاثوس (٦٦٢م–٦٨٠م) بحجة استيلاء الصليبيين عليها لو هاجموا المدينة ، وقيل إن الأقباط عرضوا ٢٠٠٠ دينار ، لإنقاذها من الدمار ، ولكن بدون جدوى .

كما أرسل صلاح الدين حملة حربية للاستيلاء على النوبة المسيحية ، والقضاء على الثورات القبطية ضده في الصعيد . وفي عام ١١٧٣م حدث أول

تدمير خطير للنوبة ، حيث تم هدم دير القديس سمعان الحصين قرب أسوان ، وآخر في إبريم . وتم القبض على الكثير من الأرثوذكس وحبسهم بما فيهم أسقفهم ، ثم بيعوا في سوق العبيد !!.

وتمت تسوية مدينة قفط القبطية بالأرض ، وتحولت من مدينة مزدهرة ، إلى قرية فقيرة !!.

وبعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين والاستيلاء على القدس سنة ١١٨٧م ، استراح الأيوبيين ، ومالت سياستهم نحو السلام نحو الأقباط ، ومنحهم السلطان ديراً ملاصقاً للقبر المقدس ، حيث يتبعهم للآن (وإن كان الأثيوبيون قد استولوا عليه بتشجيع من اليهود) ، واسترد البعض مناصبهم الرفيعة في الدولة وأملاكهم ، وعاد لهم رخاؤهم .

واتخذ صلاح الدين سكرتيراً خاصاً له من الأقباط ، المدعو صفي الدولة بن أبى المعالى . وقبطى آخر هو "ابن الميقات" وكان مديراً للحربية في عهد العادل سيف الدين (١١٩٩م-١٢١٨م).

وفي هجوم الصليبيين على دمياط (١٢١٨م) عانى سكانها الأقباط بشدة من اللاتين . وفي حرب مصر ضد لويس التاسع الصليبي (١٢٤٩م-١٢٥٠م) شارك بعض مشاهير الأقباط في الحرب إلى جانب السلطان الأيوبي .

وخلال العصر الأيوبي ، كانت اللغة القبطية لا تزال مستعملة ، رغم أن العربية كانت أكبر خطر يهدد بقاءها ، وعلى ذلك فقد قام عدد من العلماء الأقباط بتأليف كتب لقواعد اللغة القبطية ، ووضع عدة قواميس لها ، للمحافظة عليها.

وكان للأقباط مدارسهم المُلحقَة بالكنائس ، وكانت تضم المخطوطات التي يدرسها الأطفال الأقباط .

وظهرت عائلة "أولاد العسال" ، الذين كانت لهم كتاباتهم المزدهرة في النصف الأول من القرن ١٣م . وكانوا متعمقين في معرفة اللغات القبطية والعربية واليونانية .

ومن بين مؤلفات نفس المرحلة كتاب "تاريخ الكنائس والأديرة" المنسوب خطأ إلى أبى صالح الأرمنى (طبعة أوكسفورد سنة ١٨٩٥م) ولكن يحتمل أن يكون مؤلفه:أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود .

وكتاب تاريخ العالم لابن المكين ، جرجس بن العميد (المتوفى سنة ١٢٧٣م)، وقد تمت ترجمته إلى عدة لغات منذ القرن ١٧، وقد استفاد به المؤرخون المسلمون في العصور الوسطى ، ومنهم المقريزى (١٣٦٤م-١٤٤٢م).

كما كتب أنبا يوساب أسقف فوة (المُتنيح سنة ١٢٥٧م) تاريخاً للكنيسة حتى زمانه ، ومخطوطته بدير السريان[١] .

ومن الكُتّاب البابا كيرلس"ابن لقلق" (١٢٣٥م-١٢٤٣م). فرغم المتاعب التى تسبب فيها للكنيسة المصرية، لكنه ترك عدة مؤلفات دينية، قانونية،وطقسية هامة.

ومنذ بدء الصراع العربى الصليبي، فإن الأقباط قد التزَموا الحياد الإيجابي التام بين اللاتين والعرب، وكان كل انشغال الأقباط بمشاكلهم المحلية، ولمجابهة ضغوط الحُكام غريبّى الأطوار، وتدبير الأموال المفروضة عليهم ظُلماً.

وفي أوقات التسامح ، كانوا يستردون قوتهم الغير عادية.ويبرأوون بسرعة من جراحهم . وتم ذلك خلال العهد الأيوبي ، حيث قلت الاضطهادات ، واستردوا مراكزهم في الإدارة ، واستطاعوا جمع ثرواتهم المفقودة .

وبدت حيويتهم في إنتاجهم الأدبي . كما أتيحت لهم الفُرصة للدفاع عن بلادهم ضد الغزاة اللاتين ، إلى جوار جيرانهم المسلمين ، ولكن لسوء الحظ ، هذا الموقف السليم لم يدُم طويلاً بعد تغيُّر الحُكم .

---

(١) قمنا بنشره والتعليق عليه (مكتبة المحبة ٢٠٠٣) باسم: "تاريخ البطاركة"، لأسقف فوة.

وقد قيل إن الحُكم المملوكى (من سنة ١٢٥٠م) لم يكن سوى استمرار للنظام الأيوبي ، هذا الأمر كان حقيقياً من عدة مظاهر ، مثلما كانت عليه الحال بالنسبة للسياسة مع الصليبيين ، أو بالنسبة لتطور التجارة العالمية .

ومع ذلك لم يكن المماليك سوى عبيد مُحرَّرين . ولم يميلوا للإسلام بعُمق ، ولا الرَغبة في الحديث بلغة رعاياهم . وكانت كل حياتهم اغتيالات وحروب ، وأن وحدتهم الحقيقية كانت ضد عدوهم الخارجي المشترك (الفرنجة والمغول).

وكان عدم توافر الأمن ، وزيادة الفقر، فى عهدهم،قد أدى إلى الثورة ضدهم. وكلما قام الأقباط بجمع الثروة والقوة ، وتولِى إدارة أموال الدولة ، عمد الشعب إلى طردهم ، وثارت الغوغاء مطالبة بالسيطرة عليهم، ووضعهم تحت رقابتهم.

وصار حرق الكنائس ظاهرة خطيرة سنة ١٣٢٠ م ، مما أثار الأقباط. كما تم طرد الأقباط من وظائفهم . وهو ما حدث على مراحل،في الفترة من ١٢٧٩م- ١٤٤٧م . وكلما حدث ذلك، كانت عجلة العمل تتوقف في الدولة ، ويضطر الحاكم إلى إرجاع الأقباط ، لإصلاح العطب .

وقد ساعد الصليبيون على تكثيف الحقد المملوكى للأقباط . . ففى منطقة القاهرة قيل إن ٥٤ كنيسة قد تم تدميرها ، خلال تلك المدة ، علاوة على عدد من الأديرة القبطية.

كما أعتنق بعض ضعاف الإيمان الدين الإسلامي ، وبدأوا بدورهم فى اضطهاد المسلمين .

وفي القرن ١٤ ، ظلت متاعب الأقباط حادة . وفي عام ١٣٦٥م هاجم الصليبيون الإسكندرية،وسلبوا كل من المسلمين والأقباط . وبنفس العُنف .

وكانت ناظرة كنيسة قبطية إبنة عرجاء لكاهن يُدعى جرجس بن فضيل قد سلمت كل ثروتها للوالى في سبيل إنقاذ الكنيسة،التى تصلى بها، من الهدم .

وقد جرّت السلطات البابا يحنس العاشر (١٦٣٦م-١٣٦٩م) إلى المحاكمة ، حيث تم إذلاله مع شعبه. والاستيلاء على أموال البطريركية .

وفي العصور الوسطى التالية ، تم التخفيف عن كـــاهل الأقبـــاط ، بتدخُـــل أجنبى من ثلاثة مصادر ، كما يلى :

والأول هو إمبراطور القسطنطينية ، الذى اســتعان بـــالأتراك العثمـــانيين ، الذين اتصلوا بالمماليك من أجل التخفيف عن الأقلية الملكانية في مصر .

والثانى هو ملك أراجون (Aragon) الذى كانت بلاده في علاقات طيبة مـــع مصر ، والذى اقترح إعادة فتح كنائس مصر والأرض المقدسة .

والثالث – وهو الأهم – وكان هو النجاشى ملـــك أثيوبيـــا (Negus) طالبـــاً الراحة للأقباط في مصر ، وتمت المساومة مع السلطان على مســـلمى أثيوبيـــا ، وسهولة تدفُّق مياه النيل لمصر .

وفى القرن ١٥ ، عُمِلت محاولة لتقريب وجهة النظر بين روما من جـــانب وبين الأقباط والأثيوبيين من جانب آخر ، في مجمـــع Ferrara- Florence (١٤٣٨-١٤٣٩).

وقد مَثّل أنبا يحنس من دير أنبا أنطونيـــوس ، ونيقوديمـــوس رئيـــس ديـــر الأثيوبيين (الأحباش) في القدس ، بلادهما في المؤتمر . وتم توقيع قرار الوحـــدة (Decretum) بين يحنس والبابا يوجينيوس الرابع (Eugenius IV)، ولكن ظـــل هـــذا الاتفاق مُعطَلاً[١] (abeyance) وظل باباوات روما يكتبون حاثيّن الأقباط علـــى الوحدة مع روما ، حتى بعد الغزو التركى (١٥١٦م-١٥١٧م).

---

(١) تذكر بعض المصادر أن المندوب القبطى قد وصل إلى مجمع فلورنسا بعد انتهاء جلســاته فعلاً، وبالتالى لم يتم توقيعه على أى اتفاق.

وفي سنة ١٥٨٦ ، جاء مندوب رومانى إلـــى البابـا القبطــى يحنـس ١٤ (١٥٧١م-١٥٨٦م) من روما ، وتم عقد مجمع محلى ، لمناقشة الاتحـاد مـرة أخرى، وحاول البطريرك إقناع الأساقفة للموافقة . وتم إعداد قرار آخر للاتحـاد، وكان جاهزاً للتوقيع ، ولكن مات البابا يحنس (يؤانس) في نفـس الليلـة ، قبـل التوقيع عليه بخاتمه ، وتم دفنه معه !!.

+ + +

٦- العصـــر الحديـث :

•الأتراك العثمانيون : (Ottoman Turks)

كان اختفاء سلطنة المماليك ، بعد الغزو التركى لمصر ، بيد السلطان سـليم الأول سنة ١٥١٧ ، لم يعنِ القضاء تماماً على جماعات المماليك فى مصر.

وكان إعادة تنظيم الولاية تحت إشراف السلطان الجديد ، يرمّى إلى هدفين :

الأول : القضاء على أية إمكانية للمغامرة،لإقتناص تلك الولاية الغنيـة مـن يـد السلطان العثمانى .

والثانى : ابتزاز أكبر مبلغ ممكن من الضرائب من السكان.

ولذلك قسّم سليم السُلطة بين ثلاثة متنافسين، لكى يحتفظبميزان القُوَى فى يده.

الوالى التركى – الباشا – وكان مسئولاً عن جمع الضرائب ، وكـانت مـدة إقامته وحكمه قصيرة غالباً ، لمنعه من أن يضرب جذوره في مصر. ثم **الحامية** التركية ، ولها مجلسها المستقل . وأخيراً : **المماليك** ، وكانوا مسئولين عن حُكـم المديريات (المحافظات).

وقد حقق هذا النظام ما قصده السلطان بطريقة مدهشة ، ولكـن فـي نفـس الوقت جلب الخراب السياسي والمالي لمصر. ودون أن ندخـل فـي التفـاصيل

الدستورية للحكومة العثمانية ، فإنه من الواضح أننا نلاحظ هنا ، أن البلاد قد أصبحت فريسة ، لثلاث هيئات للضرائب ، بدلاً من واحدة ، وزادها وحشية الحُكام المماليك . ورغم الشخصية الإسلامية للدولة العثمانية، فإن الإدارة لم تهتم إلا قليلاً بالاعتبارات الدينية، في الأحوال المالية.

وفي هذا المجال ، لم يوجد أى تمييز بين المسلم والقبطى ، فقد كانا كلاهما عُرضة لنظام ضرائبي ثلاثي ، في وقت خسرت فيه مصر أهم مصدر للدخل ، بالانحدار الشديد للتجارة الدولية ، في العصور الوسطى (لاتخاذ البرتغاليين طريق رئيس الرجاء الصالح). لذلك دخلت البلاد أحلك أيامها في تاريخها الطويل، مع مَقدِم الأتراك العثمانيين.

ووقع سكان مصر في حالة من النوم (الإهمال) ولم يخرج الأقباط عن القاعدة ، سوى أنه مكتوب عليهم بحكم طبيعتهم أن يلعبوا دوراً هاماً في إدارة إقطاعيات المماليك ، والتحكم في المال والضرائب (كصيارفة).

ومن الخطأ الاعتقاد بأنهم لم يتعرضوا للضغط ، ولكن الفترة - بصفة عامة - كانت أقل احتمالاً بالمقارنة بالجرائم والاضطهادات التى زادت آخر حُكم المماليك ، في العصور الوسطى .

وعموماً ، فإنه مع كل المصريين ، فإن الأقباط قد قلّوا في العدد، بسبب الأوبئة والفقر ، وفقدت القاهرة بريقها ، وصارت مدينة ثانوية . ومن الصعب الحصول على صورة واضحة عن مصر، من مصادر هزيلة عن تلك المرحلة .

وفي سنة ١٧٦٩م انتهت الهيمنة المملوكية بطرد الباشا التركى بمعرفة على بك الكبير ، وإعلان استقلال مصر . وسُرعان ما ضمّت إمبراطوريته سوريا والحجاز، ولكنها سقطت سنة ١٧٧٣م بمؤامرة مملوكية، مدعومة سراً من الأتراك.

وفي مجرّى تلك الأحداث ، وصل الأقباط إلى مراكز رفيعة بيد السادة المماليك. فقد صار المعلم رزق ، مدير إدارة سك العُملة ، وكبير المستشارين للشئون المالية . وأسماء أخرى تبعت الشخصيات المملوكية ، ومنها عائلة الجوهرى : إبراهيم وجرجس ، اللذان كانا غنيين ، وصارت لهما كرامة كبرّى لدى المسلمين والمسيحيين المعاصرين .

وأما إبراهيم الجوهرى ، الذى حرّمه القَدر من إبنه الوحيد ، وهَب كل ثروته للكنيسة القبطية . وهناك ٢٣٨ وقفية (indentures) تحمل توقيعه ، وتدل على سعة عطاياه للكنائس والأديرة ، ولأوجه البِر الأخرى .

كما استأجر ناسخين لكتابة صوراً من المخطوطات اللاهوتية القديمة لتوزيعها على الكنائس ، لزيادة المعرفة الدينية ، وهى ربما كانت أول محاولات جادة لإحياء الدراسات القبطية اللاهوتية، النامية في العصر الحديث.

وجلب فرماناً (decree) من اسطنبول ، لبناء الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية، والتى صارت مقراً للبابا الإسكندري ، كما استخدم نفوذه لترميم الكنائس والأديرة . وقد امتدح كرمه كلاً من المسلمين والأقباط ، ودون النظر إلى تمييز على أساس ديني.

وقد تنيحّ إبراهيم الجوهرى ليلة مجيء الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٧م.

وصار أخوه بعده في رئاسة الدواوين ، في عصر آخر وأعظم أثنين من المماليك : إبراهيم بك ، مُراد بك. وعاصر انحدار سلطانهما . كما عاش خلال فترة الاحتلال الفرنسى العاصفة ، ثم صار سكرتيراً مالياً لمجمد على باشا .

وربما كان هو الرجل الوحيد في زمانه ، الذى نال ثقة المماليك ، والفرنسيين والأتراك على السواء . وكانت رقتّه في جمع الضرائب قد جعلت كل

المصريين يحبونه ، مع أنها جلبت عليه غضب محمد على الجشع ، الذى بعدمـــا نفاه أربعة أعوام ، اضطر إلى إعادته لعمله لمعرفته وخبرته ، ولكنه بعـــد ذلـــك تتيحّ (١٨١٠م) .

وفي نهاية الحكم العثمانى ، تبُرز حقيقتان ، من وسط الاضطراب ، وســـوء الإدارة ، في ذلك الوقت . إن فكرة عدم إمكانية هزيمة الأتـــراك قـــد أصبحـــت مجرد أسطورة .وأن القُوى الخارجيـــة أصبحـــت علـــى وعـــى تـــام بـــالموقع الاستراتيجي الهام لمصر ، مما يفسر مجيء حملة نابليون للشرق الأوسط . وفـــى نفس الوقت، تدلنا الوثائق القبطية ، عن تلك الفترة، على بدء رفع الحواجز بيـــن الأقباط والمسلمين ، ثم بدأت تختفي في التاريخ المعاصر !!.

الأقباط تحت حُكم الفرنسيين :

كانت الحملة الفرنسية القصيرة الاستمرار في مصر (١٧٩٨م-١٨٠١م) قـــد أثبتت أنها أثر هام في تاريخ مصر الحديثة . فمنذ الصليبيين لم تتصـــل مصـــر بدولة أوروبية .

وقد جاء نابليون بونابرت لتأسيس إمبراطورية في الشرق الأوسط ، بزعـــم الدفاع عن الإسلام وليس الهجوم عليه . وفي عمله هذا أظهر للعالم الغربى أهمية مصر ، واهتمت سياستهم بها ، وأصبح لها دور هام في الشئون الدولية .

كما أن قيام أسرة محمد على ، يمكن أن يُعتـــبر كنتيجـــة ثانويـــة للحملـــة الفرنسية . وفي هذا الجو المضطرب ، والظروف المُتغيِّرة ، لم يقـــف المجتمـــع القبطى سلبياً .

وفي سنة ١٧٩٨م وجه المعلم جرجس الجوهرى نداءً* إلى نابليون ، الابـــن الحقيقي للثورة الفرنسية ، والمؤيد لمبادئ الحرية والمساواة والإخاء ، لرفع الظلـــم عن الأقباط ، ولمنحهم قسطاً من المُساواة بأخوتهم المسلمين .

وكانت استجابة نابليون مناسبة ، رغم أنه لم يُضحِّ بمصالح الأغلبية المسلمة، لصالح الأقلية القبطية . كما لاحظنا أن عدداً من الجنود الفرنسيين – وعلى رأسهم نابليون نفسه – قد ادعوا بأنهم صاروا مسلمين !!.

وعلى أية حال ، فقد زاد عدد العاملين الأقباط بالإدارة ، وبعضهم وصل لمراكز رفيعة ، وتم تعيين جرجس الجوهرى مرة أخرى على رأس الجهاز الضرائبي ؛ بعد هرب أمراء المماليك من يد الفرنسيين .

وفي لجنة مكونة من ١٢ فرداً للنظر في العدالة المحلية ؛ كان ستة من المسلمين وستة من الأقباط ، وكان رئيس اللجنة قبطياً يُدعى المعلم ملطى .

ورغم أن الأقباط ، لم يكونوا مقبولين من الفرنسيين – كأهل دينهم – إلا أنهم في الواقع لم يتعرضوا للضغط .

وربما كانت أغرب شخصية وأكثر رومانسية في التاريخ القبطى في تلك الفترة، هو الجنرال "**يعقوب**" (١٧٤٥م–١٨١٠م) **وكان يهدف إلى الاستقلال بمصر عن فرنسا وتركيا .**

ونظراً لأهمية موضوعه في كل من المصادر القبطية والمصرية ، فإننا نُجمِل سيرة حياته فيما يلى :

ففى أيام المماليك ، كان المعلم يعقوب حنا مسئولاً عن مديرية أسيوط تحت رئاسة الأمير سليمان بك . وفي شبابه طوّر نظاماً أمنياً خاصاً به ، في تلك المديرية الغير آمنة . وتعلّم من أصحابه المماليك فن الفروسية، وكذلك فنون القتال المملوكية.

وحارب إلى جانب سليمان بك ، وفيما بعد انضم إلى مراد بك في معركة المنشية قرب أسيوط ، حيث أنهزم الأتراك عشية مجيء الفرنسيين .

وخلال الأيام الصعبة التى قامت فيها المعارك بين الأتراك والمماليك ، بدأ يُدرك الحقيقة العارية ، أن أهل مصر هم ضحية كل العناصر الأجنبية ، وأنه توجد هناك وسيلة للتخلص من نيرهم كلهم.

وأنه بمجيء الفرنسيين وحلولهم محل الأتراك والمماليك ، بأسلحتهم المتقدمة، قد أعطى الجنرال يعقوب فكرة إمكانية الخروج من هذا المأزق.

ونظراً لأن موقف البلد في حالة رديئة . لذلك قرر أن يُجرب حظه مع الغزاة الجُدد (الفرنسيين) . وكانت معرفته بالطرق المصرية ووسائل الاتصال ، وكذلك طرق إمداد الجيوش بالمؤن ، قد جعلته نافعاً للجيش الفرنسى .

فلما أرسل نابليون قائده ديزيه (Desaix) للاستيلاء على باقى الصعيد عيَّن يعقوب مُعاوناً له ، وأعطاه القائد الفرنسى سيفاً كتذكار للنَصر .

وبينما كان يعقوب مُقيماً في الصعيد ، كانت الأحداث تتحرك سريعاً ضد الفرنسيين بالشمال. فقد فقَدوا أسطولَهم في أبى قير ، وصار نلسن (الإنجليزي) مُسيطراً على البحر في الشمال .

وعاد نابليون لفرنسا ، **وخلَفَه كليبر** ، وترك له خزانة خاوية ، بينما كان المسلمون يشكوك في سياسيات الفرنسيين . وكان الفرنسيون في أشد الحاجة لرجال مثل يعقوب .

وبينما كان كليبر يحارب الأتراك في معركة عين شمس (مارس سنة ١٨٠٠م) ، قام يعقوب بإخماد ثورة بالقاهرة بإيعاز من الأتراك . وفي هذه الظروف الصعبة استطاع يعقوب إقناع الفرنسيين لمساعدته على تحقيق حُلمَه القديم (استقلال مصر).

وكانت مصر محرومة من جيش خاص بها ، وكان مُقتنعاً تماماً بأنه لا تحرير للوطن بدون جيش ، ولكن نظراً لأن الأتراك عزَفوا على وتر الشعور

الدينى ، لتحطيم وحدة الشعب المصرى ، فإن يعقوب اعتقد بفكرة إعداد جيش من بنى دينه (الأقباط).

فبعد معركة عين شمس ، وافقت السلطات الفرنسية على خطته بتكوين فرقة قبطية (Legion) من ألفين. غالبيتهم من أقباط الصعيد ، وقام ضباط بتدريبهم ، وعيّن كليبر الجنرال يعقوب قائداً لهم برتبة كولونيل (colonel) في مايو سنة ١٨٠٠م ثم رقاه لرتبة لواء (general) في مارس سنة ١٨٠١م .

ولما تم توقيع معاهدة ٢٧ يونيو سنة ١٨٠١م مع الفرنسيين ، ورحلوا تاركين القاهرة للأتراك ، فإنه سُمِح للمواطنين الذين يريدون المغادرة مع الفرنسيين أن يرحلوا معهم . ولذلك قرر الجنرال يعقوب أن يرحل مع أسرته ، مع مجموعة من الأصدقاء ، وبعض رجال الحرَس الخاص .

وقد سافروا على متن السفينة الحربية البريطانية (Pallas) تحت إمرَة القائد يوسف إدموندس ، من الإسكندرية ، يوم ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١م . وسُرَّعان ما مرض يعقوب بشدة ومات يوم ١٦ أغسطس ، وبسبب مركزه فقد تم حفظ جثته في برميل من الخمور ، حتى تم دفنه في مرسيليا ، في جنازة حربية يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١م .

وقد كشفت مذكرات الضابط "Lascaris" الذى رحل على السفينة Pallas مع الجنرال، وترجم حواراته مع قائدها "Edmonds" عن هدفه قبل مرضه وموته.

وكان يعقوب يريد أن يقوم هذا الكابتن بحمل رسالة منه باسم الشعب المصرى إلى الحكومة البريطانية ، موضحاً أن الحل الوحيد للمسألة المصرية هو استقلال مصر .

وقد تم نقل الرسالة إلى الإدميرال Earl of Saint- Vincent بخطاب مُرفق بها مُؤرخ ٤ أكتوبر سنة ١٨٠١م من Minorca . كما أُرسِلت طلبات

مُشابهة مؤرخة ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١م من الأعضاء المصريين الآخرين،إلى نابليون،إلى القنصل الأول ، وإلى وزير الخارجية Talleyrand .

وبذلك، فإن فجر القومية المصرية قد ظهر، بعد تحطم حياة الجنرال[1] يعقوب .

+ + +

عصر البابا كيرلس الرابع (أبو الإصلاح القبطى) :

(Cyril IV, Father of Coptic Reform)

جاء بعد البابا مرقس الثامن – المعاصر للحملة الفرنسية – البابا بطرس السابع (١٨٠٩م-١٨٥٢م) المُسمَّى "بالجاولى" ، والذى استمر جلوسه على الكرسى المرقسى خلال حُكم محمد على باشا .

وقد أُعجِب به الوالى لأنه رفض دعوة قيصر روسيا ليحمى أقباط مصر . وقد مد حدود الكنيسة القبطية برسامة أول أسقف للسودان ، بعد الاستيلاء عليه سنة ١٨٢٣ م . كما أرسل راهباً من دير القديس أنطونيوس – يسمى داود– في مهمة دبلوماسية إلى إثيوبيا.

وقد تقرر أن يكون داود هذا هو خلفيته **البابا كيرلس الرابع** ، وكان بطرس الجاولى قد ترك ثروة كبيرة بسبب تدبيره ، جعلت خليفته قادراً على القيام بمشروعات الإصلاح .

---

(١) قام بدراسة هذه الوثائق المؤرخ شفيق غربال ونشرها بالعربية (في القاهرة ١٩٣٢).

وراجع أيضا:

+ Douin, L'Egypte independence, projet de 1801, in publications of the Egyptian Geog. Society, (Cairo 1924).

+ Gaston Homsy, Le Général Jacob et L'Exped., de Bonaparte (Marseille 1921).

وُدعِيَ كيرلس الرابع "بأبى الإصلاح" (١٨٥٤م-١٨٦١م) ، وكـان والده مُزارعاً بجرجا ، واشتغل مع أبيه بالزراعة.وتعلم الفروسية من جيرانه العرب، وركوب الجِمَال .

وفي سن ٢٢ التحق بدير أنبا أنطونيوس ، وظهرت تقواه وحكمته وقدرته على الإدارة . وبعد نياحة رئيس الدير تم اختياره رئيساً له . وقد ظهرت روحه الإصلاحية في قيامة فوراً بمحاربة الأمية وتعليم الرهبان اللاهوتيات ، وكان يتابعهم بنفسه ، وبنى مدرسة في بوش للتعليم، لكل من حول الدير مجاناً .

وبعد عودته من أثيوبيا في يوليو سنة ١٨٥٢م ، وجد داود أن البابا قد تنيَّح في أبريل ، وقد أجمَع الشعب على ترشيحه ضد إرادة رجال الدين. وكان الأساقفة الأقباط أبراراً، ولكنهم كانوا شيوخاً جُهَلاء !!، ولم يكن من السهل إقناعهم بفكرة رسامة بابا شاب ، وله اتجاهات إصلاحية حديثة .

ولذلك قرر الأراخنة الأقباط رسامته على مراحل ، فقد قرَّر مجمع في ١٧ أبريل سنة ١٨٥٣م رسامته مطراناً للقاهرة باسم كيرلس ، مع تفويضه بأعمال البطريركية ، ولما أثبتَ جدَارته،تمت رسامته بطريركاً سنة ١٨٥٤م.

فبدأ بإنشاء الكلية الإكليريكية الأرثوذكسية،إلى جوار القصر البابوى بالكاتدرائية المرقسية بالأزبكية .

وكانت فترة البابا كيرلس قصيرة (١٨٥٤م-١٨٦١م) ولكنها كانت مليئة بالإنجازات ، وأولها في التعليم . فقد أنفق ما لا يقل عن ٦٠٠ ألف قرش - وكان مبلغاً كبيراً في ذلك الوقت - لاستكمال مدرسته المجانية .

كما كان يوزِّع الكتب والأدوات المدرسية بدون مقابل ، كما استخدم معلمين ممتازين.وقام بتعليم القبطية والعربية والتركية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، علاوة على العلوم الأكاديمية .

ومن فرط محبته لنشر العلم ، أنه كان يقضى بعض فراغه بين الطلبة في الفصول ، كما جعل المدرسة مكان لقاء زواره ، وركز في الكلام على التعلم.

وقد اشتهرت المدرسة ، حتى أن الخديوي إسماعيل – في عهد خليفة كيرلس – وهو البابا ديمتريوس الثانى ، قد وهب المدرسة ١٥٠٠ فدان من الأراضي الزراعية ، للإنفاق على المدرسة ، كما قرر منحها ٢٠٠ جنيه نقداً ، ولكن لم يتم دفعها لإفلاس الخزينة المصرية ، في ذلك الوقت .

كما أسس مدرستين في حيين قديمين بالقاهرة ، وافتتح أول مدرسة "للبنات" في مصر . وأصبح أكبر رائد لتعليم البنات .

كما جلب مطبعة من أوربا ، لطبع الكتب الروحية والمجلات المسيحية . كما قام بترميم الكنائس القديمة وبناء الجديدة ، واستكمال الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية . كما ساعد على تثقيف رجال الدين ، وتابع بنفسه دورات التعليم لهم . واهتم بالمكتبة وطبع المخطوطات للتوزيع للكنائس والشعب .

كما أعاد تنظيم الأوقاف ومستنداتها وضبط عوائدها ، وإعداد سجلات لها، وللزواج والميلاد والوفاة ، وغيرها من الأمور المشابهة في الأرشيف البطريركى الجديد .

كما عمل على التدخل في إصلاح العلاقات السياسية بين مصر وأثيوبيا . فقد أوفده الخديوى سعيد باشا إلى ثيؤدور-نجاشى أثيوبيا-عندما أثيرت الحرب بين البلدين . فسافر يوم ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦م وعاد في ١٣ فبراير سنة ١٨٥٨م ، بعد إزالة أسباب التوتر بين الملكين بلباقة ومهارة .

وعمل على تقوية الروابط الأرثوذكسية الخارجية ، وتصادق مع البطريرك اليونانى الملكانى ، حتى أن الأخير وافق على قيام كيرلس بالإشراف على كنيسته في غيابه بالقسطنطينية.

وكانت سياسته قائمة على التسامح ونسيان الذكريات الأليمة لمجمع خلقيدونية واضطهادات قيرش.

وعندما اتصل بالكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، وكنيسة إنجلترا ، أثيرت الشائعة ضده ، فقيل إن سعيد باشا أماته بالسُم ، وانتهت حياته في ٣٠ يناير سنة ١٨٦١م بعد لقاء مع الخديوى ، ولم ينساه الأقباط حتى الآن.

وكان عهد البابا كيرلس الرابع غنياً برجال الدين القديسين ، ومنهم القديس الأنبا إبرآم أسقف الفيوم والجيزة (١٨٢٩م-١٩١٤م) الذى كان يعطى كل ما معه للفقراء والمحتاجين في إيبارشيته ، بدون تمييز بين مسلم وقبطى .

والأنبا باسيليوس (١٨١٨م-١٨٩٩م) الذى رسمه البابا كيرلس الرابع مطراناً للقدس سنة ١٨٥٦م وامتاز بإدارة غير عادية ، ووسع فى مساحة أملاك الأقباط في الأرض المقدسة، وبنى مذبحاً ملاصقاً للقبر المقدس.وقيل إن قيصر روسيا طلب شراءه بما يعادل حجمه من الذهب، ولكنه رد عليه بّرقة أنه ليس ملكه لكى يبيعه.

وعن طريقه أصدر السلطان عبد الحميد العثمانى فرماناً يؤكد على أن دير السلطان هو ملك للأقباط، منذ أن أعطاه لهم صلاح الدين الأيوبى .

وكان خريجو مدرسة البابا كيرلس قد تولوا أعلا المراكز الإدارية في الدولة، مثل بطرس غالى باشا ، الذى صار رئيساً للوزراء في مصر.كما برز الكثير من العلمانيين ورجال الدين المستنيرين ، مثل القمص فيلوثاؤس إبراهيم عوض (١٨٣٧م-١٩٠٤م) وكان عبقرياً في الوعظ والخدمات العامة .

وفي سنة ١٨٧٤م صار عميداً للمدرسة الإكليريكية الجديدة ، التى كان يُختار منها الآباء والبطاركة ، كما قاوم الحملات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية بالمحاضرات الهامة .

+ + +

البابا كيرلس الخامس :

وُلِد سنة ١٨٢٤م ، وتنيح سنة ١٩٢٧م بعد فترة عاصفة من الاحتجاج الإكليروسى . ولما كان حنا مطر شاباً رُحل والداه وتركاه في كنف أخيه الشيخ المتواضع . وفي العشرينيات من عمره ترهب أولاً في دير العذراء (السريان حالياً) ثم في دير البراموس ، حيث عاش في فاقة . وكان يقوم بنسخ المخطوطات لكى يقتات منها .

ثم دعاه البابا ديمتريوس الثانى للخدمة في الكاتدرائية المرقسية . وبناء على طلب الرهبان سمح له البابا بالعودة إلى البرية . ومكث حنا بالدير حتى سنة ١٨٧٥م ، وفي تلك السنة تنيح ديمتريوس . واختاره الآباء الأراخنة للكرسى المرقسى باسم كيرلس الخامس ؛ وظل جالساً عليه ٥٣ سنة . وكان تقياً وبلا لوم ، ولكنه كان عنيداً وضيّق الأُفق،لقلة معلوماته ، مثل باقى كهنة زمانه ، الذين كانوا يُختارون من طبقات شعبية بسيطة وغير متعلمة .

وبعد كيرلس الرابع ، انقلب الوضع ، وأصبحت شعلة الإصلاح في يد جماعة العلمانيين (Lay) وحدهم ... وامتاز هذا العصر بالتطور السياسى والحكومة البرلمانية ولجان المستشارين .

وقد أتى كيرلس الخامس من عالم مختلف ، ولم يتأقلم مع الأساليب المتقدمة، لذلك قام صراع بين النظام القديم والحديث فى الكنيسة القبطية.

وليس من المنصِف قبول رأى الجماعة التى وقفت ضد البطريرك ، والتى أطلقت على كيرلس الخامس لقب "جبار الظلم". فقد قام بترميم العديد من الكنائس والأديرة للرهبان والراهبات . كما أنه بنى كنائس جديدة في كل إنحاء مصر ، ودشن واحدة في الخرطوم في السودان .

كما تم بناء مدرسة قبطية صناعية للأولاد ، وأخــرى للاقتصــاد المــنزلى للبنات، في أيامه الأولى ، ولكن من الصعب تحديــد مُســاهمته فــي تقدمــهما. واشترى بيتاً كبيراً في مهمشة (قرب باب الحديد) بالقاهرة ، حيــث تــم إقناعــه بإنشاء إكليريكية جديدة للتعليم الدينى .

وفي سنة ١٨٩٦م أصدر كتاباً دورياً بالتدقيق على الكهنة في تنفيذ قوانيــن الكنيسة بكل حزم . ولو صدقنا مــؤرخ سـيرته ، فإننــا نقــرأ أنــه زاد عــائد البطريركية ، من خمسة آلاف جنيه عند رسامته ، إلى ٤٣ ألفاً في ١٩١٣م مــن خلال حِكمة إدارته، واقتصاده في النفقات .

وفي أيامه رفع سعيد باشا الجزية المفروضة على أهل الذمــة منــذ الغــزو الإسلامي ، وأصبح المصريون كلهم يدفعون الضرائب الموحدة .

وفي تشريعات تالية – رغم إصرارها على أن الإسلام هو ديــن الدولــة – لكنها أعلنت المساواة بين جميع المواطنين ، دون النظر إلى الدين أو العِرّق .

وخلال فترة خلو الكرسى المرقسى (interregnum) بين البابا ديمــتريوس الثانى ، والبابا كيرلس الخامس ، أسست جماعة من الأقباط المُتحمسين "**جمعيــة للإصلاح**" ، وقد خدمت أحوال الأقباط الإجتماعية والثقافية والدينية ، التــى رأت أنها كانت سّيئة بالنسبة لباقى أفراد المجتمع المصرى .

فاتصلوا بالأنبا مرقس مطران الإسكندرية – قائم مقام البابــا – واقــترحوا عليه أن يتصل بالحكومة لإنشاء مجلس قبطى من ٢٤ عضواً ، ويختاره الشــعب، وتكون له سَلطة إدارة أملاك (أوقاف) الكنيسة ، على أساس الربحية .

وأذعن المطران لهم ، وصدر قرار في ٣ فبراير سنة ١٨٧٤ لتأســيس أول مجمع دينى (المجلس الملى) برئاسة البابا أو نائبه . وعند رسامة البابــا كــيرلس الخامس وجد المجلس موجوداً ، ومتعاوناً مع الكلية الإكليريكية .

وحدث النزاع بين أعضاء المجلس والبابا عندما أرادوا التدُخل مباشرة في إدارة أموال الأوقاف . ورفض البابا حضور جلسات المجلس ، أو يعين نائباً له في المجلس للسنوات السبع التالية ، وأصبح المُشرّع بدون سلطة .

وكان الأكثر إزعاجاً اتخاذ البابا قراراً من جانب واحد ، لإغلاق الكلية الإكليريكية ومدرسة البنات ، مما أثار الشعور العام ، وفي مقابل ذلك قام المتحمسون للإصلاح – في معظم المدن – بتكوين العشرات من الجمعيات الخيرية، لرعاية مدارس الأقباط والعمل الاجتماعي للفقراء ، دون الرجوع إلى سلطات دينية أو أموال كنسيّة . وكان تعليق المجلس له نتائج أخرى ، منها قيام الكهنة بعدم مراعاة قوانين الكنيسة، فيما يتعلق بالزواج والتطليق والميراث وغيرها من الأحوال الشخصية ، مما بعث على انتشار عدم الرضا العام .

وتقدم بعض الأعضاء إلى الحكومة واستخرجوا قراراً سنة ١٨٨٥م بإعادة المجلس الملى . فاحتّج البابا لدى الخديوى شخصياً ؛ ولكن تم رفض احتجاجه .

ولما تم عقد مجلس جديد ، امتنع البابا عن حضور جلساته .

وتم انتخاب مجلس ملى ثالث سنة ١٨٩١ ، ولكنه لقي مصير سابقه ، وكانت المفاوضات بلا طائل . وقامت جمعية "التوفيق" الجديدة للصُلح . وكانت الهجمات بين الأحزاب الكنسية والمدنيّة الشرسة تُنشر في الصحافة ، وتنتشر في دوائر الحكومة .

ورفض الخديوى مقابلة البابا ، ووجه أنظار رئيس الوزراء بطرس غالى باشا للتنبيه على البابا ، بعدم مخاطبة القصر مباشرة . بينما طلب أعضاء المجلس الملى تعليق أعمال البابا لعناده ورفضه المشاركة فى أعمال المجلس ، وتعيين نائب بابوى من رجال الدين ، ليقوم بعمله. وتم طرح اسم أسقف صنبو .

وهدد البابا الثائر المرشح بالحرم ، واتصل بالدبلوماسيين الأجانب للتوسط له لدى الخديوى ، ولما تضايق بطرس غالى من هذه الخطوة ، عمل محاولة

أخيرة لحل النزاع ، بعقد اجتماع سريع مع البابا ، ورغم أنه نجح في الحصول على وثيقة مكتوبة بيده ، لكنها لم تأتِ بشيء !!.

وأخيراً ، في سبتمبر سنة ١٨٩٢م نفاه الخديوى إلى دير البراموس . وأما نائبه مطران الإسكندرية فقد تم أمره بالتوجه إلى دير أنبا بولا بالبحر الأحمر. وهذا الإجراء الحكومى رفع الحماس الشعبى له ، خاصة أنه لم يشك أحد في قداسته وحُسن نواياه .

وقد بُذلت محاولات من الأصدقاء والخصوم – لدى القصر – لعودة البابا . وتمت إعادته في فبراير سنة ١٨٩٣م. وقد قابله أهل القاهرة بالترحاب ، وصحبُه ممثل الحكومة وحاكم القاهرة ، الذى أدخله بنفسه إلى الدار البطريركية . وتم قبول المجلس الملى ، وتم الصفح عن أسقف صنبو ، وأُعيد افتتاح الكلية الإكليريكية ، وتم افتتاح فروع لها في الإسكندرية وبنى سويف ودير المحرق في أسيوط .

وبعد تجاوز الأزمة الخاصة بالمجلس الملى ، بدأ الأقباط يتفرغون إلى التعامل مع باقي المشاكل ، التى نشأت ، خلال عهد كيرلس الطويل .

ومنها ما يمس الكنيسة القبطية اليعقوبية السريانية (الأرثوذكسية) التى ترتبط مع الكنيسة القبطية بالعقيدة ، حتى أنهما رأياه شيئاً عادياً في تبادل الآباء والرهبان ، طوال تاريخهما الطويل . وقد تمت رسامة أنبا اسيذيروس (السريانى) أسقفاً لدير البراموس سنة ١٨٩٧ ، وكان **مؤرخاً**(١).

وظهرت ظروف في دير البراموس ، دعت البابا كيرلس الخامس إلى حرمه، فاتصل ببطريرك إنطاكية ، الذى لم يوافق على الحرم ، بل جعله مسئولاً عن كنائس وأديرة السريان في مصر ، ولكن تمت تسوية المسألة فيما بعد .

---

(١) راجع كتابه:" **الجوهرة النفيسة في تاريخ الكنيسة** " من إعدادنا وطبع مكتبة المحبة.

وأما المشكلة الأخرى التى أثارت ضجة بعض الوقـــت ، كـانت حركـة المجلس (المؤتمر) القبطى ، الذى انعقد في أسيوط سنة ١٩١١م لإيجاد المســاواة التامة بين المصريين في الفرص والواجبات ، وحرية الدين .

كما قامت حركة إسلامية مقابلة لها ، عقدت اجتماعها في الإسكندرية.ولـم يُسَر الخديوى بالحركتين . وحاول البابا إقنـاع قـواد المؤتمـر القبطـى بنقـل اجتماعاتهم إلى القاهرة ، بناء على رغبة الحكومة . وبعد فترة ، خمدت الحركـة. وبعد ثمانى سنوات ، انضم زعماء المؤتمر القبطى إلى أعضـاء حـزب الوفـد المكافح من أجل استقلال مصر .

وبعد ذلك حاول الإخوان المسلمون إحياء التعصب الدينية ، وقد ثبـت أنـها ضد تقدم الوطن . ولم يّجد الثورة المصرية (١٩٥٢م) صعوبة في القضاء علـى حركة الإخوان (وإن ظلت تعمل فى الخفاء ، حتى الآن) .

وحتى حادثة حرق كنيسة – الزقازيق في مارس سـنة ١٩٤٧م ، وحـرق كنيسة السويس في يناير سنة ١٩٥٢م قد عدَّها الأقباط من الأعمـال الإجراميـة التى يعاقب عليها القانون العام ، ولكن لم يكن لهما مغزىً عام ، أو نتيجةً مؤثـرة على الوطن ككل .

وربما كانت حصيلة الأحداث المتتابعة من أيام البابا كـيرلس الخـامس أن الوحدة الوطنية ستبقى ، وأن الدين لله والوطن للجميع .

مجيء البعثات التبشيرية : (Missionaries)

عند مجيء البعثات الأوربية الكاثوليكية والبروتسـتانتية ، قوبلـت بحركـة مقاومة قبطية قوية ، في عهد البابا كيرلس الخامس .

وقد جرت محاولات كاثوليكية للتصالح (Conciliation) منذ تاريخ قديـم ، وكانت أول محاولة في مجمع فلورنسا (١٤٣٨م-١٤٤٥م) وأعقبها أخرى سـنة ١٥٩٧م ولكن بدون جدوى.

وفي عـــام ١٦٣٠م قـــام Capuchin Friar ، مـــن بـــاريس ، Joseph Leclerc du Tremblay بتأسيس مركز دينى متواضع في القاهرة. وقد ورثـــه الأب Agathangelo of Vendôme ولكنه فشل في التأثير علـــى الأقبـــاط ، وفي النهاية هاجر إلى إثيوبيا حيث قُتل .

وفي عام ١٦٧٥م جاء الفرنسيسكان إلـــى الصعيـــد ، واســـتقر الجـــيزويت (اليسوعيون) Jesuits فى القاهرة .

وهذه البعثات لم تجد استجابة ، إلـــى عـــام ١٧٤١م ، حيـــث صـــار أنبـــا أثناسيوس – أسقف أورشليم – كاثوليكياً ، وتلاه إثنان أو ثلاثة من الأتباع غـــير ذى أهمية .

وفي ذلك الوقت هرب روفائيل الطوخى ، الذى آمن بالكاثوليكية إلى رومـــا؛ حيث قضى السنوات من ١٧٣٦-١٧٤٩ م فى طبع الخولاجى، القبطى العربـــى ، وكتب صلاة قبطية أخرى .

وقدمت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م حرية الحركة فـــي مصـــر للبعثـــات التبشيرية اللاتينية . ويبدو أن القليل من الأقباط لم يكن لديهم الاعـــتراض علـــى الاتحاد مع روما، إلى أن قام أسقف جرجا – أنبا يوساب الأبح – المشـــهود لـــه بقداسته ولباقته ، للدفاع عن تعاليم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.وأســـكت دعايـــة روما لمذهبها الكاثوليكى .

وفي الواقع ، إن دخول الكاثوليكية مصر كان عن طريق السياسة . وتحكـــى القصة أن القنصل الفرنسى العام طلب من محمد علـــى السماح بدعـــوة البابـــا القبطى، لإتمام مناظرات كنسية في روما . فطلب محمد علـــى مـــن ســـكرتيره القبطى المعلم "غالى" بأن ينوب عنه في ذلك الأمـــر . ولكـــن نظـــراً لمعرفتـــه بالتصميم القبطى العنيد على أمور العقيدة ، فقد اقـــترح غـــالى أن يتحـــول هـــو

وأسرته إلى الكاثوليكية، حلاً للمشكلة (ولو بالشكل فقط) ، وظل تابعاً للمذهب الكاثوليكي بالشكل ، وأرثوذكسياً فى القلب.

وحاولت روما الضغط على الكنيسة القبطية سنة ١٨٩٥م برفع درجة كاهن كاثوليكى يسمى كيرلس مكاريوس (مقار) ، ليكون سفيراً بابويا لكل إيبارشية مصر، مع إثنين من الأساقفة المساعدين ، أحدهما للدلتا والآخر للصعيد .

وبدلاً من أن يفرض سلطانه على الأقلية الكاثوليكية ، بدأ كيرلس مقار يرسل رسائل دورية للجماعات القبطية وكهنتهم ، ليدعوهم ليخضعوا لبابا روما ، واستخدم نفس القداس القبطى مع بعض التحريفات . وأرسل البابا كيرلس الخامس رسائل دورية للكهنة الأقباط ، وقام رجال الدين الأقباط بالوعظ، للدفاع عن عقيدة آبائهم ، وكان على رأسهم القمص فيلوثاؤس عوض ، الذى كان له دور هام في هذا المجال .

أما مجئ البعثات التبشيرية البروتستانتية إلى مصر ، فكانت من الكنيسة المشيخية المتحدة في أمريكا ، سنة ١٨٥٤م ، ودعمت بعثة الجمعية التبشيرية الإنجليزية هذا العمل سنة ١٨٨٢م. وقد بدأوا بالعمل أولاً بين غير المسيحيين ، ولكنهم اتخذوا الطريق الأقصر ، بجذب الأقباط عن طريق التعليم المجانى والخدمات الاجتماعية .

وكانت النتيجة تكوين جمعيات قليلة العدد من الكاثوليك والبروتستانت ، وظهر التحدي من الكنيسة القبطية القديمة بإشعال لهب مجدها السابق .

+ + +

حركة التجديد (Innovation) :

بعد نياحة البابا كيرلس الخامس في أغسطس سنة ١٩٢٧ ، قرر الكهنة الأقباط عدم اتباع التقليد القديم في الانتخابات البطريركية . فكان يتم اختيار

البطريرك من بين الرهبان البسطاء عن طريق أراخنة أو كبار رجال الدولة الأقباط ، بالتعاون مع قيادات الكنيسة .

وخلال العقود الأولى من القرن العشرين ، اهتز التوازن بين رجال الدين والعلمانيين ، في مستوى التعليم والتقدم العلمى . وكان الأساقفة والمطارنة يشتهون الكرسى البطريركى ، بينما ظل الأقباط في سلبية ولا يُبالون بما يحدُث بالنسبة للمرشحين .

وفي هذا الجو ، تم اختيار آخر ثلاثة بطاركة . وأولهم المطران المحنّك لإيبارشيتى الإسكندرية والبحيرة الأنبا يؤانس ١٩ (١٩٢٧م-١٩٤٢م) والثانى مطران أسيوط ، الذى حمل اسم البابا مكاريوس الثالث (١٩٤٤م-١٩٤٥م)، والثالث مطران جرجا ، وهو البابا يوساب الثانى (١٩٤٦م-١٩٥٦م) ، وكان يُفضله البعض في الرسامة لأنه درس اللاهوت في اليونان .

ولكن التجمُّد الظاهر وغياب السياسات البناءة في شئون الكنيسة ، خلال البطريركيين الأولين قد مهّد الطريق إلى السيمونية والفساد في عهد البابا الثالث. وكان رد الفعل لهذا الموقف المؤسف هو ثورة قبطية .

وزاد الشجار بين البطريرك والشعب بسبب نفوذ خادمه وتدخُّله في إدارة أموال الكنيسة والترشيحات الأسقفية . وأخيراً جاء قرار طرد المجلس الملى المؤقت ، وصدور قرار بتعيين لجنة مستقلة من ٢٤ أرخون قبطى (كان كاتب هذه السطور واحداً منهم) لإصلاح الوضع المتردِّى .

وكان خطف البابا - الغير مسبوق - بيد جماعة الأمة القبطية ، هو نتيجة للشعور الثائر للرأى العام القبطى .

وقد تم الترحيب باللجنة الجديدة - بصفة عامة - ولكن سرعان ما اصطدمت بالبطريرك وحاشيته الفاسدة. وقد خضع لتأثير نصائح الأشرار. فضغط على الأساقفة للحصول على مزيد من الأموال، وإلا هددهم بطردهم من كراسيهم .

ولذلك مال رجال الدين إلى جانب المجلس ، وكوّنوا جبهة متحدة . وبعد عدة تحقيقات عن سلوك البطريرك ، تم الاتفاق بين المجلس والمجمع المقدس ، على إبعاد أنبا يوساب عن إدارة الكنيسة.

وصدر قرار رسمى مؤرخ في سبتمبر سنة ١٩٥٥م ، وقامت الحكومة بنفي البطريرك إلى دير المحرّق في أسيوط . وأُعطيت سُلطاته الكنسية إلى لجنة من ثلاثة مطارنة، مشهود لهم بالتقوَى .

وقد تنيحّ في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦م ، وتم انتخاب قديس متوحد هو أبونا مينا . وحَمل اسم البابا **كيرلس السادس** ، وتمت رسامته في ١٠ مايو من السنة التالية ، وفرح الأقباط بظهور الفجر الجديد .

+ + +

الإصلاح الحديث : (Modern Reform)

حتى في أشد اللحظات سواداً ، كان للكنيسة القبطية دائماً شخصيات إصلاحية متقدمة من أعضائها .

وقد بدأت مستويات الكهنة التعليمية ترتفع ، فضم الكهنوت شخصيات جامعية ، وكذلك كان الرهبان من خريجى الجامعات ، وكذلك الخُدّام من العلمانيين ، خلال بطريركية البابا يوساب الثانى .

وزادت تلك الحركة منذ تولى البابا كيرلس السادس ، الذى أحاط نفسه بمجموعة من المستشارين ، أكثر علماً وروحانية من سابقيه . كما ضم المجلس الملى مجموعة مثقفة وتقية ومكرسة للخدمة، ومع التوسع في الحريات الدينية تحت ظل الدستور والميثاق الوطنى ، استطاع الأقباط بناء العديد من الكنائس ، لتناسب زيادة أعدادهم – في كل البلاد – وخاصة في المدن الكبرى .

وقد تم إحياء الطراز المعمارى القبطى القديم برؤية فنية غير عادية . كما اهتمت هيئة الآثار المصرية بالكنائس القديمة . وكثرت الجمعيات الخيرية القبطية التى أقامت المدارس والمستشفيات ، وقد تم تأميمها وخضوعها للإشراف الحكومى .

كما تم قيام هيئة مدارس الأحد للمشاركة مع الكنيسة في الخدمة والتعليم.

ومن الأعمال الدينية الثقافية إنشاء المتحف القبطى ، وجمعية الآثار القبطية والمعهد العالى للدراسات القبطية .

+ + +

التمسُّك بالعقيدة القبطية :

منذ نشأة المسيحية في مصر ، فإن عمودها الفقرى هو كهنوتها . ويحترم الأقباط رجال الدين ، وينظرون إليهم على أنهم القادة والمرشدين ، لاسيما في وقت الأزمات ، التى لم تكن نادرة في تاريخ البلاد .

ولم تقف الاغتيالات أو الاضطهاد ، أو الطرد من العمل الرسمى، أو الاستيلاء على الممتلكات ، حائلاً دون تمسك المجتمع القبطى بدينه. ووقف رجال الدين يدعمون المؤمنين في وقت العواصف. وكان الإيمان هو سبب بقائهم.

ولا يوافق الأقباط على عصمة البابا (infallibility) ولكن له تعظيم خاص كرئيس للإكليروس كله ، ولا توجد سلطة لعزله . وهو يرأس المجمع المقدس .

وللرهبنة دور هام . ويتم اختيار الأساقفة من الرهبان.وفى عهد البابا كيرلس السادس ، سُمِح للراهبات بالقيام بخدمات اجتماعية .

+ + +

٨- الأثيوبيون (الأحباش) :

مقدمة :

الإمبراطورية الأثيوبية الحديثة تقع إلى الغرب من القرن الأفريقى والبحر الأحمر ، ومساحتها نحو ٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع ، وأرضها جبلية ترتفع أحياناً إلى ١٥٠٠٠ قدم ، وتنحدر في أودية نحو إريتريا ، التى كانت إحدى محافظاتها منذ سنة ١٩٥٢م (وقد استقلت أخيراً وصارت جمهورية مستقلة).

ويبلغ عدد سكان أثيوبيا (١٩٦٨) نحو ١٨ مليوناً ، منهم على الأقل ٨ مليون مسيحى أرثوذكسى (على الطقس القبطى) ، والباقى خليط من الوثنيين والأفارقة البدائيين (ولم يشر الكاتب إلى المسلمين). والحُكام مسيحيون ، ويتكلمون اللغة الأمهرية. وهم من جنس خليط من الساميين والزنوج . وهم طوال القامة عادة ، وذوى لون بشرة سمراء وشعر مجعد . ويمتازون بالتقوى والارتباط بكنيستهم.

وتشمل إثيوبيا ١٣ محافظة ، وكل واحدة إيبارشية أسقفية ، ويوجد أيضاً ١١مطراناً . وكانت العاصمة دائما في وسط البلاد وأقدمها أكسوم (Axum) ثم حل محلها جوندار (Gondar) على الشاطىء الشمالى لبحيرة تانا ، ثم صارت العاصمة الحالية "أديس أبابا" (أى الزهرة الجديدة).

وقد أسسها منليك الثانى (١٨٨٩-١٩١٣) وقد حمل اسم "الأكبر" ، بعدما هزم الإيطاليين في معركة Adowa سنة ١٨٩٦.

ويعيش في "أديس أبابا" مليون ، وهى مقر الحكومة ، وبها جامعة ومقر للمعاهد اللاهوتية القبطية (في عهد الكاتب) . ولها بطريرك كاثوليكوس ، هو أنبا باسيليوس ، وهو أول أنبا أثيوبى .

وظلت شُعلة المسيحية مشتعلة في هذه البلاد ، وظلت محتفظة بالإيمان القبطى الأرثوذكسى ، ومشاعر الحب للبابا المصرى .

+ + +

موجز تاريخ أثيوبيا :

الدارس لتاريخ كنيسة إثيوبيا يجب أن يضع في اعتباره التاريخ السياسى لإثيوبيا ، إذ أنه من الصعب غالباً الفصل بين الأحداث الكنسيَّة والمدنيَّة.

ويجب أن نحاول – على الأقل – حصر العلامات التاريخية الرئيسية لكى نقدر أن نفهم ما حدث للكنيسة .

وتاريخ الكنيسة الأثيوبية غامض ، لنقص المصادر عنه . وفي العصور القديمة أرسلت الملكة حتشبسوت حملة إلى بلاد بُنط ، في شرق أفريقيا ، نحو عام ١٥٢٠ ق.م. والظاهر إن مملكة أكسوم ظلت وثنية إلى أن سمعنا عن قصة ارتباط الملك سليمان بملكة سبأ (١مل١٠ :١-١٣) في القرن العاشر ق.م ، معطياً خطأً من التتابع لحُكم عرش أثيوبيا من ذرية سليمان الحكيم .

كان ذلك أول اتصال بين ما نسميه إثيوبيا أو اليمن.والتوحيد في عبادة يهودية . وبهذه المناسبة كان افتراض نقل تابوت العهد من هيكل سليمان في أورشليم إلى أكسوم ، حيث تم حفظه ، رغم أن كل العناصر الأثرية تشير إلى استمرار الوثنية ، حتى مقدم المسيحية إليها في القرن الرابع ، حسب ما ورد في قصة فرومنتيوس . كما تظهر في القرن السادس في كتاب الرحّالة القبطى قزمان – المسمى "طبوغرافيا مسيحية".وفي تلك الفترة أنشِئت في أكسوم مسلات حجرية ضخمة ، لا يزال غرضها سراً غامضاً.ويثير دهشة الأثريين .

وقبل نشأة الإسلام ، توسعت مملكة أثيوبيا- عبّر البحر الأحمر- في اليمن . وكان غرض حملة "كالب" ملك أكسوم ، هو مطاردة ذى نواس ، الذى اضطهد مسيحيّ نجرّان عام ٥٢٢م ، وإجلاس ابن الحادث ، الشيخ القَبلَي الشهيد، على عرش حِميَّر.

ويذكر التقليد أن نائب الملك الأثيوبى - أبرهة الأشرم - كان يُعِد للهجوم على مكة ليلة ميلاد نبى المسلمين "محمد" ، وأن العرب طلبوا مساعدة الفُرس ، وكانوا من أشد أعداء البيزنطيين ، والذين كانوا حلفاء الإثيوبيين.

وقامت معركة الفيل - المذكورة فى القرآن - وانتهى حُكم الأحباش لليمن . وخلال الاضطهاد الأول للقرشيين، لأتباع النبى محمد ، نصَح أتباعه إلى الهرب إلى ملك أكسوم ، حيث سيجدون ملكاً يحفظهم من الاضطهاد .

وهنا ندخل إحدى المراحل الأشد ظلاماً في التاريخ الأثيوبى ، عندما اختفت سلسلة النسب لسليمان ، ثم استُرِّدت نحو نهاية القرن ١٣م بعد القضاء على أسرة زاجوًا (Zagwé) . ودخلت البلاد فترة عُزلة وغموض ، وتنتمى إليها سلسلة الكنائس العشرة المحفورة في الصخر، بمعرفة الملك Lalibela ، وقيل أنها من وحيّ مهندسين أقباط .

ويّنسب رجوع ملوك يهوذا الأصليين للحُكم إلى نفوذ أحد أعظم قديّسى أثيوبيا، في تاريخها ، وهو تكلا هيمانوت ، والذى بسببه منح الملك الجديد -Yekuno Amlak الكنيسة ثلث المملكة إلى الأبد ، وهو ما يُفسر سبب غِنَى الكنيسة الأثيوبية حتى هذا اليوم.

وقد تقدمت أثيوبيا أدبياً ،ونهضت روحياً بترجمة الكثير من الكتب من القبطية والعربية ، وشملت كتب التاريخ وسِيَر القديسين والعظات ، وعدة موضوعات دينية أخرى . وتمت ترجمة كتاب التاريخ الذى كتبه يوحنا النقيوسى

إلى لغة الجعز القديمة (وبقى بالنص الأثيوبى بعد فقد النص القبطـــى للكتـــاب ، حيث تُرجم للفرنسية) .

وتم وضع تاريخ لحُكم الملك (Amada Seyon) (١٣١٤-١٣٤٤م)، والملــك (Zara Yakob) (١٤٣٨م) وكان ذلك خلال فترة حروب الصليبييـــن ، عندمـــا عانى الأقباط من ظلم سلاطين المماليك ، ولذلك ثار إخوانهم فـــي الديـــن مـــن الأثيوبيين ، لمساندة أخوتهم البعيدين، بالضغط على الُحكام المماليك .

ولما وصلت الأخبار إلى ملك أثيوبيا بقيام اضطهاد جديد للأقبـــاط اسـتخدم ثلاثة وسائل : أولها التهديد بإنقاص المياه في النيل حتى تصير مصر صحـــراء ، وثانياً استخدم المفاوضات وتبادل الهدايا ، كما حدث في أيام الملـــك داود الأول ، الذى أرسل ٢٢ جملاً محملة بالهدايا إلى السلطان برقوق ، كوسيلة مقنعة للصُلح.

وثالثاً ، في حالة الفشل ، استخدم أسلوب الانتقام من المسلمين في إثيوبيـــا ، واعتبرهم رهائن ، وعبَّر عن نيته بغزو مصر من الجنوب ، كما حدث في عـــهد زارا يعقوب (١٤٣٨م-١٤٣٩م).

كما زادت العلاقات مع غرب أوربا في ذلك الوقـــت. وقـــد أرســـل الملـــك Weden Ar'ad (١٢٢٩-١٣١٤م) مندوباً إلى البابـــا إكليمنضـــس (Clement) الخامس في أفينون ، ولم يُعرَف سبب هذه البعثة .

وقد عيّن الملك زارا يعقوب الراهب نيقوديمـــوس رئيـــس ديـــر بأورشـــليم ليشارك مع يؤانس القبطى رئيس دير أنبا أنطونيـــوس ، فـــى مجمـــع فلورنســـا (١٤٣٨-١٤٣٩م) لاسترداد السلام والوحدة بين الكنائس .

وكان أول أوربى يدخل أثيوبيا – في التاريخ – فنان يُدعـــى نيقـــولا بوظـــل يرسم بها لمدة ٤٠ سنة. وكان رسمه لصورة المسيح الطفل، وتحمله أمه العـــذراء

على اليد اليسرى ، قد أثارت غضب كهنة أثيوبيا ، حيث اعتبروها خطية كبرى فى حمل المسيح على اليد الأقل أهمية ، ولكن الملك وحده هو الذى استطاع إيقاف هذه الاحتجاجات الكنسية.

وقد شهدت الأيام الأخيرة من زارا يعقوب بداية صراع مع جيرانه المسلمين، الذين هزموا خلفاءه ، فطلب الأثيوبيون مساعدة البرتغاليين.

وكان ذلك الوقت هو عصر الاستكشافات البرتغالية . واعتمد الأمير هنرى الملاح على إرسال Prester John فى مغامرة للهند.

وكانت الكنيسة القبطية ترسل أساقفة من عندها على التوالى ، ولكن لأول مرة أصبحت أثيوبيا منطقة نفوذ للأجانب ، حيث أرسلت البرتغال عدة سفارات متتالية ، وأولها سنة ١٤٩٠م حيث جاء Pedro عن طريق البحر الأحمر ، بينما جاء Alvarez سنة ١٥٢٠م عن طريق الهند ، حيث ربط طريق رأس الرجاء الصالح بين الهند والبرتغال مباشرة منذ عام ١٤٩٨م. وهذه السفارات لم يكن لها أهمية كبرى ، بل كانت أحياناً عبئاً على الأثيوبيين الذى كانوا يشكّون فيها .

وأما جماعة الجيزويت (اليسوعيين) التى تكونت حديثاً ، فقد جاءت ببعثات أخرى لأغراض تبشيرية (كاثوليكية) . وقد لاقت بعض النجاح بدعم ملكى ، وخاصة بعثات Mendez, Paez , Oviedo في ١٥٥٧م ، ١٥٩٥م ، ١٦٢٤م ، ولكنها لم تمس قلوب الأهالى ، إذ كان نجاحها محدوداً .

وفي أثناء البعثة البرتغالية ، احتل الأتراك اليمن سنة ١٥٣٨م ، وبدأت قوات تُغير على الشاطئ الأفريقى عبّر البحر الأحمر . وسرعان ما أصبح الحاكم المُسلم لهرر مناصراً للأتراك ، ضد إثيوبيا . وقام أحمد جرّان بتحطيم الحامية البرتغالية وهزم القوات الأثيوبية ، بينما دخلت قوات الجالا إلى أثيوبيا من الجانب الآخر .

وكان تدمير الكنائس والأديرة والكنوز الحضارية الأثيوبية على يد الغـزاة لا يمكن تعويضه . وأخيراً ركن الأثيوبيون للدفاع عن أنفسـهم مـن مصـادرهم ، وساعدتهم طبيعة الموسم المطير ، وشجاعة الملك الجديد الشـاب كلوديـوس ، وتمت هزيمة أحمد جران وقتله سنة ١٥٤٢م.

وكانت الحصيلة الوحيدة للبعثة البرتغالية ميلاد الدراسـات الأثيوبيـة فـي أوربا. وعندما بدأ Mendez خدمته بموافقة الإمبراطور، بدأ بزيـارة " تجـرى" (Tigré) ، حيث قام إثنان من كهنته بصلاة القداس فى كنيسة إثيوبية. وقـد تـم العثور عليهما مقتولين فى اليوم التالى ، وهو تأكيد على فشل البعثة . وقد أرسـل " مانديز " أربعة من الأثيوبيين إلى روما ، لكي يدرسـوا العقيـدة الكاثوليكيـة ، لزرعها بين الأثيوبيين ، لتعليم جماعات من الوعاظ وكهنة المستقبل.

وقد أُودع الأربعة فى رعاية Ludolf العالم الألمانى ، الذى استطاع – فـي ثلاث سنوات – أن يتعلم الأمهرية ، ولغة الجعز القديمة ، من تلاميـذه ، وفيمـا بعد أعد كتاباً للقواعد وقاموساً وتاريخاً لإثيوبيا .

واستطاع مانديز ورفاقه أن يصلوا بصعوبة إلى ميناء سواكن ، وأن يُبحـروا إلى جوَا (Goa) سنة ١٦٣٦م. وفشلت حملـة الجيزويت البرتغالية فى إثيوبيا .

وقد أراد لويس ١٤ أن يُجدِّد اكتشاف أثيوبيا ، فأرسل طبيباً فرنسـياً اسـمه: Du Roule فذهب إلى سنار على الحـدود السـودانية.وطلـب تصريحـاً مـن الإمبراطور تكلا هيمانوت بدخول أثيوبيا (١٧٠٦م–١٧٠٨م) ولكن تم قتله قبـل الحصول عليه .

وبدأت مرحلة عُزلة أخرى كاملة – في التاريخ الأثيوبـى – كـثرت فيـها الاغتيالات والقلاقل المحلية خلال القرن التالى، وهى خارجه عن هدف دراستنا.

وجاء الاهتمام بإثيوبيا من بلدين مجاورين ، السودان في الغــرب ، وكــانت في ذلك الوقت تحت حكم مصر . وإريتريا ، وكانت فى أيدى إيطاليا فى الشـرق. ولحل مشاكل الحدود الغربية ، أرسل الخديوى البابا القبطى كيرلس الرابــع فــي بعثة سلام ، وقد أنجزها بصعوبة بسبب طبيعة الأثيوبيين التى تميل إلى الشك .

ومن ناحية أخرى ، فإن إيطاليا أرادت إنشـــاء إمبراطوريــة فـــي أفريقيــا وخاصة عندما تولى موسولينى السُلطة بقبضة حديديــة ســنة ١٩٣٥ ، وعــانت أريتيريا من الاحتلال الإيطالى (١٩٣٦-١٩٤١م).

وعمل الإمبراطور هيلاسلاسى على النهوض بـــالبلاد ، دون التـــأثير فـــي تقاليدها القديمة ، وساعده الشعب الذى يحب الحياة، بمضرب الأمثال فـــى هـــذا المجال.

الأصول التاريخية للكنيسة الاثيوبية وتطوّرها :

يذكر المؤرخ (اللاتينى) روفينوس (Rufînus) أنه استمد معلوماته عـــن تـــاريخ أثيوبيا من فم الشيخ Aedesius بعد فترة من عودته من مغامرته في أثيوبيا مـــع أخيه فرومنتيوس (Frumentius) فى أوائل القرن الرابع.

ويشير المؤرخ يوسابيوس القيصرى إلى خدمة القديس مار متى الرسول فـــي أثيوبيا ، وكذلك من تسجيل سفر أعمال الرسل إن الرسول فيلبس قد عمَّد خصيــاً إثيوبياً ، وكانت له سلطة عظيمة في عهد كنداكة ملكة إثيوبيا ، إذ كـــان وزيــراً لماليتها ، وقد جاء إلى أورشليم للعبادة .

وبذلك تكون بدايات كنيسة أكسوم . وعلى أية حال ، فقد كان اسم "**كنداكــــة**" هو لقب لملكات مروى والنوبة أكثر منه للحبشة . أما كلمة "إثيوبي" في اللـــهجات السامية فتعنى " ذو جلد أسمر" (وفى العربية حبشى) ولكن ليس أسود تماماً .

وأما نشر الإيمان المسيحى فى إثيوبيا ، فقد تحدد تقريباً بعـــام ٣٤٠م . وأن التقليد الخاص برسامة كاهن قبطى من مصر (مطـــران) علـــى رأس الكنيســة

الأثيوبية، قد بدأ عندما تمت رسامة فرومنتيوس لهذه الإيبارشية الجديدة بيد البابا أثناسيوس الرسولي في الإسكندرية .

وحمل اسم "أبا سلامة" (أب السلام) ، أو " أبونا" (Abuna) وظلت هذه العادة سائدة حتى اتفاقية يوليو سنة ١٩٤٨ م. فصار لأثيوبيا بطريرك جاثليق (Catholicos) ، وهو أنبا باسيليوس الذى تمت رسامته في القاهرة يوم ٢٨ يونية سنة ١٩٥٩م بيد البابا كيرلس السادس ، في حضور الإمبراطور هيلاسلاسى .

وتم إدخال الرهبنة القبطية إلى أثيوبيا على نظام أنبا باخوميوس (الشركة) قبل نهاية القرن الخامس . ورغم أنه قد وفد إلى إثيوبيا أفراد من الرهبان من الصعيد ، في وقت أو في آخر ، لكن أهم علامة في نشر الرهبنة والمسيحية في إثيوبيا ، كان مجيء القديسين التسعة ، نحو عام ٤٨٠م. وكانت الشخصية الرئيسية الأنبا ميخائيل الأرجاوى (Aragawi) مؤسس دير دبرا دامو (Debra Damo) على النظام الباخومى ، على ارتفاع صعب الصعود إليه . والآباء الرهبان الآخرون هم أنبا يؤانس مؤسس دير دبرا سينا (Debra Sina) وأنبا ليبانوس منشيء دير دبرا ليبانوس (Debra Libanos) ، وأخيراً ارتبط هذا الدير باسم القديس الوطنى تكلا هيمانوت .

وعن طريق الرهبان المتعلمين تم نقل الأدب الدينى من القبطية واليونانية والسريانية إلى اللغة الطقسية القديمة المسماة "الجعز" . ورغم أن الأمهرية حلت محلها كلغة للكلام ، فلا تزال لغة الجعز ، هى لغة القداس ، كما هى عليه الحال بالنسبة للغة القبطية في مصر .

وتمت ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة الجعز بين القرنين الخامس والسابع، مع قداس القديس كيرلس الكبير ، ومع بعض الكتب الغير معتمدة (Apocryphal) مثل : "صعود إشعياء" . وزادت أعداد الكنائس بسرعة كبيرة في كل إثيوبيا .

ولما حدث الانشقاق الخلقيدونى بين الشرق والغرب في منتصف القرن الخامس ، بسرعة انحازت إثيوبيا إلى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية الأم.

وهذه الفترة ظهرت فيها قيادة ساعدت على نشر المسيحية خارج حدودها ، خلال الحروب اليمنية في الجزيرة العربية قبل الإسلام .

وكان المسيحيون الأثيوبيون في صداقة مع النبى محمد والخلفاء الراشدين ، وبدأت العداوة بعد ذلك ، عندما حاول العرب الاستقرار على شواطئ البحر الأحمر الأفريقية والمحيط الهندى .

ومع انتشار الإسلام في أثيوبيا ، فإنه يُفترّض أن المسلمين ظلوا في السهول المنخفضة ، بينما تراجع المسيحيون الأمهريون إلى الهضاب العُليا بالداخل .

ولمدة ستة قرون – من ٦٥٠ إلى ١٢٧٠ ، فإن أثيوبيا والكنيسة الحبشية عانتا من أظلم عصورهما . ومن الناحية العملية ، فإن العلاقات الخارجية كانت قاصرة على التعامل مع أقباط مصر .

والكنائس الحجرية العظيمة المحفورة في الصخر ، في (Lalibela) (١١٩٠-١٢٢٥م) من أهم الآثار الإثيوبية ، والتى تسجل الصمت خلال فترة الظلام ، وكانت تصل إلى الخارج بعض تقارير من Prester John ، وكانت الحروب العربية لأثيوبيا سبباً في التجاء كنيستها للغرب .

وكان الصراع بين المسيحية والإسلام ، خلال حُكم أسرة زجّوًا ، يتزايد بسبب تزايد قوة المسلمين، الذين كانوا يتوافدون على أثيوبيا بكثرّة ، وأصبحوا يوجّدون في الداخل المسيحى . وقد تم اكتشاف جبانة إسلامية في تجرِى (Tigré) عليها نقوش عربية محفورة، تحمل تاريخ ١٠٠٦م.

وكانت سلطنة إسلامية قد أُنشئت في نهاية القرن التاسع ، وحكمتها الأسـرة المخزومية، في منطقة شاوا (Shoa) ، وظل ذكرها في المصادر العربية حتى عام ١٢٨٥م ، حيث حلت محلها أسرة أخرى سُميت ولاشمّا (Walashma) من منطقة Ifat ، وتقع كلها فى جنوب شرق إثيوبيا .

وظل الصراع بين المسلمين والمسيحيين في داخل إثيوبيا ، حتى تمت هزيمتهم الساحقة في القرن ١٦م ، وكان موازياً للصراع بين العثمانيين والبرتغاليين، واضطر الملك الأثيوبى لطلب معونة البرتغاليين ضد أحمد جران .

وكان تأثير هذه الخطوة على الكنيسة الأثيوبية خطيراً، إذ جاءت البعثات الكاثوليكية الرومانية إلى أثيوبيا . والواقع إن هجمات الإسلام الشديدة ، كانت سبباً في ظهور بعثة اللاتين على المسرح.

وفي عام ١٥٧٨م انتهت الفترة الإسلامية ، بينما تقوّت أقدام الكنيسة اللاتينية إلى منتصف القرن ١٧ تقريباً .

وكان أول مُرسَل لاتينى مسيحى إلى إثيوبيا هو Bermudez ، الذى عمل على إخضاع الملك كلوديوس لكرسى روما ، ولكن أرسل الملك الأثيوبى رسالة إلى غبريال بطريرك الإسكندرية من أجل إيفاد أسقف قبطى ، أما برمودز فقد تم سجنه لعدة أشهر ، ثم سافر إلى جوّا (Goa) (فى الهند).

وتكونت جمعية يسوع سنة ١٥٥٨م. وطلب أغناطيوس لويولا (Loyola) من البابا الرومانى السماح له بالخدمة مع البعثة الأثيوبية. كما ذهب إليها البرتغالى Oviedo مع رفاقه ، ولكن تم نقله إلى الصين واليابان سنة ١٥٦٧م ، ومات في فريمونا ، ورحل بعده رفاقه من العالم ، الواحد تلو الآخر ، وكان آخر من دُفِن هو لوبيز (Lopez) سنة ١٥٩٧م ، وبموته انتهت بعثة الجيزويت إلى فشل تام في إثيوبيا .

ومن الجدير بالذكر ، أن إثنين من الجزويت – Antonio , Pedro – قد حاوَلا إحياء المذهب الرومانى في إثيوبيا ، ولكن السفينة تحطمت على الشاطىء العربى ، وقد استعبدهما العرب سبع سنوات . وتاريخ الحملة يصبح مضطرباً لحدٍ ما ؛ من هذه النقطة. فنقرأ عن مارونى من الجزويت قد أرسله Alexo مطران جوّا (Goa) لمتابعة تحويل الأثيوبيين للمذهب الكاثوليكى ، ولكن تم قتله في Massowah.

ثم نسمع عن الأسقف يوحنا المعمدان (Baptiste) الذى رسمه البابا جريجورى ١٨، والذى جاء لعقد اجتماع مع البابا يوحنا ١٤ الإسكندري للتصالح مع الأقباط . ولما فشل في مأموريته سافر إلى إثيوبيا ، ولكنه لقي نفس مصير الماروني في ماسُوًا .

وفي نفس الوقت ، اختار مطران جوّا إبراهيم الهندي الذي صار كاثوليكياً. وحمل اسم Da Sylva لإحياء التبشير بالكاثوليكية في إثيوبيا. وقد تخفّى في زي تركي ، ووصل إلى مقصده بسلام .

وفي سنة ١٦٠٤م حصل Pedro الأسباني الجزوينى على حريته ، والتحق بالمبشر الهندى ، واستطاع أن يخدم وسط الصراعات السياسية المحلية ، تحت رعاية أحد الأمرَاء الطموحين ، المدعو يعقوب أو ZaDengel ، الذى استولى على العرش من ملاك سَجاد الأول (Malak Sagad I) .

وظن يعقوب أنه يمكنه الحصول على الدعم الحربى من بابا روما والبرتغاليين ، باتباع المذهب الرومانى ، وكان Paez أداته إلى ذلك الهدف . ومن ناحية أخرى ظل غالبية الشعب الإثيوبى خلف الأسقف القبطى.

ونفس التصرُّف السياسى الدينى قد تكرر ، حتى استولى ملاك سَجاد الثالث على السُلطة ، وأمر بالخضوع للعاهل الرومانى . وكنتيجة لذلك تم جعل ألفونسو

ماندير Mendez بطريركاً لإثيوبيا سنة ١٦٢٤م ، وعندما وصل إليها وتأكد من دعم الملك له أسرع باستصدار قرار رسمى بحرم الأسقف القبطى وكل أتباعه (الأرثوذكس).

وبدأ هذا الأب الكاثوليكى زيارته لمحافظة تَجرِى ، ولكن كان من نتيجتها مأساة . فقد قامت ثورة ، وأقام Mendez محكمة ، وبدأ بحرق الوطنيين أحياء ، مما زاد الشعور بالغضب في كل البلاد . وحتى الإمبراطور نفسه صار ضد البطريرك اللاتينى .

وأخيراً ، بعد تولىّ باسيليدس العرش بعد موت والده سنة ١٦٣٢م قضّى على حملة الچزويت . وكان هذا الملك الجديد مناصراً للكنيسة الوطنية (الأرثوذكسية) ، وكان على ماندير أن يهرب بحياته . واستطاع – مع إثنين من الأحياء– أن يُبحِر بصعوبة إلى جوّا ، بعدما سلبُه الأتراك كل ما معه.

ورغم إفلاس حملة الچزويت ، أصرّت جماعة أخرى من الرهبان الرومان من الكابوتشين (Capuchins) على إعادة المغامرة الرومانية ، واتخذوا طريقهم إلى الحبشة . وقد نجحوا في الوصول إلى أكسوم ، ولكن بمجرد وصولهم ، قامت السلطات الحبشية بالقبض عليهم فوراً ، وتم إعدامهم شنقاً ، وصدر قرار بمنع دخول أى كاثوليكى رومانى إلى البلاد • ومع ذلك أصبرت روما على الاهتمام بنشر مذهبها هناك!

لذلك في عام ١٧٠٢م ، بمباركة من البابا كليمنت الحادى عشر ، وصل ثلاثة من الفرنسيسكان إلى جوندار . وفى عام ١٨٤٦م انقسمت البلاد إلى منطقتين للنفوذ الرومانى : مفوضية الحبشة ورأس Jacobus، للرهبان الليعازريين (Lazarists) ومنطقة حالا (Galla) . ورأس الكاردينال Guglielmo رهبان الكابوتشين.

وفي عام ١٩٠٤ تحول عدد من الأثيوبيين (الأرثوذكس) إلى الكاثوليكية في تجرى وأمهرة وجوندار ، وصارت لهم ٦ كنائس صغيرة ، ولكن الحصاد كان كثيراً وسط قبائل الجالا الوثنية ، حيث خضع ١٨ألفاً لروما، وتم بناء عشرين كنيسة كاثوليكية هناك.

وفي ١٩٥٠ قامت روما برسامة إثيوبى بدرجة أسقف عام ، وحمل لقب : "المدبّر الرسولى للإثيوبيين الكاثوليك".

وفي القرن ١٩ توجهت إلى إثيوبيا حملات تبشيّرية بروتستانتية ، تحت قيادة صموئيل جوبات (Gobat) وكوجلر (Kugler) عن طريق جمعية التبشير الكنسي. ومع حلول عام ١٨٣٨ لم تصل البعثة إلى شيء، لأن كوجلر مات ، وتم نفى جوبات .

كما وردت بعثات بروتستانتية ألمانية وبولندية وسويدية وفرنسية وبريطانية وسويسرية ، ابتداء من منتصف القرن ١٩ ، ولكن بلا ثمر.

كما عمل بعض الشباب من معهد لاهوت St.Chrischona في بازل (سويسرا) مع شاب أثيوبى تعلم في الغرب وصار مرشداً واسمه Maderakal ، وقد صار فيما بعد مترجماً للامبراطور ثيؤدور الإثيوبى.

وقد سمح الأثيوبيون بمجىء البروتستانت لأنهم احتاجوا إليهم، لأنهم كانوا فنيين وصناع للبنادق اللازمة لهم . ومع ذلك ، فإن المجموعة البريطانية بقيادة Stern تم حبسها ، بعد وصولها سنة ١٨٦٠ ، ولكن تدخلت حملة اللورد Napier لإطلاق سراحهم سنة ١٨٦٨. وتم طردهم من الحبشة.

وجاء مبشر أمريكى في أواخر القرن ١٩ ، وقد ركزّ على الخدمة الطبية في العاصمة الجديدة "أديس أبابا" ، وفي وسط قبائل الجالا. ويجب الإشارة هنا ،

أنه بصفة أساسية ، فإنه لا المطران القبطى ، ولا الشعب الأثيوبى ، ولا القصر الإمبراطورى رحب بالمبشرين ، الذين كانوا يُنظر إليهم بشك كبير.

ومن الناحية الكنسية ، لم يمكن تسرّب النفوذ الدينى الأجنبى (الكاثوليكى أو البروتستانتى) إذ ظل التمسك برئيس الأساقفة المصرى، والأساقفة الوطنيين.

وفي عام ١٩٥٩ كسبت إثيوبيا أول بطريرك أثيوبى وطنى ، هو أنبا باسيليوس وهو بطريرك جاثليق (عام) لكل إثيوبيا ، وكان له مساعدون من الأساقفة الوطنيين (الأحباش).

وحالياً (١٩٦٨) يوجد ٢٢أسقفاً ؛ واحد لكل المحافظات الثلاثة عشرة، وآخرون في المدن والأديرة .

ونتيجة لمشكلة دير السلطان في القدس ، وليس لأمور عقائدية ، فإنه حدث جفاء بين أثيوبيا والكنيسة الأم فى الإسكندرية ، وقام الأثيوبيون بالاستيلاء على الدير القريب من القبر المقدس ، والذى وهَبه صلاح الدين الأيوبى للأقباط ، بعد الاستيلاء على القدس من يد الصليبيين سنة ١١٨٧م.

ومع ذلك ، فإنه يرد إلى المعاهد القبطية بمصر للآن كثير من الدارسين الأثيوبيين ، وكان البابا كيرلس السادس قد زار إثيوبيا ؛ كعلامة للعلاقات القديمة والدائمة بين الكنيسة الأم بالإسكندرية وابنتها الكنيسة الأثيوبية .

+ + +

عقيدة الكنيسة الأرثوذكسية الأثيوبية وثقافتها : (Faith & Culture)

من ناحية المبادئ المسيحية ، فإن الكنيسة الأثيوبية تتمسك بتعاليم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، فيما يتعلق بطبيعة المسيح ، ونظام العبادة ، والطقوس ونظام الأديرة وغيرها، حتى الآن؛ وكلها من أصل قبطى.

ولكنه من الخطأ الكبير أن نصف الكنيسة الأثيوبية بأنها صورة طبق الأصل من الكنيسة المصرية ، إذ أنها تأثرت بالتقاليد المحلية ، التى أعطت لها لوناً خاصاً فى طقوسها ، وفيما يلى بعض الاختلافات ، التي تُعطِى تلك الكنيسة شخصيتها الخاصة :

ودون التهويل من تأثير النفوذ اليهودي في البلاد ، فإنه يُلاحظ أن الأثيوبيين يلاحظون "السبت" ويمارسون الختان ، وينظرون إلى العديد من الطعام باعتبارها أصنافاً نجسة بالمفهوم اليهودى القديم (unclean) ولا تزال العبادة اليهودية ممثلة في قبيلة الفلاشا ، وكان مجيئها إليها قبل المسيحية (وقد هاجر كثيرون منهم إلى إسرائيل حديثاً) .

وتذكر التقاليد أن قبيلة إسرائيلية جاءت للحبشة مع الطفل منليك الأول في عهد ملكة سبأ واستقرت بها .

وأما الرقصة الشهيرة (dabteras) التى تستخدم معها عصا في اليد اليُسرَى ، وصنوج في اليد اليمنى ، خلال المواكب الدينية في أيام معينة ، قيل إنها عادة قديمة ورثها الأثيوبيون من اللاويين (Levites) الذين رقصوا أمام تابوت العهد والذى استقر بداخل هيكل سليمان .

وعلى أية حال ، فإن العكاز الذى على شكل حرف " T " قد استخدمه رهبان القديس أنطونيوس ، أثناء وقوفهم في صلواتهم الطويلة ، بينما الصنوج كان يستخدمها كهنة قدماء المصريين عند الترنيم للرَبة إيزيس ، قبل المسيحية ، وكذلك مصاحبة الطبول لحفظ الإيقاع ، لها أصول إفريقية . وأما الموسيقى (الألحان) الكنسية الحبشية فهى تُنسب لشماس في القرن السادس يُدعى يارد (Yared) ، الذى قيل إنه سمعها من فرقة ملائكية في السماء وسجلها لأهله !!.

ولا يزال الأثيوبيون يستخدمون قداسات بلغة الجعز القديمة بدلاً من اللغة الأمهرية الحديثة ، وهو ما يحتاج إلى تدريب طويل للكهنة قبل رسامتهم .

وأما نظام الكنيسة وقانونها ، فهى بدرجة كبيرة من أصل قبطي ، وأما رئيس الأديرة فيسمى echage ، وهو مسئول عن جيش الرهبان وعن أملاك الأديرة ودرجته تلى الأسقف في الكهنوت الأثيوبى.

ويجب أن تتم موافقة الإمبراطور قبل رسامة الآباء الأساقفة . وتُعدّ الكنيسة والدولة هما المصادر الحقيقية للقوة والسلطة والثقافة الوطنية .

ويلاحظ ضخامة عدد رجال الدين، وأنهم من طبقة خاصة. وقد بالغ أحد الرحالة فى القول بأن أثيوبيا تحتوى على كنائس أكثر من أى دولة مسيحية أخرى، وإن كان يقدر عددها بعشرين ألف كنيسة. وبعض القرى بها أكثر من كنيسة، ولابُد لكل منها من وجود كاهنين مرسومين ، بالإضافة إلى العديد من الشمامسة والراقصين (dabteras) !! .

وعلى ذلك فمن المفترض أن يقدر مجموع رجال الدين في كل إثيوبيا بنحو ربع السكان المسيحيين الذكور . والكاهن شخصية هامة في وسط شعبه ، ومسئولياته – علاوة على الخدمة الدينية – الاهتمام بالنواحى الأُسرّية من الميلاد حتى الموت . ويتمسك الأثيوبيون بالتناول من الأسرار المقدسة بكل هيبة ، وبالأصوام الطويلة ، والتى تبلغ نحو ٢٥٠ يوماً في السنة !!. والامتناع فيها عن كل الإنتاج الحيوانى (كما هى عليه الحال فى أصوام الأقباط) .

ويمتنع المتدينون عن الإفطار في أيام الأصوام قبل الساعة الثالثة مساء ، ماعدا السبوت والآحاد . وكعلامة للإيمان المسيحى ، فإن الشابات يرسمن علامة الصليب (الوشم) على الجبهة .

ويبدأ التعليم بين جيل الشباب ، كعمل كنسى ، نظراً لأن المدرسة ملتصقة بكنيسة القرية . وبالإضافة إلى تعليم القراءة والحساب ، فإن معظم التعليم الدينى هو في حفظ مزامير داود ، ومدائح وترانيم للمسيح والعذراء مريم ، وسلسلة من الصلوات بلغة الجعز القديمة .

أما بالنسبة للعمارة الكنسيّة ، فإنه رغم أن البازيليكا أو الكنيسة المستطيلة أو على شكل صليب موجودة في عدد كبير من الكنائس القديمة ، فقد طوّر الأثيوبيون بناء كنائسهم فجعلوها ذات ثمانى أضلاع (octagonal) أو مستديرة ، كوحى من هيكل سليمان، أو كالعادة القديمة بأن المساكن الإثيوبية دائرية الشكل.

وأقدم كنيسة بالطبع هى كاتدرائية أكسوم ، والمكرسة لأم النور ، وقد تم حرقها عدة مرات ، وأما البناء الحالى فيرجع لعام ١٨٥٤م ، وهى على النظام المستطيل (بازيليكى). وهى مبنية على مكان مرتفع ولها ثلاثة مداخل ، وهى مُزّينة برسوم من مناظر كتابية ، ومنها الفُلك والعذراء والطفل يسوع ، والقديس مارجرجس والتنين ، وصور القديسين المصريين التسعة الأوائل.

ونظراً لكثرة الغزوات فقد أخفىّ الأباطرة تابوت العهد (Tabot) اليهودى الموسوى ثم أعادوه إلى مكانه. ونظراً لعدم إمكان أحد الدخول إليه ، فلم يستطع أحد وصفه في أى مصدر مسيحى ، ولكن يقول مؤرخون مسلمون أن هذا الكنز المخفى عبارة جسم أبيض من الحجر المصفح بالذهب .

وبالرغم أن كل الكنائس الأثيوبية مفتوحة غالباً لكلا الجنسين ، فإن كاتدرائية أكسوم هى الاستثناء الوحيد ، حتى لا يُسمح للنساء بدخولها ، وذلك يرجع إلى وقت كانت فيه إمبراطورة سابقة قد انتهكت قدسية المبنى !!.

والشكل الشائع للكنيسة الإثيوبية ، إما مُثَّمن الأضلاع أو دائرى وينتشر هذا النوع في الريف ، حيث تكثر الكنائس التى تُبنى على مرتفع ، ولها مذبح (هيكل)

يقع في وسط الدائرة وحوله سور ، ويليه مساحة مخصصة لخورس الشمامسة (choir) وللمتناولين ، بينما يقف باقى الشعب في الحلقة الخارجية ، حُفاة الأقدام، على أرضية مغطاة بالحصير ، وهناك حواجز تفصل الرجال عن النساء، داخل الكنيسة.

ويقف الكهنة في الوسط أثناء الصلاة ، ويصلّون وهم يرفعون مباخرهم ، حتى يمتلئ داخل الهيكل بسُحب من البخور . وداخل الكنيسة رسوم جدارية والأيقونات العادية المعلقة على الحوائط.

وأما النوع الثالث من الكنائس الإثيوبية فهى المَجموعة الصخرية التاريخية المنحوتة ، التى عمَلها الملك التقى (Lalibela) (١١٨١-١٢٢١م) من أُسرة زاجَّوا ، ويعتبرها الأثريون أجمل نماذج الفن الكنسي ، في كل البلاد المسيحية .

وقد أقام الملك Lalibela علاقات أقوى بمصر. وقام بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين . ولهذا استطاع دعوة أمهر المهندسين المعماريين الأقباط والسريان ، للمساهمة في هذا المشروع الأثرى الهام. وكنائسه الإحدى عشرة شكلها مثل المعابد المصرية القديمة . وتتكون من ثلاث مجموعات ، بممرات داخلية، على مستويات مختلفة،باستخدام خنادق وأنفاق سُفلىَ.

والواقع أن كنائسه يمكن أن تُقارَن بعظمتها بالمعابد الصخرية المحفورة في أبى سنبل بالنوبة ، وبآثار البتراء (Petra) في الأردن ، وايلورا (Ellora) في ولاية حيدر أباد الهندية.

وبعض الكنائس لها ٣ صحون (naves) وغيرَها لها خمسة، مع صفوف من الأعمدة الجميلة ذات التيجان. ولها حنيات (apses) وقباب وأقوَاس .

وأما الفن المعماري الديرى ، فهو يحتاج إلى وقفة منا . والنظام الديرى الأثيوبي يسير تماماً كالطقس القبطى ؛ وإن كان الأقباط قد أقاموا في الصحراء

الشرقية والغربية القاحلة ، فإن الأثيوبيين أسسوا أديرتهم – على نظام الشركة cenobia– فوق قمم الجبال.كما نراه في دير Debra Damo ، وهو دير ربما تم تشييده في القرن السابع بيد الإمبراطور Gabra Maskal ويقع على قمة هضبة ، ولا يمكن الصعود إليه إلا بالحِبال فقط ؛ وبعد بنائه أمر الإمبراطور بإزالة السلالم .

وفي وسط الدير كنيسة تُعتبَر جوهرة المِعمار الأثيوبى الكنسي.ويظهر بها الفن القبطى ، وحولها قلالى الرهبان .

وكقاعدة عامة ، فإن الرهبنة الإثيوبية تشتهر بالنُسك الشديد . والاتجاه نحو التوحُّد.

وهناك نوع آخر مشهور،هو المِعمار الإثيوبى،الذى من القرون الوسطى ، وهو نموذج الكنيسة "الكهف" ، ومن أمثلته الشهيرة كنيسة Imrahanna Kristos، وكنيسة Jammado Mriam.والأولى شُيِدَت في مغارة كبيرة في الجبال بيد الإمبراطور ، الذى أُطلِق اسمه عليها ، بعدما قرر اعتزال العرش إلى الرهبنة ، ولما مات تم دفنه في تلك الكنيسة ، في منتصف القرن ١٢م.

وأما الكنيسة (في المغارة) الثانية ، فقد عملها الإمبراطور - Yekuno Amlak نحو عام ١٢٦٨م، وهى في جبل Lasta لذكرَى استرداد خط نسل سليمان الحكيم ، بدعم من القديس العظيم تكلا هيمانوت.

وكل هذه الآثار وأشباهها ، قد بناها مهندسون معماريون من الرهبان ، كعمل من أعمال الإيمان والخير ، كما أن من أفضل إسهاماتهم ، نسخ مخطوطات التُراث. وقد نقل رهبان القديس باخوميوس تعاليمه معهم إلى إثيوبيا ، وأصرُّوا على التعلّم والعمل اليدوي مع العبادة. لذلك كان كثير من الرهبان الإثيوبيين ناسخي كتب ، كما طوَّروا رسوم الكتب القديمة (Ge'ez Codices) حتى بلغت درجة الكمال فى الإتقان والروعة.

وقد بدأ الأدب الأثيوبي (الجعزى) القديم بدخول المسيحية إلى مملكة أكسوم، وفي وقت حديث حل محل اللغة القديمة لغة أمهرية حديثة ، رغم أن الأثيوبيين المحافظين ظلوا يستخدمون الجعزية كلغة للطقوس الكنسية. والأدب المكتوب باللغة القديمة غالبيته نصوص كتابية ودينية وأكثر مادته تُرجمت من القبطية والسريانية واليونانية، وأخيراً من العربية .

ويضم الكتاب المقدس الأثيوبى معظم كتب الابوكريفا (الأسفار القانونية الثانية كما هى الحال في الأرثوذكسية والكاثوليكية). والقداسات للقديس غريغوريوس وباسيليوس وكيرلس.

وقد عانى الأدب الأثيوبى القديم بسبب الغزوات الإسلامية وتدمير الكنائس في القرن ١٦ على يد أحمد جرّان . وقد تركها خرائباً ، بعد نهب كنوزها الأثرية ، وحرق كل كتاب قديم عثر عليه .

ولم تنهض إثيوبيا أبداً من هجمات الأتراك على تراثها الثقافى ، ولولا مناعة بعض الكنائس والأديرة ، لضاع كل هذا الأدب العظيم تماماً . ولا زالت هناك فرص لاكتشاف مخطوطات في عشرين دير داخل جُزر في مياه بحيرة تانا، رغم أن العديد من المخطوطات قد وجدَت طريقها إلى مكتبات ومتاحف أوربا.

ويضم الأدب الأثيوبى الكثير من سِيَر القديسين من السنكسار القبطي ، والقانون الكنسي ، المُشتق من الدسقولية القبطية ،والتاريخ ، وكُتب علمية يونانية، وطبية وقصص فلكولورية إثيوبية . وملابس الكهنوت الأثيوبى تشبه القبطية، وكذلك التيجان التى توضع على الرأس، والأغطية المُحَلاة بخيوط ذهبية .

ولا تزال الكنيسة هناك متمسكة بالتقاليد الدينية والثقافية القديمة. وأن الاتصالات مع البعثات التبشيرية الأجنبية يُظلِلها الخوف والشك في أهدافها

الرئيسية، رغم محدودية نشاطها هناك ، وإن كان وجود البروتستانت، والكاثوليك الرومان قد دعا لمطالبة الشباب بالإصلاح الكنسى ، ولكن من الصعب تقدير تأثير الأجانب على الكنيسة الوطنية . بينما في مصر ، فإن الكنيسة تدين بأول شرارة لليقظة إلى المبشرين الأجانب ، وربما يأتى الوقت الذى يتم فيه نفس الشيء في أثيوبيا .

والكنيسة هناك تخرج ببطء من عُزلتها . وإحدى علامات هذا الاتجاه الجديد انضمامها لمجلس الكنائس العالمى ، ويمثلها فيه أنبا ثاؤفيلس مطران هرَر والقليل من الشباب الأثيوبى .

وقام نفس الأب بتدشين فرع إثيوبى للكنيسة في أمريكا في ديسمبر سنة ١٩٥٩م. وقام الإمبراطور الراحل هيلاسلاسى بتشجيع ترجمة الكتاب المقدس بلغة أمهرية سهلة، وإرسال الكثير من طُلاب اللاهوت للمعاهد القبطية في مصر. وقد تأسست كلية للاهوت سنة ١٩٤٤ في أديس أبابا ، وقيل إنه التحق بها نحو ألف طالب ، كما قامت مدارس الأحد بتعليم أكثر من مائة ألف ، حسب إحصاء سنة ١٩٦٠م.



+ + +

الجزء الثانى

الكنيسة الأنطاكية واليعاقبة

٩- أصولها وتطورها :

- **مقدمة تاريخية :**

كان لموقع مدينة إنطاكية أهمية خاصة بالنسبة للكنيسة المنفية بها ، والتي أثبتت دورها المركزي والديناميكي في الكنيسة الأولى . ولذلك استحقت أن تكون نظيراً للكراسي الأسقفية القديمة في الإسكندرية وروما.

ونظراً لموقعها الجغرافي الفريد في وادى نهر الأورَنت Orontes وكمِعبّر للطرق بين الفرات والبحر المتوسط ، وبين آسيا الصغرى وفلسطين، لذلك كان رخاؤها راجعاً لمرور التجارة بها. وكان يلتقى الإغريق والمصريون والسريان، والتجار الأسيويون في أسواقها.

وقيل إن عدد سكانها قد وصل إلى نصف مليون في القرن الرابع الميلادى ، وكان رخاؤها تحت حكم السلوقيين (Seleucids) قد دعمَّه الرومان بمنحها درجة المدينة الحُرة (civitas libera)، واستطاع الانطاكيون التمتع بهذه الميزة حتى نهاية القرن ٤م.

وقد كانت المدينة من أهم المراكز الفنية في العالم القديم ، مع روعة معابدها وأسواقها ومسارحها وحماماتها وقصورها . وفي إحدى الأوقات صارت ثالث مدينة في كل الإمبراطورية. وصارت محلاً لزيارة الرسل.وإحدى حصون المسيحية الأولى ، ولو أنها عانت بشدة من الاضطهادات ، خلال العصر الرومانى الوثنى .

وبنى بها دقلديانوس قصراً فخماً. ووضعها الأباطرة البيزنطيون المسيحيون تحت حمايتهم ، إلى أن تمزّقت بالشِقاق ، والثورة ؛ خصوصاً ضد مجمع خلقيدونية المشئوم ؛في القرن الخامس.

وكان الإمبراطور قسطنطين الكبير أول إمبراطور مسيحي يبنى فيها كنيسة رسمية . وسار خلفاؤه على نهجه ، وكذلك المواطنون الأغنياء ، والآباء الذين جعلوها مدينة مسيحية كبيرة في الشرق ، ولكن الصراعات المذهبية أدت إلى انقسام السكان ، وقادت إلى انحدار المدينة المزدهرة .

وفي الواقع ، بدأ انحلال إنطاكية بسبب الصراع الديني ، وزاد بسرعة وبقوة **بسبب ثلاثة عوامل في تاريخها :**

- **والأول :** سلسلة من الزلازل ، وأشدها كان سنة ٥٢٦م. وقد دمر عدة مبانٍ هامة بإنطاكية.
- **والثانى :** الغزو الفارسى سنة ٥٣٨م،حيث دمر الإمبراطور خسرو Chosrses كل المدينة !!.
- **والثالث :** الغزو العربى سنة ٦٣٨م ، حيث تقوقعت إنطاكية داخل الإمبراطورية الإسلامية ، وانفصلت عن العالم المسيحى ، ماعدا احتلال سريع الزوال من الصليبيين .

واستولى عليها المماليك ، ثم استولى سليم الأول العثمانى على الشام ، ومصر ١٥١٦-١٥١٧م ، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى وُضِعَت سوريا تحت حماية فرنسا سنة ١٩٢٠. ، وبعد رفع الحماية ضُمت المدينة مع كل لواء الاسكندرونة إلى تركيا .وكان عدد سكانها سنة ١٩٥٠ نحو ثلاثين ألفا فقط ، إذا قورن بسكانها ، في سالف مجدها. ومن هذا المسح الملخص لتاريخها ، نجد أن أيام عظمتها لم تزد عن القرن السادس ، وأن بطاركتها الذين عاشوا في فترة ازدهارها قد حُكِمَ عليهم بالنفي منها ، كما سنرىَ فيما بعد .

وقد حلت محل البطريركية اليعقوبية الأرثوذكسية بطريركية أخرى حملت نفس اللقب ، وهى البطريركية اليونانية الأرثوذكسية ، والمارونية التابعة الآن

لروما ، والكاثوليكية المتحدة أو الملكانية ، والنسطورية أو السريانية الشـــرقية ، والكاثوليكية ، والبطريركية الأرمينية والجورجية على حدود الإتحاد السوفيتى .

ولكن لا يوجد أحد من هؤلاء البطاركة يقيمون في إنطاكية . ويعيش رعاياهم في سوريا وفارس وتركيا وروسيا ووسط آسيا والهند والصين .

+ + +

الزيارات الرسولية والتاريخ المسيحى الأول :

تُعدّ إنطاكية من أقدم المدن المسيحية ، وقد ذُكِرَت في سِفر أعمال الرســل ، وكان أول تبشير لليونانيين من الأمم (gentile) الوثنيين فيــها ، وفيــها دُعــى الرسل والشعب " مسيحيون" لأول مرة (أع ١١: ٢٦)..

ويذكر المؤرخ الأسقف يوسابيوس القيصـــرى ، أن القديــس بطــرس هــو مؤسس كنيسة إنطاكية ، وصار أول أساقفتها قبل ذهابه لروما. وطبقا للتقليد فقــد بقى بها سبعة أعوام (٣٣-٤٠م) ، حيث رسم القديس إفوديوس (Euodius) نائباً عنه ، قبل رحيله إلى الغرب .

وعندما اتسعت دائرة التبشير بالإنجيل نحو الشرق ، في إديسا ونصيبيـــن ، ومالابار البعيدة (على ساحل الهند الغربى) عن طريـــق خدمـــة القديس توما الرسول ،والقديس تداوس الرسول. ولما سقطت أورشليم في يد الرومـــان ســنة ٧٠م، زادت أعداد المهاجرين المسيحيين من اليهود إلى إنطاكية .

وكان الرسل يزورونها منذ بداية المسيحية . وقد عـــانت مـــن الاضطـــهاد الرومانى مثل الإسكندرية وروما ، وقيل إن القديس إفوديوس قـــد نـــال إكليـــل الشهادة في أيام نيرون (٥٤-٦٨م) وتـــلاه شـــهيد عظيـــم آخـــر هـــو القديـــس

أغناطيوس، الذى ربما تمت رسامته بيد القديسين بطرس وبولس ، أو على الأقل عن طريق أحد الآباء الرسل .

وقصة القديس أغناطيوس ، الذى استشهد في عهد تراچان (٩٨-١١٧) هى مثيرة وممثلة لروح العصر . وقد تعّرض القديس في البداية لأسئلة الإمبراطور نفسه . ولما وجده ثابتاً في الإيمان ، أمر بإلقائه للوحوش في روما ، ربما في بداية القرن الثانى.

وقد اقتيد إلى روما بيد الحرس الإمبراطورى . وقد تم السماح للقديس أن يخاطب المؤمنين في كل مكان وصل إليه ، وأن يزور زملاءه المسيحيين ، رغم قسوة الجند عليه .

ورافقه شماس يُدعى "فيلون" عبرّ سوريا ، وفي سميرنا استقبله القديس بوليكاربوس – أسقف أفسس – والقديس أونسيموس . وأرسل رسالة إلى كنيستى فيلادلفيا وسميرنا (أزمير) ، وتعتبر هذه الرسالة من أهم آثار عصر الآباء الرسوليين . وكان يتبعه كهنة أتقياء خلال تحركاته من مكان إلى آخر .

وفي روما عزّى الأخوة الذين حزنوا لأجل موته ، وكانت رحلته لروما كمثال العَّداء الرياضى . وأخيراً إلتهمته الوحوش أمام ٨٧ ألف متفرج. وقد تم نقل باقى أعضائه المقدسة إلى بلدته (إنطاكية) ، ودُفِنَت تحت المذبح ، إلى أن أمرت الإمبراطورة أفدوكسيا (Eudocia) بنقلها إلى معبد Fortune ، ثم إلى كنيسة بالقسطنطينية .

وكان الأساقفة الأوائل في إنطاكية من اليهود المُتنصرين،حتى يهوذا سنة ١٣٥م ،وقد وُصِف بأنه آخر الأساقفة من أهل الختان (Circumcision).

والعلامة التالية في تاريخ الكنيسة الإنطاكية هى أسقفية ثاوفيلس ، وهو أب كثير المعرفة ، ومؤلف شهير ، وأخذ على عاتقه مقاومة الأفكار الوثنية وتعاليم

السريان الهراطقة من الغنوسيين الأوائل ، ومن أفضل كتاباته بحث (Treatise to Autolycus) وهو دفاع بليغ عن المسيحية. وتفنيد لآراء الهرطوقى مركيون، وهو من أوائل الأبحاث اللاهوتية المسيحية المُسجلة . وكان هو أول من أشار إلى تعريف الثالوث القدوس (Trinity). وقد نشر كتابه في بداية حُكم الإمبراطور كومودُس (١٨٠-١٩٢) في وقت كانت لا تزال فيه المسيحية ديانة مُضطهدَة.

ويبدو أن إنطاكية صارت معقلاً حقيقياً للأرثوذكسية . وفي العقد التالى ظهر لاهوتى انطاكى ، في شخص "سرابيون" ، الذى صار أسقفاً سنة ١٩٩م. وتنيّح سنة ٢١١م. وقد كتب سلسلة من الرسائل والمؤلفات خاطب بها الإغريق. وقد قاوم بصفة خاصة هرطقة "مونتانوس" الذى من فريجية ، ولكن نظراً لضياع معظم كتاباته ، فلا يمكن معرفة كل فكره من خلال أجزاء قليلة، موجودة منها.

وتتابع الأساقفة ليشغلوا باقى القرن الثالث ، ولكننا نقتصر في حصرنا لهم على القديس بابيلاس (Babylas) ، الذى جلس على الكرسى الانطاكى نحو عقد من الزمن ، بين ٢٤٠-٢٥٠م ، وقد كرّمه القديس يوحنا ذهبى الفم (بطريرك القسطنطينية والأنطاكى الأصل) ذاكراً أنه لم يخَف من منع إمبراطور رومانى من دخول الكنيسة بأفكار ضد المسيحية • وربما كان هو فيليب العربى (٢٤٤-٢٤٩م) ، إلى أن تاب عن جرائمه، وقد نال هذا القديس إكليل الشهادة خلال اضطهاد الإمبراطور ديسيوس Decius (٢٤٩-٢٥١م).

وعلى نقيض حياته ، كانت سِيرَة الأسقف بولس السموساطى (Samosata) الهرطوقى الشهير ، أسقف إنطاكية من ٢٦٠-٢٧٠م . وكان من أصل وضيع ، وجمّع ثروة استخدمها ، في الوصول إلى هذا المنصب الرفيع في الكنيسة. وكان

تحت حماية الملكة "زنوبيا" ملكة تدمُر (Palmyra) (في شرق سوريا) ، حيث كان مُعلماً لها في شبابها .

ويُعد سابقاً لنسطور الهرطوقى في أفكاره ، إذ كان أول من وضع أُسس اللاهوت الذى يُعلم بازدواج شخصية المسيح، وهو الذى استخدم الاصطلاح : " مساوٍ(في الجوهر)" (Homoousios) في مناقشاته مع الأساقفة الذين حرَموا تعاليمه.

وقد استغرق الوقت مجمعين في إنطاكية، لخلعه من كرسيه . والأول انعقد في الإسكندرية برئاسة البابا ديونسيوس سنة ٢٦٤ ، وبعد مناقشات حادة ، لم يجد بولس مفراً من الهرب . وتظاهر برفض مبادئه الهرطوقية .

وفيما بعد رجع إلى أفكاره الأولى ، وربطها بعدم أزلية المسيح ، مما أدى إلى حَرمهِ في مجمع إنطاكية الثانى سنة ٢٦٩.

وكانت الكنيسة الإنطاكية قد تعرَضت للإضطهادات الرومانية، والشهادة من أجل الإيمان . وقد تضمنت صفوف الشهداء الكثير من بطاركة إنطاكية.مع آلاف الشهداء ، من عهد نيرون ، وما تلاه ، أكبر مثَل لهم استشهاد ١١ ألفا من الجنود، أيام تراچان (٩٨-١١٧م) ، حيث نفاهم إلى برارى أرمينيا ، حيث تم ذبحهم في عهد خليفته هدريان (١١٧-١٣٨م).

ومع أن إيمان إنطاكية قد اضطرَب في عهد الأسقف الهرطوقى بولس السموساطى ، لكن عاد الثبات في الإيمان عن طريق آباء قديسين تلوه ، ومنهم كاهن يُعتبَر مؤسس مدرسة إنطاكية اللاهوتية ، وهو "**لوسيان**" (Lucian) اللاهوتى الشهير ، الذى مات سنة ٣١٢ في نيقوميديا ، ليلة صدور قرار قسطنطين في ميلانو (Edict of Milan) سنة ٣١٣ الذى سمح باعتبار المسيحية ديانة رسمية في الإمبراطورية الرومانية (Religio Licita).

وكان عالماً كتابياً.وقد راجع الترجمة السبعينية (العهد القديم) ، والأناجيل ، وإن كان تلميذاً للهرطوقي بولس السومساتي ، لهذا ثار خلاف حول إيمانه ووجود آثار للآريوسية في تعليمه ، كما أن أريوس الهرطوقي الليبي كان أحد أعضاء مدرسته النُشَطاء.

كما لعبت مدرسة لوسيان دوراً هاماً في العقيدة المسيحية . كما أخرَجت عدداً من الشخصيات التاريخية المرتبطة بإنطاكية ، مثل ديودور ، خليفة لوسيان، وقام بدَوره بالتدريس للقديس يوحنا ذهبي الفم ، وثيؤدور المُبسطي ، والأخير هو معلم الهرطوقي نسطور ، بطريرك القسطنطينية.وثيؤدوريت أسقف Cyrrhus في سوريا ، وهو لاهوتي ومؤرخ شهير .

+ + +

من نيقية إلى خلقيدونية :

نتحدث تحت هذا العنوان عن مكانة إنطاكية في المجمع المسكوني الأول سنة ٣٢٥م . وقد مثلها عظماء من الأساقفة برئاسة أوستاسيوس ، وكان في درجة أوسيوس أسقف قرطبة ، الذى كان مستشاراً خاصاً للإمبراطور قسطنطين (الكبير) في أمور الدين ، بالإضافة إلى" إسكندر" ، بطريرك الإسكندرية الذى ترأس المَجمَع.

والواقع أن هؤلاء الثلاثة قيل إنهم شاركوا في رئاسة جماعية للمجمع النيقاوى ، وأن العالم المسيحى كان يتطلعّ إلى زعامة الإسكندرية. ومن الخطأ التأكيد على أن إنطاكية قد تحللت من ولائها للأرثوذكسية ، بل على العكس ، ولكننا نرى الانقسامات حول مجمع نيقية. فقد حضر أريوس مدرسة إنطاكية مع زميله الطالب يوسابيوس ، الذى صار أسقفاً لنيقوميديا (بآسيا الصغرى)، والذى قدمّ للمجمع عقيدة ذات ميول أريوسية رفضها غالبية الأساقفة تماماً.

وبعد مجمع نيقية ، ظهرت في إنطاكية ثلاثة فِرَق ، الأولى ، المذهب اليوسابى ، وقد تبع أفكار نيقوميديا وقيصرية ، ولكن بدون إظهار العداوة لقرارات المجمع ، التى لن يسمح الإمبراطور قسطنطين بمعارضتها ، وبدأوا يعملون سراً ، لعدم للاعتراف بقرارات مجمع نيقية .

وقد اكتسبت هذه السياسة المزيد من الأرض (المؤيدين) بعد تولى يوسابيوس الأسقفية ، والذى عمّد الإمبراطور قسطنطين في مرضه الأخير ، قبل موته سنة (٣٣٧)، ثم استطاع أن يكسب لصفّه خليفته قسطنطين الصغير (المتوفى عام ٣٦١) مما أدى إلى نفى البابا أثناسيوس من الإسكندرية .

أما الحزب التالى ، فكان متآلفاً مع استاثيوس (المتنيح سنة ٣٣٠) الذى وقف بثبات مع قوانين نيقية ، ممثلاً بذلك الموقف الأرثوذكسى ، إلى أن صار المذهب الأريوسى مقبولاً في القصر الإمبراطورى ، وتبعاً لذلك تم نفى الأسقف الانطاكى إلى تيراس ، حيث تنيّح هناك في النفى.

وكان الحزب الثالث مكوناً من أتقياء ، قبلوا قرارات مجمع نيقية ، ولكنهم أطاعوا الأسقف الموجود ، ولم يبالوا بالاختلافات عن مبادىء الانشقاق .

ولم يسلم أى لاهوتى – فى هذا الوقت– من الشك في أفكاره ، وحتى استاثيوس نفسه أتُهِم بهرَطقة سابيليوس ، وأن لاهوتياته هى ظل للنسطورية !!.

وقد درس القديس يوحنا ذهبى الفم (نحو ٣٤٧–٤٠٧) في المدرسة الانطاكية تحت يد ديودورُس، وتمت رسامته رغماً عنه لكرسى القسطنطينية ، حيث كان نقده – بدون لباقة – قد ضايق القصر الإمبراطورى، وقاد إلى خلعه. ولم يسلم هذا الفم الذهبى من اليد الحديدية في ذلك الوقت .

وفي نفس العصر ، ظهرت شخصيات لاهوتية أسقفية عظيمة ، مثل القديس غريغوريوس النزنزى (٣٢٩–٣٨٩) والقديس غريغوريوس النيصى (٣٣٠–

٣٩٥) والقديس باسيليوس الكبير (نحو ٣١٥-٣٨٦)، وعُرِفوا باسم :" الآباء الكبادوكيون الثلاثة".

وفي أورشليم الأسقف القديس كيرلس (نحو٣١٥-٣٨٦) ، وفي نصيبين وإديسا القديس العظيم مار إفرايم (٣٠٦-٣٧٣) ، وكان مُفسِرًا كتابياً سريانياً ، وقد أثْرى تراث المسيحية الشرقية بكتاباته الروحية الهامة.

وأما آباء الكنيسة المصرية فهو عديدون وعظماء ، ولهم دورهم الخاص. ورغم زيادة الهرطقة والانشقاق ، استردت إنطاكية سلطتها الكنسية على كل ولاية الشرق وقد أكد مجمع خلقيدونية حقوقها في رئاسة سوريا وفلسطين وقبرص ، وبلاد العرب ، وما بين النهرين Mesopotamia (العراق) وفارس والهند وبلاد العرب .

وتطلعت كنائس قيصرية (بفلسطين) وإديسا ونصيبين ، وسلوقيا ، وملبار (الهند) إلى زعامة إنطاكية الروحية ، على الأقل ، في القرون الأولى .

وقد تأكدت رئاسة إنطاكية مرة أخرى في قرارات مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م. وقد شملت سيادة إنطاكية – في الفترة من القرن الرابع حتى السابع – على ١١ مطرانية ، ١٢٧ أسقفية .

كما كان نسطور تلميذاً لثيؤدورالموبَستى ، في مدرسة انطاكية ، وصار فيما بعد بطريركاً للقسطنطينية ، والذى كانت أفكاره حول طبيعتّى المسيح يسوع قد أدت إلى عقد المجمع المسكونى الثالث في أفسس سنة ٤٣١ بأمر الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى .

وكان خصمه الأكبر هو البطريرك كيرلس الإسكندرى (عمود الدين) الذى حرم نسطور ، بسبب هرطقته ، وطرده من كرسيه ، في الوقت الذى دخل فيه يوحنا أسقف إنطاكية مدينة أفسس،ومع أن الأخير قد عقد مجمعاً منفصلاً أيد فيه

آراء نسطور ، لكنه اصطلح مع البابا كيرلس (الإسكندرى) بعد سنتين . وكان هذا الصلح له نتائجه البعيدة في كل من الشرق والغرب .

لأنه نظراً لأن الانطاكيين أنفقوا على اللاهوت الأرثوذكسي الذى ينادى بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح (Monophysite) ، فإن السريان الشرقيين (الآشوريين) قد تبعوا نسطور المخلوع ، وارتبطت كنيستهم به .

أما بالنسبة لروما ، فإن اللاهوت الإسكندرى ، تم النظر إليه بانزعاج ، واتُخِذَت خطوات جدية للإنقلاب عليه ، وبذلك أصبح الصرَاع بين الكنائس له أبعاد خطيرة !!.

وكان ظهور هرطوقي آخر هو "أوطاخى" (Eutyches) (نحو ٣٧٨-٤٥٤) وكان رئيسا لدير بالقسطنطينية ، قد ألهب الموقف أكثر ، بمناقشته للآراء اللاهوتية النسطورية ، التى عارضها بشدة .

ورأى اوطاخى أنه تم المزج بين طبيعتى المسيح (اللاهوتية والناسوتية ، حيث زعم أن اللاهوت ابتلع الناسوت تماما ، كنقطة خل في محيط) .

وحاول فلاڤيان (Flavian) بطريرك القسطنطينية إثنائِه عن خطئه ولكن بدون جدوى ، وفي نفس الوقت كان كبار ممثلى مجمع أفسس الأول قد تنيحوا: يوحنا الأنطاكى وسكستوس (Sixtus) الرومانى (عام ٤٤٠م) وكيرلس الإسكندرى (تنيح سنة ٤٤٤م) وقد حل محلهم دمنوس Domnus الثانى الانطاكى، الذى يبدو أنه اتحد مع ليو (Leo) الرومانى ضد الأرثوذكسى المتحمس البابا ديُوسقورس الإسكندرى ، الذى وقف إلى صف أوطاخى(١) ، الذى تم عزله وحرمه بمعرفة فلاڤيان بطريرك القسطنطينية .

وتم عقد مجمع أفسس الثانى سنة ٤٤٩م بأمر الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى (Theodosius) (٤٠٨-٤٥٠م) ، والذى كان تحت تأثير الحزب

(١) لم يقف ديوسقورس مع أوطاخى ، بعدما ظهرت هرطقته.

الأوطاخى ، من خلال كبير البـــلاط الإمـــبراطورى الخِصَـــى Carysaphius، وقرر المجلس إبراء ذمة أوطاخى[٢]، وخلع فلافيان ودمنوس، في جلسة عاصفة.

وقد تسمى " مجمع اللصوص" (Latrocinium)، وقد تغير الوضع بتولـــى امبراطور جديد هو **مركيان** (Marcian) (٤٥٠-٤٥٧) ، الذى مال إلى رســـالة العاهل الرومانى ليو الأول "tomus Leo" (٤٤٠-٤٦١) رافضاً نتـــائج مجمـــع أفسس الثانى .

وفي عام ٤٥١م ، عقد الإمبراطور مركيان مجمعاً رابعـــاً فـــي خلقيدونيـــا (Chalcedon) والذى بدوره عزل وحرم البابا ديوســـقورس وأوطـــاخى وتـــم نفيهما، وقبل نص رسالة ليو كلاهوت أرثوذكسى (سليم) ، مما كانت لـــه أســـوَء النتائج بين كنائس الشرق والغرب.وأن كان الإمبراطور قد نال - في الواقـــع - إقراراً عاماً بمركز كرسى القسطنطينية (المسكونى) باعتبارها روما الجديدة، كمـا قرره القانون رقم ٢٨ من قوانين مجمع خلقيدونيا، إلا أن قطـــع العلاقـــات مـــع الشرق (rupture) كان قد أدى إلى قطيعة.وبلا أمل في عـــودة هـــذه العلاقـــات أبدا !!.

وكانت محاولة رجال الدين الاستعمارى – الملكانى- لفـــرض آراء مجمـــع خلقيدونيا على الإسكندرية وأورشليم وإنطاكية ، قـــد نتـــج عنـــها ســـفك دمـــاء أرثوذكسية كثيرة ، وإيقاظ الاتجاهات الوطنية لدى الأرثوذكس.

وكان من تناقضات مجمع خلقيدونيا أنـــه امتـــدح البابـــا كـــيرلس (الكبـــير) الإسكندرى ، وعدم القبول بآرائه اللاهوتية ، بينما حرَم نسطور لكنه دعم مبـــدأ الطبيعتين (Diophysitism) !!.

(٢) نلاحظ أن البابا ديوسقورس لم يعتقد بآراء أوطاخى ، وانما صادق على براءته ، حينمـــا قدم للمجمع نص إيمانه ، وكان سليماً ، وإن كان قد عاد وأنكره ، بعد ذلك ، فتم حرمه.

وكانت الخطوة الخطيرة التالية في تطوُّر الأحداث في عهد الإمبراطور زينون (Zeno) (٤٧٤-٤٩١م) ، الذى كان حرصه على توحيد الكنائس جعله يقبل صيغة اخترعها اكاشيوس (Acacius) بطريرك القسطنطينية ، وبطرس مونجوس (Mongos) بطريرك الإسكندرية. وكان ذلك هو "**منشور الاتحاد**" (Henoticon) ، الذى اعتمده زينون سنة ٤٨٢م ، والذى رغم حرمه كلاً من نسطور وأوطاخى تجنبّ ذِكر "الطبيعة الواحدة" ، "والطبيعتين" ، والأرثوذكسية ، وإن كان بدون شك يمكن للأرثوذكس قبوله ، ولكنه لم يكن مُرضِياً لكلا الطرفين، بصفة عامة.

وعلاوة على ذلك فقد أسرَع الرومان الثائرون إلى حرم أكاشيوس ، والذى قام بحذف اسم الحَبر الرومانى (pontiff) من القداس البيزنطي ، وربما كان ذلك هو محصلة هذا الموقف الجديد .

وأين كانت تقف إنطاكية في هذا الاضطراب العام ؟!.

في البداية تحدت القيادة الدينية الموقف الرسمى ، ومن ناحية أخرى ، لم يحجب الإكليروس الانطاكى – مع غالبية العلمانيين– انتماءاتهم التقليدية المتزايدة نحو الأرثوذكسية .

ونجحوا في إرغام البعض ، لرسامتهم بطاركة أرثوذكس على الكرسى الانطاكى ، مما ألهبَ الشعور الأرثوذكسى الوطنى، والأرثوذكس في الشرق .

وأما البطريرك الانطاكى "بطرس القصّار" (الصباغ= Fuller) ، الذى صار بطريركاً لإنطاكية سنة ٤٦٥ ، فهو يمثل الحالة الغير مستقرة في ذلك الوقت ، فقد تم خلعه مرتين بسبب أرثوذكسيته ، ولكنه استطاع أخيراً أنْ يعود إلى كرسيه، بالإعلان عن قبوله منشور زينون للإتحاد .

ويشتهر بأنه قدّم العبارة الأرثوذكسية "**الذى صُلِب عنا**" في تسبحه الثلاث تقديسات (Trisagion) التى كانت في القداس الشرقى القديم ، حيث يُرَتل:"قدوس الله ،قدوس القوى ، قدوس الحي الذى لا يموت·يا من صُلِب عنا، ارحمنا". كما أنه هو المسئول عن ذِكر "**والدة الإله**" (Theotokos) في كل صلاة.

وكان أكبر نصير للمبادئ الأرثوذكسية – في إنطاكية– هو البطريرك "ساويرس" Severus (نحو ٤٦٥-٥٣٨) ، وقد ارتبط كثيراً بالإسكندرية ، حيث درس في شبابه ، وفيما بعد احتمى بها ، حينما طرَده مضطهدوه، بعدما خلعوه من كرسيه ، وكانت بطريركيته في عهود الأباطرة انسطاسيوس ويوستين وجستنيان .

وفي البداية كان في وفاق مع انسطاسيوس (٤٩١-٥١٨م) الذى أعطى الحماية للأرثوذكس . وفي عام ٥١٨م قلَب خليفته يوستين الأول (Justin) سياسة سابقه ، وعلى ذلك هرَب الأنبا ساويرس إلى الإسكندرية ، حيث قدم له البابا تيموثاوس الرابع المأوى .

وفى عهد جستنيان (Justinian) حرَمه مجمع بالقسطنطينية سنة ٥٣٦م. وحتى نياحته سنة ٥٣٨ ظل ساويرس بقوة ضد آراء مجمع خلقيدونية.

وقد كان لاهوتياً عظيماً ، وترك وراءه العديد من المؤلفات العظيمة[٣] ومعظمها باللغة السريانية. وبنياحته صار تاريخ كرسى إنطاكية ، منذ ذلك الوقت، وحتى الوقت الحاضر ، مرتبطاً بوجود بطريركيتين.

---

(٣) قدم الأب V.C. Samuel من كنيسة جنوب الهند القديمة ، رسالة دكتوراة لجامعة "Yale" عن "مجمع خلقيدونية ولاهوتيات ساويرس الانطاكى " (١٩٥٧) ، رفض فيها تعريف المسيحيين الشرقيين بلقب "**أصحاب الطبيعة الواحدة**" (Monophysites) ونحن نؤيده في

وكان مُنافِسه الذى تلاه من الملكانيين يسير في سلسلة الروم الأرثوذكس من جهة ، ومن جهة أخرى كانت سلسلة الأرثوذكس تحمل اسم :"اليعاقبة" (Jacobite) وهو مشتق من اسم القديس : "**يعقوب البرَادِعى**" (Baradaeus) وهو أحد عظماء هذه الكنيسة . وبينما الخط الأول تطلّع إلى بيزنطة ، تطلع الآخر نحو الشرق ، بحثاً عن الاستقلال عن الإغريق (الروم).

يعقوب البرَادِعى : (Baradaeus)

في الوقت الذى تضاءل فيه حجم الإكليروس السرياني ، عن طريق اضطهاد أعوّان جستنيان ، ظهرت شخصية يعقوب البرَادِعى.

وفي الواقع يرجع بقاء الكنيسة الإنطاكية إلى عاملين رئيسين :

أولها اقتناع الإمبراطورة ثيؤدورة Theodora بالإيمان الأرثوذكسى.وقيل إنها كانت ابنه كاهن سريانى ، وكانت تدعم سراً المذهب الأرثوذكسى بصفة عامة .

وثانياً الجهود العظيمة التى بذلها يعقوب البرَادِعى . وصارت كل أعماله خالدة.

وكان هدف جستنيان توحيد الكنائس في الإمبراطورية ، ونتج عنها سياسة الضغط الشديد على الأرثوذكس ، وسجن ونفى قادتهم ، بما فيهم الأب العظيم ثيؤدوسيوس بطريرك الإسكندرية . وقد تم حبسُه مع ثلاثمائة من رجال الإكليروس القبطى في : Derkos بالقرب من القسطنطينية، لسنوات عديدة .

ويذكر الكاتب Honigmann بأن ثيؤدورا نجحت في إيجاد ملجأ للبطريرك العجوز – بالمدينة– في السنوات من ٥٣٩–٥٤٨، وظل ينال عطفها حتى وفاتها

دراسته. كما نشير إلى خطأ القائلين بأن الأقباط هم يعاقبة ، بينما ينطبق هذا اللقب فقط على السريان الأرثوذكس. وأتباعهم في الشرق.

(٥٤٨م)، وفيما بعد نال احترام الإمبراطور ، رغم الاختلافات معه. فسمح له جستنيان بالوعظ في القسطنطينية ، وتنيَّح هناك سنة ٥٦٦ بعد واحد وثلاثين عاماً في النفى.

وطبقاً لرواية يوحنا الأفسسى ، خصصت ثيؤدورا قصر Hormisdas لاستعمال نحو خمسمائة من الأرثوذكس من عدة أماكن في العالم المسيحي.

وأما المقاومة الأرثوذكسية – في الوطن– فقد تركزت في الأديرة ، في برية شيهيت في مصر ،وكذلك على حواف الجزيرة العربية ، تحت رعاية الأُمرَاء الغساسنة ، وفي عدة أماكن مختلفة في شمال سوريا ، وما بين النهرين (العراق).

وكان استخدام اللغة القبطية في مصر ، والسريانية في آسيا ، قد ساعد على المعارضة للضباط الاستعماريين الروم ، الذين جهلوا هاتين اللغتين .

وكان التاريخ الحاسم لإعادة إحياء الأرثوذكسية السريانية هو عام ٥٤٢م ، عندما طلب الملك العربى الحارث بن جاب الله من البطرَيرك القبطى – بناء على مشورة ثيؤدورَا– رسامة مطرانين لأقاليم في آسيا ، هما يعقوب (البرَادِعى) الذى صار مطراناً لإديسا (Edessa) وثيؤدور أسقف بوسترا (بصرة بشرق الأردن) Bostra،وكان كاهناً من بلاد العرب. وتم سجنه لعدة سنوات في القسطنطينية ، وقد ارتبط بيعقوب البرَادِعى ، وصار مطراناً لبلاد العرب ، وخاصة منطقة الحيرَة ، بين العراق وبلاد العرب.

وقد وُلِد يعقوب البرَادِعى نحو عام ٥٠٠م في قرية Gamawa في أعالى الفرات . وقد ترهب في دير Phasiltha (أى المحجر) على جبل Izala. ونال تعليمه الدينى في مدرسة نصيبين ، وترأس الدير من عام ٥٢٧ لمدة ١٥ سنة حتى رسامته أسقفاً.

وجاء إلى القسطنطينية مع راهب آخر ، يُسَمَّى سرجيوس . ثم قد قـام برسـامته فيما بعد بطريركاً لإنطاكية بعد الأنبا ساويرس ، وربما كـان ذلـك عـام ٥٤٣. وتضم سيرته الكثير من المعجزات ، وقد ألفها كثيرون. وبدأت خدمته الحقيقيـة سنة ٥٤٢ ، بعد رسامته.

وقيل إنه قد تم تهريبه من العاصمـة البيزنطيـة بمعرفـة الملـك العربـي "الحادث".وفي ذلك الوقت كان مندوبو الإمـبراطور يُطـاردون رجـال الديـن الشرقيين (السريان الأرثوذكس) ويحبسوهم بصفتهم أعداء للدولة !!.

وكان ذلك الأمر يتم حسب أوامر جستنيان الصارمة،لمنع عدم الوحـدة فـي عهده . وعرفنا أن الشعب السُرياني تُرِك بدون رُعاة في معظم البلاد ، وكـانت الكنيسة السريانية في خطر الانقرَاض ، إلى أن وجدت مُصلِحَـها الحقيقـي فـي **شخص يعقوب البرَادِعي** ، وكان قد ارتدى ملابس رثّة مصنوعـة مـن قمـاش سروج الخيل القديم[1] ، ليس فقط للإتضاع والزُهد ، ولكن أيضا كوسيلة للإختفاء من رجال الاضطهاد الإمبراطوري .

ولم يكن له مقر دائم لإقامته. وكانت رحلاته الطويلة من قطر إلـى آخـر ، في غرب آسيا بالإضافة إلى مصر ، مدعَاة للدهشة ، لاسيما أنـه كـان يسـافر أساساً على قدميه . وقيل إنه عبَر على كـل سـوريا وأرمينيـا ، وكبادوكيـا ، وكيليكية وبمفيلية. وأجزاء كثيرة في آسيا الصغرى وجُزر البحرة مثـل قـبرص ورودس وغيرها ، بالإضافة إلى القسطنطينية ، وكـل العـراق وبـلاد العـرب وسيناء ومصر ، ولا يعادله في رحلاته سوى القديـس بولـس الرسـول ، فـي العصر الرسولي .

---

(١) "البرادعي" نسبة إلى "البردعة" (السرج) التي توضع على ظهر البغال والحمير .

وكان البرادعي يدافع عن الإيمان الأرثوذكسي ، ويقوي المؤمنين ، ويشجع المضطهدين. ويرسم أساقفة جدداً ، وقيل إنه رسم ١٠٢,٠٠٠ كاهن ، وذكرت كتب سيرته أن رساماته كانت بالآلاف ، وإنه رسم ٨٧ أو ٨٩ أسقفاً ، ولكن الرقم المسجل هو ٢٧ فقط .

ومع أن القديس يعقوب كان القائد الروحي للكنيسة السريانية ، لكنه لم يجلس على كرسي البطريركية أبداً ، وإن كان قد رسم إثنين من البطاركة ، أولهما هو سرجيوس الأنطاكي (نحو ٥٤٢-٥٦٢م) ، وكان رفيقه العجوز في الأسر في القسطنطينية . والثاني هو بولس الأسمر (٥٦٤-٥٨١م) ، وكان مصرياً ، مولوداً بالإسكندرية ، وقد قضى وقتاً من رهبنته في أديرة سريانية .

وكانت أيام خدمته عاصفة – كباقي بطاركة إنطاكية ، لأن جستنيان لم يقبل أن تكون إنطاكية أرثوذكسية . وكان يطارده رجال الإمبراطور. وكان عليه أن يحتمي في بلاط ملوك الغساسنة العرب مثل الحيرة بن جبالا ، وخليفته المنذر ، وأحياناً في صحراء مريوط ، جنوب غرب الإسكندرية. وقد تظاهر بقبول آراء مجمع خلقيدونية – ذات مرة– ورحب به الإمبراطور في القسطنطينية، حيث قضى سنوات قلائل ، وحيث تنيح ، بعدما عمل على وضع حد للإنشقاقات الدينية في كنيسته .

والمرحلة الأخيرة من حياة يعقوب مغلفة بستار الغموض . ففي عام ٥٧٠ دعاه الإمبراطور لحضور اجتماع مع ثيؤدور (تادرس) أسقف بلاد العرب ، وبعد اللقاء مضى ثيؤدور ، ولكن تم إرغام يعقوب بمعرفة رهبان سوريا ليبقى في الشرق ، مما ضايق الإمبراطور .

وفي عام ٥٧٥ ترأس يعقوب مجمع شرقي (سوري) ، حضره بولس الأسمر على أمل إنهاء انشقاق محلي . ونظراً لحدوث الشقاق بين البابا بطرس

الإسكندرى والبطريرك بولس الانطاكى ، لاحت فى الأفق قطيعة بين الكنيستين الأختين ، كنائس مصر وكنائس سوريا !

ولكى يمنع يعقوب البرَادِعى ذلك قُبِل قيام البابا بطرس بخلع البطريرك بولس ، وبعد ذلك اعتزل بولس ومات في بيزنطة .

وخطط البرَادِعى لزيارة الإسكندرية مع وفد من ٨ أعضاء ، ومن بينهم أساقفة (سريان) ، لرأب الصدع بين الكنيستين الأرثوذكسيتين العظيمتين والمتحدتين من عهد بعيد ، ولكنه تنيحّ مع ثلاثة من أعضاء الوفد بطريقة غامضة ، نحو نهاية يوليو سنة ٥٧٨ في دير القديس رومانوس على جبل كاسيون (Casion) قرب الحدود المصرية الشرقية.

وأرسل البابا دميانوس ، الذى خلف البابا بطرس ، رسالة تعزية إلى كهنة الشرق ، على هذه الخسارة التى لا تُعَوَّض . وفيما بعد – في عام ٦٢٢ – تم نقل أعضاء القديس يعقوب البرَادِعى إلى ديره القديم في Phasiltha بالقرب من Tella.

وكانت جهود القديس العظيم يعقوب البرَادِعى قد جعلت الكنيسة السريانية وشعبها يحمل اسمه:"**اليعاقبة**" • ومن الجدير بالذكر أنه ترك أثره في فارس (إيران) ، وقيل إنه زار بلاط كسرَى خسرو الأول في سلوقيا سنة ٥٥٩ ، ليطلب سماحه للمسيحيين اليعاقبة بالعبادة بسلام فى بلاده.

وبينما كان هناك قام بترقية أسقف "بيت العربية" المدعو أحودمة (Ahudemmeh) لأول مرة إلى رتبة "مطران المشرق" ، واضعاً بذلك أساساً للمطرانية العامة لفارس . ويُطلِق المؤرخ يوحنا الأفسسى على أحودمة لقب "**جاثليق** (Catholicos) **الأرثوذكس**".

وكان هذا المطران الجديد نشيطاً في التبشير بـــالإنجيل ، حســب عقيدتـــه (الأرثوذكسية) وانتهت حياته بنيل إكليل الشهادة في عام ٥٧٥ على يد خســرو ، لتحويل عدد من أفراد الأسرة الإمبراطورية الفارسية إلى المسيحية.

وظل اليعاقبة والنساطرة يعيشون جنباً إلى جنب في فارس ، حتـــى مجـــيء العرب (المسلمين) . وفي ظل حكمهم ظلت كنائسهم عامرة بطريقـــة شـــرعية ، وهو ما لم يتمتعوا به تحت حكم البيزنطيين.

وقد بدأت حياة يعقوب البرادعي مثل شُـــعلة مشـــتعلة.وانتـــهت بالانشـــقاق والاضطهاد ! وقد كان قديساً ومُبشراً عظيماً ، وعاش في فقـــر شـــديد ، ولكـــن شُهرَته تبعته رغم عدم إرادته .

وعند نياحته ، تأكد بقاء الكنيسة السريانية الأرثوذكسية ، بفضل خدمته التـــى بلا كَلل ، وتفانيه . كما كان لاهوتياً بارعاً ، وصاحب معرفة كتابية ، واســـتطاع الدفاع عن تعاليمه الأرثوذكسية باليونانية والسريانية والعربيـــة ، التـــى تحدثـــها بطلاقة كلها . وعلى أية حال ، فإنه يُعتبَر أحد عُظماء جيله .

+ + +

النُسَّاك والعموديون : (Ascetics& Stylites)

تطورّت الرهبنة اليعقوبية (السريانية) إلى درجة كبيرة من الزُهد والنُســـك. ومن البداية وقعت تحت تأثير النُسّاك والمقيمين في وحدة على أعمـــدة (أمـــاكن مرتفعة عن الأرض).

ويجب أن نلاحظ أن قصة الرهبنة الأولى في الأقـــاليم الأســـيوية بالشـــرق الأوسط، لا يمكن أن نُلقبّها بالرهبنة اليعقوبية أو النســـطورية ، أو الســـريانية أو السريانية الشرقية ، أو أصحاب الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين .

وقد وضحت هذه المُسَّميات ، بعد اكتمال قطع العلاقات بين بعضها وبين انطاكية بتولى البطريرك باباى (Babai) الثانى كرسى انطاكية سنة ٤٩٨ ، وبعد ذلك بدأت تدخل التعاليم الرهبانية المصرية ، وكانت تُدرَّس – بصفة عامة– في إديّسا ونصيبين (Nisibis) ، وانطاكية وسلوقيا، بمعرفة القديس **أوجين القلزَمى** (السويسى) Augin of Clysma الرائد التاريخى للحركة التعليمية في أعلى منطقة مابين النهرَين (شمال العراق) في القرن الرابع.

ورغم وجود اختلافات بين الرهبنة الإنطاكية الأرثوذكسية والنسطورية الهرطوقية (heterodoxy) منذ العقود الأولى من القرن الخامس ، فقد ظل التعاون بين مدرستى الِفكر . وكان له تأثيُره على الكنيستين كلتيهما ، وعلى الحياة الديرية بصفة عامة.

وقد تولى بعد ريبولا (Rubbula) الأكبر (تنيحّ سنة ٤٣٥) الأرثوذكسى ، خليفته الغير أرثوذكسى عباس Ibas (مات سنة ٤٥٧) أسقفية إديسا .

ومن الخطأ أن نرى الأديرة الأولى تابعة لمعسكر أو آخر ماعدا – فى حالات خاصة جداً – ولكن هذا التمييز أخذ شكله بالتدريج ، في أزمنة تالية ، كنتيجة طبيعية لازدياد الاختلافات بين السريان الغربيين والشرقيين ، لعدة عوامل تاريخية ، كانت موجودة .

وعلى كلٍ ، فإن النظرية التى تقول إن الأديرة فى شمال بغداد، حول تكريت كانت يعقوبية ، وإن التى في جنوبها ، أو في بغداد وسلوقيا وغّيرهما ، هى أماكن للنشاط الدينى للنساطرُة ، تُعَّد مقبولة (في نظر الكاتب) .[٢] ويبدو أن بغداد نفسها ، ظلت تحت السَيطرة النسطورية .

---

(٢) وهو رأى بهيجة فتُوحى (Bahija Fattuhi) عضوة الكنيسة اليعقوبية والعراقية المولد والأمريكية الجنسية، في رسالتها للدكتوراة (جامعة هارفارد سنة ١٩٥٧) ، وقد استطاعت

وثمة بعض الشك في أن الحياة الديرية المشتركة قد نفذها رهبان سريان،في القرن الرابع والخامس، فى شمال العراق والمناطق المجاورة . ويبدو النُسك الشديد في كل الحياة الديرية ، في الكنيسة السريانية ، في كل مرحلة منذ قيامها .

ويسجل كاتبو التاريخ المقدس السريانيين، سِيَر حياة الزُهد الشديد للقديسين من عهد القديس يوچين (Augin) (المتنيحّ نحو ٣٦٣) إلى وقت القديس يعقوب البرادعى (المتنيحّ سنة ٥٧٨) وما بعده .

ولكن الشيء الغريب ، في قصة النُسك السرياني ، **معيشة قديسين في وحدة كاملة على قمم أعمدة قديمة** (pillars) وتسمُّوا "بالعموديين" Stylites .

وقيل إن مخترع ومُطوّر هذه الطريقة من الحياة، هو **القديس سمعان العمودى** (نحو ٣٨٩-٤٥٩م)؛ والكثير من حياتهم تُعَد مجرد روايات (في نظر الكاتب) لأنها تفوق قدرة البشر، ومع ذلك فإن السنكسارات اليونانية والسريانية والقبطية والجورجية والأرمينية والعربية، تتحدث عن كامل سِيرَة هذا القديس، والتى تُشكِل فصلاً مُضيئاً في قصة الكنيسة السريانية، وحياة الرهبنة السريانية المثالية .

وقد وُلِد من والدين بارين في سايس (Sîs) على حدود سوريا وكيليكية . وقد قضى طفولته في رَعى الغنم ، ولم يتلَقَ تعليماً . وعندما توحّد بالجبل رأى رؤى مقدسة ، وعاش حياة فاضلة ، وفي نحو سن السادسة عشرة إلتحق بجماعة رهبانية مجاورة ، قضى معها العشر سنوات الأولى من حياته النُسكية .

وحتى في شبابه المبكر قام بجهادات نُسكية لتدريب الجسد ؛ ليبتعد عنه أصحابه القُدامى . وبينما كان الرهبان يفطرون كل يومين ، كان هو يأكل مرة كل أسبوع !!.

= الباحثة أن تحصر ١٦٣ ديراً ، من المصادر العربية والسريانية ، وتحدثت أيضاً عن المسيحية في منطقة "بين النهرين" (Mesopotamia) [هامش أصلي] .

ثم ربط حبلاً من ألياف النخيل على جسده أسفل ردائه ، وأنكشف سرّه ، عندما رأى زملاؤه دماً ينزف من جسده !! ، ورفض أن يأخذ مرهماً لعلاج قروحه ، وقرر رئيس الدير طرده من الدير (بسبب رائحة الجرح) . فهرب إلى الجبل ، واختبأ في خزان ماء جاف لمدة خمسة أيام ، إلى أن ندم رئيسه على ذنبه ، وأرسل رهبانه للبحث عنه ، ليُعيدوه للدير ، ومع ذلك لم يمكث معهم ، لأن نفسه اشتاقت إلى مزيد من النُسك . ولما اعتزل في برية Tellneshin ، على بُعد عدة أميال من انطاكية. وطلب من شخص أن يبنى له حائطاً ، فوق مدخل قلايته ، وأن يتركه بلا طعام لمدة ٤٠ يوماً ، لأنه كان وقت الصوم الكبير (Lent) . ولكن هذا الشخص سد فم القلاية ، وأصرّ أن يترك له عشرة أرغفة وإبريق ماء ، حتى لا يموت من الجوع والعطش.

ولما فتح عليه ، في نهاية الصوم ، وجد الطعام والشراب كما هو ، وكان القديس يتهاوى بين الحياة والموت !! فتم علاجه إلى أن استرد صحته . ويذكر المؤرخ ثيؤدوريت ، أنه كرر نفس التجربة المُرعبة لمدة ٢٨ سنة بالتتابع .

وانتشرت شهرته في كل أنحاء البلاد المسيحية ، وجاء الزوار إلى قلايته ، وأجرى معجزات شفاء للمفلوجين والمرضى ، ومُباركة النساء العاقرات ، فكن يُنجّبن أطفالاً . وتضايق من إكرام الناس الزائد له ، حيث كان الرجال والنساء يلمسونه أو يأخذون قطعاً من ثوبه الجلدى كبركة مقدسة منه .

وقد طرأت له فكرة لحل هذه المشكلة (الهرب من المجد الباطل) أن يصعد على عمود للتوحد والبُعد الكامل عن الناس ، فبنى له عموداً طوله نحو ٤٥ قدماً، ثم زاده ارتفاعاً ، وقضى فوقه ٣٠ سنة ، بلا ملابس سوى غطاء للرأس .

ولما زاره رجل من راقينا وراقبه كيف يعيش بدون طعام أو نوم ، سأله إن كان إنساناً ؟ أم ملاكاً ؟! فأمر القديس بالإتيان بسُلم ، ليصعد إليه الزائر ، ويجس لحمه !!.

وكان يعظ مرتين،كل نهار وكل ليل، ويظل رافعاً يديه للصلاة حتى الفجـر!! وقد صنع عدة معجزات . وكسب كثيرين من الوثنيين للمسيحية .

وقد أقام حول عموده جماعات . وكان يفد إليهم زوار كثيرون من سـوريا ، وأرمينيا ، وجورجيا ، وفارس ، وبلاد العرب ، وأسبانيا وبريطانيا وبلاد الغـال (فرنسا) وإيطاليا .

وقد أرسل الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى وأخواته وفداً من الأسـاقفة لكـى ينزل من فوق العمود ويأتي إلى البلاط ، لشفاء مرضى العاصمة (القسطنطينية)، ولم يستطيعوا إقناعه بذلك .

ولما تنيح القديس سمعان العمودى دفنه ستة أساقفة في حراسة ستمائة جنـدى تحت قيادة قائد المنطقة . وقد وضع جسده المقدس في تـابوت (Sarcophagus) من الرصاص ، وتم نقله في موكب إلى كنيسة كاسيانوس ، وبعد شهر تـم نقلـه إلى كاتدرائية إنطاكية .

وحول عموده أقيم مبنى له ٨ أضلاع ، وله قبة رائعة الشكل ، وحوله مبـانٍ لأربعة كنائس بشكل صليب ، والفن ، والعمارة الخربة حالياً ، فيما يسمى "قلعـة سمعان" تترك الناظر إليها الوقوف في صمت وتأمل ، بسـبب كِبَر المبـانى ، وجمال الأحجار المنحوتة ، ووقار المكان .

ويُعَد القديس سمعان رائداً لهذه الطريقة (العبادة علـى أعمـدة) فقـد قلـده كثيرون،منهم أحد رجال بلاط الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى،يدعى ثيؤدولـس ، الذى قضى أيامه الأخيرة فوق عمود قرب إديسا ، والقديـس يشـوع العمـودى (٥٠٧) وغيرهما .

وقد عاش عشرات من العموديين من الكنيسة السريانية ، خـلال العصـور الوسطى ، وامتدت الحركة فيما وراء حدود سوريا إلى مصر واليونان .

وقد قضى القديس دانيال الساموساطي في سوريا ٤٢ سنة على عمود.وتنيحَ سنة ٥٩٢ ، والقديس سمعان العمودى الصغير (نحو ٥٩٢) من إديسا ، وتعبّد على عمود قرب إنطاكية ، لمدة ٤٥ سنة ، وأجرَى العديد من المعجزات .

وبعدما بنى القديس ميخائيل ديراً في مدينة نينوى القديمة ، أقام على عمود ، وظل فوقه يتعبد حتى نياحته سنة ٥٥٦ عن عُمر ١٠٥ سنة . وحتى تحت حُكم العرب ، كان يوجد عدد من العموديين ، مثل القديس يوحنا الأتربى (قرب حلب) الذى كان مُفسِراً للكتاب ، وفلكياً ، ومؤرخاً عظيماً ، والذى عن طريق مؤلفه التاريخى المفقود قد استفاد به المؤرخ المشهور ميخائيل السريانى . وقد قضى الأيام الأخيرة من القرن السابع وبداية القرن الثامن على عمود.

وقد رأى زوار من أقاليم بعيدة في أوربا العموديين، خلال رحلاتهم في المشرق ، فيسجل القديس Willibald (٧٢٣) حالتين . والقس الروسى دانيال (١١٠٦-١١٠٧) وجد واحداً (عمودياً) في بيت لحم . ويذكر توماس المَرجى (Thomas of Marga) (في القرن ٩) شخصاً يعقوبياً عمودياً في Beth Kardagh ، وقد سخر منه المطران النسطورى لمدينة Adiadene والمدعو باسيليوس الثانى ، والذى صار بطريركاً جاثليقاً يعقوبياً سنة ٨٤٨ ، ثم انعزل في دير بيت بوتن (Beth Bottin) في منطقة بين النهرين (= دجلة والفرات) ، حيث عُرِف باسم "لعازر العمودى" (Lazarus) .

ومن الأمثلة المشهورة (للعموديين) خارج سوريا القديس Alypius من مدينة هدريان (Adrianople) في فلاجونيا ، الذى تنيحّ في حُكم الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١) وقد قضَى عدة سنوات على عمود ، وقد وهبُه الله موهبة النبوة (معرفة أحوال الناس).

وعاش القديس لوقا العمودى ، الذى من أناطوليا ، في القرن العاشر ، ومات وعمره مائة سنة ، على عمود قرب مدينة خلقيدونية .

وكان لمصر أول عمودى هو القديس "**ثيؤفيلس**" المُعترف ؛ وتحدث عنه المؤرخ الأسقف يوحنا النقيوسى في عهد الإمبراطور هرقل . كما يشير كل من السنكسار القبطى والأثيوبى إلى اسم القديس "**أغاثون**" العمودى ، دون تحديد لسنوات حياته.

وكان القديسون يتعبدّون على أعمدة أثرية قديمة. وقد تم إعداد عمودين بيد الإمبراطورين ثيؤدوسيوس وأركاديوس في القسطنطينية . وقد تم اتخاذهما لهذا الغرض في القرن ١٣ ، حيث عاش فوقهما أثنان من العابدين ، بعد سقوط تمثاليهما من عليهما .

وطريقة الحياة العمودية ، رغم أنها تحتاج إلى جهاد روحى ضخم ، لكنها لم تكن مستحيلة ، ولو أخذنا على سبيل المثال رأس عمود (Capital) بومبى (عمود السوارى) في الإسكندرية القديمة ، نجد أن قطره نحو ١٠ أقدام ، وكانت به فتحة لوضع قاعدة تمثال دقلديانوس بها .

ويمكن استنتاج من جذع عمود قلعة سمعان المربع أن كل جانب نحو ٦ أقدام . ولم يكن العمودى منفصلاً تماماً عن الناس . وكان يوجد سُلّم مُعلّق لكى يوصل تلاميذه ومعجبيه إليه الطعام ، وفي بعض الحالات كانت تقام دُعامة يتكىء عليها العمودى ، نظراً لأنهم كانوا يقضون كل حياتهم واقفين على أرجلهم !!.

وقد ظل العموديون حتى الوقت الحديث ، فقد قيل إن أخرهم قد ذكرَه الرحّالة بروسيه (Brosser) في بلدة Djqondidi في جورجيا (جنوب روسيا) حيث بنى مُتوحّد قلاية صغيرة فوق عمود سنة ١٨٤٨ في جبال القوقاز. ولا يجب أن نعتبر أن العمودية قد قامت كحركة منفصلة ، وأنها تطورت مستقلةً عن

الرهبانية السريانية ، لأنه في حالات عديدة ، إن العموديين قد أتوا من أديرة عامرة ، والعكس قد حدث غالباً ، إذ أقيمت حياة ديرية حول عمود القديس .

وقام القديس المصرى مار أوچين ، أو أوچينيوس القلزَمى – في القرن الرابع – بنشر الرهبنة في المشرق . وازدهرت في الكنيسة السريانية على نظام الشركة (cenobitic) حسب ما وُضعه القديس باخوميوس الكبير (نحو ٢٩٠م–٣٤٦م) في طيبة (الصعيد) ، وكان أول هذه الأديرة قد أسسه مار أوچين بنفسه بالطبع ، في نهاية القرن الرابع ، على الجبل الذى توحَّد به ، والمُطِّل على سهول نصيبين .

وقد استولى عليه النساطرة في القرن السادس ، ثم ازدهر في عهد الخلفاء (العباسيين) . ويذكر تقويم نسطورى إنه قد ازدهر في إحدى الأيام ، فأقام به ١٦٠ راهباً ، وصار له ٤٠٠ رأس من الغنم ، ٥ مطاحن ، ووُقِفَت عليه خمسة قرى ، وأنشأ مدرسة عُليا لتعليم الإكليروس والعلمانيين .

وفي القرن ١٦ قل عدد شاغليه من الكلدان (Chaldaean) وزاد في المقابل اليعاقبة السريان فيه . وفي عام ١٩٠٩م أقام به ٨ متوحدين ورئيسهم ، وفي الحرب العالمية الأولى بقيَ به راهب واحد فقط ، رغم مساحته الشاسعة !!.

وفي القرن الخامس أُقيم دير "مار برسوما" ، وكان مؤسسُه قد لعب دوراً في الوقوف ضد هرطقة أوطاخى ، وحضر مجمع أفسس سنة ٤٤٩ ، بدعوة خاصة من الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى . وكان هو المشارك الوحيد الذى كان أقل من رُتبة أسقف ، وقد ظل في رتبة رئيس للدير (archimandrite) إلى نهاية حياته ، وقد تنيحَ سنة ٤٥٧.

وكانت ترجع أهمية ديره ، لوقوعه في الجبال بين ساموساطا وملاطية ، ولأنه صار مقراً رئيسيا للبطريرك الانطاكى، تحت حكم العرب، من القرن الثامن

أو التاسع ، حتى منتصف القرن ١٤ ، حينما دمره الأكراد ، وصار أطلالاً منذ ذلك الحين .

وفى هذا الدير ، رأت أهم الكتابات اليعقوبية النور ، وهناك أقام ميخائيل السريانى (١١٦٦م-١١٩٩م) وكتب مؤلفه التاريخى المشهور. ومقبرته موجودة بين مقابر البطاركة اليعاقبة في إحدى كنائسه .

كما سُجل به كتاب تاريخى سريانى مجهول المصدر (anonymous Chronographia) سنة ١٢٣٤م ، وجزء كبير على الأقل من تاريخ ابن عبرى (Bar Hebraeus) [١٢٢٦م-١٢٨٦م] قبل أن يصير مفرينا (maphrianate= مطراناً) لتكريت وكل المشرق .

وفيما بعد ، يبدو أن البطاركة (السريان) قد اختاروا مقراً جديداً لكرسيهم ، في دير الزَعفران (al-Za' faran) ، والذى حمل اسم "مار حنانيا" ، مطران ماردين النشيط ، الذى بنىَ به عدة مبانٍ فوق أساساته القديمة ، وأثرَاه بمكتبة عظيمة ، وجاء إليه ٨٠ راهباً في زمانه .

وعاش به البطاركة السريان من عام ١٢٩٣ ، وظل مستعملاً منذ ذلك التاريخ. وهو مُحصَن بشدة ويقع على الجبل المُطل على نصيبين، على طريق القوافل بين الموصل وماردين ودمشق، في منطقة غنية بالكروم وأشجار الفاكهة.

ومن رهبانه صار ٢١ بطريركاً ، ٩ مفرياناً (أو ملفاناً وهى رتبة تعادل مطران) ، ١١٠ أسقفاً ، وهو أكثر الأماكن اليعقوبية التى يزورها السياح من الشرق والغرب .

وأما الدير اليعقوبى التالى في الأهمية ، فهو دير الشيخ متاى (متى) ، كما أسماه عرَب ذلك الوقت . وهو قلعة حصينة محفورة في الصخر الصلد، على

جبل Maqlub ، المُطِل على سهول نينوى القديمة ، ويبعُد ١٢ ميلاً شمال غرب الموصل .

ومار متاى ، الذى أسسَه ، في نهاية القرن الرابع ، كان أصلاً مواطناً من منطقة العميد (Amid) (ديار بَكر). وخلال اضطهاد الإمبراطور يوليانوس الجاحد (المتوفى سنة ٣٦٣م) هرَب القديس نحو الحدود الفارسية،مع ثلاثة من رُفقائِه : إبراهيم ، زكى ، دانيال. وتوّحد في مغارة ، حيث يوجد مكانها دير حالياً .

وقد سلَك مِثلَه آخرون ، في حياة النُسك ، في المغارات القريبة منه . وكانت تلك هى البداية البسيطة لإحدى اكثر الأديرة كثافةً في التاريخ ، فقد كتَب عنه الجغرافى العربي ياقوت (الحمَوى) في القرنين ١٢-١٣م.وقال إنه سكن به ألف راهب .

وفي العصور الوُسطَى صار مركزاً للتعليم والثقافة . وفي مجمع عام ٨٦٩م خضع آباؤه ورُهبانه لسُلطة مفريان المشرِق . وفي القرن العاشر اعتُبِر مساوياً لدير برسوماً البطريركى ، وسكن فيه المفارنة (المطارنة) .

ونجد أن كلاً من قلاية وقبر ابن العبرى ، داخل إحدى هياكله من أهم المزارات السياحية بدير مار متى ، ويبدو أن تاريخ ابن العبرى الهام قد كُتِب هنا. ومن المُحزِن ، أن مكتَبة الدير ، التى لا تُقدَّر محتوياتها بثمن ، قد تفرّقت في الخارج ، بين الفاتيكان والمتحف البريطانى ، وأماكن أوربية أخرى،للإحتفاظ بالمخطوطات الخاصة بها.

وأما بالنسبة للموقف الحالى (١٩٦٨م) للدير ، فقد صار مكاناً للاستجمام صيفاً ، لأثرياء العراق والإيرانيين ، من الموصل ومن أماكن أخرى .

وإلى الجنوب الغربى من الموصل يقع دير قديم آخر باسم "**مـــار بــهنام**" ، الذى آمن بالمسيح على يد مار متاى ، وقد تم تغيير واضعى اليــد عليــه عــدة مرات . وفى البداية أخذه النساطرة في صراعهم مع الأرثوذكس (اليعاقبة).

وفى القرن السادس استردّه اليعاقبة حتى ســنة ١٧٦٧ ، عندمــا انضــم رئيسه Hindi Zora إلى الروم الكاثوليك بديره . وقد ظل مــع الكلّــدان الذيــن استخدموه أساساً كمدرسة.

ومع أن المبنى قد تم استرداده حديثاً ، لا يزال يضم أقساماً قديمــة وهيــاكل لها نماذج من الأرابيسك (وهو فن زخرفة) والعديد من النقوش غــير البــارزة ، لقديسين من فترات قديمة .

وهناك إشارة أيضاً لأديرَة خاصة للسُريان والراهبات الأرثوذكس من عـــهد قديم جداً ، ومن أشهرها في منطقة الحيرَة ، وتنسُب إلى الملكة هند إبنــة الملــك العربى النُعمان بن المُنذِر (٥٨٥-٦١٣م).

وقد تكرر ظهوره على مسرح الأحداث ، في التاريخ العربى. وقد أشار إليــه كُتَابّ عرب ، مثل الأصفهانى ، والشابُشتى ، والعُمـــرِى ، والبكــرى ، خـــلال العصور الوسطى .

ودير آخر يقع في الحى المسيحى ببغداد ، وكان يُسَّمى "دير العــذراء".وقــد أشار إلى وجوده ، كلٍ من الشابُشتى وابن عبّرى ، في القرنين العاشر والحـــادى عشر ، والمؤلف الأخير أسماه "دير الأخوَات". كما يُشير الشابُشتى إلى دير آخــر للعذارى قرب تكريت ، على نهر دجلة .

وبالرغم من أن معظم الأديرة اليعقوبية الباقية قد تحولّــت لأمــاكن لراحــة الزوار، وصُنع النبيذ ، فإن الرهبنة اليعقوبية لها مجد عظيم وقديم ، ولعبــت دوراً هاماً في حفظ الثقافة،وانتشار التعليم.

وكان نظام الشركة ، هو النموذج العام السائد ، رغم أن المتوحدين استمروا في الإقامة داخل كهوف ، في عُزلَة تامة . وكانت الجبال التي حول الأديرة الشهيرة تمتلئ بالمتوحدين.

أما الأديرة نفسها ، فهي مؤسسة مُحصنة ، ذات أسوار عالية ، وبها هياكل، ومكتبات ، ومطاعم ومخابز ، وأماكن لتقطير النبيذ ، وورش ومخازن ، وآبار مياه ، وحظائر ، وحدائق ، وقلايات للرهبان ، وكان كل دير وحدة مكتفية بذاتها اقتصادياً، كما كانت العديد من الأديرة مراكز للتعليم .

+ + +

١٠- اليعاقبة في التاريخ :

+ تحت حُكم الخُلفاء : (Caliphate)

عشية غزو العرب لسوريا والشرق الأوسط ، كانت الكنيسة اليعقوبية (السريانية) ، مثل النسطورية ، غير شرعية . وكان رجال الدين بها يُعَدّون خارجين على القانون البيزنطى !!.

وكان البطريرك الرومى (الملكانى) هو الوحيد المُعترَف به من الإمبراطور البيزنطى ، هو والأساقفة الخلقيدونيون. والكهنة (الروم) هم الإكليروس المُعتمَد من الدولة البيزنطية.

كما اختفى النساطرة – منذ مدة طويلة– وراء الحدود البيزنطية . وكانوا في أمان من صراع الأباطرة مع الفُرس . ومن ناحية أخرى ظل الأرثوذكس السُّريان هم الأغلبية في سوريا ، وكانت تتم مُطارَدتهم ، واختبائهم تحت الأرض، كما جاء في قصة يعقوب البرّادعِى .

ومع مجيء العرب ، تغيّرت الصورة تماماً ، فإن أتباع محمد (المسلمين) ، في هذه العقود الأولى ، عرفوا القليل ، أو لا شيء ، عن الخلافات بين المذاهب المسيحية ، رغم أنهم اعتبروهم "أهل كتاب" ، ووعدوهم بالحماية ، وأعطوهم حركة التصرُّف ، ما داموا لا يتدخلون في شئون الإسلام ، وجيوشه الغازية، ويدفعوا لهم الجزية .

وبالنسبة للموقف الجديد، في المنطقة التى خضع فيها المسيحيون للعرب، فكان أساساً قائماً على التعايش السِلمي مع رعاياهم، من "**أهل الذمة**" (المسيحيون + اليهود) وكانوا يخضعون لشكلين من الضرائب، الأول : **الخرَاج**، أو ضريبة الأرض، وهى مفروضة على الرعايا المسلمين والمسيحيين، بدون تمييز.

والنوع الثانى : **الجزيَة** ، وتُدفَع عن الرأس ، وهى مفروضة على المسيحيين ، وتُقدَّر – بصفة عامة– بدينار من الذهب على كل شخص ، في مقابل عدم الخدمة العسكرية .

وقد اختلفت قيمتها – فيما بعد – على أساس حالة الفرد المالية، رغم أنها كانت عادةّ قاصرة على الشباب البالغين ، ويُعفَى منها النساء والأطفال والكهنة والرهبان والعجائز.

وهكذا صار اليعاقبة والنساطرة والمسيحيون الأرثوذكس ، واحداً في المعاملة المالية ، ويتمتعون بنفس المزايا ، بدون تمييز .

ونال اليعاقبة – تحت حكم الإسلامى – درجة من الحرية الدينية لم يعهدوها من المسيحيين البيزنطيين . وكانت السنوات الأولى من حُكم العرب مُتميِّزة بروح التسامح الدينى والعدالة .

كما كانت مصحوبة بحرص العرب على الاستفادة من التقُّدم الثقافى . ومحاولة التعلُّم من تلك الشعوب القديمة في المعرفة ، مهما كانت عقائدهم

الدينية. وهذا الموقف السليم ، يُفسّر سبب المكانة الرفيعة التى شغلها كلٍ من اليعاقبة والنساطرة في بلاط الخلفاء العباسيين.

والعامل الآخر هو توحيد سوريا ومابين النهرين (العراق) وفارس ، تحت نفس الُحكم العربى . فإن رفع الحواجز القديمة بين المناطق الأسيوية ، التى كانت تحت سيطرة البيزنطيين والفُرس ، أعطت اليعاقبة الفرصة للتوسع التبشيرى بالإنجيل ، نحو الشرق. أى فى المناطق التى كانت قاصرة على النساطرة . والواقع إن اليعاقبة لم يتمكنوا أبداً من تغطية نفس الأرض – مثل الأنشطة التبشيرية النسطورية ، في وسط آسيا ، والشرق الأقصى – ولكن تحت ُحكم العرب بدأوا العمل – بدون شك – بكل اجتهاد في العراق وفارس ، وحتى وسط النساطرة أنفسهم ، كما سنراه فيما بعد .

ومن ناحية أخرى ، فإنه من الخطأ أن نقول أن اليعاقبة لم يكن لهم أى وجود في المنطقة، قبل مجيء العرَب . فقد كانت أول زوجة وملكة لخسرو الثانى "برفيز" (٥٩٠-٦٢٨) شيرين الشهيرة،وكانت مسيحية يعقوبية .

وخلال الفترة التالية من الجهاد (في نشر المسيحية) كان الراهب "ماروتا" (٦٤٩-٦٥٩) الذى شهَد نهاية ُحكم الغساسنة ، ارتقى إلى رتبة مطران تكريت ، ١٥ أسقفاً مساعداً في فارس والعراق .

وفي الواقع ، إن النساطرة قد نالوا رضا كلاً من الحُكام الفُرس والعرَب الذين خلفوهم. وكان الجاثليق النسطورى هو الرئيس الوحيد لكنيسة مسيحية يجلس في عاصمة تلك الإمبراطورية (العربية) الجديدة (بغداد) .

ومع ذلك ، فإن الموقف الجديد للكنيسة اليعقوبية قد جعلها تتمكن من الازدهار وتتوسع ، خلال فترة السلام العربى الأولى (Pax arabica) خارج الحدود السورية ، في مناطق فارسية قديمة .

وفيما يلى ، فكرة عامة ، عن الكنيسة اليعقوبية التى ظلت مُضطهَدة مدة طويلة (من البيزنطيين) ، وبدأت تعمل في التبشير في عهد الخلافة الإسلامية .

في البداية بدأت حركاتها (التبشيرية) تزدهر ، في القرون الأولى للحُكم العربى ، إلى مجيء الصليبيين ، الذين قلبوا ميزان السلام ، في الأرض المقدسة وكل الشرق الأوسط .

ومع ذلك ، فمن الخطأ الاعتقاد بأنه لم يكن هناك أية اضطهادات ، قبل ذلك الوقت . وكقاعدة عامة ، أن العداء المُتقطِعّ للمسيحيين لم يكن سياسة ثابتة في بداية الحُكم الإسلامي ، ولكنه كان لحدٍ كبير ينبع من هوَى الوالى المحلى نفسه .

وكانت الحروب الصليبية هي العامل الحاسم ، في ابتعاد المُسلِم عن روح الزمالة مع جاره المسيحى . وعلى هذا الأساس ، فإن موقف الكنائس الشرقية والمجتمعات المسيحية – بما فيها اليعقوبية– قد تأثر بشدة.

وأواخر القرون الوسطى ، قد أثبتت إنتهاء مجدها ونشاطها القديم ، واختفى اللاهوتيون السريان العباقرة من الوجود ، ومن ثم ظهرَت أقليةٌ فقيرة مضغوط عليها ومنحصرة ، وعاشت على ذكريات تُراثِها الماضى !!.

+ + +

القرون الثلاثة الأولى :

من القرن السابع إلى العاشر ، من تاريخ اليعاقبة. مع أنه لم يكن زاهياً مثل تاريخ النساطرة ، الذين كان علماؤهم يحتشدون في أكاديمية دار الحكمة ، ابتداءً من حنين بن إسحق وعائلته ، ودورهم اللامع (في الترجمة للعربية في العلوم المختلفة) .

ولم يكن هناك داعٍ لتواجد لاهوتيين ومفسرين للكتاب المقدس ، كما كانت عليه الحال – خلال الفترة البيزنطية – للدفاع عن الأرثوذكسية ، ضد الآراء الخلقيدونية الروحية ، في عهد العرب ، حيث لم يكن هناك ضغط على الأرثوذكس .

وكذلك نفس الوضع بالنسبة للنساطرة ، إذ وجهوا كتاباتهم – سواء بالسريانية أو العربية – إلى سِيَر القديسين والتاريخ والفلك والعلوم والطب . ومن المُلاحظ أنه كلما قوِيت اللغة العربية ضعفت اللغة السريانية . وفي النهاية لم تعُد سوى لغة القداس فى الكنائس.

وكما سنرى ، فإن كبار قديّسى اليعاقبة ، لم يكونوا بطاركة. وهؤلاء أيضاً قد انغمسوا في خلافات عقائدية، وكفاح للبقاء .

ومن أكبر قديسيّ اليعاقبة – في تلك الفترة – هو "**ماروتا**" ، مطران تكريت. ومنذ سنة ٦٢٩م حتى نياحته سنة ٦٤٩م – بعد الغزو العربى – كان أول من يحمل لقب "مفريان المشرق" ، وغطت سلطاته الكنسية مساحة تمتّد من الحيرَة في شبه الجزيرة العربية إلى بلاد فارس ، وحتى ما وراءها . ورُتبة " المفرّانية " حالياً هى لقب شرف ، وذكرَى من الماضى ، ولكنها كانت مهمة في تلك الأيام ، عندما لم يكن البطاركة في موقف يجعلهم يهتمون بالايبارشيات البعيدة في الشرق، كما كان المفريان يحمل مسئولية العمل (الكرازى) في جهاتٍ يُسيّطر عليها عُنصر نسطورى قوى .

كما كان عليه أن يُخفّف العبء والمسئوليات عن البطاركة في المناطق البعيدة . وكانت له سلطة رسامة مساعديه .

وكان "**ماروتا**" مساوياً في القوة للنسطورى ."**برسوما**" ، في الدفاع عن أصحاب الطبيعة الواحدة ، في فارس ومابين النهرين. واليه تُنسَب رسالة

عقائدية، قيل إنه كتبها ، بناء على طلب البطريرك اليعقوبي يوحنا الأول (٦٣١م-٦٤٨م) ، الذى - بناءً على ما ذكره ابن عبرى- ترجم الإنجيل الأول (متى) إلى العربية، فى عهد الأمير العربى عمر بن سعد.

كما كان في عهد بطريركية يوحنا أن الأسقف ساويرس Sebkht (المُتنيَّح سنة ٦٦٧م) من دير Kenneshre ، قد تفوّق في دراسة الفلسفة اليونانية والرياضيات والفَلك واللاهوت . وهو بدون شك أحد رُوّاد العلوم السريانية الهللينية.وعنَى بدراسة الأسطرلاب ودائرة البروج الفلكية (Zodiac) . وصار دير "كنيسشر" هو مركز التعليم السريانى تحت إشرافه ، وكان من أهم خريجيه - في القرن السابع - يعقوب الذى من إديسا (٦٣٣م-٧٠٨م) وكان أسقفاً ولاهوتياً ومفسراً ونحوياً وفليسوفاً ومؤرخاً ، وقد وُصِف بأنه "چيروم" الكنيسة اليعقوبية، وكان من أعظم كُتّابها . وأعد الكثير من التأملات الكتابية، والدراسات الطقسية. وقام بمراجعة القداس القديم للقديس يعقوب الرسول (ابن حلفا) وتقويماً للمناسبات الدينية الكنسية السريانية.

ومن بين ترجماته من اليونانية، عظات للقديس ساويرس الانطاكى (Homilia Cathedrales)، كما أفاد في وضع قواعد للغة السريانية. وتاريخه المفقود - وهو تكملة لتاريخ يوسابيوس القيصرى - قد استخدمه كل من ميخائيل السريانى وابن عبرى . وكانت رسائله ليوحنا العمودى - وإلى شخصيات أخرى معاصرة - قد ألقت الضوء على الكثير من مشاكل عصره.

وقبل نياحته أعد دراسة عن الخليقة والمخلوقات بعنوان :"الأيام الستة" (Hexameron) ولم يُسعِفه العُمر لاستكمالها.

وكانت هى الجزء الثانى لموسوعة المعرفة اللاهوتية . وكان الجزء الأول منها عبارة عن دراسة (Causa Causarun) تُنسَب إليه ، رغم أنها تحمل

كتابات تدل على أن كاتبها هو آسقف آخر بإديسا . ويدل شكلها على أنها عمل لم يكتمل.

ويصف المؤلف مدينة فاضلة (Utopia) يعيش فيها كل أنواع الإيمان متحدين في ديانة عامة. وُيتجنَب العبارات التى قد تُضايق اليهودى أو المُسلم ، كما يلاحظ تعاطفه مع الفلسفة الصوفية العربية .

وبالإضافة إلى غزارة معرفة يعقوب ، فقد كانت له قوة دافعة لأنشطة الكنيسة الإصلاحية في أيامه . فقد حاول إصلاح النُظم الغير سليمة في أديرة إيبارشيته. ولما ثار الرهبان ضده ، صار البطريرك اليعقوبى "جوليان" في صفهم. لذلك أخذ الأسقف نسخة من القوانين القديمة ، وأحرقها عند بوابة البطريركية ، مُعلناً أنه يُفضِل إتلاف ما أعتبرَه البطريرك أساساً للرهبنة.

ثم ترك إيبارشيته ، وظل يتحَّرك من دير إلى آخر ، لعدة سنوات ، مُعلِماً وكاتباً وواعظاً ، حتى ساعة نياحته ، في عشية عودته إلى إديسا سنة ٧٠٨ م. وسَّماه اليعاقبة "**المجاهد**" (Philoponus) "**والمترجم**" (interpreter) .

وقد قام شخص آخر بتكملة موسوعة الأيام الستة (Hexameron) وهو جرجس (George) أسقف العَرب (٦٨٦-٧٢٤م) وتلميذ وزميل يعقوب في دير "كنشر" ، في كرسيه في عقُولة (الكوفة العربية) ، كما ألف العديد من المقالات اللاهوتية والفلسفية. ودافع عن الأرثوذكسية ضد هجمات النساطرة. وكتَب رسائلاً عن التاريخ والفَلك .

ويمتدح الكاتب الفرنسى الحديث إرنست رينان ، دراسته فى بحثه عن العمل الأرسطى Organon ، واصفاً إياه بأنه لا يُقارَن في أهميته وطريقته ودقته ، في التعليقات السريانية .

ويبدو أن الكنيسة اليعقوبية (السريانية) قد تقدمّت في ميدان التبشيّر الإنجيلي (evangelization) . وخير مثال لذلك هو "**إيلياس**" (Elias) السرياني الأرثوذكسي الذي ترك الإيمان بالطبيعتين، بعد دراسة مؤلفات القديس ساويرس الإنطاكي وتحول للأرثوذكسية ،وبعد ذلك سيم بطريركاً لليعاقبة (٧٠٩-٧٢٤م) ، وقد كتب دفاعاً عن تحوُّله للأرثوذكسية ، رداً علي رسالة من ليون (Leo) أسقف حرّان الملكاني.

وأما البطريرك الآخر "**قيرياقوس**" التكرّيتي (٧٩٣-٨١٧م) فقد عمل على كسب الأرمنيين الذين تأثروا بأفكار الإمبراطور يوليانوس الجاحد .

وفي عهد خَلفِهِ "**ديونيسيوس**" (٨١٧-٨٤٥)حدث انشقاق قام بالكنيسة، ضد نموها الروحى. وكان عن "الخبز السماوى" ، وقد عارَضه الرهبان في رأيه. وبناء على ذلك ، تم انتخاب "**إبراهام**" من دير قرطامين (Qartamin) بطريركاً آخر ضده ، بمعرفة الناقمين عليه. وقد عَمِل على تهدئة الموقف أمام السلطات الإسلامية الحاكمة .

وعندما هدأت العاصفة، قام ديونسيوس بعدة زيارات، ليُهَدِّئ الشعب، ولكسب الحُكام ليقفوا إلى صَفِّهِ، في دعواه. وبين عامّى ٨٢٥-٨٢٧ ذهب إلى مصر، ليحصل على خطاب من عبد الله بن الطاهر، والى الخليفة المأمون (العباسى) إلى أخيه محمد، الذى كان قد أمر بهدم المبانى الكنسية الجديدة في إديّسا .

وفي عام ٨٢٩ مضى إلى بغداد ، ثم إلى دمشق ، كطلب الخليفة، لتهدئة الأقباط البشامرة الثائرين ضد الحُكم العربي ، ولكن واسطته ذهبت هباءً ، فقام الخليفة وقائده "الأفشين" بالقضاء على الثورة القبطية بالقوة وحدها.

وفي مصر زار آثارها ومسلاتها وأهرامها ، ومقياس النيل . وفي سنة ٨٣٥م، زار بغداد مرة أخرى ، لإعلان الوَلاء . لخليفة المأمون الجديد

"المعتصم". وقابل ملك النوبة[1] المسيحي ، الذى كان هنـــاك لنفــس الغــرض ، وخلال مدة حبَّريته ، تمزقت الكنيسة بانقسامات داخلية ، كما عانت من الحُكـــامّ المسلمين!!.

وعُرِف ديونيسيوس بأنه مؤلف تاريخ عام ، للفترة بين الامبراطور موريـس سنة ٥٨٢ إلى وقت موت ثاوفيلس سنة ٨٤٢ ، وهو سِجل هام لأحداث الكنـــائس السريانية ، واستفاد به المؤرخ ميخائيل السريانى وما تلاه من مؤرخين ، ولكـــن لسوء الحظ ، لم يتبقّ سوى جزء منه .

وتنتهى هذه المرحلة بشخصية يعقوبية جديرة بالذكر ، هو "**موسى ابن كيفـا**" (bar Kepha) الذى تنيحّ سنة ٩٠٣ عن عُمر التسعين سنة ، وكـــانت مجـــالات كتاباته تشمل : اللاهوت ، والتفسير (exegesis)، والعظات ، والفلسفة.

وكتابه عن الأيام الستة للخليقة (Hexameron) ربما كان مُستّمداً من أفكار يعقوب الإديّسى . كما أن كتابه "مجالات ضد الهراطقة" ، ومقالته عن "الطوائـف" لهما فائدة كبيرة .

وفسّر العهدين القديم والجديد ، ودراســـة أخـــرى عـــن مؤلفـــات القديـس غريغوريوس النزينزى ، ونصوصاً لقداسين (أحدهما أبوكريفا) ، وبحث فى علـم المنطق الأرسطى .

ورغم أن الكنيسة (السريانية) زادَ ضغط الحُكام المســلمين عليــها ، لكنــها تمكنت من استعادة قدر كبير من استقلالها في إدارتها (autonomy) ، وكقـــاعدة عامة ، انتهى تدُّخل الخلفاء في انتخاب البطاركة ، وحلت فترة من السماح بعــدم تحصيل ضرائب الخرَاج والجزَية من المسيحيين.

---

(١) تقول المصادر القبطية إنه كان ولّى عهده ، الذى قدّم هدايا للخليفة ، لأعضاء النوبة مـــن جزية لم تُسدد.

وكان المسيحيون هم أعضاء المجتمع المتعلمين. ولذلك كانت الحاجة إليهم فى المراكز العُليا ، في البلاط العباسى في بغداد . كما كان يُعمَل حساب لمكتباتهم ومدارسهم وعلمائهم ، اليعاقبة السابق الإشارة إليهم • وعن طريقهم انتقلت المؤلفات اليونانية (المترجمة بمعرفتهم) إلى الثقافة العربية .

وكان المسيحيون – بصفة عامة – يتمتعون بقسطٍ معقول من حرية التفكير والعمل، تحت حُكم الخلفاء العباسيين الأوائل ، وكان البطريرك اليعقوبى يتردد على البلاط ، رغم أن مفريان (مطران) تكريت كان هو المسئول عن هذا الجزء من أرض الرافدين (الطرق) ، وكذلك الشرق الأوسط (والأدق: الشام) ، بينما سُمِح للجاثليق النسطورى، بالسُكنَى في بغداد .

ومارس المسيحيون الكثير من الأنشطة التجارية في الإمبراطورية العربية ، مما زاد من ثروات مجتمعاتهم ، مما كان له أثَره على الكنيسة ، وعلى المؤسسات الديرية بمدارسها ومكتباتها .

+ + +

عهد الانحدار :

لم يستمر التسامح والاعتدال العربى إلى ما لا نهاية ، فقد حدث ظرفَان ساهمًا في حدوث تغيير كبير، في تعاملات العرَب مع المجتمعات المسيحية في المناطق الخاضعة لهم .

+ **وأولهما** : النمو المستمر في التعليم الإسلامى ، جعل الخلفاء أقل اعتماداً عن المسيحيين في تخصصاتهم . فنجد أمثلة متزايدة من قيام الخلفاء والسلاطين بطرد الموظفين المسيحيين ، بدون سبب سوى الدين !!.

+ **وثانيهما** : تناقص العنصر العربى الصِرف ، وضعف الخلفاء في مواجهة تزايد نفوذ العناصر الغير عربية (الفُرس والأتراك)، مما كان له أثره في السياسة

الإسلامية ويرجع تدخلهم إلى عهد الخليفـــة المعتصـم (٨٣٣-٨٤٢) • وكــان هارون الرشيد إبناً لجارية تركية .

ولكي يتحرر الخليفة المعتصم من نفوذ العساكر العرب الخرسانيين - الذيـن كان يدين لهم العباسيون بتولى الخلافة - قام بتكوين حرس خاص له من أربعـة آلاف من الأتراك والتُركمان ، من وسط آسيا. وقد أساء هذا الخليفة حساب نتيجة قراره هذا .

وحتى في أيامه كثر عدوانهم في العاصمـة (بغـداد) ، فوجـد أنـه مـن الضرورى نقل كرسى الحكومة شمالاً إلى "سامَّراء" على نهر دجلة . وفى القـرن التالى ، ظل نفوذهم يتزايد ، حتى أنهم استطاعوا أن يقبضوا على معظم السلطة، وانتزعوا لقب "سلطان" من يد الخلفاء العباسيين، الذين صاروا رؤساء صوريين، في نهاية القرن ١١م.

ومثل البرابرة - قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية - فقـد تـأثر الخلفـاء بجهلهم وهمجيتـهم وتعصبـهم الأعمَّـى (bigotry) ، وأن معاملتـهم السـيئة للمسيحيين ، ولأماكنـهم المقدسـة ، قـد سـاعدت علـى مجـيء الصليبيين . (Crusades)

وقد أقاموا أُسرَاً حاكمة ، ومن أشهرها السلاجقة ، وقد زاد مـن ضغطـهم على حياة الكنيسة اليعقوبية في شمال العراق . وقد زادت القرارات التى تضـايق المسيحيين إبتداءً من القرن العاشر وما بعده .

وفي الواقع تُوصف القـرون ١٠ ، ١١ ، ١٢م بأنـها عصـور انحـدار المسيحية السريانية ، وهبوط مستوى الأدب السريانى .

ولا نجد شخصية روحية مرموقة في الكنيسة اليعقوبية، خلال القرن العاشر. وهناك شخص يُدعى يوحنا بن مارون (المتنيحّ سنة ١٠٠٣) وكان راهباً فى دير

Gubos قرب ملطية ، وقد وُصِف بأنه "محيط الحكمة" ، ولكنه لا يُقارَن بشيء بالنسبة للآباء السريان القدماء، العظماء، في المعرفة . وقد كتب مقالة غير هامة عن "أمثال سليمان" . ولم يكن إسهامه فيها (في الواقع) سوى اعتباره ناسخاً، لا مؤلفاً لها .

وهناك القصة الحزينة لمرقس بن كيكى (Mark bar Kiki) الذى تمت ترقيته إلى مطرانية تكريت باسم أغناطيوس سنة ٩٩١م ، وقد طرّده شعبه من منصبه لسوء سلوكه ، فتحوّل للإسلام سنة ١٠١٦م ، وفيما بعد رجع للمسيحية نادماً ، وكتب قصيدة بالسريانية عن سقطته !!.

ولم نجد في القرن ١١ أسماء عظماء من رّجال الكنيسة السريانية ، وإن كان مؤرخى الأدب السريانى يُشيرون إلى أسمين متواضعين : هما يشوع بن شوشان • وإغناطيوس، وكان راهبا في دير مار هارون .

وكان الأول قد صار بطريركاً سنة ١٠٥٨م باسم "يوحنا" ، وقد اضطر أن ينخرط فى صراع مع منافس له فى عام ١٠٦٤م ، ولكن أعيد انتخابه فى نفس السنة ، وتنيحّ سنة ١٠٧٢م بعد فترة صعبة ومضطربة. وقد شغل نفسه بمناقشات مع الأرمن عن استخدام الخميرة والزيت والملح في القربان المُعدّ للقداس. كما كتب بعض النصوص الطقسية، وأربع قصائد عن استيلاء الأتراك على ملاطية .

وصار أغناطيوس أسقفا لملاطية سنة ١٠٦١م وتنيحّ سنة ١٠٩٥م ، بعدما كتب تاريخاً مجهولاً مستمداً من المؤرخين يعقوب الأديسي وديونيسيوس (وكان معروفاً فقط للمؤرخ ميخائيل السريانى)، وبعد عام من نياحته استولى الأتراك على مدينته ، وخلفه الأسقف يوحنا ، وتم اغتياله مع يعاقبة آخرين.

واستمر جدب الكنيسة السريانية والأدب السريانى اليعقوبى حتى منتصف القرن الثانى عشر ، عندما حدث إحياء فجأة لها ، بظهور ثلاثة أسماء شهيرة ،

وهى بحق أعظم رجالها المعدودين في تاريخــــها . وهــم : **ديونيســيوس** بــن الصليبى ، و**ميخائيل** السريانى ، وغريغوريوس بن العبَّرى (Bar Hebraeus)، وهو أكثر من غيره شهرة في التاريخ السريانى ، إلى العصور الوسطى .

وكان ديونيسيوس بن الصليبى مواطناً من ملاطية ، وصار أسقفاً لمرعــش، وقد ضم له البطريرك أثناسيوس الثامن مدينة Manbog سنة١١٥٤ ثــــم نَقلُــه البطريرك ميخائيل الأول سنة ١١٦٦م إلي أسقفية العميد (ديار بكر، في تركيــــا حالياً) ، حيث مكث بها حتى نهاية حياته سنة ١١٧١م .

وتشمل كتاباته موضوعات متنوعة . وقد كتبها بتوســـع ، وتشـــمل تفاســـير كثيرة للعهدين القديم والحديثِ ، وسِيَرَ وأقوال علماء الكنيسة . كما ألف كتاباً عــن اللاهوت ، ومقالة عن نعمة الله . وعدة مقالات عن قـــانون الإيمـــان النيقــوى ، وإيمان الكنيسة السريانية وغيرها من المواضيع . كما كتب عن عقائد الهراطقـــة من النساطرة والخلقيدونيين المؤمنين بــــالطبيعتين ، كمـــا كتـــب عـــن اليـــهود والمسلمين، ووضع عظات كثيرة .

وفي مجال الفلسفة، انشغل بعدة كتب لأرسطو . كما ألفً عدة قصائد تتعلـــق باستيلاء المسلمين علي إديسا بيد زنكى سنة ١١٤٤م ، وسقوط مدينة مرعش فـــى يد الأرمن (وأخذوه أسير حرب) سنة ١١٥٦ م.

كما كتب تاريخاً عن زمانه. ولذلك لا تعجب إذا قيل عنه إنه نجـــم القـــرن الثاني عشر , في تاريخ السريان .

والمشهور الآخر- والمعاصر له- هو ميخائيل السرياني ، المُلَّقب "بـــالكبير" وقد وُلِد في ملاطية سنة ١١٢٦ ، وترهب في سن صغيرة ، في دير. برســــوما الشهير،والقريب من موطنه . وفي سن الثلاثين صار رئيساً للديـــر ، وقـــد قـــاوم

إغراء رسامته أسقفاً لديار بكر سنة ١١٦٥ , لئلا يفقد التأملات في الخلوة ، واستكمال كتاباته ، ولكن القدر خبّأ له حِملاً أكبر ، ومستقبلاً أعظم .

فبعد نياحة البطريرك السرياني أثناسيوس الثامن ، في السنة التالية، تم انتخاب ميخائيل ليخلفه ، في سن ٣١ سنة !! وظل علي كرسيه حتى نياحته سنة ١١٩٩ ، في أثناء فترة كان الشرق الأوسط فيها مسرحاً لأحداث خطيرة .

وكان ذلك أيام صلاح الدين الأيوبى ، والحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩م-١١٩٢م) ، وكان ميخائيل في علاقات ودية مع المملكة اللاتينية في أورشليم والصليبيين ، ولكنه على عكس الأرمن والموازنة ، ظل لا يخضع لضغوط التّحوُل إلى المذهب الكاثوليكى والخضوع للبابوية الرومانية .

وقد عانى البطريرك بمرارة من تصرُّف تلميذه الخائن "ثيؤدور" بن وهبون، بالنسبة للعلاقة بين الكنائس اليعقوبية والبيزنطية. فقد أرسل الإمبراطور عمانوئيل سنة ١١٧٠م شخصاً يُدعى "ثيؤريانوس" برسائل خاصة للجاثيلق الأرّمنى ، والبطريرك السريانى ، لاتحاد الكنائس الشرقية مع القسطنطينية .

ورفض البطريرك ميخائيل الاستماع إلى المندوب الإمبراطورى ، وأرسل يوحنا قيسون لعقد لقاء تمهيدى معه في قلعة الروم في كيليكية. والظاهر إنه تم الاتفاق على عقد مؤتمر ، يناقش فيه مندوبو الكنائس المشاكل الموجودة . وعيَّن ميخائيل تلميذه "ثيؤدور" كمندوب سريانى ، وفيما بعد إتّهم ثيؤدور البطريرك بأن له ميولاً خلقيدونية ، ونصّب نفسه بطريركاً مضاداً له ، في عميد (ديار بكر) سنة ١١٨٠ . وفي ذلك الوقت كان البطريرك ميخائيل في إنطاكية ، فقام بسرعة وقبض على خصمه، وخلعه وحبسه في دير برسوما .

وتمكنّ ثيؤدور من الهرب إلى دمشق ، على أمل أن يعرض قضيته على صلاح الدين الأيوبى ، ولكنه شك في ردّ فعل السلطان ، فقرر أن يُغيّر اتجاه

سيره إلى كيليكية ، حيــــث انضـــم إلـــى الكـــاثوليكوس (الجـــاثليق) الأرمنـــى غريغوريوس ديجا (Degha) والملك ليون (Leo) ، وقد أعادًا تثبيته بطريركـــاً للسريان ، بما لهما من سلطان !!.

وانتهت متاعب البطريرك ميخائيل فقط عندما مـــات ابـــن وهبـــون ســـنة ١١٩٣م. وقد كان ميخائيل عُالِماً رفيع المستوى ، ونحوياً عظيماً ، وكان يتحـــدث اللغات اليونانية والأرمينية والعربية ، إلى جانب لغته الأم الســـريانية . ويـــروى ابن عبرى أنه رد على خصومه باللغة العربية.

ورغم الأحداث الصعبة التى عانى منـــها ، عـــلاوة علـــى ثقـــل واجباتـــه البطريركية، فقد اجتهد ليل نهار ، في كتابة مؤلفاته ، التى تركها للكنيسة . ومـــن أكثرها قيمة تاريخه (Chronicle) ، الذي ظل مشهوراً طويلاً – في أوربـــا – من خلال ترجمة أرمينية موجزَة ، حتى اكتشاف النص السرياني الكامل ، الـــذى طُبِع مع ترجمة بالفرنسية . ويبدأ بخلق العالم وينتهي بعـــام ١١٩٥م . وتقريبـــاً نصف مادته مستمدة من مصادر ووثائق غالبيتها مفقودَة . ويذكر المؤلـــف هـــذه المصادر . في مقدمته وفي النص نفسه، الذي يقع في ٣١ جـــزءاً . وقـــد تبـــع المؤرخ الأسقف يوسابيوس القيصري ، في خطته في تقسيم كتابه ، الذي ينتـــهي بعدد من الملاحق (appendices) تشمل معلومات عـــن الكنـــائس الشـــرقية ، وأسماء البطاركة اليعاقبة، مع ملاحَظة عن كل منهم، ابتداءً من القديس ســـلويرس الانطاكى (٥١٢م)، وأسماء الأساقفة الذين رسموهم، منذ قرياقص (٧٩٢م).

وعلاه على تاريخه هذا ، كتَب ميخائيل العديـــد مـــن الكُتـــب ، ذات طـــابع كنسى، كما وضع قداساً ، منظماً بترتيب حروف الـــهجاء ، كمـــا راجـــع كُتـــب الرسامات . كما جمع سيرة حياة الأسقف **مار أبهاى** (Mar Abhai) وهو مـــن آباء مجمع نيقية فى القرن الرابع . وكان يهدف إلى الدفاع عن الإيمـــان ببرَكـــة

ذخائر القديسين (relics) ، وظل كذلك يتصدّى لحركة تكسير الأيقونات وعدم توقيرها (iconoclast) ، كما ترك عدة صلوات (sedras) رائعة . كما كتب عن القديسين يوحنا ماردين والقديس برسوم .

كما يشير فى تاريخه إلى كتابات أخرى ، و منها رسالة بعنوان " دور الإيمان"، أرسلها للإمبراطور عمانوئيل. وبحث عن أخطاء مرقس بن قنبر (وهو منشق قبطى) ، كما كتّب ضد الرومان بمناسبة دعوتهم له لحضور مجمع لاتيران الثالث ، المنعقد سنة ١١٧٩ ، كما كتب قصيدة يمتدح فيها شابة مسيحية فشل المسلمون فى جعلها تترك دينها .

وبمقدّم القرن ١٣، كان قد تم تعريب الشعب السريانى ، فرأى البعض إنه لم تعُد هناك حاجة لكتابة الأدب السريانى باللغة السريانية، وأصبحت العربية هى اللغة الرسمية فى أعمال الحكومة والأدب .

و كان آخر عظماء المؤلفين السريان ، هو غريغوريوس أبو الفرج ، المُلقّب "**بابن العبّرى** " (لأن والده هارون كان يهودياً ، وتحوّل للمسيحية) وقد كتّب بالعربية والسريانية بسهولة ، بينما كان يجهل اليونانية .

وفى العصور التالية ، اقتصرت السريانية على طقوس الكنيسة ، وخمد تأثيرها فى الفِكر السُريانى.

وقد وُلِد ابن العبّرى من أسرة يهودية الأصل سنة ١٢٢٦م فى ملطية، وتنيحَ في مرجة في أذربيّجان في صيف سنة ١٢٨٦م . ولابُد أنه شاهد – في شبابه- غزوات **هولاكو المغولى**.وقد هربت أسرته من مدينة موطنها سنة ١٢٤٣م ، بعد سقوط ملطية بقليل. واستقرت في إنطاكية ، التى كانت لا تزال في أيدي الفرنجة، خلال الحملة الصليبية.

وتوّجه إلى طرابلس (بلبنان) لدراسة الفلسفة والطب ، ثم رسمه البطريرك اليعقوبى "إغناطيوس" الثانى أسقفاً لمدينة Gubos (قرب موطنه القديم في ملطية) سنة ١٢٤٦. وكان في سن العشرين فقط !!.

في السنة التالية ، تم نقله إلى "لكابين" في منطقة ملطية أيضاً . وفي عام ١٢٥٢م ، انشغل في انشقاق يعقوبى. وتنيح أغناطيوس الثانى في نفس العام ، وتنافس على البطريركية إثنان : ديونيسيوس ويوحنا مدنى . ووقف ابن عبرى في صف الأول ، الذى قام بنقله إلى إيبارشية حلب ، بهدف أن يكسب شعبها لصالح قضيته .

ولكن الظاهر أن ولاءَهم لابن مدنى كان أكبر ، فطردوا ابن عبرى من مدينتهم . فاعتزل في دير برسوما بالقرب من البطريرك المختار له . ثم عاد لحلب سنة ١٢٥٨م ، حيث مكث بها حتى جاء البطريرك التالي أغناطيوس الثالث، وجعله مسئولاً عن مفرانية (مطرانية) المشرق في عام ١٢٦٤م ، ومكث هناك حتى تنيحّ سنة ١٢٨٦م.

وخلال عشرين سنة من عمره ، كرّس حياته لهدفين ، **أولهما** : أنه ألزَم نفسه ليس فقط بخدمة شعبه ، بل كل المسيحيين الذين انحرفوا عن عقيدتهم . **وثانياً** : كرّس جزءاً من طاقته في ميدان التأليف الأدبى والعلمى . وكانت نياحته سبب حزن عام ، حتى أنه سار في جنازته الإغريق (الروم) والأرمن والنساطرة مع اليعاقبة .

وبالنسبة لإنتاجه الأدبى، ولو بحصر موجز، يدهش العقل كيف أنه خلال فترة ثلاثة عقود (٣٠ سنة) فقط -في ظروف مضطربة- يكتب هذا الكم الكبير.

وكان ابن عبرى عالماً موسوعياً ، ومؤرخاً ، ومفسراً للكتاب ، لاهوتياً،وله معرفة بقوانين الكنيسة ، وفليسوفاً ، ونحوياً ، وشاعراً ، ورجل عِلم وأدب ،

وفلكيّاً ، وطبيباً . وكان سباقاً إلى الدعوة إلى التقدم العلمى الذى حدث فعلاً في عصر النهضة في أوربا (Renaissance).

وقد قامت فلسفته الخاصة على ضرورة تعميم المعرفة العلمية ، مثل رامون لول (Ramon Lull) وروجر بيكون (Roger bacon)[1] في أوربا في العصور الوسطى (mediaeval).

وتتركز أهمية دراساته (إسهاماته) في النواحى التاريخية . وقد وضع ثلاثة كتب في التاريخ هى : التاريخ السريانى (Chronicon Syriacum) ، والتاريخ الكنسى (Chronicon Ecclesiasticum) باللغة السريانية ، وتاريخ عربى (Chronicon Arabicum) وألفه حتى نهاية حياته بعنوان "مختصر تاريخ الدول" . ولابُد أنه قد استعان بمصادر سريانية وعربية وفارسية، سبق أن أعدها سابقه البطريرك ميخائيل الكبير . وأضاف إليها الكثير من المعلومات ، وتاريخه منذ الخليقة إلى عصره (عام ١٢٥٨م) وشمل مطرانية تكريت وآبائها والبطاركة السريان .

وقد استكمل أخوه برسوم ما كتبه إلى عام ١٢٨٨م ، وأعد قائمة تضم ٣٠ مؤلفاً لابن عبرى ، وقام مؤلف مجهول باستكمال تاريخ ابن العبرى إلى عام ١٤٩٦م ، وقد أثرى ابن عبرى تاريخه بمعلومات إضافية عن الُحكام المسلمين ، بناء على طلب أصدقائه المسلمين .

وفسر ابن العبرى الكتاب المقدس ، معتمداً على الترجمة السريانية القديمة (Peshitta) والسداسية والهراقلية. وطعّمها بأقوال البابا أثناسيوس ، والقديسين باسيليوس وغريغوريوس التزينزى ، وغريغوريوس النيضى ، وهيبوليتوس

(١) اللذان ناديا بأن التجربة (Experiment) هى أساس استنباط القوانين الطبيعية .

وأوريجانوس وساويرس الإنطاكى ، ويعقوب الأديسى ، وموسى بن كيفا. ويشداد المَروى النسطورى ، واستعمل كل هذه المصادر بالسريانية والعربية .

ونظراً لانحدار اللغة السريانية ، فقد وضع قاموساً وقواعد لها ، ووضع دراسة مطولة عن اللاهوت الأرثوذكسى في كتابين : مصباح المذبح ، وكتاب أشعة النور ، والأخير يُلَخِص أهم المبادئ التى تفيد الشعب . وكتابه المُسمّى : "اليمامة" (Dove) هو مؤلف نُسكِى ، الهدف منه إرشاد الرهبان والمتوحدين . ويعتمد فيه على خبرته ، التى فصّلها عن سيرّته، في نهاية كتابه .

واهتم بقوانين الكنيسة ، نظراً لأن الكنيسة،تحت حُكم الخلفاء ، قد تمتعت بتطبيق شرائعها الخاصة على شعبها ، ولذلك كان الأساقفة هم القضاة الوحيدون لشعوبهم في كل الأمور الكنسية ، والى حدٍ كبير في قضايا الأحوال المدنية .

ولذلك ألَّف كتاباً هاماً للإكليروس باسم"كتاب التعليمات" (Directions) المعروف باسم"Nomocanon"، وهو مُرشِد لكل العاملين في الأمور القانونية .

وفي ميدان الفلسفة قرأ للعرب بفهم,وترجم للسريانية العديد من المقالات الفلسفية ، ومنها لابن سينا عن المنطق والجدليات . وكتب كتاباً عن الكلام والحِكمة ، وهو يضم جدليات، وفيزياء ، وأموراً عما وراء الطبيعة وتتصل باللاهوتيات . وكتاب "زُبدة العلوم" ويتضمن الجزء الأول معلومات فنية وأدبية وغيرها ، والجزء الثانى عن الفيزياء والكون والأفلاك ، والمعادن والحيوان والنبات والنفس . والجزء الثالث خاص باللاهوتيات والأخلاق ، والعلوم الاقتصادية والسياسية . ونظراً لضخامة حجمه ، فقد اختصره في كتاب "تجارة التجارات" (Mercatura mercaturarum) .

كما إن معرفته بالرياضيات والفَلك، لابُد إنها كانت غزيرة. فقد حَاضَر عن إقليدس في مدرسة دير مرجة سنة ١٢٧٢م، وأعد جداول للفَلك (Zij) ، كما كتب

بحثاً عن الفَلَك باسم "ارتفاع العقل" ، وقد زيَّنه بالأشكال الرياضية، والعديد من الرسومات .

ويجب أن نعلم أن تخصص ابن عبرى الأصلى كان في مجال الطب ، ويظهر أنه كان يمارسه ، حتى بعد رسامته ، إذ يخبرنا في تاريخه الكنسى أنه عالج سنة ١٢٦٣م التتارى "ملك الملوك". كما أنه كتَب ونقل للسريانية والعربية كثيراً من كُتب الطب ومواد العلاج (materia medica) وعلّق على كُتب الأطباء اليونان مثل جالينوس وأبقراط ، كما لخص بالعربية كتاب طبى لحنين بن اسحق ، وترجم للسريانية كتاب ابن سينا :"القانون في الطب" . كما كتب كتاباً آخر - بدون عنوان- عن الطب، بالسريانية .

وبصفته من النُحَاة ، خدمت كتبه الكثير من أجيال المستشرقين في دراستهم للغة السريانية ، وألفّ كتاباً نحوياً على نموذج كتب النحو العربى ، وكتاباً شعرياً مماثلاً لألفية ابن مالك (في القواعد) .

كما جذَب شعرُه الانتباه لعدة قرون ، وتُرجِم للاتينية في القرن ١٧م ، كما كتَب عن تفسير الأحلام ، ومجموعة قصص، عن موضوع الحكمة والعقل .

كل هذا مع وضع قداس كامل ، وموضوع عن الاعتراف بالإيمان ، وقد كتَب أيضا الكثير من المؤلفات السياسية والكنسية ، ولكنه رحل قبل إكمال سن الستين !! ، بعدما أضاف الكثير إلى الأدب والمعرفة السريانية .

+ + +

المغول والأترّاك والأكرَاد :

رغم وجود عناصر لانحطاط الحياة والأدب السريانى ، تحت الحُكم العربى، إلا أن الكنيسة اليعقوبية أخرّجت رجالاً مثل ميخائيل السريانى

وديونيسيوس بن الصليبى . وابن العبرى . واستمرت . فى الازدهار ، تحت ظل الحكم الإسلامي، إلى نحو نهاية القرن ١٢م ، وبداية القرن ١٣م.

وبناء على معلومات ابن العبرى ، أكبر مؤرخى عصره ، كان يوجد في البطريركية اليعقوبية ٢٠ مطراناً ، ومائة أسقف ، في إيبارشيات في سوريا وأناطوليا ، وشمال الرافدين ، وأقاليم أخرى في المناطق الغربية من الشرق الأوسط (الشام) ، بينما شملت مطرانية تكريت ١٨ إيبارشية أسقفية في جنوب العراق وفارس ، وبلاد شرقها .

وكان السريان يكسبون الكثيرين ، وخاصةً من النساطرة. وعلى أية حال ، فقد كرهوا العُنف ، ولم يعادوا الروم ولا اللاتين ولا المسلمين ، مع أنهم بين أنفسهم لم يعيشوا بسلام . وكان يتصارع على رُتبة البطريركية كثيرون ، مما قاد إلى تكرار الشقاق ، وممارسة السيمونية (الرسامة بالمال) ورشوة الخُلفاء ورجال الإدارة من المسلمين ، لدعم فريق ضد الآخر ، بينما الأعداد المستنيرة – مثل ابن العبرى – قد فضلّت الابتعاد عن الترشيح للبطريركية.

وقد بدأت متاعب اليعاقبة بغزوات المغول ، وقسوتهم الشديدة منذ مجيئهم من وسط آسيا . ويقدّم ابن عبرى – كشاهد عيان– صورة كاملة لفظائعهم في تاريخه .

ومع ذلك ، فقد فضّل المغول العنصر المسيحى ، وكان عدد من رؤسائهم (Khans) قد تحولوا للمسيحية !!.

وكان هولاكو – قاهر بغداد، مدينة الخلفاء – سنة ١٢٥٨م له زوجة مسيحية ، وقيل إنه صار مسيحياً ، رغم أنه ليس هناك برهاناً على أنه قد تم تعميده.

وفى جُعبة بغداد ، حيث تم ذبح نحو ٨٠٠,٠٠٠ ، عاش المسيحيون بسلام في أحيائهم الخاصة * وعلاوة على ذلك سُمِح للمسيحيين بإعادة بناء كنائسهم ، وممارسة شعائرهم الدينية بدون قيود أو إذلال ، في بغداد ودمشق .

وقد رثّا ابن العبرى القائد هولاكو وزوجته ، كما لو كان من المدافعين عن الإيمان المسيحى !!. ولكن من الخطأ الظن بأن المسيحيين لم يعانوا قط ، وسط هؤلاء الغُزاة البرابرة (الهمج) ، بل إن اليعاقبة الذين عاشوا مع السكان الباقين (المسلمين) في مناطق خارج العاصمة (بغداد) والذين داسهم قواد المغول بأقدامهم لم ينالوا معاملة خاصة ، بل فقدوا حياتهم وأملاكهم في العهد المغولى ، بعد انتهاء الصفح الذى اتصف به الخان الأكبر وبلاطه .

ويرجعُ التغيّير في السياسة المعتدلة نحو المسيحيين إلى وقت تحولهم للإسلام . فتاريخ ياباله (yabballah) ، وتاريخ ابن العبرى ، يعطيان صورة حقيقية لهذا الفصل الحزين .

وقد فشلت كلاً من البعثات التبشيرية الشرقية والغربية ، في إبلاغ رسالة الإنجيل * وأن غزان (Ghazan) قد اعتنقت الإسلام وجعلته الديانة الرسمية للدولة ، اعتباراً من عام ١٢٩٥م !

وكنتيجة لذلك ، فإن اليعاقبة مع غيرهم من المجتمعات المسيحية صاروا عُرضَةً لاضطهاد مُنظم ، طوال القرن ١٤م . وأن مجيء تيمورلنك سنة ١٣٩٤م كان يعنى كارثة وطنية للكل .

فقد عانت مناطق ذات طبيعة سريانية عامة مثل عميد Amid (ديار بكر) ، وماردين ، والموصل ، وطور عابدين ، وتكريت وقد عانت من هجوم لا يُقارَن من قواته التتارية . وقد تم القبض على كثيرين من اليعاقبة. وذبحهم في الجزيرة وأعالى الرافدين (بالعراق).

وأما المسيحيون الذين هربوا من الذبح ، فقد احتموا بالجبال القاحلة ، حتى هدأت عاصفة الاضطهاد الشديدة . فعادوا إلى مواطنهم ، حيث وجدوا كنائسهم وأديرتهم قد سُويت بالأرض . وفي هذه الفترة تم اختفاء غالبية المنشآت الديرية اليعقوبية ، وأن هذه المنابر-التى حملت مشعل النور والعلم-قد أُطفئت إلى الأبد . وأن كل مؤلفاتهم – التى لا تُقدر بثمن – قد أُشعلت فيها النيران !!.

وصارت مطرانية تكريت فارغة من رجال الدين من ١٣٧٩م حتى ١٤٠٤م، وانحطت أخلاق الإكليروس ، وعانت البطريركية من أحزاب متنافسة على الكرسى، من مستوى متدنٍ ؛ مما نتج عنه عدم الوحدة وانتشار مختلف الإنشقاقات.

ونظراً ، لأنها قد حُرِمت من قيادة قوية ، وعانت من عدوٍ بعد آخر ، فقد ذبل المجتمع وانهار . وفي البداية ، تم القضاء على حضارتهم بمعرفة قوات المغول وتيمورلنك .

ثم تبعهم الأتراك (Turks) السلاجقة ، الذين مكثوا هناك عدة قرون ، بعدائهم التقليدى ، الذى زاد الصليبيون من شدته ، والذين حل محلهم "العثمانيون" (Ottomans) ، الذين حكموا حكماً رديئاً،من وسط آسيا ، حتى أسطنبول، على ضفاف مضيق البسفور الأوربية .

وكان أكبر اهتمامات الباب العالى (السُلطان العثمانى) الحصول على المال بقدر الإمكان من المسيحيين . وكان السلطان يوافق على منح المرسوم،بالرسامة البطريركية،لمن يدفع أكثر ، من مندوبى المرشحين .

وفي المقابل ، اتجه الإكليروس المسيحى إلى السيمونية (دفع المال للحصول على الرُتب الكنسية) لإيفاء إلتزاماتهم نحو الذين يُدعِمون موقفهم ، فانحطت الكنيسة ، والتعليم لم يُعمل له حساب !!. وصار اليعاقبة – مثل

النساطرة – في جهل وفقر شديد،في العصور الحديثة. وقل عددهم عن ١٥٠,٠٠٠– ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، في القرن ١٩م ، ولاسيما في كُردستّان وشمال العراق ، حول الموصل، وفي سوريا في حمص !!.

وعلى كلٍ ، فقد حاول اليعاقبة الاحتفاظ بعلاقات ودّية مع جيرانهم المسلمين، كما سعوا إلى التعايش السلّمى مع الأكراد . وقد ذكر السير مارك سيْكس (Mark Sykes) الذى زار المنطقة في السنوات الأولى من القرن العشرين ، أنه لاحظ أنه من الصعب تمييز اليعاقبة عن الأكراد،من أول نظرة سواء في المُظهر أو اللغة .

ورغم أنهم لم يُعانوا من نفس المصير . كما حدث للأرمن بيد الأتراك العثمانيين ، أو مثل النساطرة ، في صراعهم مع الأكراد ؛ لكننا نفترّض أن موُجة التعصب (Fanaticism) البغيض ، التى سادت في تلك المناطقَ ، لم تتركهم بلا أذية .

ومن الصعب للغاية أن نُحّدد بدقة نوع العلاقات القائمة بين اليعاقبة ، والأتراك ، والأكراد في العصر الحديث ، رغم وجود علامات واضحة بدرجة كافية !!. ورغم وجود التعصب الأعمى من "المُولَىّ" (mullah) الكردى نحو الكاهن اليعقوبى ، ولكن تظهر مجتمعاتهم أنها تعيش معاً في تناغم نسبى ، إلا عند قيام الحُكام الأتراك بمحاربتهم حَرباً دينية ، في محاولة لإحِداث الانقسام بينهم ، ليسُهّل حكمهم ، فإن هذه العلاقات كانت تضطَرِب فى تلك المناسبات.

ويختلف اليعاقبة (السريان) عن الأرمن والنساطرة، فهم يتمسّكون بإيمانهم وولائهم لكنيستهم، ولا يتوحدون مع باقي المواطنين المسيحيين،المختلفين عنهم في العقيدة. وهذا المسّلك العادي، بالإضافة إلى تمسكهم بالأرثوذكسية، هو سِر بقائهم في بلادهم ، على نقيض الأرمن والنساطرة ، الذين أُبيدوا ، أو تفرّقُوا (في أماكن أخرى من العالم).

وتظهر أعمال العُنف الكُردى ، في كتاب الأب الأمريكي Horatio Southgate عندما يذكر أنه عندما زار مكتبة دير الزعفران (al-Za'faran) سنة ١٨٤١م ، اعتذر الأسقف عن قلة محتوياتها ، لأن معظم المجلدات القديمة قد استعملها الأكراد لعبور مدافعهم عليها ، أثناء احتلالهم الأخير للدير . ورغم هذا التخريب المُتعمّد بقى الدير في يد اليعاقبة !! .

والتاريخ الحديث للكنيسة اليعقوبية غامض للغاية ، إذا قُورن بالتاريخ القديم لها ، ويرجع ذلك- إلى حدٍ كبير- إلى نقص التعليم والوَعى القومي .

وكانت إحدى علامات اليقظة قد حدثت في عام ١٨٣٨ م، عندما قال بطريرك الأرمن للبطريرك اليعقوبى – في زيارة للقسطنطينية- إن الشعب الذى بلا مدارس حتماً سينحدر .

ورسخت الفكرة في ذهنه ، وعند عودته (لسوريا) أسس مدرسة متواضعة لخمسة وعشرين ولداً ، في دير الزعفران ، وكان المعلمون من الإكليروس، وغير أكفاء ، وقد بدأوا بدون كتب ؛ يُعلمون السريانية والعربية والخط .

ومع أنه قد تبعها مدارس أخرى ، في الأديرة اليعقوبية الأربعة – أو الخمسة- الباقية ، فقد تخلّف الإكليروس عن الزمن ، وطالب العلمانيون بإصلاح أكبر ، وفي عام ١٩١٣م- ١٩١٤م استطاعوا الحصول من السلطان (العثمانى) على دستور جديد. وبه تكوّن مجلس إداري ، أو جمعية مدنّية ، ساهمت مع رجال الدين في مراقبة شئون الكنيسة .

وأكد المجلس على التعليم الإكليريكى ، وإحياء النظام الكنسى ، الذى يتوافق مع المبادئ القديمة ؛ لوقف التيار الشديد للبعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية ، الوافدة من الغرب .

وفي عام ١٩٢٠م ، لما وجد البطريرك اليعقوبى أنه ليس أكثر أمناً ، نقل كرسيه إلى حمص في سوريا ، كنتيجة لزيادة العداء ، والصراع الدموى الذى حدث بين الأكراد والنساطرة . ومن هناك لا يزال يدير الكنيسة (السريانية) ، ويرأس ١٦ مطرانية وأسقفية (في عهد الكاتب سنة ١٩٦٨) وتشمل سبعة في جنوب الهند ، وثلاثة في سوريا ، وأثنتان في العراق ، وأثنتان في تركيا ، وواحدة بمصر ، وواحدة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وينضم إليها كندا .

+ + +

حركة التبشير الغربى :

في صراعهم البائس ضد الجهل والتخلُّف، بدأ اليعاقبة يتطلعُّون إلى الغربيين، للتعاون معهم. وبدأ ظهور البعثات التبشيرية، التى كانت طريقاً مؤكداً للخلاص، ودخل عنصر جديد في التعليم والحياة الروحية للشعب السريانى.

وجاءت البعثات التبشيرية من ثلاثة مصادر : روما ، وأمريكا ، وإنجلترا . وكان ظهور الكاثوليك الرومان أولاً على المسرح السورى ، ثم تبعهم الكثير من البروتستانت والأسقفيين، من الولايات المتحدة ، وأعداداً أقل من كنيسة إنجلترا .

ودعنا نتعامل بإيجاز ، مع كلٍ من الحركات التبشيرية الثلاثة ، لاستكمال الصورة عن التاريخ الحديث ، عن تلك الكنيسة القديمة ، ومشاكلها والمساعدين الجُدد لها !!.

كما قلنا سابقاً ، أن الأرثوذكس الشرقيين ، رغم اعتراضهم على أفكار مجمع خلقيدونية في الغرب ، لا يزالون يعتبرون روما واحدة من الأسقفيات الثلاثة التى قادت الإيبارشيات الرسولية القديمة ، والأخريتان هما : الإسكندرية وإنطاكية .

وفي أيام معاناة المسيحيين الشرقيين لم ينفروا مـــن أن يرســلوا مندوبيــن للاتصال بروما . وكانت أولىً تلك البعثات السريانية سنة ١٥٥٢ ، عندما ذهــب موسى الماردينى إلى روما ، في محاولة للصُلح مع البابا يوليوس الثالث ، ولكــن لا أحد من الفريقين أخذ هذا التقارب بجد .

وفى حوالى منتصف القرن ١٧ ، صـــار Abdul- Ghal of Mardin اليعقوبى كاثوليكياً ، عن طريق بعثة تبشيرية كاثوليكية ، وهــرَب إلــى لبنــان ، حيث أوفِد إلى معهد مارونى لتعليمه. وفيما بعد ، بناء علـــى اقــتراح القنصــل الفرنسى بكويه (Piquet) في حلب ، رسمه البطريرك المارونى أسقفا كاثوليكيــا لحلب ، باسم "أندراوس" سنة ١٦٥٦م .

ولما تنيّح البطريرك اليعقوبى – في ماردين – وحاولت الأحزاب المنافســة نيل المنصب ، قام بكويــه ، ودبلوماســي فرنســي آخــر – يســمى Baron– بمحاولات جادة ، ليتولى أندراوس المنصب الشاغر (للكرسى السريانى) . وقــد نقل مؤرخ من وثائق رسمية القصة التالية :

"بعد دفع مبلغ كبير ، نجح بتدخل رسمي فرنسي ، صدور فرمان ســلطانى سنة ١٦٦٢م لصالح المونسنيور أندراوس ، وموضح به أنه على جميع البشــوات (الحُكام الأتراك) إخضاع كل الشعب السورى في كـــل الإمبراطوريــة لسُلطة إندراوس".

واعتمد البابا كليمنت التاسع انتخابه ، وأرسل لـــه قــرارَه ســنة ١٦٦٧م ، وبذلك وُلِدَت البطريركية الكاثوليكية للسريان . وواجّه اليعاقبة أزمة جديــدة فــي تاريخهم. ويخرج عن موضوع هذا الكتاب تفاصيل الصراع المستمر ، الذى كــان مُحزِناً ومُخزِياً أيضاً .

وبسبب الإنفاق المالى الكبير ، تم إنشاء كنائس (كاثوليكية) في أهم المــدن ، مثل الموصل ، مع التعليم المتعمِق ، والدعاية المُنظمـــة ، والنظـــام الكنســى ،

وعرَض ميزات للتعليم العالى في جامعة القديس يوسف في بيروت ، وفي المعاهد الدينية الأخرى ، وترّتب على ذلك بقيت الكنيسة الكاثوليكية وسط السريان ، وأنضم إليها عدد تراوح عددهم بين ٦٠,٠٠٠ - ٦٥,٠٠٠ ألفاً ، وقد أطلق السريان اليعاقبة على الذين تبعوا الكنيسة الرومانية لقب "المغلوبين" .

وفي البداية ، قوبل الكاثوليك بمعارضة شديدة ، وكانوا – في الواقع – على حافة الفناء ، عندما تحول مطران حلب (المدعو ميخائيل Jarew) إلى الكاثوليكية سنة ١٧٨٣م وتبعه أربعة أساقفة يعاقبة : أبراهام ، نعمة (Na'meh) وموسى، وجورج . والأخير صار بطريركاً لماردين . وأصدر البابا بيوس السادس قراراً بذلك في نفس العام .

فقد حدث أن البطريرك اليعقوبى المُسن قد تنيحَّ ، في ذلك الوقت ، فتحرك بسرعة Jarew إلى ماردين ، للاستيلاء على الكرسى البطريركى الشاغر ، ولكن كان الأساقفة اليعاقبة قد انتخبوا حالاً بطريركاً آخر من مذهبهم ، واضطر Jarew إلى الهرّب بحياته إلى بغداد ، ثم إلى لبنان ، حيث مات في مأوّاه في قرية مارونية سنة ١٨٠٠م.

ومع ذلك تتابعت رسامة بطاركة كاثوليك لسوريا ، حتى اليوم (١٩٦٨). وشمل الجيل الجديد منهم بعض علماء مشهورين . فالبطريرك أغناطيوس إفرايم رحمانى (١٨٩٨-١٩٢٩م) كان عالماً في اللغة السريانية واللاهوت, وخلال توليه هذا المنصب قرر أن ينقل مقر إقامته إلى بيروت ، ليكون بين المارونيين الكاثوليك الذين على مذهبه . ويهرب من عداء الأغلبية اليعقوبية ، ومن تدخُل السلطات التركية .

وتلاه أغناطيوس غبريال طابونى ، الذى رُقّى إلى رُتبة "كاردينال" سنة ١٩٣٦م ، وبذلك صار – لأول مرة – أحد السريان من كبار رجال الدين التابعين لروما .

وأسس الكاثوليك هيئات للعمل الكرازى وسط السريان . ففى عـــام ١٨٨٢م، أقاموا أول بعثة تبشيرية تحمل اسم القديس "إفرايم السُريانى" في ماردين ، ولكنــها لم تصمُد هناك .

ونشطت الحركة من جديد سنة ١٩٣٥م ، بقدوم نظام بندكت إلى دير شـرّفة (Sharfeh)، حيث تم عقد دراسات دينية وتعليمية ، وطبع كتب ، وعمل دعايـــة نشيطة دون التعرض لسُلطة الإيبارشية ، وأصبحت معقلاً للنفوذ الكاثوليكي فـــي وسط المركز اليعقوبى الهام في منطقة الموصل .

وفي بيروت أيضا ، أنشأ البطريرك رحماني ديراً باســم القديــس إفرايــم للراهبات السريانيات . وتم تمهيد الطريق لقبول المذهب الكاثوليكي ، ولكن كــان الخضوع لروما هو لُب المشكلة .

ورغم أن مجلس دير شرّفة أمر بضرورة بتولية الكهنوت ، لكن ظل البــاب مفتوحاً ، لكل كاهن سريانى متزوج (خورى) يريد أن يترك الأرثوذكســية إلــى الكاثوليكية .

وقد وافقت روما على استخدام قداس القديس يعقوب في الكنائس الكاثوليكيــة السريانية ، وباللهجة الأديسية السريانية ، مع تغيير القليل من العبارات ، لتجنُّــب نقد الأفكار الخلقيدونية ، والتأكيد على سلطان البابوية الرومانية .

وكان ظهور البعثات التبشيرية "**البروتستانتية**" على مسرَح الشرق الأوسـط، في القرن ١٩م أمراً مختلفاً . فقد اجتمعت في أمريكا لجنـــة مــن مجلــس إدارة البعثات سنة ١٨١٩م في بوسطن ، وتم اختيار كلٍ مـــن Levi , Fisk كــأول مُبشرين للعمل في الحقل التركى في الشرق الأدنى ، وخُصِص للعمل مبدئياً مبلـغ ٢٩٠ ألف دولار ، وهو يعادل ربع مليار دولار الآن (في عهد الكاتب).

وذهب المبشران إلى سميرنا (أزمير التركية) لاكتشاف إمكانية الخدمة وسط الشعب المطحون والمريض تحت نير الحُكم التركى ، ووجدَا هذا الميدان خصباً في فُرصبة .

ثم تبعهما اسحق بيرَد (Bird) ، ووليم جودل (Goodell) إلى بيروت سنة ١٨٢٣م ، للتركيز على السريان واللبنانيين، المتحدثين بالعربية .

كما توَجه يوستين بركنز (Perkins) إلى فارس (إيران) وكرّس عمله للخدمة بين النساطرة ، أو السريان المسيحيين الشرقيين.

وجاءت لجنة برئاسة Southgate لبحث حالة التبشير وإمكانياته في تركيا وفارس وسوريا ومصر ، وجاء في تقاريره الدعوة للعمل وسط المسيحيين الشرقيين ، والتركيز على غير المسيحيين . وجاءت الحملة التبشيرية البروتستانتية ، في العام التالى .

وتم اختيار Robertson للعمل بين الروم في القسطنطينية ، Southgate لليعاقبة (السريان الأرثوذكس) في ماردين.

وكانت التعليمات الصادرة إليهم ، العمل على وحدة الكنائس الشرقية ، وتجنبُ شرور الانشقاق ، واضعين في الاعتبار أنها كنائس من عهد الرسل . وبدون نشر المبادئ البروتستانتية (عدم الاعتراف بأسرار الكنيسة وطقوسها وتقاليدها القديمة).

وعندما انسحب روبرتسون لأمريكا لأسباب اجتماعية سنة ١٨٤٢ ، تلاه Southgate في القسطنطينية ، ثم صار أول راعٍ "أسقفى" سنة ١٨٤٤ ، وانشغل بالعمل وسط الأرمن في أناطوليا . ورغم أنه اكتسب علاقات ودية مع البطاركة في المشرق ، إلا أن أعضاء طائفته من الخُدَّام قد استمروا في تغيير مذهب

الأرثوذكس إلى البروتستانتية ضد رغبته ، وضـــد روح التعليمــات الأصليـة، فتضايق وانسحب من العمل التبشيرى، وانتهى الأمر باستقالته .

إلا أن فشل بعثة Southgate في العاصمة (البيزنطية) لم يوقــف التوسـع التبشيرى في بيروت ، حيث تأسست كلية سريانية بروتســتانتية سـنة ١٨٦٦ . وكان أهم مجال للتبشير البروتستانتى – في الشرق الأوسط– في ميدان التعليــم. ووجدنا تزايد مراكز التبشير ، في سوريا، جنباً إلى جنب مع زيادة مدارسها .

وهكذا بدأت الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية في كسب مزيد من الســريان ، ومن كل الكنائس القديمة ، من اليعاقبة وغيرهم .

وعلى كلٍ ، كان من المستحيل على المُبشّر الأمريكي أن يفهم طبيعة وتقـاليد هذه الكنائس ، التى اعتبرها متحجرّة ، وبلا أمل في تجديدها . وبالنسبة له ، فـإن التاريخ يبدأ بمارتن لوثر !!.

ووجد الكثير من السريان في هذه الهيئة الحديثة ملجأ شخصياً من التعديــات الكاثوليكية ، لذلك بلغ عدد البروتستانت في سوريا الكبرى – وتشــمل : شــرق الأردن ، لبنان ، فلسطين – قد بلغ نحو ٧٤,٧٠٠ ، وأغلبهم من كنائس قديمــة ، ومنهم اليعاقبة (السريان).

وقد قامت كنيسة إنجلترا بمحاولات أخرى متواضعة ، وعلى مبادئ مختلفــة تماماً . وقام Etheridge بزيارة اليعاقبة نحو عام ١٨٤٠م . وفيما بعــد نشــر قصة مُطوّلة عن مسيحييّ الكنائس السريانية ، وقداساتهم وأدبهم .

ثم في عــام ١٨٤٢م ، قــام Badger ممثــل رئيــس أســاقفة كنــتربرى (Canterbury) بحملة تبشيرية بين الآشوريين – أو النساطرة – كما درس حالة الكنيسة اليعقوبية، وقدّم رأيه. وكان أهم تقرير عن هذه الكنيسة فى نهاية القرن .

وقد تأسست جمعية (بريطانية) باسم :" جمعية البطريركية السريانية للتعليم"، في إنجلترا. وفي عام ١٨٩٢م انتخبت بارى (Parry) من الكلية المجدلية في أكسفورد ، للسفر للشرق الأوسط ، مندوباً عنها ، لفحص حالة الكنيسة اليعقوبية، وتحديد الطرق التى يمكن للكنيسة الإنجليزية المساعدة بها . وكان ينوى – بصفة خاصة– تحديد وسائل تطوير التعليم بين اليعاقبة .

وكانت حصيلة الستة الأشهر التي قضاها في دير سرياني ، تكوين فكرة عظيمة، في أول اتصال مباشر مع الشعب السريانى وكنيسته التاريخية (القديمة). وشملت رحلته حلب ، وأورفة (إديسا) ودياربكر ، وماردين ، والموصل ؛ علاوة على دير الزعفران ، مقر الكرسى التاريخى للبطاركة اليعاقبة .

وفي منطقة طور (جبل) عابدين ، لاحظ أن القرية تمتلك في المتوسط أربعة كتب ، وأن الحاجة مُلّحة لمساعدة تعليمية . ويطلبها السريان من الغرب .

وكان يرى أن هذا هو أول عنصر في الإصلاح الحقيقي ، وأنه ينبغى أن يأتى من المجتمع نفسه . وكان السريان اليعاقبة فخورين بكنيستهم وبوطنيتهم ، وكانوا يطالبون بأعلى صوت بالمساعدة، ولكن بتلك التى لا تتعارض مع تعاليم كنيستهم (الأرثوذكسية).

وكان على الكنيسة الإنجليزية أن تستجيب لصيحتهم ، بروح مسيحية خيرية، وبدون تحويلهم عن عقيدتهم (الأرثوذكسية). ومن الصعب تحديد نتيجة تقريره ، لاسيماوأنه كانت له نوايا حَسنة.

وكان تأثير الحركة التبشيرية البروتستانتية – في الشرق الأوسط– كبيراً في منطقة الكنائس القديمة . وفي البداية لم تجد الحملة التبشيرية الأمريكية أية مُعاداة، سواء من رجال الدين أو من المجتمعات الشرقية المسيحية ، التى شاهدت

بإعجاب الطرق الحديثة في العبادة والأنظمة الجديدة !!. علاوة على الفُرَص الجميلة للخدمة في المجالات التعليمية والطبية والاجتماعية.

كما وجد (Parry) حليفاً جديداً ، ومساعداً حقيقياً ضد الوسائل الرومانية النامية . وكان اليعاقبة قد دخلوا حالاً ، في حرب مُعلنة مع الكاثوليك في سوريا، وكانوا يحلمون بالمساعدة من البروتستانت الذين جاءوا حديثاً !!.

وبدلاً من ذلك ، خابت آمالهم، لأن المُرسَل البروتستانتي بدأ يُغيِّر موقفَه ، نحو هذه الهيئات (الأرثوذكسية) التي لم يفهمها ، واعتبرها غير صالحة للإصلاح . ولذلك بدأ بإنشاء كنيسة إنجيلية بروتستانتية ، وحوّل أعداداً من المجتمعات القديمة (الأرثوذكسية) إلى البروتستانتية مما كان له نتائج مُحزِنة !!.

إذ أن اليعاقبة الذين سعوا نحو التعليم (في مدارس بروتستانتية) لم يرغبوا في تطليق تقاليد كنائسهم ، لذلك لم يرغَبوا في تلك النغمة التبشيرية الإنجليزية .

وفيما بعد ، في عام ١٨٧٤ زار البطريرك اليعقوبى بطرس الثالث إنجلترا بدعوة خاصة من الدكتور Tait رئيس أساقفة كنتربرى (رئيس الكنيسة الأسقفية)، كما أكرَمته الملِكة البريطانية ڤيكتوريا .

أما Parry فقد تقابل فيما بعد مع البطريرك السريانى . وكان قد تأثر بوجوده لمدة نصف عام في دير الزَعفران ، فى صيف عام ١٨٩٢ . وأعطاه صورة سليمة إلى ما يحتاجونه فعلاً ، ووجه نظره إلى ضرر الأنشطة البروتستانتية في أيامه.

وكانت هذه الملاحظات المستنيرة قد ساعدت – فى نهاية القرن – على إيقاظ إكليروس الكنيسة اليعقوبية القديمة . ولإيقاد شُعلة المجد البائد.

+ + +

١١- الإيمان والحضارة السريانية :

كانت هيئة الإكليروس (hierarchy) في الكنيسة اليعقوبية منظمة ومتحدة ، نتيجة للظروف الخاصة التى مرت بتلك الكنيسة ، في تاريخها الطويل.

وتشمل الكهنوت الرهبانى وغيره . وأعلى سُلطة – ورئيس الكنيسة – هو البطريرك ، ولقبه الرسمى "قداسة مار أغناطيوس (فلان) ... البطريرك المُعظم للكرسى الرسولى الانطاكى ، وكل الكنائس اليعقوبية في سوريا والمشرق".

وكان لقب "أغناطيوس" قد أُطلِق على البطاركة السريان منذ عام ١٢٩٣م، عندما حَمَله القديس ابن وهيب Bar Wahib – لأول مرة – وهو نسبة إلى الأسقف العظيم أغناطيوس الأول الانطاكى ، الذى استشهد في روما سنة ١٠٧م[١].

وينتخب البطريرك مجمعاً مقدساً يضم المفرَيان (وهى درجة تُعادل مطران) وكل الأساقفة السريان ، بعد مشاورة كبار رجال الشعب السريانى . ويُقيم في حمص بسوريا ، وكان في الماضى يعيش – لعدة قرون – في دير الزعفران قرب ماردين، (في تركيا حالياً). وكان يَصدُر فرمان خاص من الباب العالى (السلطان العثمانى) باعتماده ، وإعطائه صلاحيات كنسية واسعة وسلطات مدنيّة، لرعاية شعبه أليعقوبى (السريانى الأرثوذكسى).

وبعد رسامته يمكن خلعه فقط بسبب الهرَطقة ، أو بتصويت جماعى للأمة. وكقاعدة عامة ، كان المجمع يختار إسميّ اثنين ويبلغهُما للسلطان ، وله أن يختار واحداً منهما ، مما ساعد على قيام السلطات التركية باختيار من يدفع أكثر لهم، ليَصدُر الفرمان لصالحه.

---

(١) راجع تفاصيل سيرته في كتابنا عن الآباء السُريّان ، طبعة المحبة .

ويجب أن يكون المرشح للبطريركية راهباً بتــولاً طــول حياتـــه ، عَالِمــاً وقديساً، ولا يتم اختيار أُسقف لترقيته بطريركاً . وإن كان هناك أساقفة صـــــاروا بطاركة سريان ، في العصور الوسطى ، ولكنها حالات نادرة .

ومثاله الأول ، من هذا النوع ، كان البطريرك ساويرس الســادس ، الــذى كان سابقاً أسقفاً لمدينة Arishmitat، وانتُخب سنة ١٠٥٨ ، ولكن اختياره قـــد تسبب في وجود انشقاق بالكنيسة السريانية.

وفي عام ١٢٢٢م تمت ترقية المفريان (المطـــران) أغنـــاطيوس داود إلـــى البطريركية ، ُمقدِماً بذلك نموذجاً للأجيال التالية . ورغم أنـــه لا يوجـــد قـــانون سريانى يمنع ممارسة ذلك ، لكن لم يكن يُقبل ذلك بسهولة .

وفي الواقع ، وُصِف بأنه شكل كنسى غير مقبول، مثـــل تعـــدد الزوجـــات (bigamy) أو تكرُار المعمودية (وكلاهما ممنوع بالطبع) ، ولأنه يجـــب إعـــادة الرسامة للأسقف المُرشح للبطريركية. وأن يحمل إسماً جديداً (ولو إننا نـــرى أن الأسقف المُرَّقَى هو أكثر خبرَة لإدارة البطريركية ، من الراهب الجديد) .

وبصفة عامة ، فإن بطاركة السريان هم رجال تقَّوى وإيمان عميق ، رغـــم وجود استثناءات في تاريخهم الطويل ، مع التمتع بعقلية واعية ، ولكن البطريـرك أغناطيوس عبد الله Sattuf كانت له صورة مزَعزَعة ، وُمتقِلب في رأيه !!.

وكان أسقف حمص وحماة – المُسَّمى غريغوريوس – قد تولـــى مطرانيـــة دياربكر . وقد زار إنجلترا ، وجنوب الهند ، حيث تأثر بأفكار بروتستانتية.وثـــار على الأيقونات ، بعد عودته لسوريا !!. ولكنه رجع عن أفكاره .

ومنذ تلك الأيام استرَّدت الكنيسة السريانية قوَّتها بتولـــي رجـــال ذوى وزن الكرسى البطريركى (الإنطاكى). وكان المتنيَّح مار أغنـــاطيوس إفرايـــم الأول ،

الذى أقام في حمص ، مثالاً للعالِم للكبير، الذى خدم كنيسته ، والمدينة له بالولاء والاحترام .

ويلى البطريرك درجة "**المفريان**" (maphrian) وهى موجودة فقط في الكنيسة اليعقوبية ، ويحمل إسماً تاريخياً هو :"مفريان وجاثليق المشرق" ، وهو يشير إلى مركزه الدينى الأول على أرض الرافدين وفارس،والأراضى التى وراءهما (إيبارشية جنوب الهند التابعة للسريان) .

وكان أول مطران لفارس هو أهودام (Ahodame) وكان سابقاً أسقف العرب ، وكان يعقوب البرادعى قد رسمه خلال زيارته للمشرق سنة ٥٥٩م. وكان مقر كرسى المفريانية قد تحدد في تكريت (بالعراق) في عام ٦٢٨م ، برسامة "**ماروتا**" العالِم السريانى العظيم – كمفريان – بيد البطريرك أثناسيوس الأول . وكانت تحت رئاسته ١٥ إيبارشية أسقفية في بلاد العرب ، وجنوب العراق ، وفارس ، وأفغانستان.

وقد نال المفريان بعض اختصاصات البطريرك السريانى على الايبارشيات الشرقية ، فكان يرسم ويعزل الأساقفة ، ويكرّس الميرون (Chrism) ، ولكن في الأزمنة الحديثة صار له مركز إسمى وشرفى فقط ، ويتفوّق على مركز مطران القدس . ومن أشهر المفارنة ابن العبرى (١٢٦٤م-١٢٨٦م)،ووصل عددهم إلى ٨١ حتى عام ١٨٩٥م .

ويتم اختيار "**مطارنة**" الإيبارشيات الستة عشرة من الرهبان ، وهى موزعة كالآتى : ٧ في الهند ، ٣ في سوريا ، ٢ في العراق ، ٢ في تركيا ، واحدة في مصر، وواحدة في أمريكا وكندا . وليس لهم أساقفة مساعدين .

وتتم رسامتهم غالباً بيد البطريرك، بمساعدة وفي حضرة على الأقل إثنين أو ثلاثة من الأساقفة. ويبدو أن اسم المطران الجديد تحدده الإيبارشية ، لذا فإن

إنطاكية – الإيبارشية البطريركية- تحمل اسم أغناطيوس ، وأورشليم غريغوريوس ، وأورُفا (إديسا) ساويرس ، وديـاربكر تيموثاوس ، وماردين أثناسيوس ، والموصل بولس ، وحلب ديونيسيوس .

ويحمل رؤساء الأديرة لقب "أسقف" ، رغم أنه مار متاى – في الموصل – حمل لقب مطران . وللبعاقبة خمسة أديرة ، ولكن ليس لهم أديرة للراهبات .

والحد الأدنى للسن لرسامة الأساقفة هو ٣٥ سنة ، رغم وجود استثناءات . كما في حالة ابن عبرى ، الذى صار أسقفاً في العشرين من عمره !

ويعيش الكهنة مع شعبهم في الأرياف ، وهم متزوجون مرة واحدة قبل رسامتهم ، وإن تنيحت زوجة أحدهم ، فهو يعتزل تلقائياً إلى الدير ، ثم يُصلح لرُتبة أسقف ، لكى يتمكن من المعيشة في إيبارشيته الأصلية ، ولكن لا يُرقى أكثر من ذلك .

وللكهنة رئيس (قمص في مصر) في المدن الكبرى ، وله عدد من المساعدين ، ويمكن أن يُرَقى إلى درجة خورأبيسكوبس (مساعد أسقف) . والأخير له مسئوليات مدنيَّة وكنسيَّة ، مثل الأسقف العادى .

وتحت الحُكم العثمانى ، كان يتم إعفاء الكهنة من ضرائب وخدمات معينة. ولذلك كان يشتاق الناس للرسامة للكهنوت . والكثيرون كانوا يُرسَمُون دون حاجة الإيبارشيات الفعلية لخدمتهم .

والكاهن (القسيس) السريانى – كقاعدة عامة- فقير ، ويعمل مع آخرين فى الحقول الزراعية بالقُرَى، للمساعدة في زيادة مُرتبه الضئيل .

وينتخب شعب الإيبارشية كاهنهم من بين الشمامسة في المنطقة ، ويرسمهم الأساقفة بوضع اليد عليهم . وأعداد من الإكليروس يحلقون شعر رؤوسهم

ويتركون اللحية ، ويرتدون فراجية سوداء وعمامة سوداء (كالأقباط) ، ويمكن تمييز الدرجة الكهنوتية من شكل العمامة المقببة ، التى تُشبه البصَلة .

والدرجات الشماسية الصغرى هى : المرتل (mazmorano) والقارىء (Kurayo) ومساعد الشماس – (phleguth mashamshono) – والدياكون [الشماس] (mashamshono) ، والارشيدياكون (رئيس الشمامسة (rishmashsonee).

وكان هناك نظام للشماسات، في القرون الأولى للمسيحية ، للمساعدة في تعميد النساء ، ولكنه اختفى منذ زمن طويل ، بعد تطبيق نظام تعميد وتثبيت (رسامة بالميرون) confirmation الأطفال.

+ + +

الطقوس والقُدّاس السريانى : (Rites & Liturgy)

تُعرَف الطقوس والقداسات السريانية بأنها قديمة للغاية ، لأن إنطاكية كانت إحدى الأماكن الأولى ، التى تم تنظيم أُسس العبادة المسيحية بها. فيُلاحَظ فيها أنها ترجع للممارسات الآبائية القديمة .

ومظهر الكنائس السريانية يتميّز بالبساطة للغاية. وليس فقط في فقر شعوبها المادى ، ولكن أيضا في مكان العبادة المسيحية القديم . وقد درَج السريان على بناء كنائسهم حسب التقاليد الشرقية .

وهى تتركب بدرجة رئيسية من مدخل وصحن وهيكل به مذبح ، ويكون المدخل الرئيسى من دهليز مفتوح ، يمكن أن تتم فيه الصلاة عند ارتفاع حرارة الجو صيفاً . ويجلس الشعب القرفصاء على حصير ، أو يقفون داخل صحن

الكنيسة أثناء القُداس ؛ مع وجود مكان مُخصص للنساء ؛ والمقاعد (الكنبات) قد استُعمِلَت حديثاً للجلوس بالكنيسة السريانية.

ويرتفع المذبح قليلاً عن صحن الكنيسة ، وغالباً ما يُحَاط بحاجز (درابزين) يقف داخله الشمامسة والمرتلون . ويوجد مصباحان على كلا جانبي باب المذبح للقراءات . ويوجد حائط غالباً ما يكون بدون صور مقدسة.يكون بديلاً لحامل الأيقونات (iconostasis) [فى الطقس القبطى] بين المذبح والهيكل، الذى يرتفع مرة أخرى بنحو قدم أو اثنين . وبداخله مذبح عالٍ في الوسط ، وأحياناً يوجد واحد، أو مذبحان جانبيان . ولكل هيكل حنية (شرقية) (apse) ، وله باب يقود لصحن الكنيسة والمذبح . وله ستارة ، تُسدَل خلال لحظات معينة، خلال القداس. أو عندما لا تكون هناك صلاة . ويقف الكاهن المُصلِى أمام المذبح المرتفع، ويقود الصلاة ، بينما يقف الكهنة الباقون في صمت .

ويكون المذبح من الحجر،أو من الخشب ، وله لوحة مكرَّسة – في وسطه– لصلاة الأفخارستيا ؛ ومحاطة بأناجيل وصُلبان وشموع، وباقى أدوات المذبح . ويتولى مسئولية ذخائر القديسين الشمامسة (deacons) ويحفظونَها في دواليب داخل الهيكل .

والليتورجية (القُداس) اليعقوبية ، للسريان في الغرب (الشام) من أقدم وأكثر القداسات ثراءً في المسيحية . ويستعملون بالضرورة قداس القديس يعقوب الرسول ، باللهجة السريانية الغربية . ويذكر ديونسيوس الصليبي ، تقليداً بأن القديس يعقوب الرسول صلى بهذا القُداس لأول مرة – بأورشليم– بأمر السيد المسيح، الذى سمعه منه. وهو يدل على أنه قديم العهد جداً ، وأن أساسه من العصر الرسولى ، وأن عناصره تُلقِى الضوء على تاريخه وتطوره ، وأنه انتقل من أورشليم إلى إنطاكية ، وقد استُخدِم أصلاً باليونانية أو بالسريانية بدون تمييز.

وبعد الصراع البيزنطى السريانى ، تمسّك كل فريق بالصلاة بلغتــه . وقــد استبدل قداس القديس يعقوب الرسول بالقُداس الباسيلى – في إنطاكية– في القــرن ١٣ ؛ بينما تمسك السريان خارج العاصمة بقُداس القديـــس يعقــوب الرســول؛ وأضافوا إليه بعض الصلوات الأخرى .

وبدون الدخول في تفاصيل ذلك القُداس العظيم ، فهو يـــدل علـــى التقــاليد الأولى ، عندما كانت المسيحية تحاول الكسب من الوثنية ، لذلك يضم، ليتورّجيــا للموعوظين (Catechumens) ، وتُصلّى من أجل الغير مُعمدين ، بالإضافة إلى الذين تعمدُّوا . وبعد صرف الموعوظين ، يستكمل الكاهن المُصلِــى ليتورجيــة (قُداس) المؤمنين (Missa Fidelium) ، ويشارِك فيها المُعمدون الذين يتنــاولون من السِرّ الأقدس (Eucharist) وتشمل التقديسات الثلاثة (Trisagion) حســب الطقس الارثوذكسى، الذى يشمل عبارة "قدوس الله... يا من صُلِب عنا".

ويروى الرحالة أوزوالد Parry أنه شاهد أثناء صلاة القداس حسب القديــس يعقوب الرسول – يوم أحد توما – أنه بعد الاحتفال المقدس رَنم الشمامسة ، ثــم توقفوا فجأة وتظاهروا بالنُعاس ، ثم قرَع شخص على كتف جاره ، كما لو كـــان يوقظه من نومه ، بينما كان الكاهن يصلى ويرش المياه علـــى الشــعب بغصــن الزيتون ، وقد تكرر ذلك ثلاث مرات ، كرمز لمواهب الـــروح القــدس ، التـــى يمثلها انسكاب الماءِ على أعضاء كنيسة المسيح النـــائمين ، ويمـــارس الســريان صلوات الصباح والمساء قبل النوم (بالمزامير) ويصفونها بأنها "**صلوات الحماية**" (Suttara).

ويعتمد التقويم السريانى على النظام اليوليانى القديم ، كما يرسمون علامـــة الصليب من اليسار إلى اليمين كالأقباط ، وتشمل أصوامـــهم – بالإضافـــة إلـــى يومَى الأربعاء والجمعة– الصوم الكبير (Lent) لمدة ٤٩ يوما قبل عيد القيامـــة

(Easter) ، وما يسمى بالصوم الصغير لمـــدة ٤٠ يومـــاً قبـــل عيـــد الميـــلاد (Christmas) ويشمل صوم نينوى ٣ أيام من يوم الاثنين في الأســـبوع الثـــالث قبل الصوم الكبير ، وصوم الرسل ومدته خمسون يوماً ، بعد عيد حلول الـــروح القدس (Pentecost) ، وصوم العذراء مريم لمدة ١٥ يوما من بداية أغســـطس ، ويمتنعون عن أكل الحيوان ومنتجاته في الصوم .

ولا يؤمن اليعاقبة بعقيدة "المطـــهر" (purgatory) الكاثوليكيـــة ، ولكنـــهم يُصلون من أجل الراقدين ، ويؤمنون أن الأرواح الصالحة تقودها الملائكة إلـــى الفردوس ، بينما أرواح الخطاة ، تحفظها الشياطين لديها، حتى يوم الدينونة .

كما لا يؤمنون بضم عبارة : "والابن" (filioque) إلـــى قـــانون الإيمـــان النيقوى، ويتفقون تماماً مع الأقباط في الأسرار السبعة المقدســة (sacraments). ويُصلوُن القداسات أيام الآحاد فقط، وفي أيام الأصوام . ويقللون مـــن اســـتعمال الأيقونات في الكنائس. وقد سيطرت اللغة العربيـــة علـــى القُـــداس الســـرياني، فأصبحت الصلاة باللغتين العربية والسريانية ، ماعدا في القرى التـــي مـــازالت تتحدث السريانية .

+ + +

الفن والعمارة :

إن هناك نظرية ذكرها بعض العلماء بأن الكنيسة اليعقوبية ليـــس لديـــها إلا القليل – أو لا شئ ذي أهمية خاصة– تقدمها لعُالِم الآثار ، أو لمـــؤرخ الفـــن . وهى بدون شك مبنية على افتراضين مزيفين .

+ **والأول** : أن الكنيسة اليعقوبية تبدأ كمؤسسة دينيـــة فـــي عهـــد يعقـــوب البرادعي ، في القرن السادس ، وليس لها أية جذور في الماضي !!.

+ والثانى : الرأي الغير تام بأن هياكل القرى ، في المجتمعات الفقيرة في شمال سوريا ، أو أعالي الرافدين ، هى الممثل الحقيقى للفن والعمارة للسريان اليعاقبة .

ولكن هذه النظرة غير سليمة تاريخاً ؛ لأن اليعاقبة معروفون بأنهم أحفاد سريان الغرب (الشام) وأن بطريركيتهم أقدم من عهد يعقوب البرَادِعى – فى إنطاكية – وأنها عميقة الجذور ، في العصر الرسولى. ولابُد أن تتغيَّر كل الفكرة. وأنه من الخطأ نزع اليعاقبة من تُراث آبائهم في الإطار العام للمدرسة الإنطاكية السريانية .

والواقع أن كنيسة غرب سوريا بأرثوذكسيتها الوطنية ، كانت خارجة عن القانون، في رأى الروم ، ودفعها الاستعمار البيزنطى تدريجياً من شواطئ الليّفانت (البحر المتوسط) إلى الإقليم الجبلي ، المعروف بطور عابدين .

ولا ينبغى أن ننقاد خطأً إلى الاعتقاد أن اليعاقبة كانوا جنساً مختلفاً عن بناة التراث الأثرى المسيحى – في سوريا الشمالية – في المجالات الروحية والمادية.

وكانت إنطاكية بالطبع ، هى مكان مدرستَى الفِكر البيزنطي والسرياني . وكانا يميلان للالتقاء عند نقطة واحدة للفِكر ، وإن الواحدة كانت حريصة جداً على نشر نقاط الِفكر المختلفة ، والخاصة بكليهما ، في اللاهوت ، وفي الفن ، وفي العمارة ، وقبل وبعد مجمع خلقيدونية .ولابُد أن يختلف لاهوت ساويرس الانطاكى ، عن الأفكار الملكانية .

ويجب أن نفصل الفُسَّيسفاء (mosaics) البيزنطى الشهير ، عن المعمار الحجرى السريانى ، الذى ملأ البلاد، بين البحر المتوسط والفرات ، بمدن وعمارة رائعة.

وكل المدن ذات الجمال الخاص ، منتشرة في بلاد شمال سوريا ، ولكن عامل البناء السرياني الرائع ، قد اختفى بسرعة بعد الغزو العربي ، وحل الخراب المعماري وتم نسيانه ، حتى العقود الأخيرة من زماننا عندما أهتم الأثريون بدراسة هذه المناطق ، واكتشاف أهم أحداث التاريخ من خلال دراسة العمارة المسيحية القديمة ، فيما عُرِف باسم : "المدن الميِّتة" ، في شمال سوريا ؛ والتى تنتشر في السهول المُمتدة شرقاً من إنطاكية نحو إديّسا ؛ وشمالاً حتى البوابات السورية ، عند الحافة الجنوبية لجبال طوروس .

وهذه المدن ذات الحوائط النصف محطمة والأبراج والأقواس والقباب وسلاسل المنازل ، والأرصفة الحجرية والأسواق ، ومباني الكنائس الضخمة .

وكانت قد ازدهرت نسبياً من القرن الأول إلى السابع . وهي ذات آثار لمجتمعات مسيحية لم تَختفِ في سراديب الأرض (مثل روما) ، ولكنها طوَّرت عمارة كنسيّة ، فاقت كل شيء آخر في الوجود، قبل بناء جستنيان لكنيسة القديسة صوفية في القسطنطينية .

وكان قيام والاختفاء المفاجئ لتلك المدن ، ظاهرة يمكن أن تُفسَّر بالأنشطة التجارية بين الشرق والغرب ، فى العهد القديم ، وفي بداية العصور السابقة على الغزو العربى . فقد كانت تقع على طرق التجارة من شرق آسيا والهند والخليج الفارسى (العربى حالياً) وشمال الفرات وبلاد العرب ، وتغطى الأراضي التي تقع على حدود أناطوليا ، حيث كان يجتمع تجار أوربا والإمبراطورية البيزنطية مع تجار من الشرق ، وبذلك صارت مراكز هامة لتجارة المشرق والمغرب .

وبعد تكوين الإمبراطورية العربية توقفت هذه التجارة ، بين الشرق والغرب، ولم تَعُد ممكنة فيما بعد ، فهُجرَت تلك المدن ، وانهارت بسرعة . والواقع إن إنطاكية نفسها ، وكانت عاصمة الإمبراطورية السلوقية (Seleucid)

والعاصمة الكنسية للمشرق ، قد وصلت مكانتها إلى الدرجة الثانية، وابتدأت تنحدر بسرعة .

وعملية دراسة تاريخ سوريا القديم تدل كيف كانت الحضارة السابقة للمسيحية تحت تأثير الثقافات الأجنبية، من مصرية في الجنوب إلى يونانية في الشمال . وتُظهِر أن الشعب السرياني كان قادراً على أن يجد نفسه فقط بعد مرحلة فجر المسيحية ، حيث طوروا عمارة خاصة بهم ، ووصلت قمتها في مبانيهم الكنسية .

ولا تزال تُوجد العديد من الكنائس والبازليكيات ذات الأحجام الضخمة والجمال الرائع ، في تلك المدن السورية المتدهورة . وفي الواقع ، لا تحتاج إلى شيء سوى سقف، وإصلاح وترميم قليل، لجعلها صالحة للاستعمال من جديد.

ومن بين تلك النماذج الرائعة كنائس : سرجيلا ، خرابة شمس ، وقلتة ، مَشبك ، وكلها من القرنين الرابع والخامس . وتتكون كل منها من دهليز ، وصحن ، وجناحين منفصلين بصفيّن، لكل منهما ستة أَعمدة ، وهيكل بشرقية رائعة خلف المذبح .

وأما الكنائس البازيليكية الواسعة من القرن السادس – في قلب لوزة والرصافة – بديعة المعمار ، بعقودها الشبه دائرية ، المرفوعة على أعمدة ، ولها قباب فوقها . وكلها مبنيّة من حجر جيرى منحوت بدقة ، من المحاجر السورية ، وتُشاهَد نقوشاً أسفلها وحول مداخلها وشرقيتها (apse) في دير مشمش (الشماس)، وقلب لوزة وغيرهما .

وقد تم جمع العديد من رؤوس الأعمدة ، ذات التصميم الجميل ، من القرنين الخامس والسادس ، من كنائس وكاتدرائيات : برَادّ ، دارقيتا ، معيز ، الرصافة، جردة ، ودانا ، وكيمار ، والبارة ، وكوكانايا .

ومع إدخال نظم الأديرة إلى سوريا (عن طريق مصر) أقيمت عدة مستوطنات ديرية . وتدل أسماء المناطق على زيادة أعدادها في شمال سوريا . وكلمات "دير ، قصر ، قلعة" (Qul'ah) تعنى بقايا مؤسسات ديرية . فنقرأ مثلاً : دير مشمش (الشماس) ، أو دير أو قلعة سمعان ، قصر البنات (ديرهن).

وبدون شك ، فإن أفخم إنجاز – في مجموعة الأديرة السريانية– هو قلعة سمعان ، التى تقع على تل ، يحمل اسم القديس ، في طريق إنطاكية إلى حلب . وهذا البناء المعمارى الرائع ، بدأ في حياة أول عمودى عظيم ، وهو القديس سمعان الشيخ ، وكان ذلك قبل عام ٤٥٩م ، وهو تاريخ نياحته .

وقد انتشرت شُهرته الواسعة في كل العالم القديم ، من سوريا ، وبلاد العرب ، وفارس وما بين النهرين ، ومصر ، وفي كل الإمبراطورية البيزنطية ، إيطاليا ، الغال (فرنسا) ، بريطانيا ، أسبانيا ، وكانوا يزورنه من كل تلك المناطق طالبين بركاته . فتم تشييد أماكن للنزول فيها ، كما سكن بعض الأتقياء من حوله ، بالإضافة إلى مقار لتلاميذه الرهبان، بالقُرب من عموده . واستمر تدفق الزائرين للمكان حتى بعد نياحته ، ورغم نقل أعضائه إلى إنطاكية ثم إلى القسطنطينية .

وأكد الإمبراطور ذكراه بالأمر ببناء بازيليكا عظيمة حول عموده . ولهذا فإن كل المعماريين السريان الغير معروفين والناكرين لذاتهم ، انتهزوا هذه الفُرصة ، وأطلقوا العنان في الخيال ، لبناء أعظم أثر معمارى مسيحى قديم ، قبل بناء كنيسة القديسة صوفيا ، في عهد جستينيان.

والذين بنوا كنيسة القديس سمعان العمودى كانوا أبناء الذين بنوا مبنىً آخر للعبادة في بعلبك ، وبدأ العمل به سنة ٤٧٦م ، وشمل مساحة مائة ألف قدم مربع من المبانى الحجرية ، وتم الانتهاء منه سنة ٤٩٠م ، ويُعَدّ من أجمل نماذج الفن السريانى القديم .

وكان الفن السريانى يلتزم بالتقليد القديم بأن يكون اتجاه المذبح نحو الشرق. وقد كانت مبانى قلعة سمعان نموذجاً للعمارة المسيحية في الشرق والغرب . كما انتشر الفن المعمارى إلى خارج سوريا . وفي دير السيدة العذراء (دير السريان العامر) في وادى النطرون ، نجد أن حجارة بعض الهياكل ، تنتمى لنفس المدرسة التى شيدت أبنية دير القديس سمعان ونقوشه ، وكنائس سريانية قديمة أخرى ، في سوريا !

وقد انتقل تأثير الفن المعمارى السريانى – في أوربا– عن طريقين، في عهد مبكر، كما يلى :

١. لابُد أنه وصل عن طريق التجار السريان ، والذين تُسَجل أسماؤهم أيضا ، ببلاد فى الغال (فرنسا) منذ القرن الرابع .

٢. أن نظام حجرات الشمامسة (diaconicon) وغير ذلك من المعمار المرتبط بالطقوس والتقاليد الكنسية ، والذى كان مُمثـلاً في بازيليكا القديس سمعان، وغيرها من الكنائس السريانية الأخرى ، قد تم تطبيقه في الطراز المعمارى القوطى ، في أسبانيا . ويبدو أنه وصل إليها من شمال إفريقية .

ونفس الطراز وجد طرَيقه إلى كنيسة Silchester في إنجلترا . كما تأثر الصليبيون بالعمارة السريانية ، وحملوا معهم ملامحها إلى أوربا ، مما ساهم في تطوير العمارة الكنسية الأوربية، تماماً كما فعلوا في مجال العمارة الحربية .

ويذكر رحّالة حديث – وهو Jules Leroy – أن عين الشخص الغربى تقع على كنائس تُشبه كنيسة القديس سمعان ، اكثر منها كنائس على الطقس البيزنطى، مثل : Moissac,St.Benoit- sur- Loire ,Vezelay .

أما بالنسبة لتأثر العمارة الإسلامية ، بالفن السرياني والتداخل بينهما ، نـــراه في التصميمات "الأرابيسك" . وله نماذج عديدة في العصر الأموى ، وفيما بعـــد نجده في أعمدة وتيجان جامع دياربكر.

وكان يوجد في نهاية القرن السادس على الأقل ٨٠ ديراً ، ولكن تَبّقى أجزاء من تسعة أديرة ، في أواخر القرن ١٩ ، واثنان فقط هما الجديران بالذكر : ديـــر زعفران ، ودير الشيخ متاى . والأول مبنى بحجارة صفراء ، ويحمل اسم مُشـيّده مار حنانيا أسقف ماردين سنة ٧٩٣ ، رغم أن اليعاقبة يذكرون أنه مبنـــى علـــى مبانٍ اقدم،ومنسوبة لمار أوچين المصرى، الذى لا يزّال قبرّه هناك منـــذ القـــرن الرابع . ولذلك غالباً ما يّسمى "دير مار أوچين والقديسين الإثنى عشر ألفاً".

وهو الدير اليعقوبى الوحيد ، الذى يضم عدداً كبيراً من الرهبان ، وتحيطـــه أسوار عالية . فهو شبه قلعة ، وله مبنى ضخم مربع ، على مســـتويين ، ومـــن أثاره القديمة كنيسة مار يعقوب ، ويُرّجح أنها شيُّدت في القـــرن الرابـــع؛ ربمـــا بتشجيع من الإمبراطور أنسطاسيوس (٤٩١-٥١٨م) الـــذى كـــانت لـــه ميـــول أرثوذكسية .

ولها ثلاثة مذابح في هيكلها ، وتيجان الأعمدة محفورة بنقوش نباتية ، ولـــها قبة ، وأخرى شبه قبة . ويُشير Parry إلى أنه من عادة السريان دفن بطاركتـــهم في وضع جلوس على كراسيهم ، في داخل تجاويف ثمانية الشكل بالحوائط .

وقام البطريرك بأخذ معظم كتب المكتبة ، عندما انتقل إلى حمـــص ، بعـــد الحرب العالمية الأولى . وقد أدخل اليعاقبة الناقوس (الجرس) لاستدعاء الرهبـــان للصلوات اليومية، بدلاً من الخشبة القديمة (Simandron) التي يقرّعـــون بـــها على قطعة من المعدن .

وأما دير مارمتاى ، رغم أنه قديم العهد ، فقد تعرّض لاعتداء الأكرّاد ، ثـم أُعيد ترميمه ؛ مما يعنى ضياع الكثير من المعالم الأثرية . وهو مُقام من مـواد بناء موجودة بالموصل ، بدلاً من أحجار الجبال ، ويطل علـى سـهول نينـوى والموصل ، وبه كنائس ترجع لأيام ابن العبرى. وتجـذب أسـواره الخارجيـة وحدائقه انتباه الزائر ، رغم غياب الحياة الديرية التاريخيـة. ويقيـم بـه حاليـاً (١٩٦٨م) أسقف ، مع القليل من الرهبان ، ويُستخدَم كمنتَجع صيفى .

ومحتويات مكتبته الكبيرة قد اختفت ، إما بسبب الحريـق ، فـي الحـروب الكردية ، أو سُرِقَت ، أو بيعت للأجـانب . ولا يـزال بـه عـدد قليـل مـن المخطوطات ، تحت إشراف الأسقف ، كرمز للمكتبة التاريخية السابقة.

وقد أجاد الفنان السريانى العبقرى النحت علـى الحوائـط ، وليـس نحـت التماثيل التى لم تكن مرغوبة (كما هى عليه الحال فى الكنيسة القبطية) . ويُصورّ الراعى الصالح في شكل شبابى، وله شعر قصير . كما تـم رسـم الأيقونـات ؛ ولكن على أية حال،لم يكن السريان يحبون عملَ الأيقونات ، وفضلُّـوا التركـيز على تزيين المخطوطات ، التى أعدُّوا منها أعداداً كبيرة . وقـد حُرِقَـت أعـداد لا تُقدر بثمن منها ، خلال الغارات على الأديرة في العصور الوسطى .

ولكن المخطوطات المحفوظة للآن – في الشرق والغرب – تسمح للدارسـين بتكوين فكرة عامة عـن موضوعاتـها ، وقـد نشـر Jules Leroy بعـض المخطوطات السريانية الموجودة بمكتبة الفاتيكان ، وفي دير الزعفـران . وهـى توضح ملامح هذا الفن السريانى .

وتوجد نسخة من الإنجيل بالسريانية ، كتبها على ورق سنة ١٢٢٠م كـاتب راهب من دير مارمتّاى ، يُدعى "مبارك" . وبه ٥٢ رسماً . وتُصـورّ القُـداس ، رغم الرسوم الخاصة بالأشخاص متأثرة بالفن البيزنطى ، والألـوان الزاهيـة ،

والرسوم الهندسية ، والملامح التى تدل على الورَع . والأثاث الشرقى ، مُستمدة من أعمال إسلامية لمدرستى بغداد والموصل .

وقد وجد التعبير الفنى السريانى طريقَه إلى الرسم الجدارى ، ولكن القليل عنه موجود . وإن دير مار بهنام – الذى خضع عدة مرات لليعاقبة الأرثوذكس والخلقيدونيين ، به صف من الصور الشخصية لأكبر شخصيات في تاريخ الرهبنة مثل أنبا أنطونيوس ، وأنبا باخوميوس ، وأنبا دانيال المصريين، مع آخرين . مع صور لمار متاى ، مار بهنام، وأخته القديسة Sarahin ، ولها هيكل قديم مُكرَّس باسمها .

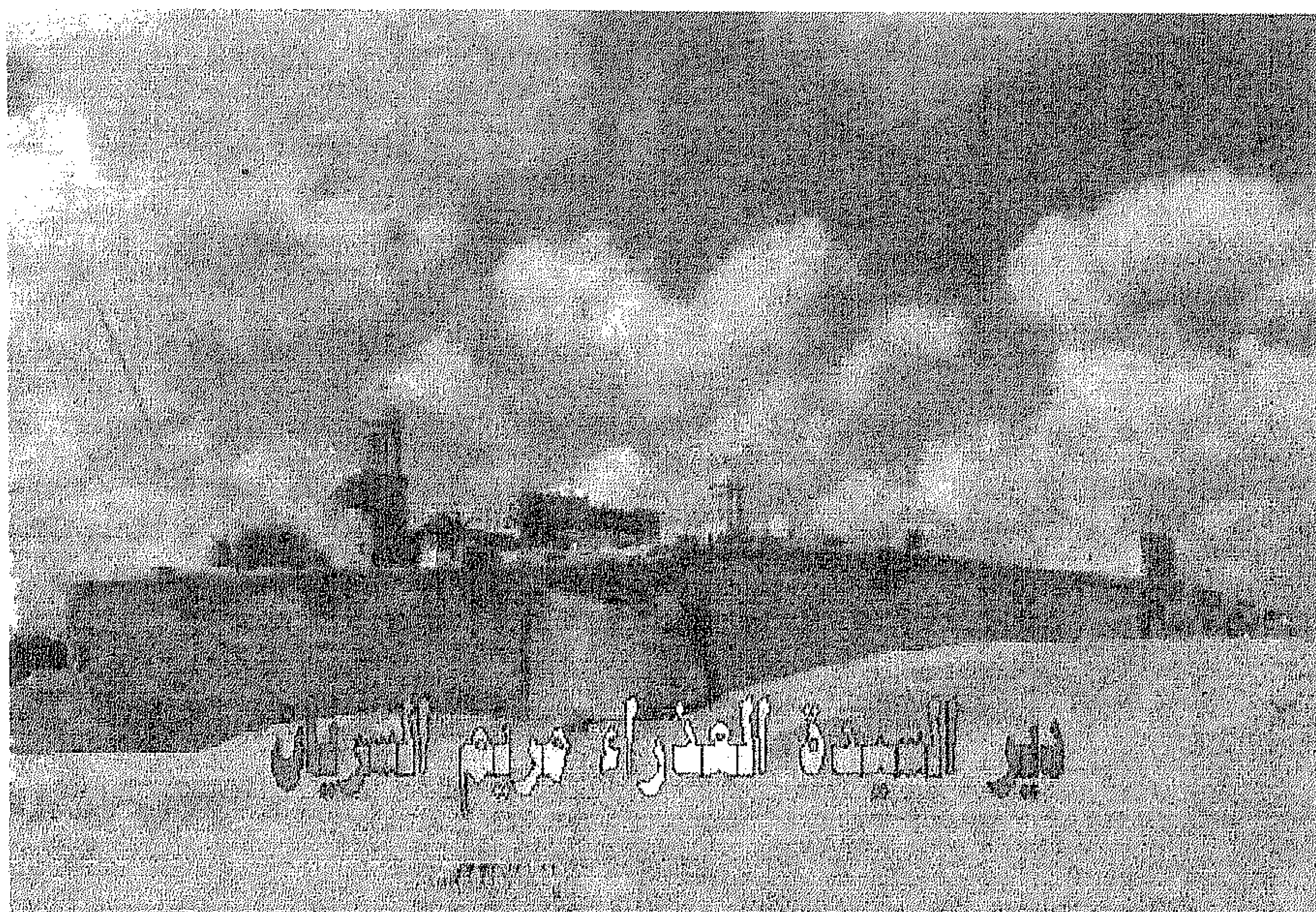
وعلى كلٍ ، فإن الإسهامات السريانية ، كانت بالضرورة ، قاصرة على الأعمال الحجرية والتصميمات المعمارية ، مع تقليد أكثر لفنون الأرثوذكس من الجيران الأقباط والأرمن . وقد تم العثور على كأس رائعة الفن في إنطاكية بالصدفة – بمعرفة العرب – أثناء حفر بئر بجوار إنطاكية سنة ١٩١٠م ، وبعد التحقق من أثريتها وُضِعَت فى متحف الفن بنيويورك سنة ١٩٥٠م . وقد أرجعها بعض الأثريين إلى القرن الأول ، ورأى آخرون أنها ترجع للقرنين الرابع أو الخامس .

وكان ازدهار الحضارة المسيحية السريانية في وقت انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية: ظاهرة طبيعية ، إذ بينما كانت أقدام البرابرة الغزاة تدوس على الغرب ، تمتعت سوريا بفترة سلام في تاريخها ، ماعدا الانقسامات اللاهوتية والانشقاقات التالية . فقد جنت ثمار التجارة المارة – عبر سوريا – من الشرق إلى الغرب . علماً بأن السورى – مثل الفينيقى – مشهور بقدرته على النشاط التجارى والمعاملات الدولية .

+ + +

وكان انتهاء العهد الأوربي القديم ، وميلاد العصور الوسطى ، بالنسبة لسوريا – مثل أوربا– فترات نمو روحي ومادى وفنى ، ولكن تم تعتيمه بالعُزلَة التى حلت بعد الغزو العربى ، وانحلال تجارتها النامية .

ومع ذلك استخدم الفنان السريانى مواهبه الفنية في خدمة العرب ، وتطوير ثقافة أخرى ، وحضارة جديدة !!.



+ + +

الجزء الثالث

الكنيسة النسطورية

١٢- أصلها وتطورها :

مقدمة :

اشتقت الكنيسة النسطورية – المعروفة بالكنيسة السريانية الشرقية– اسمها ، في العصور الوسطى ، من **نسطور** (Nestorius) ، الذى صار أسقفاً للقسطنطينية سنة ٤٢٨م . ويُقال أن تلك الكنيسة (الهرطوقية) لها آثار (أفكار هرطوقية) قبل بدعة نسطور ، والمجامع المسكونية ، بصفة عامة .

وأساس المسيحية السريانية يرجع إلى عصر الرسل ، وقيل إن أول أسقف لها ليس سوى القديس يعقوب (St. James) أحد الرسل الإثنى عشر ، والموصوف في الأسفار المقدسة " **بيعقوب الصغير** " (تمييزاً له عن القديس الرسول يعقوب الكبير ابن زبدى) . وأخ السيد المسيح (ابن خالته مريم زوجة كلوبا).

في ذلك الوقت لم تكن الكنيسة قد وقعت في الانقسامات ، التى حولّت الكنيسة الرسولية إلى وحدات مستقلة. وبعد حرم نسطور، خلال القرن الخامس، أن ظهرت الكنائس السريانية الشرقية، كواحدة من تلك الوحدات المنفصلة ، ولقبّوا أنفسهم "**بالنساطرة أصحاب الطبيعتين**" (Nestorian Diophysitism)!!

وصاروا مجتمعاً خاصاً . وأقاموا على الحدود المتحركة بين الإمبراطوريتين الرومانية (البيزنطية) والفارسية في آسيا ، والتى تتمشى ، بصفة عامة ، مع حدود تركيا الحديثة والعراق وإيران الحالية .

ورغم أن هذه المنطقة ظلت جزءاً من نطاق الكنيسة السريانية الواسعة، خلال القرون الأربعة الأولى ، فإن الأساقفة الأوائل – لهذه الكنيسة – كانوا بالضرورة من المتهوِّدين (Judiastic) ، استناداً إلى حقيقة أن آباء معظم الكنائس المسيحية القديمة (في الشام) كانوا من اليهود .

وبتقدم الزمن ، امتد عمل التبشير ، إلى أمم وأجناس (غير يهودية) صار لها دورها في الكنيسة . ولهذا ، فإن المؤمنين بالمسيح في الغرب ، سواء من الرومان أو البيزنطيين ، بدأوا يتخلوّن عن عادة أن يكون الأساقفة من يهود مؤمنين بالمسيح ، واتخذوا سياسات مستقلة ، قادت إلى الانفصال بين الشرق والغرب .

وكان من نتائج هذا الموقف الجديد ، تحوُّل الكرسى الأسقفى إلى إنطاكية ، حيث أراد البيزنطيون التحرُّر من النفوذ اليهودى في أورشليم ، ونقل إدارة الكنيسة إلى يد الإغريق ، مما أثر على المؤمنين. وفي آسيا ، تم تحرير العناصر الأممية (من غير اليهود) من تحكُّمات (أفكار) اليهود السابقين .

وبالنسبة للأرثوذكسية الإنطاكية ، فقد وصل فيها الأمميون (المؤمنون من غير اليهود) إلى مراكز مرموقة . وفي البداية كان غياب الألفة والرابطة الروحية Affinity بين الروم والسريان قد نتج عنه ازدواجية أسقفية إنطاكية . مما أثرَّ على الكنيسة السريانية، التى انقسمت إلى فرعين منفصلين ، يشملان العشائر السريانية الغربية ، والشرقية التى انتشرت نحو المشرق ، إلى شرق أناطوليا وكردستان وأعالى الرافدين (دجلة والفرات بشمال العراق) وفارس (إيران) .

وبينما كانت الواحدة أرثوذكسية . وفيما بعد وُصفت بأنها كنيسة ليعقوبية . بدأت الثانية تتأرجح بين الطبيعتين والنسطورية ، منذ مجمع أفسس الأول

(٤٣١م) ، وفضّلت أن تُسمّى **"الآشورية"** أو فرع **"الكنيسة السريانية الشرقية"** ، وصارت بطلة المبدأ الهرطوقى الرومى البيزنطى (النسطورى)، بينما تحللت من كل سلطان كنسى بيزنطى .

ولم تكن مثل الإنطاكيين ، الذين استعملوا القداسات الإغريقية ، فقد استمر الآشوريون– النساطرة– يصلون بليتروجيا (قُداس) خاصة ، بنفس اللغة (السريانية).

وقد كانوا في مأمن من المتاعب البيزنطية ، لوجودهم على حدود الإمبراطورية الفارسية ، ووجدوا سلاماً مع الفُرس ، أعداء البيزنطيين ، بسبب مطاردة الروم لهم ، ولذلك بدأوا التطلع إلى الشرق بدلاً من الغرب . ومالوا إلى نشر إيمانهم هناك بحماس شديد . مما يفسر نجاحهم في قارة آسيا ، في العصور الوسطى .

فقد امتد تبشيرهم بالمسيحية إلى فارس ، تركستان ، الصين ، الهند ، حتى أنه ليس من المُبالَغة القول بأن الكنيسة النسطورية كانت أكثر انتشاراً في كل العالم من غيرها من المذاهب ، إلا أن التطوُّر السريع للكنيسة النسطورية في آسيا ، لا يعادله سوى الانحدار السريع لنفوذهم ، في أواخر العصور الوسطى .

فقد غرقوا في البحر الإسلامي ، وانقلب التسامح المستتير للخلفاء الأوائل إلى تعصُّب شديد من الأُسَر التى أسلمت حديثاً. وانتهت الفرصة النسطورية إلى الأبد !!.

ولما أُعيد اكتشاف النساطرة ، منذ قرن أو إثنين ، كانت لا توجد لهم سوى قرى في جبال منعزلة ، في كردستان ، حول بحيرة Urmia وكانت أعدادهم قليلة ، وثرواتهم محدودة ، وجهلهم ظاهرة عامة . ومع ذلك كان لهم دور هام في العلوم العالمية، كما سيجيء فيما بعد.

وقد عانوا الاضطهادات وراء الاضطهادات ، إلى حد أن أحد مؤلفيهم وهو ابرهام يوحنان نشر كتاباً عن كنيسته باسم:"**موت أمة**" . وحقاً ، إن الإبادة المنظمة للنساطرة ، يمكن أن تُقارَن بما تم للقبائل الهندية ، مثل Incas, Aztecs وغيرهما من قبائل الهنود الحُمر ، في العالم الجديد !!.

والآن نتحدث عن الأمجاد والمصاعب، التى عانت منها الكنيسة النسطورية.

ومعظم معلوماتنا تأتى من كتابات ثانوية ، ومعظمها ألفها إما بروتستانت أو كاثوليك ، ووصفوهم فيها بالهرطقة والانشقاق ، وهو حق. ولسوء الحظ ، فإن معظم محاولات الإصلاح الحديثة انتهت بمأساة. وأن الطريقة الوحيدة لإصلاح النساطرة هى في تحويلهم إما للكاثوليكية أو البروتستانتية .

وكقاعدة عامة ، فإن كل الذين كتبوا عن هذا الموضوع ، أبدُوا القليل من العطف على هذه الكنيسة ، بسبب عدم فهمها ، ولنُدرَة وهزالة ما كتبه رجالها ؛ ومع ذلك ، فإن العديد من الكتابات من العهد الآبائى تشمل أموراً مفيدة عن تاريخها القديم ، ومن الصعب تكوين صورة جميلة عن موضوعات مثل مدرسة إديسا ، أو تأثير التبشير الإنجيلي في بدايات العصور الوسطى .

ويبدو أنه من الصعب أن نفصل تماماً بين الكنيسة الآشورية ، وأختها السريانية – اليعقوبية فيما بعد – في سجلات المسيحية الأولى . فكلاهما شاركا نفس الحظ في القديم ، وأن أقوال الآباء (patrology) لكليّهما كانت متميّزة ، على الأقل في قرونهما الأربعة الأولى .

فقد استخدَمَتا نفس القُداس، والنصوص بنفس اللغة السريانية، دون اختلاف أو تمييز، ولكن كلما زادت عُزلة النساطرة – فيما بعد – زاد غموض تاريخهم، نتيجة نقص السجلات والمواد الأرشيفية. وتم نسيان مجتمعهم، إلى أن تم الكشف – مصادفة – عن وجودهم عن طريق مُبشرِّى الغرب ، بطريقة مُثيرة !!.

ورغم بذل كمية كبيرة من العمل لتوضيح موقعهم في قصة المسيحية في آسيا ، فإنه يبدو أن التاريخ المؤكد للكنيسة النسطورية ، من أصولها القديمة وحتى اليوم ، لا يزال يحتاج إلى تدوين .

والمقالة التالية هى محاولة متواضعة لتقديم حكاية مختصرة ، من المصادر المتاحة ، ومن كتاباتهم الثانوية التى تتعلق بحياتهم الطويلة .

+ + +

عصر الأسطورة :

تُرجِع التقاليد الأشورية – أو السريانية– نشأة المسيحية السريانية ، إلى العصر الرسولى الأول . ويرى البعض أن تبشير إديسا حدث في أيام السيد المسيح نفسه . وعلى هذا الأساس ، ذكر النساطرة ثلاث روايات لتدعيم هذا المُعتَقد ، وهى : الخاصة بقصة المجوس الثلاثة ، وزيارتهم للطفل يسوع ، وقصة الملك أبجر بإديسا ، وأعمال القديس توما الرسول .

وبالنسبة للموضوع الأول ، فإنهم يرون أنه يبدو أن المجوس (Magi) الثلاثة كانوا يتحدثون باللغة الأرامية (السريانية القديمة) ، فإنهم يمكن أن يكونوا قد أتوا من مملكة Urhai – أو إديسا– التى كان لها حُكم ذاتى ولغة آرامية وسط جماعات أخرى ، كانت تقيم بين إمبراطوريتين عظيمتين هما : برثيا (Parthia) في الشرق ، وروما في الغرب .

وكذلك الإشارة إلى اعتزال "زرادشت" (Zoroaster) عن العالم، في مغارة في القرن السابع ق.م ، وقد تنبأ – في رؤيا– عن وجود قوانين إلهية ومبادئ أخلاقية في تعاليم الديانة المسيحية ، فيما بعد.

وقد قيل إن نبواته تضمنت . إن ثلاثة من المجوس من كهنتـــه ، يجـب أن يذهبوا "بإرشاد نوع إلهي ، إلى الشخص العظيم الذى سيحكم كل العالَم". وخـلال أسر اليهود (في بابل) ترجم اليهود المتحدثين بالآرامية رؤيـا زرادشـت بأنـها إشارة مجيء "المسيا" ، المُقدرّ له أن يحكم العالم ، كملك لليهود (ولا يـزال هـذا الظن سائداً بين اليهود للآن).

وهؤلاء المجوس ، على أية حال ، طبقاً للتقاليد الآشورية ، لم يكونوا ثلاثـة في العدد ، ولكن إثنى عشر ، انقسموا إلى ثلاث مجموعات كل واحدة من أربعة، وكانت مجموعة تحمل **الذهب** ، وتتكـونْ مـن Arvandid ابـن Atriban ، Hornsed ابن Satros ، والثالث هو Cosnasp ابـن Gonapar ، والرابـع Arshak ابن Mahros .

أما المجموعة الحاملة **للمُر** (myrrh) فتشمل Zarandar ابـن Warzod ، والثانى Akreho ابن Kesro ، والثالث ArbakchestابنKolite ، والرابـع هو Ashtonkakodon ابن Sheshron .

وأما حاملوا **البخور** ، فيـهم :- Mahros ابـن Kohram ، والثـانى هـو Aksherosh ابن Kasham ، والثالث هو Sadlak ابن Baldan ، والرابـع هو Merodak ابن Bildad.

وأما القصة الثانية الشهيرة فهى للملك أبجر (Abgar) الخـامس الأسـمر (Ukkoma) ملك Urhai أو إديسا (Edessa) ، الذى تبادل الرسائل مع السـيد المسيح ، وقد انتقلت هذه الرواية إلى الأدب المسيحى الأول .

وتذكر أن أبجر أرسل سفارة إلى سابينوس (Sabinus) الحاكم الرومـانى لمدينـة Eleutheropolis فـي فلسـطين ، وأن السُـفرَاء الإديسـيين :

Shamshagram , Mariyab كان معهما كاتب يسمى حنان . وعندما مرّوا بأورشليم في رحلة العودة ، علموا بنبي جديد يشفى المرضى .

وعلى الفور خطرت عليهم فكرة أن هذا النبي ، يمكنه أن يشفى ملكهم المصاب بداء الجُذام . وأبلغوه بالخبر السعيد . وكان أبجر يريد المجيء إلى أورشليم لهذا الغرض لولا وجود الرومان بين إديسا وأورشليم .

لذلك أرسل رسالة خاصة باسم حنّان ، مع خطاب للسيد المسيح يدعو إلى المجيء إلى مملكته ليشفيه، ولنشر الإيمان الجديد بين شعبه . وقد ذكر المؤرخ يوسابيوس أسقف قيصرية ، في القرن الرابع تلك الرسالة[1] وردّ السيد المسيح باليونانية ، وقد أشار إليها مؤلف سرياني غير معروف ، كتَب تاريخه في نهاية القرن الرابع .

وقد اشتهرت تلك الرسالة ، حتى أنه وُجدت بها ترجمات ليس فقط باليونانية والسريانية ، ولكن أيضاً باللاتينية والأرمينية والعربية ،

+ ونقتبس من الرسالة والرد عليها ما يلى :

● "من أبجر الملك إلى يسوع ، المُخلّص الحقيقى ، الذى ظهر في منطقة أورشليم ، تحياتي . سمعت عنك وعن علاجاتك ، وكيف أنها تتم بيدك بدون دواء ولا أعشاب ، وكما تروى القصة (لنا) أن العُمْىَ يستردون بصَرَهم ، والعُرج يمشون ، والبُرّص يطهرون ، والأرواح النجسة تخرج ، وأنك تشفى المصابين بأمراض مُزمنة ، وتُقيم الموتى ".

"ولما سمعت كل هذه الأمور عنك ، قررّت إنك واحداً من إثنين :

" أما إنك أنت الله ، ونزلت من السماء ، لعمل هذه الأشياء (المعجزات) ، أو أنك ابن الله (المرسل) لعمل هذه الأشياء".

---

(1) Eusebius, Eccels.. History, I, xiii.

"لذلك أُكتب إليك راجياً أن تُسرِع بالمجيء إليَّ ، لشـفاء مرضـى ، الـذى أعانى منه . وعلاوة على ذلك سمعت أن اليـهود يسـخرون منـك ، ويتمنـون الإساءة إليك . وإنني لدىّ الآن مدينة صغيرة جداً ، ولكنها مُحترَمة ؛ وهى كافيـة لنا كلانا".

+ **وفيما يلى رد السيد المسيح على أبجر** ، عن طريـق رجـل الحاشـية الملكية حنانيا (Ananias) :

- "مبارك أنت ، لأنك آمنت بى ، دون أن تراني ، لأنه مكتوب عنـى إن الذين يرونني لا يؤمنون بى ، وأن الذين لن يروني سـيؤمنون ويحيـون . أمـا بخصوص ما كتبت به إليّ ، للمجيء إليك . ينبغي أن أكمل هنا (في أورشـليم) كل ما أُرسِلتُ لأجله (الخلاص) وعندما أصعد إلى السماء، سأُرسِل إليـك أحـد تلاميذي لشفائك من آلامك ، وأعطى حياة لك ولكل من هم معك".

وطبقاً لرواية قديمة قام حنّان برسم صورة للمسيح ، وقد وضعها أبجر فـي مكان لائق بقصره ، وقيل إن المسلمين استولوا عليها عندما استولوا على إديسـا ، وبعد ذلك أعطوها للإمبراطور البيزنطى في مقابل فدية كبيرة وتحريـر أسـرَى مسلمين • وكان كاتب مسيحى يُدعَى أبو النصر يحي بن جرير التكريتـى . قـد ذكر في مؤلفه أنه قد رأى هذه الصورة في كنيسة القديسة صوفيا (بالقسـطنطينية) سنة ١٠٥٨م ، وقد ظلت هناك إلى أن نُقِلَت إلى الغـرب ، ربمـا بعـد الحملـة الصليبية الرابعة ، وفُقِدَت منذ ذلك الحين !!.

وبعد صلب المسيح وصعوده للسماء ، تحقق وعده عن طريق رُسله ، الذيـن أرسلوا " تداوس" وهو أحد السبعين رسولاً (**Addai**) في حملة تبشـيرية إلـى إديسا ، وهناك أقام مع أحد سكانها اليهود ، المدعو طوبيا بن طوبيا (Tobias) ، وشفىَ الملك أبجر من دائه ؛ ثم عمّده مع كل شعبه ، بما فيهم بـائع مجوهـرات

يُسمّى Aggai وآخر اسمه palut وقبل نياحة الرسول ، ولىَّ بعده **Aggai** ، بعدما رسمه أسقفاً .

ولكن بعد ارتداد الملك الجديد (Ma'nu) للوثنية ، نال الأسقف الثانى إكليل شهادته على يده ، وظل كرسيه شاغراً ، حتى قام سرابيون أسقف إنطاكية برسامة **Palut** أسقفاً لإديسا .

ولاستكمال السلسلة الرسولية ، فإن النساطرة يذكرون أن سيرابيون هذا ، كان قد رُسِم بيد Zephyrinus الرومانى ، الذى كان قد رسمه القديس بطرس الرسول . ولكن يرى البعض أن سرابيون الانطاكى قد جلس على الكرسى من سنة ١٩٠م إلى نحو سنة ٢١١م ، وبالتالي لم يكن من المستطاع رسامته بيد البابا زفيرنوس ، الذى جلس على كرسى روما من عام ٢٠٢ إلى عام ٢١٨م .

والرواية الثالثة خاصة **بكتاب أعمال توما الرسول "الأبوكريفا"** ،والتى ستُناقَش فيما بعد ، عن العلاقة مع كنيسة مار توما في جنوب الهند.

ويكفى الإشارة هنا إلى أهمية التقليد السائد بين النساطرة ، أنه بعد استشهاد الرسول توما نُقِلَت عظامه إلى أرض الرافدين . ومهما كانت صحة هذه الروايات ، لكنها تدل على قِدَم عهد المسيحية الآشورية . ورغم صعوبة قبول نظرية تحوُّل أبجر الخامس إلى المسيحية نحو منتصف القرن الأول الميلادى (في رأى الكاتب ، وإن كانت مقبولة في نظرنا) ، لكن أبجر الثامن (١٧٦-٢١٣م) معروف بأنه كان مسيحياً ، من شهادة سكستُس يوليوس أفريكانوس (Sextus) الذى زارَه في قصره .

وكان الغزو الرومانى لإديسا سنة ٢١٦م، قد أنهى حُكم خليفته أبجر التاسع، وفتح قناة جديدة للاتصال الحُر مع قاعدة المسيحية الرئيسية في أورشليم .

وعلاوة على ذلك ، كان الآشوريون ساميين يتكلمون الآرامية ، وبالتالى فإن حواجز الجنس واللغة لم تكن موجودة – في الواقع– بينهم ، وبين إخوتهم المسيحيين من اليهود في المدينة المقدسة ، إلا معرفتهم بالديانات الشرقية ، مثل الزرادشتية والمثرية ، قد جلبت لهم العديد من المبادئ والأفكار الوثنية التى دخلت إلى الفكر المسيحى هناك. وكان الإله ميثرا (Mithra) قد غلَب الشر ، وصعد للسماء . وكذلك عبدّة الإله مردوك (Marduk) البابلى ، الذى تم قتله ظلماً ثم قام من الموت منتصراً ؛ تعادل ما جرَى للمسيح من آلام وموت وقيامة من بين الأموات . كما كانت فِكرَة الميلاد الذى يفوق الطبيعة معروفة في العبادات الوثنية في شمال الرافدين .

وكان العماد والتطهير يمارسهما كهنة ميثرا . وكانوا أيضا يقدِسُّون الخُبز والماء والخمر للمؤمنين بهذا الدين (الوثنيين) ، كما كانت القواعد الأخلاقية الرفيعة التى للعبادة الميثرية تقترب من تعاليم المسيح .

ونظراً للتشابه الكبير فيَ الأسرار في كلتا الديانتين، فقد جعل أباً كنسياً كبيراً مثل ترتليانوس ، يجد أنه من الضرورى اعتبار الديانة الميثرية فكراً شيطانياً ضد الإيمان الحقيقى ، والهدف منه قيادة الجنس البشرى نحو الخطأ .

ولو وضعنا في أذهاننا المستويات الاجتماعية (المُتدنّية) التى كانت تسود الأمم تحت نير الرومان ، وعلى عكس تعاليم المسيحية ، التى كانت تقود لحياة الرجاء ، وأبوة الله ـ وكان الرومان يعتبرون المسيحيين أُناساً يجب أن تدوسهم الأقدام ـ لأدّركنا جيداً السهولة النسبية التى كان يجد بها الإيمان الجديد طريقة إلى قلوب شعب إديسا .

+ + +

الأصول التاريخية :

إن الأصول التاريخية للكنيسة السريانية الشرقية أو "**الآشورية**" ، أو "**النسطورية**" فيما بعد ، تأسر النفوس مثل أساطيرها ، وتوجد في مخطوطاتها ، التى تركت آثارها على مسيرَة الزمن .

ووجدنا في مدارس نصيبين (Nisibis) وإديسا حصوناً للإيمان ، وأوطاناً روحية للإيمان، للرُّوّاد الذين نشروا المسيحية في فارس ، والاضطهادات والجهاد للآباء السريان في أجزاء بعيدة من آسيا. وقد حدثت في وقت كان الغرب مشغولاً فيه بشدة في حركة المجامع المسكونية .

ولكن من الصعب الحُكم بدقة على مدى اهتمامها أو حرصها على المشاركة في تلك الحركة ، قبل مجمع أفسس سنة ٤٣١ . والواقع إنه في أفسس يرَى المرء – لأول مرة – الانقسام بين الشرق والغرب؛سريان وروم ، ساميون وبيزنطيون ، أصحاب طبيعتين وأصحاب طبيعة واحدة ، نساطرة وأرثوذكس .

ومنذ ذلك الحين انقطعت العلاقات بين السريان الشرقيين والغربيين ، ولم يتم الاشتراك في الأسرار المقدسة أو غيرها من الممارسات الروحية.

ومن الشخصيات التى ظهرت في البدايات ، نسمع عن "بردايَّسان" (Bardaisan) وتاتيان (Tatian) في فترة ما قبل مجمع نيقية .

وقد وُلِدِ بردايّسان سنة ١٥٤م ، وتعلم مع الملك أبجر الثامن (١٧٦-٢١٣م) وبعد إيمانه بالمسيحية ُرسِم شماساً بيد Hystasp أسقف إديسا سنة ١٧٩م ، ولكن عندما اهتم بالدراسات الخاصة بما وراء الطبيعة والتنجيم، فقد حرَمَـه الأسقف Aqai كهرطوقى ، فاضطر إلى الهرّب إلى أرمينيا المجاورة نحو سنة ٢١٦م ، وهو تاريخ غزو الرومان لإديسا .

ويعتقد بعض الكُتّاب أنه صار غنوسياً.وأيضـــاً تابعــاً لڤالنتيــان ، ولكــن يوسابيوس القيصرى يؤكد أنه انقلب ضد أتباع ڤالنتيان ؛ "رغم أنه لــم يتخلّــص تماماً من دنس الهرطقة القديمة"(١).

وطوّر برديسان فِكراً شرقياً يربط بين مصير النـــاس والنجـوم (التنجيـم والبخت) ، كما زّعم أن جسد المسيح لم يكن سوى شبح (خيـــالى) (phantom) وأنكر حقيقة القيامة (resurrection).

وكانت له مواهب أدبية كبيرة ، فقد كتَب العديد من الأعمال. ومنها "الحـوار مع أنطونيوس عَن القضاء والقدر". ويُعتَبر أب الترانيم الســـريانية. ورغــم أن ترانيمه (hymns) كانت متشبعة بمبادئه ، لكن حلاوتها كسبت له أتباعاً كثــيرين لعدة قرون تالية. كما يرى البعض أن كتاب أعمال القديس توما الرسول قد تمــت كتابته بوحى منه !!.

وكان برديسان ، الذى وُصِف :" بأنه آخر الغنوسيين " (Gnostics) ، قــد ترك وراءه مدرسة أحيّت الأدب والفلسفة السريانية، عند موته سنة ٢٢٢م.

وكان تاتيان (Tatian) مُعاصِراً له ومثله ، قد أســهم فــي الأدب الدينــى السريانى ، وكذلك شابَهه في الإتهام بالهرطقة.

وكان مواطناً أشورياً ، وكان وثنياً ، وذهب إلى روما بعـــد عــام ١٥٠م ، وهناك صار مسيحياً قبل عام ١٦٥م ، ودرَس على يد القديس يوستينوس الشــهيد، ويبدو أنه خَلَقَه كمُعلم عظيم، ومُدافِع عن المسيحية .

ثم وقع تحت تأثير الهرطوقى ڤالنتينوس ، والفلسفة الغنوسية ، ممـــا جعلــه غير مقبول في روما . وقد وضع أسس شيعة غنوسية جديـــدة ، عُرِفــت باســم

(1) Eusebius, Eccles . History, iv, xxx.

"**الممتنعين**" (Encratites) الذين حَرَمُوا الزواج ، واعتبروا أكل اللحم وشُرب الخمر شراً .

واستخدمت شيعته الماء بدلاً من الخمر في سر الشُكر (Eucarist).وكنتيجة لنمو الشكوك نحوه من رجال الكنيسة الرومانية ، فقد اضطر إلى الذهاب إلى إديسا ، حيث تم الترّحيب به – بمعرفة رجال بلاده – كمُفكر سرياني كبير!

وكتب مقالة موجهة للإغريق ، دافع فيها عن النقاوة (الطهارة) المسيحية. وهاجم بُعنف الحضارة الإغريقية الدنِسَة ، والتي لا يُمكن أن تُقارَن بتعاليم المسيح العظيمة !

وترجع شُهرته إلى إسهامه في الأدب السرياني ، وخاصة في كتابه الذي يحمل اسم "التناغم" (Diatessaron). وكوّن صورة كاملة ومتناسقة عن قصة حياة المسيح ، من الأناجيل الأربعة . وحتى هذا الوقت لم يكن لدى السريان نصوصاً كاملة للعهد الجديد باللغة السريانية ، ولذلك اعتُمِد كتابه المُنسّق لسيرة المسيح (harmony) نصا قانونياً ، يُقرأ في الكنائس ، بصفة عامة .

ولما أدرك الأسقف بالوط (Palut) خطأ هذا الإجراء ، أدخل الترجمة الجديدة للأناجيل الأربعة بالسريانية – كل واحد على حدة – ولكنها لم تنل قبولاً عاماً ، واستمر الناس فى استعمال كتاب تاتيان .

وكان إحلال النسخة السريانية الكاملة للعهد الجديد ، لكلٍ من الترجمة القديمة ، للأناجيل المنفصلة وكتاب تاتيان (Diatessaron) قد تم بمعرفة الأسقف "رابولا" (Rabbula) في السنوات الأولى من القرن الخامس . وقام بإنهاء مراجعته لِمَا يُعرَف بالترجمة "البسيطة" (Peshitta) أو الواضحة ، وهى الترجمة السريانية الشعبية (Vulgate) .

وكانت تشمل النص الجاري للأناجيل ، حسب التقليد الانطاكى ، والرسالة الأولى للقديس بطرس ، والرسالة الأولى للقديس يوحنا الحبيب ، ورسالة يعقوب الرسول ، علاوة على سِفر أعمال الرسل ، ورسائل القديس بولس ، ولكن تم استبعاد الأربعة رسائل الصغيرة العامة ، وسفر الرؤيا !!.

ولذلك يُعتبر رابولا (Rabbula) أسقف إديسا (٤٢١-٤٣٥م) أحد أهم مُعلمّى السريان ، والمدافعين عن الأرثوذكسية .

ومع أن استبداله كتاب تاتيان بالترجمة السريانية (Peshitta) يُعتَبر من أعظم إسهاماته للمسيحية السريانية والآشورية ، إلا أن دورَه في مجال إعادة تنظيم الكنيسة – بصفة عامة – كان عملاً مشهوراً في زمانه .

ونظراً لتمسّكه بالأرثوذكسية ، فقد ظل يُعارِض الانحرافات ، والتغييرات الدينية العقيدية في النسطورية ، طوال حياته . ولا تزال القوانين التى تحمل اسمه وثائق هامة تُنظم قواعد الزواج (matrimony) وتنظيم المجتمع . وتمدنا بصورة معاصرة للكنيسة والمجتمع في أرض الرافدين (العراق) في العقود الأولى من القرن الخامس . وقام الكاتب Burkitt بتحليلها وشرحها .

وعلى أية حال ، مع أن زعيماً كنسياً يتحدَّث السريانية– هو رابولا– ذكر تعاليم الأرثوذكسية الغربية (في الشام) والفلسفة الدينية الرومية ، فإنه قد نمت في أيامه بذور شقاق كبير ، بين السريان في الشرق والغرب ، ولكنه زاد في عهد خليفته **Ibas** الغير أرثوذكسي !!.

وقبل الدخول في تفاصيل الخلاف والانحراف النسطورى ؛ فإننا نرَى ضرورة تسجيل أهم الأحداث التى وقعت في الفترة بين تاتيان ورابولا. ولا يمكن تجنُّب عدم ذكرها ، لفهم تطورُّ المسيحية الشرقية .

بالإضافة إلى الإسكندرية وروما والقسطنطينية وإنطاكية ، كمراكز تقليدية للمعرفة المسيحية والفكر الدينى الأرثوذكسي (السليم) ، يجب أن نتذكَّر أنه في الشرق – في إديسا– قام مركز للاهوت والآداب السريانية .

ولما سقطت نصيبين (Nisibis) في يد الفُرس سنة ٣٦٣م ، تحركّت عقولها القيادية إلى إديسا ، وعلى رأسهم القديس مار إفرايم السريانى Ephraem (نحو ٣٠٦-٣٧٣م) الملّقب "بالكبير" لقداسته وعلمه وإيمانه الأرثوذكسي ، وإسهامه الواسع في الأدب الدينى السريانى .

وقد وُلِدَ في نصيبين من والدين يشك البعض في مسيحيتهما . وقد صار كاهناً[1]. وقيل إنه مضى إلى مجمع نيقية (٣٢٥م) مع أبيه الروحى يعقوب (James) أسقف مدينته . وقد صار عدواً للهرطقة الأريوسية ، التى قاومها في إديسا، وفي كل مكان مضى إليه .

وتشك بعض المصادر في زيارته لآباء البرية في مصر ، وللقديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية في كبادوكية (بآسيا الصغرى) !!. وقد كتب بالسريانية عن الكتاب المقدس وتفسيره، وعن الزُهد ، كما كانت ترانيمه أهم ميدان عمل فيه (وقد حمل لقب "قيثار الروح") .

وفي الواقع ، يرى البعض أنه كان الأب الحقيقى للأدب السريانى • وبعض أعماله تُرجِمت إلى اليونانية والأرمينية وحتى العربية ، في وقت مبكر .

وقد نمت إديسا تدريجياً كقلعة للتقليد السريانى ، بينما كانت إنطاكية تتزايد في الهليذية ، رغم أن كليهما استمرّا يخضعان لقوانين المجمع المسكونى الأول بنيقية ، حتى العقود الأولى من القرن الخامس .

---

(١) تذكر معظم المصادر أنه ظل "شماساً" حتى نياحته.

وفي الواقع ، لم تكن هناك علامات على وجود شقاق علني بين مركزى المسيحية الشرقية العظيمين ، على أمور العقيدة ، حتى سنة ٤٣١م ، عندما حدث في مجمع أفسس الأول . وكان ظهور نسطور - أسقف القسطنطينية - على مسرح الأحداث، رغم أنه كان بعيداً - كما يبدو - عن إديسا ، قد ثبت أنه هو سبب الانشقاق الذى حدث بين السريان في المشرق (العراق) والمغرب (الشام) .

وكان نسطور - في الأصل - راهباً في إنطاكية وتلميذاً لثيؤدورس الذى كان من موبسطيا (Mopsuestia) . واشتهر بمقدرته الكبيرة في الوعظ ، وصوته الجميل في ترتيل القدّاس الإلهي . وأخيراً وقع اختيار الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى عليه ، لكرسى القسطنطينية.

فقام بأعماله بحماس ، وظل يصبّ على العاصمة (البيزنطية) بهرطقاته وهراطقته ، غير عابئ بما يُخبئه له المستقبل ، باعتباره رئيساً لهراطقة زمانه .

وقد بدأت المشاكل عن لاهوت المسيح (Christology) ، التى أتعبت أهل القرن الخامس ، عندما رفض كاهن يُدعى أثناسيوس - كان نسطور قد أتى به معه من إنطاكية - في إحدى عظاته ، وصف العذراء مريم بأنها : "Theotokos" ، أى " والدة الإله".

وأنزعج الروم وتناقشوا معه عن رأيه الفاسد ، ولكن نسطور دافع عنه. وفي دفاعه بدأ يركز على موضوع علاقات يسوع - الإنسان المولود من مريم ، وكلمة الله الساكن فيه (حسب رأيه).

وقد قاد ذلك إلى رأى غير أرثوذكسي تماماً ، بالتأكيد على وجود شخصين: يسوع الرجل الكامل ، بدون خطية ، وهو ابن مريم بالجسد ، من ناحية ، والكلمة الإلهي (Logos) المُستقِر فيه ، من ناحية أخرى . وعلى ذلك فإن نظرية الطبيعتين المنفصلتين، في يسوع المسيح، قد أثارَت الأرثوذكس .

وقد ثارت قلعة الأرثوذكسية – في ذلك الوقت – وهى الإسكندرية ، وعلى رأسها البابا كيرلس الأول (عمود الدين) اللاهوتى العظيم المعرفة ، والأكثر قدرة على الرد عن أى إكليروس آخر فى أيامه .

وعُقِدَ مجمعان في الإسكندرية وروما ، وقفا ضد هذه البدعة الجديدة سنة ٤٣٠م ، وخلعا نسطوروس . وقرر الإمبراطور البيزنطى الخروج من هذا المأزق بعقد مجمع كنسى مسكونى في أفسس ، في السنة التالية .

واجتمع ١٩٨ أسقفاً هناك ، تحت رئاسة البابا كيرلس (الإسكندرى) ، وكان يضم جماعة قوية من الممثلين ، من إسكندرية وروما وأورشليم ، وتسالونيكى وأفسس . وجاء نسطور ومعه ١٦ أسقفاً وحرس مسلح بقيادة قائد الحرس الإمبراطوري ، المدعو كانديديان (Candidian) .

وتأخر وصول الأسقف يوحنا الانطاكى وأساقفته ، فأسرع بإرسال رسالة إلى البابا كيرلس ، لعقد المجمع ، دون انتظار وصول مندوبيه . وكان عطف يوحنا الشخصى على نسطور معروفاً للبابا المصرى. ولذلك قرر الإسراع بأعمال المجمع ، قبل وصوله ، لإنقاذه من الوقوف ضد صديقه .

ورفض نسطور الظهور أمام المجمع ، وتمّت إدانته وحرمه وخلعه .

وفي نفس الوقت عقد الهرطوقى اجتماعا في بيته، مع ٤٣ أسقفاً من مؤيديه، وأصدروا قراراً آخر ضد البابا كيرلس، وباقى أساقفة مجمع أفسس .

وأخيراً وصل يوحنا الانطاكى ، مع ثلاثين أسقفاً سريانياً ، إلى أفسس لمواجهة تلك القرارات ، التى ضايقتهم بدون شك ، رغم أن يوحنا قد اقتنع أخيراً بالوقوف إلى جانب رأى البابا كيرلس الكبير .

ونظراً لأن الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى وأخته بلخاريا (Pulcheria) قد قبلا قرار المجمع المسكونى ، وسُمح لكيرلس بالعودة إلى الإسكندرية . وتم نفى

نسطور إلى الواحات الليبية ، وتم تعيين أسقف جديد يسمى مكسيميانوس (Maximian) بدلاً من نسطور على كرسى القسطنطينية (٤٣١-٤٣٤م).

وعانى نسطور بشدة - في نفيه - من القبائل (Blemmyes) البربرية الآتية من الجنوب ، فتم نقله إلى أخميم (Panopolis) ، حيث سمح له الحاكم الإمبراطوري للإقليم بالمكوث هناك . وقد حاول الدفاع عن نفسه في كتاب أسماه Bazaar of Heracleids ، باستعمال اسم مستعار ، منعاً من إتلافه لأن أى كتاب قد يحمل اسمه ، سوف تحرقه السلطات تلقائياً .

وقد مات عشية اجتماع خلقيدونية ، ودُفن في مكان مجهول . وأما أفكاره **فقد أدت إلى تأسيس الكنيسة النسطورية** ، والتى قبلت تعاليمه (الهرطوقية) رغم أنه هو نفسه لم يكن له يد في تأسيسها !!.

وقد تنيحّ الأسقف رابولا الأديسى سنة ٤٣٥م ، وكان مشدداً على الأرثوذكسية في هذه الكنيسة ، وخلفه Ibas (٤٣٥-٤٥٧م) وقد أظهر عطفه على نسطور ، إذ قام بترجمة أعمال ثيؤدور المُبسّطى للسريانية. وكان معلماً لنسطور، والمصدر الرئيسي لمبادئه اللاهوتية .

ووقع Ibas تحت تأثير فكر ثيؤدور . ورغم أنه لم يعلن قبوله للنسطورية علناً، لكنه ظل عملياً في المعسكر النسطورى، ضد باقي الأرثوذكس السريان.
وذلك يفسر سبب قيام مجمع أفسس الثانى سنة ٤٤٩م ، برئاسة البابا ديوسقورس الإسكندري بخلعه ، بينما عكس مجمع خلقيدونية القرار بإرجاعه لكرسيه، وحرم البابا يوسقورس سنة ٤٥١م.

ومن المشكوك فيه أن تكون هذه الأحكام الكنسية قد أثرت على مركز Ibas في وطنه ، حيث انقسم السريان بين ما يُسمَّى "النسطورية"، وبين المذهب "الأرثوذكسي" .

وبعد موت Ibas سنة ٤٥٧م صارت للأرثوذكس اليد الطولىَ في إديسا بقيادة خلفه الأسقف Nonnus . أما الأسقف برصوما(Bar Sauma) ، الذى سبق أن خلعه مجمع أفسس الثانى –الذى سماه البعض مجمع اللصوص- قام بالهروب إلى نصيبين، وكانت في فارس ، خلف حدود الإمبراطورية البيزنطية .

وأما هذا التاريخ (٤٤٩م) فيُعَد علامة على تحديد الحدود الفاصلة بين السريان الأرثوذكس والسريان النساطرة . وبينما تطلع الأرثوذكس نحو إنطاكية، في إطار الدولة البيزنطية ، فإن النساطرة وجهوا اهتمامهم نحو كُردستان وشمال الرافدين ، في داخل دائرة السيادة الفارسية .

وقل العِلم في إديسا ، عندما أمر الإمبراطور "**زينون**" Zeno (٤٧٤-٤٩١م) بغلق مدرستها ، وطرد النساطرة من دائرة سلطانه .

وفيما بعد أكدت الكنيسة قرارَه في المجمع الذى انعقد في القسطنطينية سنة ٥٥٣م ، والذى حرَم شخصِ ثيؤدور الموبسطى وكتاباته. وكان هو أساس أفكار النسطورية .

وبذلك لم تُعد النسطورية شرعية في الإمبراطورية البيزنطية ، وعانت إديسا من ضربة قاتلة ، لم تقم أبداً،باختفاء العلماء والفنيين النساطرة من كل المنطقة بالتجائهم نحو المشرق.

+ + +

النساطرة في فارس :

كان في ذلك الوقت أرثوذكس في فارس ، وقد اختلطوا بإرادتهم بالنساطرة المطرودين . وكان الأساقفة اليعاقبة لسلوقيا وستيسفون (Saleucia) (Ctasphon) تحت قيادة إنطاكية، في نطاق منطقة الروم. وقد رأوا أن ولاءهم

لبطريرك هلليني من خارج فارس يُعَد مُدمراً لكنيستهم . مما أعطـــى النســاطرة القادمين فرصة للتوسُّع على حسابهم فى الشرق.

وكان أحد الأساقفة (في فارس) ويُدعى Babowi قد أرســل رســالة إلــى الإمبراطور زينون ، يشكو من وجوده تحت نير سلطان شرير ، ويقصد الملــك فيروز الساسانى (Sassanid) . ودفع حياته ثمناً لحماقته. فقــد صَلبـُـه فــيروز (Firooz)، بعدما علم برسالته.

وبتأثير بارصوما – أسقف نصيبين (النسطورى) تم ذبح الكهنة الأرثوذكــس في فارس . وفي مجمع بيت لابات (Lapat) سنة ٤٨٤م أحيا كهنة النســاطرة – تحت قيادة بارصوما – ذكرى ثيؤدور الموبسطى ، وحرموا كل العقائد الأخــرى، كالأرثوذكسية ، وأصحاب الطبيعة الواحدة ، في الكنائس التابعة للدولة البيزنطية، وأحلّوا زواج الكهنة والأساقفة !!.

وقام بارصوما بتطبيق هذه السياسة بنفسه، بزواجه من راهبة !!. وقد فقَــد مركزه كمطران لفارس بموت صديقه الملك فيروز ، وتولّى ملك أكــثر اعتــدالاً وهو Balash (٤٨٤–٤٨٨م). وقــام بطــرد برصومــا ، وتعييــن أكاشــيوس Acacius (٤٨٥–٤٩٦م) بدلاً منه . ولم يكن هــذا الأب عنيفــاً فــي تشــدده للنسطورية ، وقد قيل إنه أُعلِن ذات مرة ، أنه عندما زار القسطنطينية،أنه شــارك في حرم مبدأ الطبيعة الواحدة ، وأنه كان يخطط لحرم برصوما .

وقد أنقذه رهبان فارس من المحنة باغتيال أسقف نصيبيـــن ســنة ٤٩٣م ، بينما عمّر أكاشيوس ثلاث سنوات فقط . وكانت أيام بارصوما العاصفة لم تــترك له إلا القليل من الوقت لنشاطه الأدبي . ولذلك فكتاباته الباقيــة قليلــة ، ومنــها عظات للجنازات ، وترانيم وقداساً .

وكان لأكاشيوس أيضا إنتاجاً محدوداً . وقد ألفّ عظـــات عـــن الإيمـــان ، والصوم ، وكتب مقالات ضد الطبيعة الواحدة . كمـــا ترجـــم للملـــك Kavadh – إلى الفارسية– كتاباً عن الإيمان.وضعه Oseus أو Eliseus أسقف نصيبين • ويضعه الكاتب Assemani بين الكتابات الأرثوذكسية ، بينما يشك Chabot فى نقاوة مبادئه .

وكان هذا البطريرك نسطورياً بدون شك ، سواء في أســـلوبه أو قوانينـــه ، وسمح بزواج الأساقفة ، وبارك زواج الكهنة والشمامسة (المكرســـين) ، وتـــرك الرهبان البتولية لإقامة أسرة !!.

واستمرت الفوضىَ في الكنيسة النسطورية في أيام خلفاء أكاشيوس ، لمـــدة تقترب من خمسين عاماً . وتبدأ هذه الفترة بتولى بطريرك أُمـــى ، هـــو Babai الثانى (٤٩٧-٥٠٢م) ، وتبعه آخرون ، من بينـــهم وجدنـــا متنافســـين، كـــانوا يحرمون بعضهم البعض .

ومع ذلك، من الخطأ وصف هذه المرحلة بعصر الظلام التـــام، ففـــى تلـــك الفترة الانتقالية ، وصلت الكنيسة إلى نضجها، وأعلنت استقلالها التام عن الغـــرب (الشام) عندما حَمل Babowi لقب "بطريرك المشرق" سنة ٤٩٨م. وبذلك رفـــع قامة كرسيه إلى مستوى كرسى انطاكية (الذى استقل عنه) والإسكندرية وروما .

بينما أخذت مدرسة نصيبين مكانة مدرسة إديسا القديمة ، وتقدمت لحدٍ كبـــير برئاسة العالِم Nerses ، الذى وصفه النساطرة بأنه:"قيثـــارة الـــروح القـــدس" ، وكذلك :"الطبيب العجيب" ، بينما أشار إليه الأرثوذكس بأنه :"نرســـيس المجـــذوم" (Leper). ويُنسب إليه المؤرخ عبد المســـيح تـــأليف ٣٦٠ قصيـــدة • وتشـــتهر ترانيمه وعظاته ، وتفاسيره التاريخية لأسفار الجامعة والأنبياء بالعـــهد القديـــم . وقد هاجم بارصوما في مؤلفه :"فساد العادات" ، وقـــد وجـــدت بعـــض كتاباتـــه طريقها، ليس فقط للنساطرة ، ولكن أيضا إلى القداسات الكاثوليكية !! .

وقد صارت مدرسة نصيبين أهم مركز تعليمي نسطورى ، ومصدراً للبطاركة والآباء المشهورين في الأجيال التالية. وكانت من النوع الذى يعيش فيه الطُلابُ حياةً مشتركة (canbium) . ومع أنهم لم يكونوا دائماً من الرهبان، إلا أنهم عاشوا حياة شبه رهبانية . وقانونها يقوم على البتولية ، والنظام الشديد والإقامة مع العمل . وكان يقوم بالتدريس بها أساتذة من العُلماء.لتدريس اللاهوت والفلسفة وقانون الكنيسة .

وزعم الكاتب Labourt أن مدينة نصيبين الكبيرة قد شهدت ميلاد أول جامعة لاهوتية (والأصح أن الجامعة المرقسية الإسكندرية هى الأولى) ، مما أثار إعجاب الإمبراطور جستنيان ودهشته !

ونظراً لأن خريجى هذه المدرسة من النساطرة هم معلمو الغرَب ، والذين نقلوا التراث اليونانى إلى الغرب ، في العصور الوسطى ،فلا يمكن إنكار تأثير مدرسة نصيبين على مدارس الغرَب .

وتدين الكنيسة النسطورية لهذه المدرسة، بأنها أخرَّجت مصلحين حقيقيين (reformers) ومنهم مار آبا (Aba) بطريرك المشرق، من عام ٥٢٥م إلى ٥٣٣م كشخصية مرموقة. وقام بزيارات كثيرة لشعب كرسيه. وقد قوَّى من مبادئ الكنيسة النسطورية، وقضى على عادات فاسدة بعقد مؤتمرات في كل مكان، ثم استشهد في اضطهاد الإمبراطور شابور الثانى للمسيحيين في فارس.

ونسَب له المؤرخ عبد المسيح (Abd-Ishu) أنه قد راجع الكتاب المقدس السريانى، وطابقه على النسخة الإسكندرية، والنُسخة السريانية القديمة (Peshitta). كما كتَب عدة تفاسير وعظات، وقدم ترجمة لقداس ثيؤدور الموبسّطى، الذى لا يزَال مُستعملاً في الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، وهى فرع من الكنيسة النسطورية .

وفي نهاية القرن السادس ، رسخ الفِكر النسطورى • وكان أشهر الشخصيات النسطورية مار باباى (Babai) المُلقب "بالكبير" تمييزاً له عن سميّه البطريرك باباى الثانى . وكان رئيس دير جبل Izala (٥٦٩-٦٢٨م) ، وكان لاهوتياً بارعاً . وكان مؤلفه "كتاب الاتحاد" (Union) قد ثبَّت كل الأفكار النسطورية العقائدية ، وأُدخِلَت كلماته في الصلوات الصباحية ، ويمكن منها معرفة اللاهوت المسيحى لسريان المشرق (النساطرة) وجاء فيها ما نصه :

- "واحد هو المسيح ابن الله ، يعبده الكل ، في طبيعتين . وهو مولود بلاهوته من الآب ، بدون بداية ، وقبل كل الأزمان ، وهو بناسوته مولود من مريم (العذراء) ، في ملء الزمان ، وبجسد متحد (باللاهوت) وليس لاهوته من طبيعة الأم ، ولا ناسوته من طبيعة الآب ، والطبيعتان محفوظتان في إقنومهما، في شخص واحد هو الابن".

وحتى اليوم، لا يزال النساطرة يعزفون عن استعمال المصطلح : "يالدة إللاها" (Yaldath Alaha) المُساوِى لليونانى :"Theotokos"(والدة الإله)،وبدلاً منه يُفضلون الإطلاق على العذراء مريم "Yaldath M'shikah"، أى حاملة (والدة) المسيح .

وكان نفوذ مار باباى كبيراً على كل الكنيسة النسطورية ، حيث تولى إدارة الكنيسة ، خلال فترة خلو الكرسى النسطورى ، بعد العاصفة الدينية التى جرَت في عهد البطريرك صبر يسوع (Sabr-Ishu) [٥٩٠-٦٠٤م] ، وكان عصراً ممتزجاً بالمشاعر، والسياسات ضد المسيحيين .

ولما تلاه البطريرك yeshuyab الثانى (٦٢٨-٦٤٣م) ، تركت الكنيسة متاعبها خلف ظهرها ، ولأول مرة في تاريخها، أرسل هذا الأب بعثات تبشيرية إلى الصين ، كما سنراه فيما بعد .

وليس من السهل تحديد بدقة امتداد الكنيسة النسطورية في فارس (إيران) تحت حُكم الأسرة الساسانية ، ولا توجد معلومات دقيقة عن أسقفياتها وكراسيها . وهو ما حاوله كل من يوسف السمعاني Assemani ولوكوين الكاثوليكي (Le Quien) بصعوبة في دراستيهما القديمتين[1] ، ولخص مؤرخ حديث نتائج ما توصلا إليه.

ولكن أسماء الأماكن ، التى أشار إليها هذين المؤلفين ليست واضحة ، ولا القوائم الواردة في آخر دراستيهما . ومع ذلك ، فإن المادة التى سنذكرها هى مرشد عام للتوسع الكنسى النسطورى ، والتى نرى أنها معلومات محدودة ؛ خاصة عن الجزء الغربى من الإمبراطورية الفارسية ، بما فيها شمال وجنوب الرافدين ، بين دجلة والفرات .

وكان الكرسى البطريركى النسطورى في العاصمة القديمة المُسَّماة : Seleucia-Cteisphan ، ثم منطقة Susiana ، وكانت تتكوَّن من أربع أيبارشيات ، في جنديشابور ، سوسة ، الأهواز ، Suster ، وكلها تابعة مباشرة للبطريرك النسطورى. والمناطق الأخرى ، تحت سيادة مطران له إيبارشيات ، وتشمل الكراسى الآتية :

١-مطرانية في Kashkar وأسقف في الحيرَة .

٢-مطرانية نصيبين ، وأسقف في Bakerda .

٣-Teredon ، ومطران في البصرة ، وكان يوجد أسقف في Destesana، وكنيسة أو ايبارشية لمنطقة نهر المرَح (Marah) .

٤-Adiabene (حيداب الحالية ، وتقع بين نهرّي دجلة والزَاب) ولها مطرانية في إربل ، وأسقفان في Honia & Maalta.

---

(1) + Joseph Assemanus (Yusuf al-Sam'ani)(Rome 1719)
+ Le Quien, Oriens Christianus (Paris 1740).

٥- Garamaca ولها مطرانية في الكرَخ (Karkha) وأساقفة في Sciaarchadate ، وفي دقوقة (Dakuka) .

٦- خوراسان ، ولها مطرانية في Merv أو مروى (Maew).

٧- Antropatene ولها مطرانية في Taurisium .

٨- روورداشير (Rawardshir) ، ورَاى (Rayy) وحيرَات (Herat).

وكانت في الأصل أسقفيات ، وفيما بعد صارت مراكز لمطرانيات .

وأخيراً ، يبدو أنه كانت هناك أسقفيات أخرى . ولم تبلغ إلى مستوى مطرانيات مثل : سجستان جنوب حيرَات .

كان هذا هو الوضع التقريبى في عهد انهيار الإمبراطورية الساسانية (الإيرانية) وقيام الخلافة الإسلامية . وقد ظلت الكنيسة السريانية تجمع قواها ، للقيام بإحدى الحركات التبشيرية الرائعة في الشرق الأقصى .

وصارت كل آسيا بين الفرات وكُردستان إيبارشية للبطريرك النسطورى . وقد بدأت هذه الحركة قبل اختفاء الحُكم الفارسى ، واستمرت بأكثر حيوية في العصور الإسلامية ، على الأقل حتى اكتسح التتار الحضارة المادية والروحية ، في تلك المناطق ، في أواخر العصور الوسطى .

وهذه القصة سيتم التعامل معها لوحدها – بقليل من التفصيل – ولكن لا يمكن تفسيرها بدون مسح موجز لمصدر قوة تلك الكنيسة، بصفة عامة .

وعماد حركة التوسُّع النسطورى ، يرجع إلى أُسس رهبنتها ، والتي أمَدت هذه الكنيسة بجيش ضخم من الرجال المكرسين للخدمة ، لاختراق أقاليم غير معروفة، وتعريض أنفسهم للأخطار الشديدة ، في سبيل نشر الإيمان المسيحى (النسطورى) في الشرق الأقصى .

+ + +

امتداد الكنيسة النسطورية :

بعد استقرار العقيدة النسطورية والتنظيم الكنسى الدقيق في فارس ، ابتـــدأت هذه الكنيسة في البحث عن فرص للتوسع في نشر الإيمان المسيحى فى الشرق .

وكان من الممكن حدوثه لظروف وأحوال – خارجية وداخليـــة– صحبـت تطوّر الكنيسة النسطورية ورعاياها .

وأولها ، أن استقرار النساطرة في فارس ، وراء الحـــدود المغلقـــة للدولـــة البيزنطية أنقذهم من مضايقات كل مـــن اليعاقبـــة ، والعنـــاصر الأرثوذكســـية الأخرى ، التى جاءت من إنطاكية والقسطنطينية .

ولم ينشغلوا بإنشقاقات عقائدية ، كتلك التى قـــامت بيـــن الأرثوذكـــس فـــى الإسكندرية وإنطاكية في معسكر واحد . وبين الملكانيين ، الذين اعتنقوا مبـــادئ قرارات مجمع خلقيدونية . واستمروا يتبعون القسطنطينية وروما .

وحتى خلال الاضطهادات (الفارسية) المحلية ، عاش النساطرة فـــي ســـلام نسبى . وتم السماح لهم بنمو عادى ، بدون تدخّل دينى من الخارج .

وفي الواقع ، فإن الاتجاه نحو تشديد كثافة الاضطهاد – في الشرق – كـــان يرجع غالباً إلى نزوة طاغية أو دكتاتور . وفي المنطقة الشرقية كلها . ونتج عـــن قسوته اضطهاد المسيحيين ، وغير المسيحيين ، بدون تمييز .

ومن ناحية أخرى ، فإن الحدود الباقية لفارس ، والتي كنت غالباً تطل علـــى الشرق ، كانت مفتوحة أمام النساطرة ، مع وجود آمال للتوسع في التبشير .

وكانت مدينة **Seleucia - Ctesiphon** ملتقى طبيعياً للقوافل التجاريـــة ، من بلاد العرب ، ووسط آسيا ، والهند ، الصين . وفيها تعرّف النســـاطرة علـــى الناس من كل بلدان الشرق . ومن خلال التعارف بدأوا العمل التبشيرى بينهم.

وكان النجاح المذهل للتبشير الأسيوى راجعاً لسلسلة من العوامل الداخلية ، فمع حماسهم الزائد لنشر الإيمان ، تواجد نظام ديرى وكنسى مستعد للعمل والتضحية بالنفس. وفوق ذلك توجيه سليم وحديث، ساعد في نهضتهم التبشيرية.

إذ حيثما استقروا ، أقاموا أسقفية جديدة ومدرسة ذات مكتبة ومستشفى بخدمات طبية (مجانية) . وكان النساطرة مشهورين بمهارات فنية نادرة ، وبعلمهم وتفوقهم الطبى . فمثل التبشير الحديث ربطوا العمل الدينى بخدمات تعليمية وطبية ، مما كان له أعظم الأثر بين أمم المشرق .

ومع التوسع النسطورى التبشيرى الكنسى ، توافر عدد كبير من العلماء . وكان عطاؤهم كبيراً. **وخاصةً في البلاد التالية :**

فى بلاد العرَب :

شبه الجزيرة العربية كانت مغلقة (منذ العصر الإسلامي الأول) في وجه كل المسيحيين ، إلى أن أعيد فتحها لهم ، في وقتنا الحاضر، للفنيين العاملين في البترول . وكانت إحدى أوائل حقول الخدمة المسيحية . وبدأ فيها النساطرة تبشيرهم ، وإن كانت المسيحية معروفه قبل مجيئهم .

وفي عام ٢٢٥م كانت توجد أسقفية في بيت قطراى Katraye وهى قَطَر الحالية،المواجهة لجُزر البحرين . كما وجدت المسيحية طريقها إلى قبائل حِميَّر ، غسّان ، تغلّب ، تانوخ (Tanukh) ، تاىّ (Tayy) ، وقضاعة ، قبل الإسلام .

وكانت الملكة المسيحية "**مارية**" قد دعت الأسقف موسى (المصرى) ليأتى ويعيش مع شعبها. وفي سنوات مبكرة (٣٨٠م) ضمّت الحيرّة والكوفة مسيحيين.

وقيل إن المسيحية النسطورية قد أتت للجزيرة العربية من فارس ، كنتيجة للاضطهادات الساسانية (الفارسية) للمسيحيين ، وخاصه في عهد شابور الثانى

(٣١٠-٣٧٩م) ، عندما وجد المهاجرون المسيحيون سلاماً بين العرب ، في الولايات الملاصقة لهم، اعتباراً من سنة ٣٣٩م وما بعدها .

ومن المصادر السريانية الهامة عن تقدُّم المسيحية في وسط وجنوب الجزيرة العربية "كتاب الحِميَّريين" المكتوب سنة ٩٣٢م ، ولكنه يتضمن معلومات عظيمة القيمة عن فترات أقدم ، ولاسيما القرن السادس[1] ويُشير إلى المذبحة الكبرى للعرب المسيحيين من نجران وحميّر ، بيد الملك العربى اليهودى Masruq في عام ٥٢٣م ، والحملة الحبشية سنة ٥٢٥م لإنقاذهم ، وانتهت بهزيمة الملك اليهودى، فأغرّق نفسه في البحر الأحمر .

وقيل إنه كان يوجد ستة أساقفة في بلاد العرب ، خلال القرن الخامس ، ومنهم أسقف الحيرّة ، التابع للمطران النسطورى في Kashkar (في فارس).

وكانت هناك كنائس في اليمن : في صنعاء ، عذن ، ظُفار ، ومدارس في Marotha وفي Jemana.

وفي عهد الملك المسيحى إبرّهة الأشرم ، في النصف الثانى من القرن السادس – في اليمن – قد نمت المسيحية العربية . وبنى كاتدرائية في صنعاء .

وكان المسيحيون العرب دائماً يتبُّعون "كنيسة المشرق" (النسطورية) مع وجود البعض تحت سلطان الكنيسة اليعقوبية (السريانية) . وتذكر الروايات المتوافرة أن النبى محمد قد تعلّم دروسه الأولى عن المسيحية على يد راهب يعقوبى – وقيل إنه كان نسطورياً – واسمه "سرجيوس بُحيّرة"[2] !!.

وعلى أية حال ، فإنه خلال القرن السابع ، طرّد الإسلام كُلاً من المسيحية واليهودية من شبه الجزيرة العربية. رغم إننا نسمع – من مصادر نسطورية –

(1) Gottheil, Achristian Bahira Legend (New York, 1930) p.89.

(٢) ويرى الجغرافى العربى المسعودى أن إسم "بحيَّرة" مشتق من البحر، بينما يرى Gottheil أن هذه الكلمة آرامية ، وتعنى " مُختار" .

عن جاليات منعزلة لها أنشطة مسيحية ، مثل مجمع نسطوری ، عُقِد سنة ٦٧٦م برئاسة البطريرك جوارجيوس (٦٦٠م-٦٨٠م) في جنوب الجزيرة العربية .

وقد تعلقت القبائل الرُّحَّل – مثل بنی سليم- بالمسيحية في وقت متأخر (٧٧٩م) عندما أراد الخليفة المهدی أن يفرض عليهم الإسلام ، وفي عام ٨٢٣م، عندما اضطهدهم الخليفة المأمون (العباسی) ، ويجب أن نفترض أن النسطورية المسيحية قد اقتُلِعت جذورها الأخيرة ، من بلاد العرب ، في القرن التاسع(١) .

+ + +

المسيحية في وسط آسيا :

رغم أننا نسمع أن المسيحية دخلت أولاً للقبائل الجيلانية (Gilanian) في جنوب غرب بحر قزوين ، وكذلك في أرض جوج وماجوج (روسيا) ، عن طريق Aggai ، الذی كان تلميذاً للرسول Addai في الفترة ١٢٠-١٤٠م (وقد ورد في كتاب قوانين الرسل، المكتوب بالسريانية سنة ٢٥٠م ، إشارة لنشر الإيمان بهذه المناطق. وإن كانت (في نظر الكاتب) مجرد روايات بلا دليل !!.

كما نقرأ أيضا عن أساقفة لأصفهان والرَی (Rayy) وسجستان ، نيسابور ، وحيرّات ، ومَروي ، من الموقعين على قرارات مجمع كنسی، برآسة الكاثوليكوس (الجاثليق) في – Ctesiphan Seleucian – سنة ٤٢٤م.

وأول مثل مُسّجل، يمكن قبوله كتاريخ حقيقی، في عام ٤٩٨م، أثناء البطريرك أكاشيوس (٤٨٥-٤٩٦م)، عندما تم خلع الملك الفارسی المتُسامِح Kavadh الأول (٤٨٨-٥٣١م) من عرش فارس، بيد الشرير Djamasp

---

(١) + لويس شيخو، شعراء النصرانية (٦أجزاء) بيروت سنة ١٨٩٠م.

+ أسد رستم، كنيسة إنطاكية (بيروت ١٩٥٨م) مجلد ١ ، ص ٣٩٠ – ٤٠٢ .

+ Wright, Early Christianity in Arabia, (London 1855).

(٤٩٦-٤٩٨م)، وهرب إلى التركستان، مع حاشيته التى كان بها بعض النساطرة.

وكان من بين مُرَافقيه أسقف Arran، وأربعة كهنة، وإثنين من العلمانيين، وقد بدأوا في تبشير الأتراك ونجحوا في خدمتهم. وقد تدعموا بعدد من الأطباء والكتبة والحرفيين المهرة، الذين ساعدوا في رفع المستوى الثقافى للشعب التركستانى. وفي نفس الوقت توصيل الإنجيل إليهم .

وتخبرنا قصتهم ، بأن الكهنة عملوا لمدة سبع سنوات - في المنطقة - وظل العلمانيون (laymen) حتى سنة ٥٣٠ ، ولكن من الصعب معرفة ما حدث بعد هذا العام ، رغم أن المسيحية استمرّت ، إلى أن كتب ملك غير معروف اسمه من الأتراك، إلى البطريرك تيموثاوس (٧٨٨م-٨٢٠م) طالباً منه إيفاد مطران لرعاية شعبه، الذين صاروا مسيحيين معه .

ويتحدث توماس المرجى عن اختيار ١٨ راهباً ورسامة أساقفة بيد تيموثاوس ، وأرسلهم لنشر الإنجيل . وقد أُشِير إلى اسم واحد هو Shabhalisha كأحد المُرسَلين من عند البطريرك تيموثاوس ، لأنه كان يعرف اللغات التى كان يتكلم بها الأتراك والتتار والمغول ، وتم تعيينه مطراناً لتركستان - في سمرقند - وكان له أسقفان أحدهما في بخارى والثانى في طشقند .

ثم دفع النساطرة بالمبشرين نحو بحيرة بيكال في الشمال الشرقى (بروسيا)، وجذبوا قبائل من التتار للمسيحية ، خلال القرنين العاشر والحادى عشر . ونحو عام ١٠٧٧م كتب Abdishu (عبد يسوع) مطران مروى في خوراسان ، إلى الكاثوليكوس (البطريرك الجاثليق) يخبره بالإيمان المعجزى لملك Keraits مع ٢٠٠,٠٠٠ من رعاياه ، وصاروا مسيحيين ، كما جاء في تاريخ ابن العبرى .

ورأى الرحالة الإيطالى ماركوبولو (Marco Polo) [١٢٦٥-١٣٢٣] في مدينة Kerait عاصمة كاراكورم (Karakorum) مسيحيين . ثم بدأنا نسمع عن مملكة برستّرچون (Prester John) الواسعة في وسط آسيا ، في القرنين ١٢ ، ١٣م .

وقد حمل الملك والكاهن برسترجون أيضا لقبّي Owang khan ، Unk khan ، ويرى البعض أن Owang لا تعادل يؤانس (Joannes) وأحياناً يطلق عليه اسم جنكيزخان ، والذى لم يكن معادياً للمسيحيين مثل تيمورلنك (Timur Lanc).

وإن طبيعة وسط آسيا التى سكنتها قبائل بدوية ، جعلت الحدود بين البلدان متحركة ، حتى إننا نجد المغول والأتراك في نفس المنطقة ، وهو ما نتج عنه عدم ثبات حدود برستر چون . فكان يعبرها المسافرون من وسط آسيا إلى الصين بسهولة . وتُشير رواية إلى أن حدود إمبراطوريته امتدت من الهند إلى الحبشة (إثيوبيا) .

ورغم أن معرفتنا بالمسيحية النسطورية – في أواخر العصور الوسطى – كانت محدودة ، فإن الاكتشافات الأثرية الحديثة في ولاية Semiryechensk ، في جنوب سيبريا– وحاليا داخل الاتحاد السوفيتي– تثبت بدون شك أن المسيحيين كانوا كثيرين في تركستان، حتى القرن ١٤م . فقد وُجِدَت جبانّات (مقابر) مسيحية ، بالقرب من قُرى Tokmak ، Pishpek بجوار بحيرة : Issiq Kol.

والكثير من المقابر لها شواهد (Stelae) بنقوش سريانية.ومؤرخة من ١٢٤٩ إلى ١٣٤٥م. ومن تلك الأمثلة شاهد قبر من عام ١٢٥٥م ويُشير إلى أنه للخورابيسكوبس (مساعد أسقف للقرى) المدعو: Ama، وشاهد آخر من سنة

١٢٧٢م ، الذى يدل على أن المدعو : زوما (Zuma) كان يحمل لقبّى كاهن وأمير مشهور (Amir) وابن القائد : Gawardis .

ونقش من عام ١٣٠٧م يكشف أنه قبر چوليا (Julia) زوجة الخورابيسكوبس Johanan ، وهى إشارة تفيد التهاون في مراعاة الإكليروس البتولية في هذه المناطق البعيدة . وهناك نقوش توضح وجود مسيحيين من الصين ومن المغول ، والتى توضح الخليط العِرْقى (الجنسّى) للمسيحيين ، وأن المسيحية قد رفعت الحواجز بين السريان والأتراك في وسط آسيا .

وكان يحلم الصليبيون بالتعاون مع المسيحيين الأسيويين تحت قيادة برسترچون، الذى ربما يتمكن من الوصول إلى الأراضي المقدسة للمساعدة في التخفيف من ضغط المسلمين عليها (وهو لم يحدث بالطبع) .

وكانت البعثات التبشيرية الغربية للشرق الأقصى والتى تقابلت مع النساطرة في وسط آسيا ، كتبت عن برسترچون وسلطانه الواسع هناك ، ومنهم John of Monte Corvino ، الذى كان أول رئيس أساقفة (مطران) لاتينى لمنطقة Khan Baliq ، وكتب عنه سنة ١٣٠٥م .

وظلت الحال كذلك إلى اجتاحت قوات تيمورلنك (١٣٣٦م-١٤٠٥م) وسط وغرب آسيا ، وقضت على المسيحية النسطورية في تلك المناطق .

+ + +

المسيحية في الصين :

ورد في كتاب Breviarum Chaldonicum (الموجز الكلدانى) السريانى ما نصه :"عرف الصينيون والأثيوبيون الحق عن طريق القديس توما" (الرسول). "ونشر القديس توما مبادئ الملكوت بين الصينيين". وأن "الهنود والصينيين يقدمون العبادة – تذكاراً للقديس توما- لإسمك يا مخلصنا".

هذه العبارات التى توضح وصول المسيحية إلى الصين **في عصر الرُسل** ، لا يمكن قبولها تاريخياً (في نظر الكاتب) ، ومع ذلك ربما وصل النساطرة إلى الصين ، في أوائل العصور الوسطى .

وأول بعثة مسجلة ومعروفة كانت في عهد البطريرك Yeshuyab الثانى (٦٢٨-٦٤٣م) أو بأكثر تدقيق سنة ٦٢٥م ، وقد وصلت إلى Si-ngnan-fu فى مقاطعة Shensi فى وسط الصين ، وقد ثبت ذلك من وجود حجر أثرى كبير، اكتشفته بعثات الچيزويت (اليسوعيين الكاثوليك) سنة ١٦٢٥م في تلك البلدة ، وهو من نقش طويل باللغة الصينية . وقد سجله الكاهن Ching-Ching بدير Ta-ch'in ، وله مقدمة بقلم آدم الخورابيسكوبس في : Zhinostan ، وحمل عنوان :"أثر عظيم لتذكار نشر ديانة الاستنارة Luminous (أى المسيحية) في المملكة الوسطى .

وبعد أن كتب الكاهن موجزاً هاماً عن المسيحية والكتاب المقدس ، ذكر أن الإمبراطور اللامع Tai-Tsung (٦٢٧-٦٥٠م) استقبل باحترام سنة ٦٣٥م راهباً فارسياً يُسمى A-lo-pen وكان فاضلاً وتقياً ".وكان يحمل النصوص المقدسة الحقيقية " (الكتاب المقدس) وقد قرأ الإمبراطور كُتبه ، وأمر بأن يعرفها كل شعبه .

وبعد ثلاث سنوات (٦٣٨م) أصدر قراراً ، يأمر فيه المسئولين المحليين في حى I-ning-gang لبناء دير ، لهذا الرجل المبارك، وأثنى عشر راهباً . وقبل نهاية القرن كانت الديانة الجديدة قد انتشرت في عشرة مناطق ، فى الفترات المتتالية للحُكام .

ويُشير النقش أنه قد تم وضع الحجر سنة ٧٨١م ، خلال أيام الكاثوليكوس حنّان شوّا (Hanan Shua) ، وينتهى بأسماء ١٢٨ شخصاً بالغة السريانية ويشملون كهنة ومطراناً يُدعى "آدم" .

وعلى كلٍ ، لم يواجه النساطرة أية معارضة خطيرة في التبشير بالمسيحية في الصين ، خلال القرنين السابع والثامن ، ولكنها عانت مع أديان أخرى في القرن التاسع . وكانت أول الضربات الموجعة ، عندما أصدر الإمبراطور Wu-tsung (٨٤٠-٨٤٦م) قراراً بعودة كل الكهنة والرهبان إلى الحياة العلمانية .

ومع أن المسيحية اضمحلّت فيما بعد ، لم تنقرض تماماً من الصين ، حتى أواخر العصور الوسطى ، وذلك واضح من المصادر السريانية والصينية والتي أيدتها حكايات الرحّالة العرب . وننقل عن الشاعر "أبودولاف" في بلاط نصر الثانى ابن أحمد ، في بُخارى (٩١٣-٩٤٢م) ، وكان قد لحق بسيده سنة ٩٤٢م بمصاحبة سفارة صينية ، في طريق عودتها لبلادها .

وفيما بعد كتب قصة مثيرة عن رحلاته ، سجّل فيها أنه قابل مسيحيين ورأى كنائساً ، في عدة مدن بالصين .

وفي عام ١٠٧٦م كان يوجد بالصين ديرين ، أحدهما في Sianfu، والآخر في Chengtu . ورغم أنه لا يوجد سجلات عن مطارنة تاليين في الصين ، لكننا نعرف - على الأقل - أنه نحو عام ١٠٩٣م عيَّن البطريرك Sabaryeshu الثالث الأسقف جورج للمساعدة في الخدمة ، ثم نقله إلى كرسي Khatai ، في شمال الصين .

وفي عام ١٢٦٦م كان الأسقف يوحنا من إيبارشية Hami أو Kamul - في الصين - حاضراً رسامة البطريرك Denha الأول (١٢٦٥م-١٢٨١م).

وكانت توجد ثلاث كنائس نسطورية فى مدينة - Iami (Yang-chau-fu) وكان يحكم نسطورى - يُدعى مار سرجيوس - مقاطعة Kian Su فى الصين في السنوات من ١٢٧٨-١٢٨٠م. وتم تعيينه في مركز في حكومة كوبلاى خان.

وفي عام ١٢٨١م بنى سبعة أديرة، وكان في عهده من ســـكان مدينـــة Chin-Kiang-fu عدد ٢١٥ مسيحياً .

وفي نهاية القرن ١٣ ، وجدنا رجلاً من أصـــل صينـــي ، علـــى كرســـى البطريركية النسطورية باسم yahballah (١٢٨٠-١٣١٧م) . وكان ابن رئيـــس شمامسة – ولُد في Koshang بشمال الصين– قد حمـــل اسـمًا ســريانيًا وهـــو مرقس، وقد تمت ترقيته إلى كرسى Cathay ، وبعد ذلك تم اختياره بطريركـــاً، عندما كان يحج إلى أورشليم سنة ١٢٨٠م.

وكان البلاط المغولى في حاجة لأطباء ممتازين ، وفنيين وكتبـَـة وحرَفييـــن مهرَة من النساطرة .

وكان الرَّبان صَوما (Rabban Sauma) المولود في بكين قد صار مطراناً لخان باليق (Khan-Baliq) وقد أرسله المغول فى بعثة دبلوماسية إلى أوربـــا ، واستمَّرت من ١٢٨٧م–١٢٨٨م . وزار القسطنطينية وروما وباريس وبـــوردو ، واجتمع بالإمبراطور أندرونيكوس الثانى (١٢٨٢م–١٣٢٨م) والملـــك الفرنســـى فيليب الرابع (١٢٨٥م–١٣١٤م) وإدوارد الأول الإنجلـــيزي (١٢٧٢م–١٣٠٧م) بالإضافة إلى البابا نيكولاس الرابع (١٢٨٨م–١٢٩١م).

وتشهد المصادر الصينيـــة، وكُـــلاً مـــن John of Monte Corvino ، وماركوبولو على وجود النساطرة في الصين، خلال القـــرن ١٤ . وكـــان فـــي Chinkiang نحو ثلاثة وعشرين أسرة مسيحية، نحو عـــام ١٣٣٣م ، وثلاثـــة كنائس نسطورية في yangchow في العقود الأولى من القـــرن ١٤ م ، عنـــد مجيء الإرساليات التبشيرية الرومانيـــة الكاثوليكيـــة . وقـــد ضعـــف موقـــف المسيحيين النساطرة واللاتين بسبب مشاجراتهم ، أمام المسلمين الآتين للصين . .

وبعد ذلك استولت أسرة Ming على حكم الصين من أيدى خلفاء كوبـــلاى خان المُتسامحين مع المسيحيين، في عام ١٣٦٩م . وبدأت اضطـــهادات شـــديدة

للديانات الأجنبية، وانتهت بانقراض المسيحية تماماً من الصين، بمرور القـــرن ، بينما قام تيمولنك بنفس الحملة التدميرية للمسيحية في وسط آسيا .

وقيل إن من آثار النسطورية ، في قلب آسيا ، بقايا طقوسها بشكل مشوه فـي العبادة المسماه Lamaism في التبت[1] ، والتشابه الكبير فيهما هـو الرهبنـة ، واستخدام الماء المقدس ، والبخور ، والملابس الخاصـة بالعبـادة، والمشـابهة للطقوس النسطورية ، والتي ترجع إلى تأثير التبشير النسطوري فى التبـت فـى قمة العصور الوسطى.

وقد زعم البعض أن المسيح جاء إلي وسط آسيا ، حيث حمل معه التعـاليم البوذية ، التى تشبه المسيحية ، والمستمدة من العبادة اللامية بالتبت !!.

ونظراً لأن البوذية لم تصل إلى التبت حتى سنة ٦٤٠م ، فلا يجـب علـى المؤرخ أن يُضيّع وقته ، في مناقشة شيء لا أساس له . ومن المُثير أن نذكـر أن اللاما ، الذى كان يؤدى طقوسه، كان لا يزال يدعو فيها (١٨٩٥م) إلـى عـودة الأسقف النسطورى ، بصلواته الطقسية القديمة !![2]

+ + +

النسطورية فى أماكن أخرى :

إن أكثر إسهامات النساطرة في نشر المسيحية – والثابتة للآن – هى التـى حدثت بدون شك في جنوب الهند ، حيث لا تزال كنيسة مار توما هيئـة دينيـة مسيحية رائعة .

ومع أنها غيَّرت طاعتها، وانقسمت، إلا أن أصولها – على أية حال– ترتبـط بالنسطورية. وسنخصص فيما بعد جزءاً من هذه الدراسة، لهذه الكنيسة القديمة .

---

(١) ولا تزال هناك للآن وزعيمها الروحى هو الدلاى لاما.

(2) Waddell, The Buddism of Tibet (London 1895) pp. 421-22.

ولدينا الانطباع أن أنشطة الإرساليات النسطورية – في العصور الوسطى– لم تُعرف حدوداً في آسيا . وقد توَغلت في المناطق الأسيوية في كل اتجاه ، وقد بشروا بالإنجيل في أماكن غير مشهورة ، مثل جزيرة سوقطرة الصغيرة في المحيط الهندى ، وهى قريبة من شواطئ الجزيرة العربية وإفريقية الشرقية.

وقد ذكر المستكشف الإسكندري (المصرى) قزمان Cosmas Indicopleustes وجود مسيحيين على تلك الجزيرة في القرن ٦م. وفي مناسبتين نقرأ عن رسامة أسقف لسوقطرة ، الأول في عهد الكاثوليكوس Enos (٨٧٧–٨٨٤م) ثم عهد البطريرك Sabar- Ishu الثالث (١٠٥٧–١٠٧٢م). وكان قرياقص أسقف سوقطرة حاضراً رسامة البطريرك yahballaha الثالث سنة ١٢٨٢م ، في مدينة بغداد .

واتجه البرتغاليون (الكاثوليك) إلى أماكن منعزلة ، حيث أقاموا فيها مستوطنات – في طريقهم للهند– وأرغموهم على اتباع مذهبهم في القرن ١٥م .

وتحت حكم الخلفاء المسلمين ، امتدت الطموحات النسطورية من شرق إلى غرب آسيا ، وكذلك إلى مناطق أصحاب الطبيعة الواحدة ، والأرثوذكس ، في الإمبراطورية البيزنطية المقاومة لهم .

ولذلك تبعت إرسالياتهم الغزاة العرب في سوريا وقبرص ومصر . وكان أول مطران نسطورى لدمشق ، قد تمت رسامته في القرن السابع . كما تمت الإشارة مرتين – لأسقف نسطورى – في مصر ، في منتصف القرنين الثامن والحادى عشر !! (ولم يذكر الكتاب مصدرة).

وكانت في طرسوس أسقفية نسطورية ، يبدو أنها ظلت بها حتى منتصف القرن ١٥م. وكان بأورشليم عادةً أسقف نسطورى ، وكان يحضر صلوات

وطقوس حُجاج هذا المذهب ، ولكن من الخطأ المبالغة في تقدير أهمية دورهم في تلك المناطق .

ولم تكن هناك استمرارية لهذه الإيبارشيات النسطورية ، ولم يكن عدد النساطرة أبداً عدداً كبيراً في تلك البلاد . وحتى في أورشليم ، التى تم رفعها إلى مستوى مطرانية سنة ١٠٦٥م ، عانى النساطرة من المقاطعة، واختفى مطارنتهم تماماً من المدينة المقدسة بعد سنة ١٦١٦م. والنساطرة القلائل الذين تركوا عقيدتهم في ساحل الليڤانت (سوريا ولبنان) قد ارتدوا إلى عقائدهم القديمة ، أو انضموا لمذاهب أخرى ، كما حدث في جزيرة قبرص .

+ + +

خاتمة :

بلغت الكنيسة النسطورية قمة امتدادها في القرن العاشر ، حتى وصلت وسط آسيا وإلى الصين والهند والشام ، ويذكر السمعانى Assemani في القرن ١٣ أنه كان للنساطرة فى زمانه ٢٥ مطرانية ، بمتوسط ٨-١٠ أسقفيات في كل منها، وجملتها تصل إلى ٢٠٠ أسقفية ، ولكن قضى عليها تيمورلنك في القرن ١٤ . والذى رغم أنه كان مسلماً ، لم يسلم مسلم ولا مسيحى من غزواته.وسُويت بغداد بالأرض ، وتم القضاء على كل العمل التبشيرى في بلاد فارس ، وماعدا ساحل ملبار بالهند ، بدأت الكنيسة النسطورية فصلاً جداً من الانهيار .

+ + +

١٤- النساطرة والخُلفاء المسلمين :

- **القرون الثلاثة الأولى :**

عانت الكنيسة النسطورية من مختلف الاضطهادات تحت حكم الإمبراطورية الساسانية (الفارسية) حتى القرن السابع . وعند مجيء العرب بدأ عهد جديد .

وخلال عهد الكاثوليكوس (الجـاثليق) Yeshuyab الثـانى (٦٢٨-٦٤٤م) استولى الغزاة العرب على Seleucia-Ctesiphan بعد موقعة القادسـية سـنة ٦٣٧م ، وبالتالى خضعت الإمبراطورية الفارسية للحكم العربـى ، وفـي عـام ٦٤٣م وصل العرب إلى حدود الهند . وكان آخر إمبراطور للساسـانيين،وهـو Yazdagird الثالث، قد هرب، إلى أن قتله أحد رعاياه في مروى سنة ٦٥٢م.

وباختفائه من على المسرح السياسي ، صار الخلفاء هم الحكـام الوحيـدون لفارس – بدون أى مُنافس من الفُرس – تحت حكم الخلفـاء الراشـدين (٦٣٢-٦٦١م) والأمويين (٦٦١-٧٥٠م) ، وصارت بلاد فارس ولايـة بسـيطة فـي الإمبراطورية العربية الشاسعة، حيث أنتقل مقر الحكومة من مكة إلـى دمشـق. وظل تحت حكم الأمويين حتى آخر أسرة أمويـة. وبقـدوم العباسـيين (٧٥٠-١٢٥٨م)، حكموا من عاصمتهم الجديدة "بغداد"، أو مدينة "السلام"، على ضفـاف نهر دجلة .

وانتقل مركز السلطة نحو الشرق مرة أخرى ، في فارس ، حيـث اسـترد الفُرس مكانتهم المفقودة في أحداث العالم . ونفترض أن هذا التغيير كان له تأثيره على النساطرة وكنيستهم ، بالرغم من أنه من المشكوك فيـه ، إن كـان السـيد الجديد (العرب) يعنى حدوث أى تغيير في حياتهم السياسية أو الاجتماعية .

وقد بدأوا يعانون – كأقلية خاصة – تحت حكم الإسلام ، كما كانوا في أيـام الفُرس . وكان موقفهم قد تحدد في مجمع سلوقيا Seleucia (قرب بغداد) سـنة ٤١٠م ، وعرف بهم الإمبراطور يزداجرد (yazdagird) الأول (٣٩٩-٤٢٠م)، وقد قبل الحكام العرب وضع النساطرة، بكل حقوقهم وواجباتهم السـابقة. وفـى الأيام الأخيرة من الحكم الفارسى، كان النساطرة عُرضـة لضرائـب متزايدة ، بسبب الحروب مع البيزنطيين .

وضاعف الإمبراطور شابور الثاني الضرائب العادية ، وفرض الإمبراطور خسرو الأول ضرائب على المسيحيين لإعفائهم من الخدمة العسكرية. ثم فرض العرب ضرائبَ على الأراضي الزراعية (الخرَاج) وضرائبَ على الأفراد (الجزية) ، بنفس الطريقة التى اتبعها أسلافهم (الفُرس) .

كما عانى النساطرة من متاعب شديدة خلال سياسة حُكم كلتا الإمبراطوريتين .

ومن ناحية أخرى ، فإن المسيحيين – بصفة عامة– يبدو أنهم كانوا في حالة أحسن مما كانوا عليه، في أثناء الحُكم الفارسى . وبالطبع شارَكوا اليهود مع الزرادشتيين (ويدعوهم العرب الصابئة) التمتع بميزات **أهل الذمة** (أى الرعايا الذين فى ذمة،أو تحت حماية المسلمين).

ويجعل القرآن المسيحيين أقرب إلى المسلمين من باقى الأديان ، وأن منهم قسيسين ورهياناً وأنهم لا يستكبرون (السورة الخامسة :٨٥) ، ووُصِفوا بأنهم: "أهل الكتاب" (الكتاب المقدس) ، "وأهل عهد" • وهو عهد عمر بن الخطاب الذى منحهم فيه حماية كاملة[١] لهم ولكنائسهم وأديرتهم.

ويرى بعض الباحثين عدم صحة هذا "**العهد العُمرى**".وأنه ربما قام المسيحيون بتزويره ، في تاريخ متأخر ، ليستفيدوا به لدى الوُلاة العرُب[٢] ، ويذكر المؤرخ النسطورى "Mari" أن البطريرك yeshuya الثانى رأى النبى محمد. وأنه أعطاه وثيقة تمنح النساطرة ميزات معينة. وأن الخليفة عمر بن الخطاب قد أكد شروطها، وأن "الإمام على" قد أعطى النساطرة وثيقة مماثلة،

---

(١) راجع نصه في كتابنا :"القدس وبيت لحم" (طبعة مكتبة المحبة).

(٢) وهو رأى خاطئ ، حيث ورد نصته في كتب المؤرخين العرب ، المعاصرين لابن الخطاب.

لسلوكهم النبيل مع جيشه في الموصل، حيث أمدوا جنوده بالطعام والماء. وأن لفائف دير سانت كاترين بجبل سيناء تضم خمسة نُسخ مما يُسمىَّ "عُهدَة النبي"(١).

وفي الواقع ، نجد أن الإسلام في بدايته قد احترم المسيحية والإكليروس ، وأن الخلفاء عاملوا المسيحيين بتسامح ملحوظ . وبالنسبة للنساطرة ، فإن Assemani يذكر أنه في خلال عقدين بعد الغزو العربي ، أن أسقف Adiabene كتب يقول :" إن المسلمين كانوا عادلين هكذا ، كما كان لا يُظَن عنهم ، وأنهم لم يكونوا بعيدين عن المسيحيين. وأنهم احترموا رجال الدين المسيحي ، وحموا الكنائس.

ومر وقت متأخر ، أى في القرن الحادى عشر ، أشار أسقف نسطورى آخر هو "إيليا" مطران نصيبين (١٠٠٨-١٠٤٩م) إلى العلاقات بين المسيحيين والمسلمين،ورَأىَ أن الضغط على المسيحيين لم يوافق عليه الفقهاء المسلمون .

وخلال القرون الأولى للخلافة ، تمتع المسيحيون بأحوال أفضل، عما كان في أواخر العصور الوسطى. فقد أحب العرب العدل ، واحترموا الشعوب المهزومة ، والنظم الحكومية (المالية والإدارية)،واستفادوا من تفوّق ثقافاتهم ، لأنهم جاءوا من أماكن صحراوية قاحلة ، ذات مستويات ثقافية محدودة .

وقد أراد العرب أن يكون لهم مكان في حضارات الشعوب المتقدمة ، والتى صارت الآن تحت حُكمهم،وعلى نقيض البرابرة،الذين حطموا الإمبراطورية الرومانية ، لم يقضِ العرب على حضارة هذه المناطق المُستولىّ عليها ، بل أرادوا الاستفادة بها ثقافياً وعلمياً واقتصادياً.

(1) Atiya, The Arabic Mss. of Mount Sinai, p. 26.

وقد اكتشفوا – في فـــارس– مراكـــز نســـطورية ثقافيـــة. فـــي نصيبيـــن وحندشابور، ومروى ، فشجعوها وانتفعوا بها . وقد قدمت الكثير من النابهين مـن العمالة الإدارية ، والمحاسبين (الصيارف) والكتبة للجهاز الحكومى العربى.

وقد قدم النساطرة الأطباء والمعلمين والمترجمين ، كما عرفوا كيف يكونون مطلوبين جداً للنظام (الإسلامي) الجديد [كما فعله الأقباط] . ورغم تعدد مـــرات الضغط عليهم ، فقد ازدهروا ، وأحياناً جمعوا ثروات هائلة .

وليس من الضرورى إعطاء وصف للاضطهادات ، لإظهار الجانب المُظلِـم في عصر منير . ويجب أن تتم دراسة كل اضطهاد بدقة ، وأن يتم فحصه علـــى ضوء كل تفاصيله . وبعضها كان راجعاً لحقد،وتعصب البعض ، وغيرها بســـبب المسيحيين أنفسهم !

وكان الضغط على المسيحيين في عهد **عمر الثـــانى** [٧١٧–٧٢٠م] – راجعاً لسبب رئيسي اقتصادي . وكان **حكم المـــهدى** (٧٧٥–٧٨٥م) مشـــهوراً بأردأ اضطهادات ، بما فيها اضطهاد المسيحيات !!.

وعندما أعلم الوزير المجنون "حمدون" الخليفة (العباسى) **هـــارون الرشـــيد** (٧٨٥–٨٠٩م) أن المسيحيين يعبدون عظام موتاهم ، في كنائس البصرة والأبُلـــة Ubullah ، أمر بتدمير الكنائس. ولما سمع رأى المسيحيين عن هـــذه الذخـــائر المقدسة (relics) أمر ببنائها من جديد .

وفي عهد الخليفة **المتوكل** (٨٤٦–٨٦١م) تم خلع البطريـــرك النســـطورى ثيؤدوسيوس ، والاستيلاء على أمواله ، وتمـــت الإســـاءة للمســـيحيين . وكـــان الاضطهاد هذه المرة نتيجة مكيدة مسيحى يُدعى إبراهيم بن نـــوح ، الـــذى قـــدم شكوى ضد الكاثوليكوس بدافع الغيرة (كما رواه المؤرخان Mari وابن عبرى).

وكانت تقوم اعتداءات من الغوغاء على المسيحيين ، كما حدث في حرق كنيسة نسطورية ، في عهد البطريرك يوحنا السادس (١٠١٣-١٠٢٠م).

وبعدما مر الوقت ، وزاد عدد المسلمين في بلاد الشرق الأوسط ، وأصبحت لهم قدرة هائلة ، تم استبعاد المسيحيين من الأعمال الرسمية ودواوين الحكومة .

ولم يُطبَّق هذا النظام (الضغط والطرد) بصفة دائمة . ويمكن تلخيص الوضع من مصدر عربى فقهّى معاصر ، وهو الكاتب المدعو "**الماوردى**" في القرن ١١م، معلقاً على عهد (عقد) حماية "الذمى" (المسيحى أو اليهودى) بقوله :

- "إن الذمى مُقيدً بشروط بعقد الحماية ، بأن : يحترم كتاب المسلمين المقدس (القرآن) ، ولا يتحدث بسوء عن النبى محمد ، ولا عن الدين الإسلامي . وعلاوة على ذلك لا يقترب من مسلمة ليتزوجها ولا لغرض سّيء ، ولا يبعد مسلماً عن دينه ، ولا يضرّه ، أو يأخذ أملاكه ، ولا يساعد عدواً للإسلام أو يصير جاسوساً" !!.

وكانت هذه الالتزامات حتمية ، وغيرها مأمور بها أيضاً ، وتشمل ارتداء لباس مُعيّن ، والامتناع عن إنشاء مبانٍ أعلى من تلك التى للمسلمين ، وعدم استعمال أجراس الكنائس ، وعدم شُرب الخمر ، أو رفع الصليب علناً.أو إظهار الخنزير للعامة ، أو الظهور بمظهر الأُبهَّة ، أو البكاء في أماكن الدنس ، أو ركوب الخيل !!. وكانت مخالفة هذه الأوامر تؤدى إلى العقاب القانونى ، مع أنه في التطبيق كان هناك ارتخاء في تنفيذ الولاة لها .

وأما بالنسبة لمكانة المسيحيين في المجتمع ، فكانوا بعيداً عن الاحتقار ، كما ذكر أحد المُعَلقّين بأنهم كانوا يحترمونهم للغاية ، وكان منهم كتبَة (سكرتارية) السلاطين ، وأُمناء خزائن الدولة . وفي بلاط الملوك ، وأطباء النُبلاء ، وصيارفة للدولة.

وكان كبار المعلمين في بداية العصر العباسى – في بغداد – من النساطرة . وكانت أكبر أكاديمية للعلوم تُدعى "دار الحكمة" ، وقد أنشأها الخليفة المأمون سنة ٨٣٠م ، وكان معظم علمائها من النساطرة ، الذين أجادوا اللغات السريانية واليونانية والعربية ، وقاموا بتعريب أعمال اليونانيين العلمية والفلسفية .

ومن أشهر العلماء النساطرة حنين بن اسحق (٨٠٩-٨٧٣م) ، الذى قام بترجمة مئات الكُتب ، رغم وجود القليل منها فقط . وقد صار رئيساً لدار الحكمة. وكان مُرتبه الشهرى ٥٠٠ دينار من الذهب ، ودفع له الخليفة المأمون – بالإضافة إلى ذلك – وزن الكتب التى ترجمها ، من الذهب .

وكان يساعده وخَلفَه إبنه إسحق ، وابن أخيه حبايش بن الحسن ، وعيسى ابن يحي بن إبراهيم ، وكلهم علماء نساطرة . وعن طريقهم، وعن غيرهم، انتقلت كل أفكار الإغريق وحكمتهم إلى الأدب العربى .

كما وجد الأطباء النساطرة طريقهم إلى قصور الخلفاء . وكسبوا ثقتهم من خلال تقديم خدمات طبية أمينة وعظيمة . وقد أتى الخليفة المنصور بالطبيب النسطورى الشهير جرجس بن بختيشوع ، من الأكاديمية الطبيّة ومستشفى جُندشابور، ليعالجه من ألم خطير في المعدة نحو عام ٧٦٥م.

وبعد ذلك، استقر هذا الطبيب في بغداد ، حيث اكتسب . شُهرَة عظيمة في بلاط هارون الرشيد . وقام بتأسيس أُسرَة من المتخصصين في الطب ، استمرت ستة أجيال ، في وقت كانت فيه المعرفة الفنية حِكراً على البعض، وانتقلت سِراً من الأب إلى إبنه.

وقد تعيَّن إبنه جبريل بن بختيشوع طبيباً خاصاً للمأمون، وكان له نفوذه في قصره .

وجمع حنين بن إسحق بين الترجمة وفنون الطب ، كما تـم تعيينـه طبيبـاً خاصاً للخليفة العباسى المتوكل . وقد جمع العلماء النساطرة أموالاً طائلـة . وزاد توقيرهم في المجتمع، بسبب مهارتهم وخبراتهم ودقتهم في عملهم.

وبينما جنى الأفرّاد مناصباً وشُهرَة وثرَوة ، خلال حكم العرب لفارس ، فـى الثلاثة القرون الأولى ، لم تتوقف الكنيسة النسطورية عـن نشـاطها الروحـى والدولى في شرق آسيا، وتساوى النساطرة فى الحقوق مع بـاقى رعايـا الدولـة (العباسية).

وقد وافق الخليفة المعتضد (٨٩٢-٩٠٢م) على تعيين نسطورى والياً للإقليم الهام "الأنبار" بجوار بغداد ، عاصمة الإمبراطورية ، مما ضايق المسلمين وسبَّب مُعاناة المسيحيين منهم.

وكانت العُهدة العمرية تنص على عدم بناء كنائس جديدة ، مـع الأحتفـاظ بالقديمة وترميمها ، ولكن النساطرة تجاهلوا ذلك ، في أوقات السـلام ، وقـاموا ببناء كنائس جديدة وكبيرة . وقام كبريانوس أسـقف نصيبيـن بصـرف مبلـغ ٦٥,٠٠٠ دينار ذهب على كنيسة واحدة شيدّها سنة ٧٥٩م فـي زمـن خلافـة المنصور (٧٥٤-٧٧٥م) . وكان هذا التباهى له صداه على موقـف النسـاطرة وكنيستهم في القرون التالية .

وكان التقدم الذى حدث للمسيحيين في القرن التاسـع قـد صـوَّره الكـاتب الشهير "**الجاحظ**" (المتوفى سنة ٨٦٩م) فامتدح قدرتهم في العمـل وثـار علـى المضايقات التى حدثت لهم ، ولكن هذه الهجمات التى حلـت بالنسـاطرة بـدون مبرر ، وانشغال الكنيسة بالماديات ، أدى فـي النهايـة إلـى نتـائج مدمـرَة وخطيرة.

+ + +

بدء الانحدار :

عندما تخلى الخلفاء عن العاصمة الساسانية القديمة Seleucia-Ctesiphon ، بنوا عاصمتهم الجديدة "بغداد" من ٧٦٢-٧٦٦م وقام البطريرك حنانيشو (Hananyeshu) الثانى (٧٧٤-٧٧٩م) بنقل دار البطريركية إلى بغداد سنة ٧٧٥م ، مع أنه ظل يحمل اللقب القديم كبطريرك لسلوقيا طيسفون .

ونظراً لأنه كان رئيساً لإحدى المجتمعات الأكثر غنى ونفوذاً. في الإمبراطورية الإسلامية ، فقد احتل مكانة في الإدارة المركزية ، كواحد من أهم شاغلي المراكز في الدولة . وكان ذلك أحياناً ، بسبب رضا الخلفاء عنه ، أو من خلال الرشاوى والهدايا ، المقدمة للمسئولين والخلفاء .

وأما من الناحية الروحية ، فقد كانت الزّعامة الدينية في انحدار ، في وقت كانت قد وصلت فيه الكنيسة النسطورية إلى أكبر حدود أتساعها في آسيا .

وأصبح بطاركة النساطرة ، يشبهون عمالاً مدنيين، وكذلك شخصيات دينية، وكانوا يُكلفون أحياناً بالقيام ببعثات دبلوماسية إلى القسطنطينية وروما .

كما امتلأت البطريركية برجال طموحين للمناصب . وكان المرشحون مستعدين لشراء الأصوات في الانتخابات بمبالغ كبيرة . وحتى في الجزء الأخير من القرن الثامن، كان يمكن أن نلاحظ علامات الفساد في أمور الكنيسة .

وعند انتخاب تيموثاوس الأول (٧٧٩-٨٢٣م) وضع المرشح تحت إمرّة المنتخبين زكائب ثقيلة مملوءة بالأموال ، يتم فتحها عند نجاحه ، وعندما تم ترشيحه ونجاحه ، فتحها أعوانه . فوجدوها مملوءة بالأحجار !!، فدافع عن نفسه بقوله :" إن الكهنوت لا يُشترَى بالمال" !!.

وقد غضب الأساقفة الذين خاب أملهم ، وأرادوا إحلال منافسه إفرايم الجندشبورى محله ، ولكن مر الوقت المناسب لذلك لأنه كان قد اشترى اعتماد انتخابه ، وهزم الثائرين ضده .

ومع ذلك قد برّهن على أنه كان أقدر البطاركة النساطرة . وقد أحب التعليم وشجّع إنشاء المدارس . وكان على علاقة طيبة مع هارون الرشيد ، وقلل كثيراً من عادة زواج الأساقفة. وحارب الهرطقات ، وكان له أكثر من مائتيّ أسقف مساعد ، وكانت لديه الآمال في نشر النسطورية في الغرب (الشام) بالكتابة إلى الموازنة للانضمام إلى كنيسته وقبول عقيدته ، ولم تتحقق رغباته .

وكانت مدته الطويلة – ٤٠ سنة – قد ساعدته على تثبيت الكنيسة ، وهو ما بدأت تفقده فيما بعد. وكان كاتباً كبيراً ، وقد ترك بحثاً فلكياً بعنوان "كتاب النجوم" ، ومراسلات وصلت إلى عدد ٢٠٠ رسالة ، ودفاع عن الإيمان المسيحى، على شكل مناقشة مع الخليفة المهدى ، والعديد من العظات ، وترجمة للاهوت القديس غريغوريوس النزينزى .

وصارت الكنيسة النسطورية فريسة للمتنافسين على الكرسى البطريركى ، وهو ما أدى إلى وجوده شاغراً فترات طويلة ، وغالباً ما كان يكسب – في النهاية– من يدفع أكثر !!. وسجلات تلك الشخصيات ناقصة ، ولكن في القرن ١٢م ، وجدنا ثلاثة بطاركة قد تقلدوا المنصب ، بعد دفع رشاوٍ كبيرة .

وقد عُرِف عن البطريرك yeshuyab الخامس أنه دفع في سبيل كرسي البطريركية ٥٠٠٠ دينار سنة ١١٤٨م ، ولم يكن هذا الوضع بسبب اضطهاد خارجى ، ولكن نتيجة لأحوال الكنيسة الداخلية. ومن الجدير بالذكر ، أن انحدار الكنيسة النسطورية ، وخاصة في القرنين ١٢ ،١٣ م كان انعكاساً للإنهيار التام فى بناء الخلافة العباسية نفسها .

ففي القرن ٩م ، قرر الخليفة المعتصم (٨٣٣-٨٤٢م) استخدام حرّس خاص من العبيد الأتراك ، لأول مرة في العصر العباسى .

ومثل استخدام الأباطرة الرومان لقوات بربرية ، فإن الأتـــراك اســتطاعوا الاستيلاء على كل السلطة من أيدى الخلفاء ، الذين صـــاروا مجــرد أشــكال ، ورموز للماضى العظيم ، لا أكثر .

وانقسمت الإمبراطورية الإسلامية إلى مناطق تحكمها أســـرات مســتقلة أو شبه مستقلة . فجزء من أسبانيا والشيعة الأدارسة والأغالبة في شمال إفريقيـــة ، الذين لم تكن لهم أية علاقات ببغداد . والطولونيون (٨٦٨-٩٠٥م) ومن بعدهــم الإخشيديين (٩٣٥-٩٦٩م) في مصر ، اعتبروا الخليفة العباسى مجـــرد ظــل . بينما مال الحمدانيون (٩٢٩-١٠٠٣م) في شمال سوريا إلـــى حُكـم الفــاطميين (٩٦٩-١١٧١م) فور تكوين دولتهم في مصر .

وفي المشرق ، لم يكن الموقف أسعد حالا ، بسبب انفصال الولايات هنـــاك. فبينما سيطر الطاهريون (٨٢٠-٨٧٢م) Tahirids على السلطة في خورســان ، خلال القرن التاسع ، اســـتولى الصفويــون Saffarids (٨٦٧-٩٠٣م) علـــى سيچستان Sijistan ، في نفس الفترة .

واستقل Samanids (٨٧٤-٩٩٩م) فـــي Transoxonia وأجــزاء مــن فارس، واستقر الغزنويون (Ghaznawids) [٩٦٢-١١٨٦م] في أفغانستان . ثم امتد حُكمهم إلى البنجاب الهندية (وحاليا باكستان)، خلال القرن ١٢م . وقضـــى المغول – في النهاية– على الخلافة العباسية وولاياتها الشرقية (الأسيوية).

وعاشت الكنيسة النسطورية وشعبها ، وسط تلك الأحداث العظيمة – تعــانى من الاضطراب الضرورى– في إدارة مجتمعاتهم .

ومع أن المغول نلوا الخلافة العباسية وعاشت في بؤس ، ولكن النســـاطرة عاشوا في حال أفضل ، لأن المغول مالوا إليهم !!. وإن كانوا – في الواقع – قــد عانوا من الخراب الذى فعلته قوات جنكيز خانْ (١١٦٢-١٢٢٧م) ، التى تركـت

المدن العامرة – في أوائل عقود القرن ١٣م – ، مثل بخارى وسمرقند ، وبلـــخ ، وحيرات ، خالية من السكان. وصارت رماداً بسبب حرقها وهدمها .

وفيما بعد أراد الخان الأكبر "مـــانجو" (Mangu) (١٢٥١-١٢٦٠م) فـــي بداية أول عام لحكمه ، أن يضم الصين إلى امبراطوريته الواســعة ، وأن يحكـــم كل قارة آسيا .

لذلك أرسل إثنين من إخوته على رأس جيشين كبيرين : كوبلاى خان إلـــى الشرق ، وهولاكو (Hulagu) إلى الغرب . وخلف كوبلاى خان أخـــاه مـــانجو (١٢٦٠-١٢٩٤م) ، بينما أرسل هولاكو للسيطرة على فارس ، ودام هناك حتـــى القرن ١٤ (١٢٥٨-١٣٣٥م) .وتفاصيل تلك الغزوات كثيرة ومتشـــابكة ، ومـــن الصعب معالجتها هنا .(١)

ولكن هناك أموراً جديرة بالإشارة ، لارتباطها بالمسيحية النسطورية . فقـــد قيل إن مانجو خان كان نفسه مسيحيا !!.

وكان بسط "**السلام التتارى**" على ربوع الصين (pax tartarica) لابُد أنـــه مهد الطريق للامتداد النسطورى المسيحى في الشـــرق الأقصـــى ، بينمـــا كـــان استيلاء هولاكو على بغداد ، وانهيار الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨م ، قـــد تبعتـــه أحداث مثيرة من وجهة النظر النسطورية ، وكان لهولاكو زوجة مسيحية – هـــى Dokuz Khatun– ولم يكن ضد المسيحيين .

وعندما رأى الخليفة العباسى "**المعتصم**" (١٢٤٢-١٢٥٨م) أن النهاية قريبة، أرسل وزيره "ابن العلقمى" – بمصاحبـــة البطريـــرك النســـطورى Machicha الثانى (١٢٥٧-١٢٦٥م) ، ليطلبا (من المغول) أفضل شروط للتسليم .

---

(1) Cfr. Howorth, History of the Mongol, vol.3, pp. 154-275.

ورغم أن هولاكو رفض أن يستمع إليهما ، لكن تلك الحادثة تدل على مدى اعتماد الخلفاء على الكاثوليكوس النسطورى . وعندما هبت عاصفة المغول على بغداد ، تم ذبح الخليفة وحاشيته ، مع نحو ٨٠٠,٠٠٠ من سكانها ، أنقذ النساطرة حياتهم بالاحتماء بالكنائس .

ولما عاد الهدوء إلى المدينة ، تم منح المسيحيين حرية كاملة ، وماهو أكثر، كان إعطاء الكاثوليكوس قصراً ، كان مقراً لسكرتارية الخليفة (دار الدويدار) ، وانتقل إليه البطريرك النسطورى ، وبنى بداخله كنيسة .

وكان خليفة هولاكو :"أباجا" (Abaga) [١٢٦٠-١٢٦٥م] رحوماً بالمسيحيين مثل سابقه ، ولكنهم فقدوا ثقة الحاكم المغولى. وحدث ذلك ، في عهد البطريرك Denha الأول (١٢٦٥-١٢٨١م) الذى قام بتهريب رجل نسطورى مُسّن كان قد تحوّل للإسلام – من تكريت – وأغرّقه في نهر دجلة سنة ١٢٦٨م، وهو عمل طائش ، ظهرت ثماره الشريرة فيما بعد .

كما اندفع في عمل مسيرات في العاصمة – تحت حماية الجنود المغول – مما أثار المسلمين فقاموا بالاعتداء عليهم .

وقد عانت الكنيسة من اضطراب داخلى ، لوجود خلافات بين الاكليروس . كما تم القبض على البطريرك النسطورى yahballaha الثالث (١٢٨١-١٣٧١م) وعذبته السلطات بسبب شهادة زور من إثنين من أساقفته ، وهو ما يدل على سوء حالة إدارة الكنيسة الآشورية فى تلك المرحلة.

ولما ثبت براءة البطريرك ، عرض مونجول خان قتل متهميّه زوراً ، ولكنه لم يوافق، واكتفى بعزلهما وطردهما. ولكن ظل غضب المغول من الأساقفة النساطرة، وبدأ ميلهم يتذبذب بين المسيحية والإسلام، في تلك الفترة .

وكان أول خان مغولى في فارس ، قد اعتنق الإسلام جـــهراً هـــو "أحمـــد" (١٢٨٠-١٢٨٤م) ، وقد تبرأ منه كلاً من كوبلاى خان في الشـــرق ، وخليفتـــه Arghun (١٢٨٤-١٢٩١م) الذى مال مرة أخرى للمسيحييـــن ، والذى أراد أن يتحالف مع الإمبراطور الأوربي ، ومع بابا روما ، عن طريق بعثـــة بارصومـــا الشهيرة سنة ١٢٨٧ م.

وظل الود مع المسيحيين حتى موت Baikhatu (١٢٩١-١٢٩٥م) الـــذى ترك إثنين لولاية العرش ، والأول هو Baidu. وكان مسيحياً في قلبـــه. وأعـــاد بناء الكنائس المُتهدّمة ، والثانى هو غسان Ghazan (١٢٩٥-١٣٠٤م) وقد قـــام بذبح منافسه وقبض على العرش .

وبهذه المناسبة ، أعلن جهاراً تحوله النهائى للإسلام ، فـــي نفـــس العـــام ، فانقلب وضع المسيحيين . وأُرغِم البطريرك على ترك قصـــر "دار الدويـــدار" ، وقام صراع بين العرب والأكراد ضد النساطرة (١٢٩٥-١٢٩٦م) بدون توقف .

وبتّقدِم القرن التالى شهد تجدد الاضطهاد النسطورى بكل شدة ، حتى ولـــو كان ضد رغبة الخان، وكان ذبح المسيحيين بشكل مخيف ، وخاصة في مدينـــة مرّجة (Maragha).

وقد جاء وصف الاضطهاد في مرجة ، في تاريخ yahballah الثالث . وقد سيق البطريرك بعنف – من الغوغاء – وتعرض لمزيد الإذلال. وأســـقف آخـــر تمت سرقته وتعذيبه . وتم تدمير دير القديس **"تداوس الرسول"** ، حيـــث كـــانت توجد ذخائره المقدسة. وقد تم إنقاذ yahballah ، بدفع فدية كبيرة وبتوسط مـــن Hayton ملك أرمينيا .

واستمرت الحملة الشديدة ضد النساطرة ، وخرجت عن ســـيطرة غســـان . وفي السنة التالية (١٢٩٧م) صارت إربل مسرحاً للصراع الدينى . حتى خـــاطر غسان، وقبض على زعيم الثائرين على النساطرة .

وقد سُمِح للبطريرك بإعادة بناء دير مرجة . وساد السلام ، إلـى أن تولـى Uljaitu (١٣٠٤-١٣١٦م) الذى قيل إنه قد تربّى كمسيحى، رغم عمله العام في الإسلام ، أولاً مع المذهب السُنّى ، ثم تحوّل إلى المذهب الشيعى ، حيـث تغـيّر لقبه من Khudabanda (خادم الله) إلـى Kharbanda (= Muleteer) وقـد تصرّف برحمة نحو المسيحيين . ومنع ضريبة الرأس التى ضايقتهم .

وإنتهى القرن ١٣م ، وبدأ القرن ١٤م وسط اضطراب وانحلال حكم المغول في فارس . فقد كان آخر حاكم تلك السلسلة ، هو أبـو زيـد (١٣١٦-١٣٣٥م) وشهد ثورة أخرى في دياربكر ، حيث تم أسر ١٢٠٠٠ من المسيحيين. وصـاروا عبيداً، أو تم ذبحهم . وتم ضرب الأسقف مار غريغوريوس حتى الموت ، كمـا تم حرق كنيسة القديسة مريم الرائعة (١٣١٧) .[1]

وكان انحسار الكنيسة النسطورية مستمراً ، وأن الاتجاه نحو انحدار ثـابت للشعب النسطورى ، قد زادت سرعته في القرن ١٤م، بحادثة أشد خطراً !!.

فقد ظهر **تيمورلنك** (١٣٩٦-١٤٠٥م) الذى لم يكـن مـن المغـول. ولـم يشاركهم معاملتهم الرحيمة للمسيحيين، ولكنه كان مسلماً من قبيلة بدائية ، وعاش في سمرقند ، بعد اغتصاب عرش سيده المغولى Chagátay Khan ، ثم صـار أقسى الغزاة في التاريخ . واستولى على عدة مدن فـي خورسـان وافغانسـتان واذربيجان وكردستان .

وفي عام ١٣٩٣م استولى على بغداد مع كل أراضى الرافديـن. ثـم عـبر شرقاً إلى الهند . ثم هزم الأتراك العثمانيين سنة ١٤٠٢م، وأسر السلطان بـايزيد

---

(١) ويذكر ابن عبرى ، في تاريخه ، أن هذا الأسقف كان يعقوبياً ، وكـانت هـذه الكنيسـة أرثوذكسية ، كما يراه البعض ، لأن النساطرة يرفضون الاصطلاح " **Theotokos** " (والـدة الإله).

الأول. وكان عنيفاً في تحطيم المدن وسكانها ، اكثر مما فعلـــه المغــول . ففـــي فارس – على سبيل المثال– ترك هرماً من ٧٠ ألف من الجماجم ، على خرائـــب أصفهان، ٩٠,٠٠٠ على بقايا مدينة بغداد ، وكان منهم المسلمون والمســيحيون ، الذين عانوا جميعاً بالتساوي ، ولم يعد المسيحيون مقبولين ، بل عوقبـــوا بشـــدة على إيمانهم المسيحى.

وزاد إنحدارهم الذى كان قد بدأ قبل مجيء تيمورلنك ، واختفـــت الكنـــائس القديمة في عدة مدن، فى عام ١٣١٨م ، وبعضها اختفى بيـــن ١٣١٨–١٣٦٠م . وبعد هجوم تيمورلنك ، تم هدم كنائس بغداد والموصل وإربل (إربيـــل الحاليـــة) ونصيبين وبكَرّدا (الجزيرة) ، وكانت تـــبريز ومرَجـــة مـــن قـــلاع المســـيحية النسطورية *مع باقى مدن فارس* قد خربّها تيمورلنك مـــع كـــل مؤسســـاتها . وتمت إبادة مجتمعات كاملة. وفقْد كثيرون مناصبهم ، وغيرهم دخلـــوا الإســـلام لإنقاذ أنفسهم من الذبح !! (وفقدوا أكاليلهم الأبدية).

وأما الذين تمسكوُا بالمسيحية ، فقد هربوا من المدن والسهول إلـــى جبـــال كردستان بين بحيرة Urmia، وبحيرة Vàn ، وتم نسيان النسطورية تمامـــاً فى الصين ووسط آسيا. وأصبحت مجرد ذكرى قديمة، في دارها القديمة في فـــارس وبين النهرين (العراق) . وعاش النساطرة في فقر وجهل وعُزلَة ، إلى أن أُعيـــد اكتشافهم ، في الأزمنة الحديثة .

+ + +

١٥– النساطرة في الأزمنة الحديثة :

• العُزلَة والانشقاق وإعادة اكتشافهم :

تم دفع النساطرة – بعد غزو تيموِرليك – بالتدريج ، من الســـهول ، ومـــن مدن فارس والعراق وكردستان، إلى أماكن أكثر أمنـــاً ، مثـــل مرتفعـــات جبـــل

Hakkiari. وقد سُمِع عنهم عام ١٥٥١م في Taurisum (تبريز في إيران حالياً) وفي عام ١٥٥٣م في بغداد .

وانتقلت البطريركية من مدينة الخلفاء العباسيين إلى مرجة، شرق بحيرة Urmia . وحتى في نصيبين ، معقل العِلم النسطورى ، يبدو أنهم قد اختفوا منها سنة ١٥٥٦م ، واحتلوا تقريبا المساحة المثلثة بين البحيرتين أورميا وڤان . في المنطقة الجبلية الواقعة بين أذربيجان وكُردستان ، وعلى حدود إيران وتركيا والعراق الحالية .

وقد عاشوا بين دولتين عدائيتين ، وكانوا محاطين بقبائل بدائية من الأكراد واليزيديين . وصاروا في عزلة – لعدة قرون – وبعيدين عن الحضارة وعن العالم الخارجى ، وقد نسيتهم الشعوب والكنائس المسيحية الأخرى . وفي هذه العُزلة الطويلة ، صاروا فريسة سهلة للجهل ، وفقدوا تقاليدهم اللاهوتية القديمة . وصارت الشكلية هى سمة ظاهرة في عبادتهم وممارستهم الدينية .

وفي ظل صراعهم على البقاء ، خضعوا لزعامات قبائلهم ، وكان منهم البطريرك ، أو الكاثوليكوس ، كرئيس دينى ، وحاكم ثيؤقراطى ، مسئول عن المشاكل الدينية والمدنية . وبذلك تطورت البطريركية إلى مؤسسة وراثية بين النساطرة .

ونظراً لأن البطاركة كانوا بتوليين ، فقد كانت البطريركية من نصيب العم أو ابن الأخ . وكان هذا النظام يسير بالرضا بين الأجيال الأولى ، لكن كانت له نتائج مدمرة على المدىً الطويل. وذلك راجع إلى أن الكرسى البطريركى النسطورى كان يتوّلاه شبابا ويقعون تحت تأثير أمهاتهم ، أو أخواتهم المسنات ، اللواتى أدرّن شئون المجتمع بطريقتهن الخاصة ، وطبقّ الأساقفة نفس أسلوب وراثة الإيبارشية .

وفي القرن ١٥م لم يقبل النساطرة هذا النظام الوراثى للكرسى ، لذلك لما مات البطريرك شمعون بن ماما سنة ١٥٥١م ، ساند عدد من الأساقفة جزءاً كبيراً من المجتمع النسطورى ، الذين رغبوا في اختيار مرشح ، أنسب من ابن أخيه شمعون دِنها (Denha) ، وتم تفضيل راهب ناضج الفِكر يُدعَى يوحنا سولاكا (Sulaka) من دير هُرمزد (Hurmizd) .

وباختياره حدث انشقاق خطير في الكنيسة النسطورية ، بالخضوع لروما . وصدر له قرار باعتماده. ولكن بعودة البطريركين السابقين للإعتراف بسلطان روما سنة ١٨٢٦م ، اقتنع البابوات الرومان بإسقاط الإعتراف بالثالث . واختفى من مسرح الأحداث في نفس العام .

ومن هذه التطورات ، يمكن أن نستنتج إن الكلدانيين[٢] (Chaldaean) الموجودين حالياً (١٩٦٨م) في الموصل من تابعى الكنيسة الفارسية الشرقية القديمة، التى كانت معقل النسطورية ضد الغرب (الشام).ولا يزال أتباع روما من النساطرة في أمريكا ، وفي نفس الوقت يتمسكون بالأفكار النسطورية القديمة !!.

---

(٢) الاسم "كلدانى" عِرقى وليس دينى ، ويستخدم منعاً من استعمال إسم "نسطورى كاثوليكي". وقد انضم سنة ١٩٠٢ اثنان من الأساقفة النساطرة مع عدد عشرين ألفاً إلى الكنيسة الكاثوليكية، ويقدر البعض عدد الكلدانيين الإجمالي بنحو ٩٦,٠٠٠. وقد عانوا الكثير من الخسائر في المذابح المختلفة التى جرت لهم . ورئيسهم هو "كاثوليكوس بابل" ، ويُقيم في الموصل ، مع عشرة أساقفة ، وكان له كرسى في المجلس النيابى العراقى ، وقد نشطت خدمة الدومنيكان بينهم منذ سنة ١٨٨٢.

وقد قام غبريال Dumbo من ماردين بإصلاح الرهبنة الكلدانية ووضع لها نظاماً جديداً ، وأسماها : Antonians of St. Hormisdas سنة ١٩٠٨م ، ويستخدم القُداس السريانى ، بعد تعديله مع المفهوم الكاثوليكى . وأهم مساهمات الكاثوليك للكلدانيين، في ميدان التعليم ، والتأكيد على مبدأ طبيعة وراثة البطريركية !!.

وكان النساطرة التابعين للأتراك في وضع أقوى لإصدار فرّمان خاص لهم من الباب العالى (السلطان العثمانى) ، بينما عانى الباقون تحت حكم أمير تركستان بدفع أموال كثيرة له. وإذا أنفض عن حمايتهم، بدأت عليهم موجة من الاضطهاد .

وكان الاتصال الوحيد للمسيحيين بالنساطرة – منذ عدة قرون – عن طريق روما . وكان هدف البابوات ضمهم للكنيسة الكاثوليكية وعقيدتها . وحتى بداية القرن ١٩ ، كانت العلاقات قد انتهت ، وظل النساطرة كما كانوا من قبل .

وكان أهل الغرب لا يُبالون بوجود النساطرة ، ولكن فجأة جاء عصر إعادة اكتشاف مجتمعهم الصغير ، وتبدأ القصة بممثل شركة الهند الشرقية الإنجليزية: "كلود" Claude James في بغداد ، ولم يكن شخصاً مُتديناً ، ولكنه كان متقفاً وله اهتمامات شديدة بالآثار .

وقد زار موقع المدينة الكتابية "**نينوى**" سنة ١٨٢٠م ، وقد أدهش تقريره عن المنطقة الدوائر المختصة ، علمياً وتبشيرياً ، فى إنجلترا وأمريكا . وقد كشف لهم عن الأجناس المحيطة بالمدينة من الآشوريين ، الذين كانوا لا يزالون يتكلمون لغة شبيهة بتلك التى كان يتكلمها السيد المسيح ورسله (الآرامية التى تطوّرت إلى السريانية).وأن شكل مسيحيتهم يحتاج إلى الدراسة، والشفقة عليهم . وبدأت حملة منظمة للكشف عن آثار نينوى بإشراف Layard .

التاريخ الحديث :

وقد وصلت الإرساليات الفرنسيسكانية إلى الحقل النسطورى عن طريق أورشليم . والواضح أنها أقنعت البطريرك الجديد بأنه يمكنه أن يُقوّى مركزه ، لو أنه قَبِل المذهب الرومانى ، فيدعِّمه بابا روما في مسعاه .

وبعد قبوله هذا الاقتراح ، أخذوه إلى أورشليم ، وهناك أعطاه – القاصد الرسولى (الكاثوليكى) للقبر المقدس – رسائل للحبر الرومانى . فلما ذهب إلى روما ، استقبله البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠–١٥٥٥م) بإكرام ، ورسمه بطريركاً بعد إعلانه رسمياً الاعتراف بالمذهب الكاثوليكي سنة ١٥٣٠م.

ولما عاد إلى وطنه ، أراد أن يكسب شعبه إلى جانبه في مذهبه الجديد ، وفشل في محاولته ، ربما بسبب خطط منافسة ، فقبض عليه الباشا (الوالى) التركى في دياربكر ، وألقاه في السجن ، حيث تم قتله .

ومع ذلك فإن خط الاتحاد مع روما امتد بانتخاب Ebedyeshu (١٥٥٥–١٥٦٧م) ليخلفه ، ووصله اعتراف البابا الرومانى بيوس الرابع (١٥٥٩–١٥٦٥م) به بطريركاً كاثوليكياً .

وأما البطريركيان التاليان :عطا الله Aitallah ، وشمعون ، فقد كان خضوعهما لروما شكلياً. لذلك فلم ينالا المساعدة . وصارت علاقتهما بالعاهل الرومانى غير منتظمة . ويذكر الكاتب فورتسكيو أنه قد انتهى الاعتراف بالعقيدة الكاثوليكية بيد مارشمعون الثاني عشر سنة ١٦٧٠م ، والعودة إلى الفِكر النسطورى القديم ، ماعدا محاولة فاشلة سنة ١٧٧٠م ووحيدة ؛ لسد الفجوة في العلاقة مع روما .

وحتى في الفترة الأولى من الاتحاد مع روما ، فإنه من المشكوك فيه أن الطقوس النسطورية تغيرت فعلاً، بعد الخضوع النسطورى للعقيدة الكاثوليكية واستلام التصريح الرسمى من روما (Pallium) للإنضمام إليها.

وأما في الفترة بين ١٦٠٧–١٦٥٧م فقد خَلَف فيها شمعون خليفتين معاً هما: إيليا السادس ، وإلياس السابع ، وأرادا أن يتغلبا على منافسيهما بالاعتراف بالفكر الكاثوليكى ، فأعطى البابوات كلاً منهما تصريحاً ؛ فترتب على ذلك وجود

بطريركين ، إلياس في الموصل وشمعون في أورّميا (Urmia) . وجلسا كلاهما على الكرسى النسطورى ، واعترفت بهما روما رسمياً.

ولكن كان الاتحاد الرومانى هَشاً ، حتى أنه بدأ لا تكون له فاعلية تدريجياً بعد إيلياس . وفي منتصف القرن ١٨م قام مطـران لدياربكر يُدعى يوسف باغتصاب الكرسى البطريركى النسطورى ، وسعى لكى يُثبّت جلوسه عليه .

ومن الناحية الدينية ، اتضح أن النساطرة كانوا ضد البابوية. ولا توجد في كنائسهم أيقونات ولا صُلبان عادية ، بل مجرد صليب رمزى بسيط . وأن موقفهم من العذراء مريم أقرب ما يكون للمبادئ البروتستانتية ، فهل كان يمكن اعتبارهم قُدامىَ البروتستانت في الشرق ؟!.وبالتالى توجهت إليهم الإرساليات الكثيرة .

فقد جاء الأب يوسف Wolff إلى كُردستان سنة ١٨٢٠م ، وفيما بعد عاد إلى إنجلترا ، ومعه مخطوط سريانى للعهد الجديد ، وقد قامت الجمعية البريطانية للكتاب المقدس بطبعه وتوزيعه بين النساطرة سنة ١٨٢٧م ، وكانت النسخ المطبوعة قاصرَة على الكنائس ورجال الدين النساطرة فقط.

ثم جاءت الإرسالية المشيخية الأمريكية – بإشراف سميث ، وديفيز (Smith & Davies) – ووصلت إلى Urmia سنة ١٨٣٠ وتبعهما .Rev Justin Perkins والدكتور جرّانت Grant في عام ١٨٣٥م ، ولحِق بهم آخرون، في تواريخ مختلفة ، ولكن بدون تأثير كبير ، مثل اللوثريين الدنمركيين، والزويجيين ، والمعمدانيين .

وظهر الروس على المسرح بصفتهم المدافعين الرئيسيين عن كل المسيحية الشرقية . ونظراً لأنهم كانوا من أعتَى أعداء الأتراك ، فقد استمروا يستقبلون نداءات متتالية من النساطرة – طوال القرن ١٩م – على أمل أن يسترد لهم القيصر الروسى حريتهم – من مضطهديهم العثمانيين – بالقوة الحربية .

وفي عام ١٨٢٧م ، عبرّت جماعات كبيرة من الأُسَرات النسطورية ، الحدود الروسية ، وانضمت إلى الأرثوذكسية الروسية . وفي عام ١٨٩٨م ، ذهب أسقف نسطورى – مع أربعة من الكهنة إلى سان بطرسبرج – وأعلن بالنيابة عن شعبه، عن استعدادهم لطاعة الكنيسة الروسية ، في مقابل حمايتهم .

فاستجاب الروس ، وأسسوا مركزاً تبشيرياً ومطبعة وكنيسة في Urmia ، مع إرسال ٤٠ كاهناً.وشيدوا مدرسة فى كل البلاد ، وأعلنوا أنهم كسبوا للأرثوذكسية ١٢ ألفاً سنة ١٩٠٠م .

وكان فقراء النساطرة يتوقعون مجيء القيصر بجيشه لخلاصهم من العبودية، ولكنه لم يأتِ ، فارتد النساطرة إلى عقيدتهم القديمة .

وأما الجهود الحقيقية المستمرة للعمل بين النساطرة ، فكانت من غير الكاثوليك ، وخاصة الذين يختمون أساساً إلى الكنيسة المشيخية ، التى شيدت المدارس والمستشفيات ومراكز الرعاية الاجتماعية ، وكانت التالية لهم هى إرسالية الكنيسة الأسقفية إلى الكنيسة الآشورية .

وقد اختلف ردّ فعل النساطرة بالنسبة للخدمتين ، فانه نظراً لأن المشيخيين (البروتستانت الأمريكان) كانوا يخدمون ويحولون النساطرة إلى البروتستانتية – في نفس الوقت – فإن الكنيسة النسطورية قد نظرت إلى نشاطهم بعدم استحسان. وعلى العكس، فإن الأنجيليكان اتخذوا سياسة تقوم على شرح الكتاب للنساطرة . وكان منهم چورچ Percy Badger.وكان يعمل في الطباعة ، ثم رُسِم كاهناً في كنيسة شركة الهند الشرقية في بُمباى . وكان سابقاً قد قضّى عامَى ١٨٣٥م–١٨٣٦م في بيروت ، حيث تعلّم اللغة العربية ، وأصبح خبيراً بشئون الشرق الأدنى .

ولذلك اختاره الدكتور وليم Howley رئيس أساقفة كنتربرى (١٧٦٦-١٨٤٨م) ، والدكتور Blomfield أسقف لندن ، كمندوب إلى الكنائس الشرقية - - وخاصة إلى النساطرة ، في كُردستان ؛ في السنوات من ١٨٤٢-١٨٤٤م . وزار مرة أخرى - الإقليم- سنة ١٨٥٠م وأُكمَل كتابه القيّم عن النساطرة وطقوسهم القديمة.

وقد أوضح Badger للبطريرك النسطورى أن الأنجليكانية ، ليست مثل باقى الإرساليات البروتستانتية ، لأنها تساعد دون هدف تحويل أحد لمذهبها . وهاجم بعنف الهيئة الأمريكية للإرساليات الأجنبية في القسطنطينية ، التى انتمُى أعضاؤها إلى الكنيسة المشيخية المستقلة ، والإصلاح الهولندية ، وغيرَهما من الهيئات الإنجيلية ، التى تبغى حدوث الانشقاق بين المسيحيين في الشرق .

كما لم يوافق على التكتيكات الرومانية ، التى أضعَفت كنيسة المشرق ، بتقسيم أعضائها إلى متحدين مع روما من الكلدان ، وما يُسمّى "بالهراطقة المُخالفين" .

وكانت الكنيسة الإنجليزية (الأسقفية) هى الوحيدة المُهتمّة بالخدمات التعليمية، وحماية الناس المطحونين ، وإصلاح الكنيسة (النسطورية) القديمة من الداخل . وقد ابتهج البطريرك النسطورى بهذه المبادئ النبيلة ، ومال إلى الأنجليكان ؛ ولكن لسوء الحظ ، فإن إرساليتهم لم تدُم بعد Badger ، ولم تثبُت حتى الثمانينات من القرن ١٩ .

ثم استأنف Maclean ورفيقاه : Browne , Riley ، العمل بين النساطرة سنة ١٨٨٦م ، ولكن بسبب تزايد نفوذ الإرسالية الروسية في Urmia على حدود فارس، فقد تقرر سنة ١٩٠٣م ، نقل مقر الإرسالية الأنجليكانية الرئيسى إلى

Van، على الجانب التركى من الحدود ، خلال خدمة Maclean ، Wigram ، اللذين استمرت خدمتهما من ١٩٠٢م حتى ١٩١٢م.

واستمرت الإرسالية تعمل بدون عوائق ، حتى الحـــرب العالميـــة الأولــى (١٩١٤م) وكان الكاثوليك بقيادة Fortescue لا يعارضون الإرسالية الأنجليكانية (الأسقفية) في عملها بين النساطرة ، إذ كان الأمل أن يتحوَّل كلٍ من الانجليكـــان والنساطرة إلى الكاثوليكية في النهاية !!.

+ + +

المرحلة الأخيرة :

قبل مجيء الإرساليات التبشيرية الغربية ، للعمل بين النساطرة ، عاشوا فـــي حياة هادئة نسبياً مع جيرانهم الأكرُاد البدائيين مثلهم . وكان مظـــهرهم واحـــد ، رغم الاختلاف في الدين ، والتقاليد والحياة الخاصة .

وكان نظام المجتمع النسطورى يقوم علـــى أســـاس قَبَلِـى ، بقيـــادة ملـــك (malik) لكل قبيلة في قريته . وكان البطريرك هو الرئيس الأعلى للأمة ، وكـــل الرؤساء يخضعون له في الأمور المدنيّة والدينية . وكان الأمير الكردى يجلـــس بجوار البطريرك النسطورى لمناقشة الأمـــور التشـــريعية الخاصـــة بـــالأكرَاد المسلمين والنساطرة المسيحيين .

ومن الصعب تقدير عدد النساطرة بدقة . وقيل إنهم مائة ألف ، ولـــو كـــان ذلك كذلك ، لكان يُستَنتج منه أنهم لابُد أن تكبدوا خسائر كبيرة في مذابح الأتـــراك والأكراد والعراقيين . وإن صلة الكردى بالآشوري كان يصفها الأكراد بأنـــه لا يفصلهما عن بعضهما سوى شعرَة ، بينما تمتد بينهم وبين الأرمن الجبال .

ولكن ليس معنى ذلك أن تمرَّ الأيـــام بـــلا أحـــداث جِســـام ، فـــي جبـــال Hakkiari، ولكن كانت تحدُث بعض الخلافات، بصفة مســـتمرة ، ولكـــن فـــي

نطاق محدود. وسرعان ما تلتئم الجرَاح بتدخُل القادة من كلا الجانبين . وفي عام ١٨٣٠م هاجم الأتراك الشعب النسطورى ، وتوسط قناصل الدول الأوربية من أجل النساطرة لدى الباب العالى .

فأرسل السلطان رشيد باشا،لإعادة الهدوء والنظام في كُردستان ، ثم انسحب الجيش التركى سنة ١٨٣٤م. وفيما بعد ، عندما قرر الأمير الكردى "نور الله" زيارة أسطنبول (القسطنطينية سابقاً) سنة ١٨٤٠ أوكَل سلطاته المدنية إلى البطريرك مارشمعون ١٠٧ Orham ، وكذلك علاج حريمه !

ومن ذلك يظهر أن الانسجام بين الأكراد والنساطرة يتأثر لحد كبير بالظروف التى حدثت بمجىء الإرساليات الغربية للمنطقة ، والتى تميزت بعطف ملحوظ على المواطنين المسيحيين ، والوعد بالمساعدة التى تخطت مجرد التعليم والخدمات الاجتماعية ، إلى السعى لاستصدار قرارات سياسية ضد المسلمين .

ونظراً لحرص النسطورى على التفوق على جاره التركى . كما تذكّر مجده الكنسى ، والذى يطمح إلى رجوعه ، وإلى التحرر من كل من الأتراك والأكراد، والرغبة في الاستقلال . مما أدى إلى ضيق الأكراد ، وأظهروا لهم عداءً أكثر من ذى قبل ، وكان الأتراك بالطبع إلى جانب الأكرَاد المسلمين ، إلا إنهم تعرضوا للتدخل الأجنبي في القسطنطينية (لصالح النساطرة) .

وحدث أول صُرَاع خطير بين الأكراد والنساطرة سنة ١٨٤٣ ، عند هبطت قبائل كردية من فوق التلال وهاجمت القرى المسيحية – الغير متوقعة للهجوم – بقيادة بدرخان من بوتان، والذى أراد أن يفرض سلطانه الإقطاعى على كردستان كلها. وكانت الثورة مُوجهَة أصلاً ضد الحُكم التركى، ولكن سُرعان ما اتجهت نحو إبادة النساطرة،لإخلاء البلاد منهم. وتسمم الجو، حتى أن الشخصيات المعتدلة والمتسامحة مثل نور الله ، رأت أنه لا محالة من الانضمام للثورة .

وكان هناك كلا من المبشرين جرانت وبدجر (Badger) وحَمَى الأخير البطريرك وأنقذ حياته . والفظائع التى أحدثتها المذابح فاقت ما فعله تيمورلنك . وكل ما فعله ممثلو شركة الحكومة البريطانية أن أقنعوا السلطان (العثمانى) لإرسال الباشا والى الموصل،على رأس جيش، لإنقاذ النساطرة من إبادة تدريجية.

وقيل إن الخسائر في الأرواح بلغت ١٢ ألف نفس ، بما فيهم الكلدانيين ، بينما هرب عدة آلاف آخرون من تركيا إلى روسيا ، في القوقاز ، وطلب البطريرك النسطورى الحماية الروسية ، وظهر أنه لا مفر من تضييق الفجوة التى اتسعت بين الأكراد والنساطرة .

وبلغت قمة المأساة الآشورية بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وما تلاها من متاعب . إذ لما لم يجد النساطرة حلاً للصرَاع مع جيرانهم الأكراد ، قرروا أن يهبطوا من جبل هكيارى ويتقهقروا إلى السهول المنخفضة في الموصل ، والانضمام للحُلفاء ضد تركيا ، على أن ينالوا استقلالهم بعد الحرب العالمية الأولى .

وتركوا منازلهم القديمة ، وانضم أربعون ألفاً إلى القوات البريطانية والروسية ، ومات منهم الكثير في سفوح الجبال ، وخاصة من النساء والأطفال الهابطين معهم ، وقد أشبهوا خروج بنى إسرائيل من مصر – عبْر صحراء سيناء– إلى فلسطين (exodus) ، وكان النساطرة يحلمون بتكوين وطن قومى لهم حول الموصل ، ليضم القومية الآشورية . ولم يتحقق لهم مُرادهم ، وتم اغتيال البطريرك مار شمعون (٢٠) بنيامين ، بيد الأكراد المُتعصبين ، على حدود فارس .

وكان خليفته مار إشعيا (٢١) شمعون ، طفلاً في سن ١٣ ، وقد تعلمّ في مدرسة القديس أغسطينوس فى كنتربرى (بإنجلترا) بمنحة من رئيس أساقفتها .

ولما انتهت الحرب ، وتفرّق الجند بعد معاهدة السلام في فُرساى ، صار النساطرة بلا ملجأ مستقر ، وعاشوا على ضفاف أعالى دجلة والفرات ، تحت حُكم الانتداب البريطانى (mandate) بالعراق . وزاد الشعور العِدائي من المواطنين المسلمين نحو المسيحيين ، وكثُرت الحوادث والصراعات العسكرية .

وكانت رغبة بريطانيا – في عصبة الأمم– لم تساعد على تحسين علاقتهم بجيرانهم العراقيين. وفي وقتٍ ما ، تم الاقتراح بتهجيرهم إلى كندا أو أمريكا الجنوبية ، ولكنهم فضلوُا الاستقلال في بلادهم القديمة .

وبعد انتهاء الانتداب البريطانى سنة ١٩٣٣م ، وعودة البطريرك الشاب من المدرسة البريطانية ، تم استئناف الجهاد النسطورى. وحاول مار شمعون استرداد سلطاته الشبه قبلّية الكنسية والمدنّية.وهو غير واعٍ بالتغيُّرات التى حدثت في دولة العراق الجديدة .

ويبدو أن النساطرة لا يزالون يعيشون في الأيام الماضية . ورفضوا أية محاولة نحو الاندماج في المجتمع العراقى الحديث ، وكان فشلهم في فهم الموقف السياسي الجديد ، قد أنتهى بهم إلى كارثة !!.

إذ لما اجتمع وزير الداخلية العراقى مع البطريرك النسطورى في بغداد سنة ١٩٣٣م ، طلب منه أن يْمارس سلطانه المدنّية القديمة ، أى يُكوّن دولة داخل دولة ، رفض الوزير . وعاش كحبيسٍ في العاصمة (بغداد) ، فاجتمع كبار الآشوريين في الموصل ، وقدموا احتجاجاً شديد اللهجة ضد أعمال الحكومة . وكان ردّ فعل الإدارة المركزية استصدار قرار يتضمن عرضاً : إما باختيار الخضوع للقانون العراقى ، أو أن تكون لهم الحرية في مغادرة البلاد للخارج .

فعبَر ألفْ مسلح نسطورى نهر الفرات إلى سوريا ، في صيف سنة ١٩٣٣م؛ ولكن رفض الفرنسيون في سوريا دخولهم ، وكان عليهم أن يعودوا

إلى العراق خائبين، حيث بدأ الجيش العراقى بـإطلاق النـيران علـى هـؤلاء اللاجئين ، كما هاجمهم الأكراد والبدو ، مما أحدَث مذبحة عامة . وعلاوة علـى ذلك تم القبض على الأحياء باعتبارهم مُتمردِين، وعُوقِبوا .

وتم إتهام البطريرك الآشوري مارشمعون بالتحريض على الثورة وسـحب مواطنين عراقيين من البلاد إلى خارجها، بدون موافقة الدولة. وتم طـرده إلـى قبرص .

وامتدت المأساة إلى آشوريين آخرين . ومضـى البطريـرك الشـقى إلـى الولايات المتحدة ، حيث استضافه مهاجرون آشوريون في شيكاغو سنة ١٩٤٠م.

ومع أنه صار مواطناً أمريكياً ، قام بزيارة رسمية إلى سفارة العـراق فـى واشنطون سنة ١٩٤٨م، على أن أمل أن يعود لوطنه ، ولكن بدون استجابة له .

وُيقدّر عدد النساطرة بنحو ٣٠,٠٠٠ ، منهم نحو ٨٠٠٠ نجحوا في عبـور الحدود السورية ، والاستقرار في وادى نهر الخابور ، وعاش الباقون حول بغداد والموصل ، يرعاهم مطران ، وأسقف واحد .

وهكذا صار مصير النساطرة في حـالٍ تدعُـو للشـفقة ، وكمـا صـوَّرُه المؤرخون السريان ، مثل إبراهيم يوحنان، الذى سجل قصـة اضطهاداتـهم فـي كتابه "موت أمة" (١٩١٦م)، وعانوا كأقلية ، تحتاج إلى الحكمة والقيادة الواعيـة ، لقيادة مجتمع صغير، لا حول له ولا قوة ، وسط أحداث قاسية ؛ وكان البطريـرك من الحماقة حتى يدعو للإستقلال عن الدولة . وقد دفع ثمن حماقته. وقد أتهمـه أحد الكُتّاب بعدم الولاء لأمته ، وعدم المسئولية ، وعدم الكفاءة ؛ مما جعل كـل الآشوريين غير مرْغوبين، في دول الشرق الأوسط .

وفي الولايات المتحدة ، تأسست جماعة مستقلة باسـم "الكنيسـة الآشـورية الأمريكية الرسولية" . وقادها قريب للبطريرك الحالى (في زمن الكـاتب) اسـمه

الأب صادوق مارشمعون . وكان ذلك بداية لانشقاقٍ جديد ، في "كنيسة المشرق" القديمة ، والتى في المنفى الآن ، والتى تسعى لتقدم حركتها وسط الشعب النسطورى الأمريكي (ولها كاتدرائية في شيكاغو ، ٧٠ كنائس) ، وتعتمد على رد فعل أخوتهم في المذهب النسطورى ، في العراق وسوريا ، وفي كل مكان آخر .

وقد قلت أعداد النساطرة ، وتحوّل البعض إلى البروتستانتية ، وصار البعض يتبع الكنيسة الرومانية (الكلدان) والذين احتفظوا بمعظم الطقوس السريانية. **وأما الكنيسة الثانية** : فهى "**كنيسة ملبار**" (Malabarese) في جنوب الهند ، التى صارت يعقوبية ، قبل نشر الكاثوليكية في الهند عن طريق البرتغاليين ، وقيام فرع مار توما الإصلاحي ، فيما بعد .

أما الكنيسة الثالثة : فهى تسمى :"Mellusian church of Trichur" ، وتتكون من مجموعة صغيرة من النساطرة في ولاية كوشين (Cochin) الهندية، ورئيس هذه الطائفة هو المدعو "ملوس" (Elias Mellus) ، وهو أصلا مواطن من ماردين في تركيا. وكان اسمه "حنا".وصار كاهناً كلدانياً تحت قيادة البطريرك يوسف (Joseph Audo) وفي سنة ١٨٦٤،قبل ذهابه إلى ملبَار ، كتب تاريخاً بالعربية بعنوان:"تاريخ الكنيسة الكلدانية الشرقية" .

ويبدو أنه تشاجر مع كل من الكلدانيين واليعاقبة (السريان) فقرر أن يُعيد الكنيسة النسطورية بالهند . وظل يرعَى شيعته حتى مات ، فقام كاثوليكوس النساطرة في Qudashanis خلال عام ١٩٠٧ برسامة أرشيدياكون نسطورى يُدعَى أبيمالك أسقفاً باسم مار تيموثاوس،في جنوب الهند ، ووجهَهَ لرعاية الهنود النساطرة وعددهم ٨٠٠٠ تقريباً .

وصار رئيس هذه الجماعة الصغيرة الرمزية هو نفسه مطران ملبَار ، وجزر الهند .

+ + +

١٦- إيمان الكنيسة النسطورية وثقافتها :

- **الإكليروس :**

اختلفت مبادئ الكهنوت النسطورى عبر القرون ، ومن عهد إلـــى عـــهد ؛ ولذلك فمن الخطأ التعميم • وسيتم عمل مسح عام للبناء الإكليريكى مـــع صفـــات هذه الطائفة ، في آخر مراحلها .

وبصفة عامة ، مثل باقى الكنائس المسيحية ، فـــإن الكنيســـة النســـطورية يرأسها بطريرك أو كاثوليكوس ، ولكن ليس مثلها فى وظائفـــه، لأن البطريـــرك النسطورى يجمع بين السلطتين الدينية والزّمنية لشعبه ، تحت الحُكم التركى .

وبينما كان نظام الملالى "millet" العثمانى – في الإمبراطورية التركيـــة – يعطى البطاركة قدراً من الاستقلال ، في التعامل مع الأحوال الشخصية الخاصـــة بمجتمعاتهم ، مثل الزواج والتطليق وما شابهها • وترك الأحوال المدنية والجنائية، للسُلطات الحاكمة ، فإنه في حالة النساطرة،كلها تحت إشراف البطريرك . وكـــان يُدعَى بصفة عامة "**رئيس**" ، لكل المجتمع النسطورى ، وتحت رئاســـته زعمـــاء القبائل (**malik**)،أى يعنى الزّعيم حرفياً ملك، في العربية والســـريانية ؛ ولكـــن ليس بالمعنى الدارِج للكلمة .

وأما مبادئ الحكومة (الإدارة) المحلية وسط النســـاطرة ، فتكـــون حســـب ظروف سكنهم في عزلة تامة في الجبال ، حيث الاتصـــال بالســـلطة المركزيـــة (العراقية) يكون صعباً ، بدون استثناء .

وقد ظلت السيادة الشرعية – على زعماء القبائل – للبطريرك النســطورى . واستّرِدَت على الأقل – نظرياً – حتى وقت النفي فى أمريكا ، حيث إنتَهت فعلاً.

ومن الملامح الأخرى الخاصة ، هى وراثة البطريركية من العم أو ابن العم. وفى العصر الحديث امتدت الورَاثة إلى المطارنة والأساقفة . وكان لقب البطريرك النسطورى :"الأب المحترَم والمُكرّم ، أب الآباء ، والراعى الأكبر مار شمعون ، بطريرك وكاثوليكوس (جاثليق) المشرق".

وفي الواقع ، فإن اسم "مار شمعون" بالنسبة للنساطرة مثل :"مار إغناطيوس" بالنسبة لليعاقبة (السريان) ، وقد صار لقباً عاماً غالباً ؛ بدلاً من أن يكون إسم شخص بالذات.

وكان أحياناً يتولى الكرسى البطريركى النسطورى طفلاً صغيراً ! بموجب حقوق الورَاثة؛ وفي هذه الحالة تكون إدارة الدولة بيد أمه أو أخته الكُبرَى ، خلال طفولته ، وبما في ذلك من نتائج مدمرة للمجتمع النسطورى . ويحدث الانتخاب الحُر،عندما يكون فرْع الأسرة ، المطلوب تولى البطريرك منه، غير محدد . فيتم رسامة البطريرك بالانتخاب بيد كبير المطارنة ، وفي حضرة الأساقفة ، في احتفال دينى خاص .

وكان رئيس المطارنة يُعادِل في وظائفه ما لرئيسه . وحمل إسماً أو بالأحرى لقباً هو:"مار حنانياشو" (رحمة المسيح) ، مثلما حمَل البطريرك لقب "مارشمعون". وكان يرثه في درجته الكنسية الرفيعة عضو آخر من عائلته .

وفي الواقع ، كانت الكراسى الأسقفية – بصفة عامة– وراثية ، وقاصرَة على أُسرات مُعينة ، ولكن عادة البتولية كانت تُرَاعى ، من كل الدرجات الدينية العالية ، رغم أن بعض السجلات تشير إلى وجود بعض الأساقفة المتزوجين.

وكان الامتناع عن أكل اللحوم سائداً بين كبار رجال الدين ، ومال الإكليروس النسطورى نحو حياة البساطة . وفي المرحلة الأخيرة من تاريخ النساطرة – في الشرق الأوسط– أُشِير إلى وجود سبعة أساقفة . وكان بعضهم يحملون أسماء أساقفة عامين ، إلى جوار البطريرك والمطران (mutran) .

وأما الكهنة – كباقى كل الكنائس الشرقية – مُتزوجون؛ ولكن ليس مثل باقى تلك الكنائس، تسمح الكنيسة النسطورية بإعادة زواج الكهنة، بعد موت زوجاتهم !!.

ويمكن للذين ينذرون الحياة الرهبانية التخلّي عنها بسهولة ، وبدون لوم من أحد.

ويختار الشعب في الإيبارشية الكاهن ، ثم يوافق عليه ويرسمه الأسقف بوضع يده عليه . ويكون رئيس الكهنة (القمص) في المدن ، بينما يكون الخوربيسكوبس مسئولاً عن عدة إيبارشيات في البلاد ، وله وظائف مُعينة ، وكلاهما يمارسان العديد من الواجبات الأسقفية ، في غياب الأسقف .

ويكون الإرشيدياكون (رئيس شمامسة مُكرَس) مسئولاً عن أموال الإيبارشية، وأملاك الكنيسة. وعادة ما يكون لكل إيبارشية عدة شمامسة (deacons) وقُرّاء وكتَبة ، حسب حجمها واحتياجها . وتتكرر الرسامة عند الانتقال من درجة كهنوتية إلى أخرى ، ومن الصعب معرفة إن كان كذلك يتم في الكنيسة النسطورية في المنفى (بأمريكا) ، والتى تتقدم باضطراد نحو تطبيق ما يحدُث من تطوير في بيئة العالم الجديد .

+ + +

الرَهبنة النسطورية :

كان تقدم الكنيسة النسطورية – في العصور الوسطى – راجعاً بالضرورة إلى نمو نظامها الديرى . وقد كان الأبطال المجهولون ، الذين حملوا الإنجيل عبّر آسيا – برعاية كنيسة المشرق – كانوا أعضاءً منكرين لذواتهم . وكانوا من الأديرة النسطورية في فارس وشمال الرافدين.

وأن أصل الرَهبنة بين النساطرة – أو ربما بصفة عامـــة بيـــن الســـريان– ترجع إلى التقليد الذى يذكر أن القديس مار أوچين (المصـرى) هو مؤسسها .

وكان صائداً للؤلؤ في البحر الأحمر ، عند مدينة القلزم Clysma القديمـــة (السويس الحالية) في القرن الرابع . وتذكُر سيرَته أنه كان قديساً حتـــى قبـــل أن يترك العالم إلى دير باخومى ، ربما في طيبة (الصعيد الأعلى) ثم بعد ذلك إلـــى برية الأسقيط (Scetis) في وادى النطرون .

ويمكن أن نستنتج أنه كان تلميذاً للقديس أنبا باخوميوس . وأنه نقل نظامَـــه في حياة الشركة (Cenobitic) إلى فارس وسوريا ، نحو منتصف القرن الرابـــع. وقيل إنه استقر أخيراً فى إحدى أودية ما بين النهرين ، شـــمال نصيبيـــن ، مـــع سبعين رفيقاً (راهباً) . وسرَعان ما زاد عدد الرهبان الذيـــن تبعـــوه إلـــى ٣٥٠ راهباً، من كل الشرق الأوسط .

وفي أواخر أيامه اعتزل في جبل Izala ، والمشهور بوجود دير نســطورى هناك. بعدما بارَك رهبانه ، الذين قاموا بإنشاء سبعين ديراً آخـــر ، فـــي أمـــاكن مختلفة .

ويجب الإشارة إلى الأديرة – في تلك المرحلة– أنه كـــان يُشـــارِك فيـــها – بالتساوى– رهبان من السريان الشرقيين والغربيين (الشام)، ولم يكـــن هنـــاك أى تمييز – في تلك المرحلة – بيـــن أصحـــاب الطبيعـــة الواحـــدة ، والمؤسســـات النسطورية !

وفي نهاية القرن الخامس، كانت الكنيسة منقسمة بالخلافـــات (اللاهوتيـــة). وتركز النساطرة في فارس، حيث عانت الحياة الديرية من الانحدار. كما تلاحـــظ في قرارات بارْصوما ، في مجمع بيت لابات (Lapat, Laphat) ســـنة ٤٨٤م ، حيث لم تُفضَّل البتولية، حتى بين الرهبان والراهبات !

وينقل أحد المؤلفين عن توماس المرَجى وصفه للديرية في عـــهده ، بأنـــها مستوطنة مثل قرية في الجبل ، حيث عاش الرهبان والراهبات معـــا ؛ وأسســـوا أُسرَات ذات أفراد !!.

ثم حدث إصلاح حقيقى للحياة الرهبانية – في فارس – على أيدي إبراهـــام من كاشكر Kashker (الوسيط).وقد وُلِدِ سنة ٤٩١ فى كاشكر، في أســـفل أرض الرافدين.ومات سنة ٥٨٦ عن ُعمر ٩٥ سنة . وبذلك عاش في عصر الإصـــلاح النسطورى ، وكان ُمعاصراً للبطريرك مار أبا (Mar Aba) الكبير .

وكان مثله من خريجى مدرسة نصيبين ، ودرَس على يد ســـمّيه إبراهـــام. وهو أستاذ عَالِم ؛ وابن أخ اللاهوتي النسطورى الشهير نرســـيس (Nerses) . وبعدما قضى بعض الوقت في الخدمة الدينية في منطقة الحيرَة ، علـــى الحافـــة الشرقية لبلاد العرب ، مضىَ إلى مصر ، حيث قضىَ الكثير من الأعوام وســـط الرهبان الأقباط في إسقيط وادى النطـــرون . وهنـــاك درس أســـلوب القديـــس مكاريوس الكبير في الرَهبنة . وكان ُمعاصراً للقديس باخوميوس .

ثم زار سيناء ، التى كانت مملوءة بالمتوحدين . ويُحتمَل أنه ذهب إلى ديـــر التجلِّي (Transfiguration) [سانت كاترين فيما بعـــد] ، الـــذى أعـــاد تشـــييده الإمبراطور البيزنطى جستنيان سنة ٥٢٥م .

وزار أورشليم والقبر المقدس (Sepulchre) قبل الاعتزال في جبل Izala، حيث أدخل مبادئ الرهبنة القبطية بين أهل بلده . وكانت تقْواه وقدوته وزهده قـــد جذبت حوله العديد من الرهبان . وأطلقوا عليه لقب "إبراهام الأكبر" .

وقد خَلَفَه رجال حكماء ، رعوا نظم الحياة الديرية ة طبقا لقواعد معلمـــهم ، والتى أدخلها سنة ٥٧١، ودعمها الذى خُلَفَه سنة ٥٨٨م ، والذى دربه، هو مـــار داديشو (Dadishu) الذى اشتهر بتقوُاه ، وقاد الرهبان حتى سنة ٦٢٠م. أى قبل

عقود قليلة من الغزو الإسلامى. ثم تلاه راهب آخر مشهور هو باباى (Babai) الأكبر ، الذى رَأس الرهبان حتى سنة ٦٢٨م . وقد نُسِب إليه ٨٠ مؤلفاً ، وعلى رأسها كتاب عن "الاتحاد" ، ويضم خلاصة الفكر اللاهوتى النسطورى ، عن العلاقة بين اللاهوت والناسوت في المسيح يسوع .

وصار التقيد بالبتولية صارما بعده . وقد قام الدير على الطقس القبطى : نظام الشركة ، البتولية ، العفة ، الفقر الاختياري ، الصوم ، الصمت ، الصلاة ، العمل اليدوى ، والدراسة ، وكانت كلها شروطا ضرورية في قوانين إبراهام الديرية.

وكان الرهبان يُصلون – في البداية – سبع مرات في اليوم ، ولكن فيما بعد، قُلِلَت إلى أربعة ، وتم منع اللحم والخمر ، وسُمِح بتناول الخبز والخضروات في منتصف النهار . وكانوا يحملون صليبا وعكازاً. وبعد ثلاثة أعوام – فى حياة الشركة – يحق للراهب أن يعيش في وحدة بالجبل للتأمل . ويرتدى الراهب تونية وحزام وعباءة وبرنُس وصندل .

ولكى يتميز الرهبان النساطرة عن جيرانهم اليعاقبة ، كان يتم حلق شعور رؤوسهم على شكل صليب . وكان لكل دير أب (رئيس) abbot ، ولكنه يخضع للأسقف المحلى،والمسئول عن كل أملاك الدير .

وكانت الطاعة التامة ، من الرهبان للسُلطة الكنسية ، قد أمدت الإكليروس بجيش قوى من المُكرسين ، الذين دعموا الكنيسة ، واخترقوا قارة آسيا – بدون خوف– في محاولة لنشر الإنجيل على نطاق واسع .

وحتى بعد مجيء العرب ، ظلت الأديرة ، مصدر عزاء للكنيسة وسر بقائها. وقد زادت المباني الديرية ، في القرنين السادس والسابع ، وكان جبل Izala ، Dorkena قُرب Seleucis – حيث كان يتم دفن البطاركة النساطرة

لعدة قرون – وصارت أهم مراكز قيادة الأديرة . كما كانت هناك مؤسسات هامة في عدة أماكن اخرى مثل Kuph Zabda , Anbar, Henda, Tela; .

ولم تكن الفترة العربية خالية من الرهبان ذوى الشُهرة . ومن أهم أمثلتهم **توماس المرجى** ، المؤرخ النسطورى ، الذى دخل إلى دير Abhe ، إلى الشرق من الموصل سنة ٨٣٢ . وفيما بعد صار سكرتيراً وتلميذاً للبطريرك إبراهام (٨٣٧-٨٥٠م) ، الذى رسمه – أخيراً – أسقفاً لمرجة ، ثم مطراناً لبيت جرماى Beth Garmai إلى الشمال من Seleucia-Ctesiphon .

وقد ألفَّ كتاب "الحكام" ، ويشمل تاريخ ديره ، وضم فيه سِيَرِ حياة رهبان ، ومواد من الأدب الرهبانى القديم. وصار مثل كتاب بلاديوس عن حياة وأحوال الآباء المصريين(١).

والكتابات عن الرهبنة النسطورية لم تكن خالية تماماً من الغرائب والتفرُّعات . ومن أشهرها شيعة Msalleiani (المُصلِّين) التى صارت مَصدراً للمتاعب بالنسبة للكنيسة والأمة ، لعدة قرون . ونسمع عنها – لأول مرة – في منتصف القرن الرابع. واستمرت على الأقل حتى القرن ١٢م . وكان أتباعها لا يلتحقون بأديرة،ولا يخضعون لأي نظام !!.

وكانوا يزعمون أن الشيطان يسكن في الإنسان، وأنه عن طريق الصلاة الدائمة يتم طرده من الجسد، وأنه برحيل الروح النجس من الشخص، يحل محله الروح القدس ، مُعطياً بذلك الرؤى الروحية ، والتحرُّر من الخطية ، ويتبعه قُوَى خارقة !!.

والذين آمنوا بهذا الفكر المنحرف لم يبالوا بالكنيسة، ولا يحترمون سُلّطتها . وأحياناً كانوا صوفيين غير ضارين. وفى وأحيان أخرى ، كانوا مصدر إزعاج للعامة، ووصل بهم الحال إلى ارتكاب جرائم أخلاقية فظيعة تحت ستار الدين !!.

---

(١) راجع نصه – بجزئيّه – في كتابنا "بستان القديسين" (طبعة مكتبة المحبة) .

ومنذ فترة مبكرة ، فإن فلافيان الأنطاكى (نحو ٤٤٩م) كشفهم ونجح في استصدار قرار مجمعي ضدهم في غرب سوريا . وأما في المشرق ، فإنه رغم إصدار البطريرك Ishuyahb الأول (٥٨٢-٥٩٦) قراراً بأنه لا يُقبل راهب بدون دير ينتمي إليه ، فإن هذه الشيعة الشريرة ظلت موجودة بين النساطرة لعدة قرون تالية !!.

وأما المعلومات الدقيقة ، عن تاريخ الديرية النسطورية بعد مُؤلف توماس المرَجى في القرن ٩م ، أصبحت نادرة . وأصبح من الصعب إعداد صورة دقيقة عن مؤسساتها في القرون التالية ، ولكن بالنظر إلى إنجازات الرهبان النساطرة في وسط آسيا والصين ، فلابُد أن نستنتج أن حركة الرهبنة ظلت في قوة ونشاط.

والاكتشافات الأثرية – والدراسات الحديثة– عن الإرساليات النسطورية في كل آسيا، تفيد – بدون شك – أنها كانت من أكبر الحَملات في تاريخ المسيحية .

وفي الواقع ، يجب أن نتذكرّ أن الكنيسة النسطورية ونظامها الديرى ظلت مزدهرة – على الأقل – خلال القرون الأولى من الخلافة العباسية، وعندما ظهر المغول في الأُفق ، وأضاءوا شعلة الإيمان، حملها النساطرة إلى قلب الصين .

ولكن بهجمات تيمورلنك في القرن ١٤م، انحدرّت واختفت عظمة الكنيسة النسطورية. وصارت أثراً من التاريخ الماضى. وأما في التاريخ الحديث، فقد صارت أديرتهم خَرِبة دائماً، واقتصرت أُسس الرَهبنة النسطورية على عدد قليل من الأفراد الذين نذروا البتولية ، من الرهبان والرَاهبات في الوطن ، وإن كان رجال الكنيسة لا يزالون مستمرين في البتولية ، ولكن الآباء المُتنأثرين ، مجرد صوت خافت يتردّد من الأمجاد القديمة (الحملات التبشيرية الأسيوية) .

+ + +

الطقوس والقدّاس :

ثبت أن النسطوريين محافظين جداً في مسائل الإيمان ، وليس في التنظيم الكهنوتى . وهم يقبلون قانون الإيمان النيقوى ، ولكن منذ مجمع أفسس سنة ٤٣١م تمسّكوا بشدة بمبادئهم الخاصة عن طبيعتّى المسيح المنفصلتين.وعن رفضهم إطلاق اسم "والدة الإله" (Theotokos) على أم النور. وإن كانوا ليس مثل اللاتين – ولكن مثل الأقباط – يتجنبون إضافة كلمة "**والإبن**" (filioque) إلى قانون الإيمان ، لأنهم يعتبرون أن انبثاق الروح القدس من الآب. **وأما** "من الابن" (كما ينادِى به الكاثوليك) يعتبر فِكرًا لاهوتياً غير سليم .

ومن جهة أخرى ، فإنه رغم أن النساطرة يتمسكون ببتولية واحترام العذراء والصليب ، لكنهم يرفضون استعمال كلمتّى "أم الله" (Theotokos) ويتجنبون إقامة صلبان في كنائسهم ، وكذلك لا محل للأيقونات والصور في كنائسهم أو في بيوتهم (ويُرجع Fortescue ذلك إلى تأثير إسلامى) . ومع ذلك يُقدِسون ذخائر القديسين (relics) .

وكان تجنب الصور المقدسة ، الذى يشاركون فيه – بصفة عامة – بعض البروتستانت ، جعل الناس يطلقون على البروتستانت لقب : "نساطرة الغرب" ، وعلى النساطرة لقب "بروتستانت المشرق" ، لفترة طويلة قبل مارتن لوثر .

ومع ذلك يتمسك النساطرة بالقداسات ، ويبدو أنهم وضعوا الليتورجيا الخاصة بهم ، في فترة قديمة نسبياً . في البداية في Edessa ، ثم في فارس ، مع وجود أفكار قليلة من القدّاس الإنطاكى .

وتستعمل كنيسة المشرق (النسطورية) ثلاث قداسات ، **أولها** للمدعو : تادرس المتُرجّم (Theodore Interpreter) من الميلاد إلى يوم السبت الكبير (سبت النور) و**الثانى** : قداس نسطور ، واستخدم في مناسبة عيد الظهور الإلهي

(الغطاس) Epiphany ، وفي تذكارات العلماء الإغريق ، وفي أربعاء صوم نينوى، وخميس العهد .

والقُداس **الثالث** –والأخير – فهو للرسول Mar Addai (القديس تداوس) ومَارِ Mari ، الذى يفترض أنهم أتوا به معهم من أورشليم ، وحيث صلى به القديس الرسول يعقوب الصغير ، لأول مرة في التاريخ . ويُصلّى به من عيد القيامة (Easter) إلى الميلاد. ولا تزال لغة القداسات النسطورية – وحتى اليوم– بلهجة إديسا السريانية ، وهى لهجة مشتقة من الآرامية .

وبسبب عزلة النساطرة ، فلا تزال قُداساتهم بكلماتها الأولى ، ولم تتطور كما حدث للاتينية أو اليونانية . ولكل مناسبة صلواتها . وعند الصلاة على الميت يرفضون الإشارة إلى عقيدة المطهَر purgatory (الكاثوليكية) . ويَحرِمون البابا كيراس الكبير (الإسكندري) ، ويحتفلون بذكرى (الهرطوقى) نسطور !!.

ويجتمع النساطرة للصلاة في الصباح الباكر ، وعند حلول المساء (صلاة الغروب) عند دق الناقوس .

ويُبقون على السِر الأقدس (مادتى ذبيحة الشُكر) ليتم التناول في أى وقت دون ارتباط بالقداسات ، وعندما يتقدم المتناول يجب أن يسبقه صوم ، منذ منتصف الليلة السابقة حتى انتهاء القُداس بعد الظهر ، ولا يكون الاعتراف ضرورة قبل التناول .

ويعتبر سِر الشُكر من ضمن الأسرار الكنسية السبعة ، وهو يُعَد عندهم استمراراً – حرفياً– للعشاء الأخير !!.

وتبدأ خدمة سِر الشُكر بطريقة معينة، لعمل الخبز المقدس، فى منطقة خاصة مفتوحة على صحن الكنيسة (nave) وداخل بناء الكنيسة !! ويبدو أن النساطرة

يعرفون سبعة أمور روحية (أسراراً !!)[1] ، رغم أنها غير واضحة أو ثابته في طبيعتها !! وتشمل :

المعمودية ، الزواج ، سر الشُكر (Eucharist) ، وترتيبات عامة مقبولة . وأما بالنسبة للأسرار الثلاثة الباقية ، وهى الإكليروس (الكهنوت) ، ويتذبذب بين مختلف الآراء ، ويشمل مباركة (رسامة) الرهبان ، الصلاة على الموتى ، زيت المسحة (Unction) ، قبول الحِل الكهنوتى (absolution) والخميرة المقدسة ، وعلامة الصليب ، وتكريس (تدشين) الكنيسة والمذبح (altar) !!.

وأما خدمتا (سرّا) المعمودية والزواج ، فيتمان بفرح جزيل . ويستخدم في سر الزواج كأس وخاتم وصليب، وإكليل مُلوّن. ويُسمَح بالتطليق لأسباب عديدة .

وهناك خدمات (صلوات) خاصة للرسامة ، ولدفن الكهنة ، ولدفن العلمانيين، ولتدشين الكنائس (تكريسها) .

وبالنسبة للتقويم السنوى (calendar) فقد جرَى التقليد على استعمال النظام اليوليانى القديم للشهور. وقد بدأ التقويم فى العصر اليونانى (السلوقيين) بالسنة ٣١١ ق.م. وأما السنة الكنسية (التقويم الكنسى) فتبدأ بأول ديسمبر، وتُقسَّم إلى ٩ فترات، كل منها سبعة أسابيع تقريباً، وفيها احتفال بعيد البشارة، والظهور الإلهى، الصوم الكبير (Lent) والقيامة ، عيد الرسل، عيد إيليا ، عيد موسى، وتكريس الكنيسة !!.

---

(١) حسب ما ذكرَه Badger أن الإسرار السبعة (Sacraments) النسطورية هى : ١- النظام في العبادة . ٢- زيت المسحة (الميرون) . ٣- تقدمة جسد ودم المسيح. ٤- التحليل (الاعتراف) . ٥- المعمودية . ٦- الخميرة المقدسة (Leaven)!! ٧- رشم علامة الصليب !! وما ذكره البطريرك تيموثاوس الثانى (١٣١٨-١٣٦٠) وكذلك ما ذكره Assemani ان الأسرار هى : ١- تكريس (تدشين) الكنيسة والمذبح!! ٢- المعمودية والتثبيت بالزيت المقدس. ٣- النظم الكهنوتية للقيادة !! ٤- سر الجسد والدم المقدسين . ٥- مباركة (رسامة) الرهبان!! . ٦- الصلاة على الموتى. ٧- الزواج .

ولهم أربعة أصوام تختلف في طولها ، وأطولها يستمر ٤٩ يوماً ، قبل عيد القيامة (Easter) ويُسمى :"الصوم الكبير" ، وأقصرّها صوم مار تمريم (القديسة مريم) ومدته ١٥ يوماً ، في شهر أغسطس ، كما يتم الصوم يومّى الأربعاء والجمعة ، على مدار السنة ، وجملة أيام الصوم في السنة هى ١٧٢ يوماً .

وأما الملابس الخاصة بالخدمة ، فإن كهنة النساطرة يرتدون ملابساً مشابهة لتلك التى يستعملها جيرانهم اليعاقبة ، وتشمل تونية (Quthina) وبطرشيل (Urara = stole) ومنطقَة (زنار = حزام) Zunara ، وصدرية. وبدون قلنسوة (Mapra).ولهم أحذية مزخرَفة.

ويرتدى الأساقفة قلنسوة على الرأس. ويحملون عصا الرعاية وصليباً. وخارج الكنيسة ، يرتدى رجال الإكليروس النسطورى الملابس العادية ، وعمامة سوداء ، وكلهم مُلتحُون بالطبع .

+ + +

الفن والعمارة :

لو رجعنا للمسيحية الأولى في سوريا، فإننا نجد أنه من الصعب التميز بين الثقافة القديمة بين الشرق والغرب. وقد كان القديسون في كلا الشرق والغرب (في سوريا والعراق) هم أنفسهم. وكذلك نفس الأفكار اللاهوتية .

وهو ما ينطبق على مجالات الفن والعمارة، التى صارت لها أشكال مبسطة وعملية. وفيما بعد، عندما قاست الكنيسة من غزوات المغول، وقيام الإمبراطورية التركية (العثمانية)، فقد افتقرت وغرقت في النسيان والجهل، مما كان له أثره على العمارة النسطورية .

فلم يكن لهم – في الواقع – فناً يُقارن بأية طريقة بما لدى الإغريق، أو حتى للسريان في الغرب (الشام). بالإضافة إلى فقرهم المادى ونقص معرفتهم الفنية، كما لم يهتموا بعمل الأيقونات، أو استعمالها في كنيسة أو بيت .

واستعملوا صلباناً بسيطة عند مدخل الكنيسة، وفوق المذبح، ولكنهم لم يقبلوا صورة المصلوب في كل مبانيهم الدينية، ولم يميلوا إلى النحت. ولذلك صارت كنائسهم خالية منه (كالسريان).

وقد بدَت على الكنائس النسطورية حالة الفاقة ، ولكن يتم معرفة المباني الدينية من غيرها بمجرد وجود صليب بسيط على الجدار الخارجي، فوق مدخل الكنيسة . وهذا المدخل مجرد فتحة ضيقة ومنخفضة جداً ، حتى أن الداخل إليها لابُد له بأن ينحني ، حتى يستطيع الدخول. وكقاعدة عامة ، ارتفاعها ثلاثة أقدام تقريباً ، وقيل في تعليل ذلك ، هو منع الكردى البدائى من إدخال ماشيته إلى مكان العبادة السريانى والنسطورى.

وهو نفس المتبع في الكنائس والأديرة في البلاد الشرقية الغير مسيحية ، وذلك بهدف الدفاع ، بمنع الفرسان من الهجوم على تلك المباني الدينية . وفي حالة الكنيسة البطريركية القديمة في Qudshanis ، كان يتم الدخول إليها عن طريق سُلمَّ من الخارج ، لإيجاد صعوبة للدخول. ويقود المدخل إلى دهليز ،أو لصالة مفتوحة ، مُغطاة جزئياً ، ويَترك المصلون أحذيتهم بها ، ويغطون رؤوسهم بالطريقة الشرقية عند دخول الكنيسة نفسها .

وفي أيام الحرارة الشديدة ، تُقام الخدمات في الفناء بدلاً من داخل الكنيسة، الذى يتكون من هيكل وصحن، ينفصل عنه بحائط يحل محل حامل الأيقونات (iconostasis) في الكنائس التقليدية (القبطية) ولكن بدون أيقونات ، وعليه باب كبير مفتوح وله ستارة . وخارج الهيكل يوجد مكان مرتفع ومغلق بحائط منخفض للشمامسة المرتلين ومنجلية للقراءة، ومنضدة للكتب المقدسة وصليب بسيط .

والهيكل له مذبح واحد تحت قبة ، ويتم التناول من السر الأقدس مرة واحدة في اليوم في أية كنيسة . وجدران الهيكل لها كُوَى ، ودواليب لكُتب الصلاة ،

وأدوات المذبح. وللزيت المقدس (الميرون) وخميرة مقدسة للخبز ، لإعادة خبز الرغيف (القُربان) الجديد ، تأكيداً للتقليد القديم . وحجرة المعمودية عادة تقع إلى جوار الهيكل ، ولها مدخل من المذبح ومن الصحن وتستخدم أيضا كحجرة للبس ملابس الخدمة .

وفي أقصى الصحن نجد فتحة تقود إلى مكان به فُرن لعمل الخبز المقدس (القُربان) . والدعوة للصلاة تتم عن طريق لوحة (Semantron) يتم القرع عليها بمطرقة ، ولا تزال مستعملة في الأديرة اليونانية القديمة، مثل دير جبل سيناء (سانت كاترين) في مصر ، وجبل آثوس في اليونان .

+ + +

الأدب السرياني المنقول للنساطرة :

قام السريان بتأليف كتب كثيرة وترجمة كتب يونانية ولاتينية وقبطية. وظل يستعملها السريان في المغرب والمشرق، ومن شخصياتها القديس مار إفرّام السرياني وغيره. وفي منتصف القرن الخامس حدث الانشقاق، واتجه النساطرة إلى استعمال كتابات خاصة بعلمائهم، الذين استخدموا اللغتين السريانية والعربية، وبدأ أدبهم الخاص في العصور الوسطى، وترجموا ما نقلوه عن اليونان والفُرس إلى العربية. ومن النساطرة عَالِم فارسي تحول إلى المسيحية، يُدعى يوسف Hazzaya ، وقبض عليه الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م) وبيع عبداً، ونال حريته في كردستان، حيث أقام ديراً, وتفوّق في اللاهوت الأدبي السرياني. وقد نسب إليه المؤرخ عبد يسوع Abd-Ishu في سجله عن المخطوطات السريانية أن له ١٩٠٠ عمل أدبي سرياني، وغالبيتها قد فُقدَت، وعلى رأسها ترجمة كتاب بلاديوس The Paradise of the Fathers (وقد **ترجمناه** بجزئيه بعنوان: "بستان القديسين"، طبعة مكتبة المحبة).

ورغم أن النساطرة أصرُّوا على استخدام اللغة السريانية ، لكنـــها للأســف إنحدرت عندهم في العصر العربى. وإن كان قد كتب بها علمـــاء كبـــار مثـــل : حنين بن إسحق ، وديونيسيوس بن الصليبى ، وميخائيل الكبير ، وابـــن عـــبرى من بين اليعاقبة ، وكتب الكـــاثوليكوس تيموثـــاوس الأول النســـطورى (٨٢٣م) دراسة فلكية.

أما في القرن العاشر ، فقد هبط مستوى الأدب النسطورى . ولكننـــا نـــرى عدداً محدوداً من الكتابات النُسكية واللاهوتية بيد إلياس أسقف الأنبار (بـــالعراق)، وچورچ مطران الموصل. وتم تأليف عدة كتب دينية ولاهوتية وترانيم بيد عبـــد يسوع البطريرك النسطورى، على طريقة "المقامات" العربية للحريرى ؛ وســـماها "جنة عدن". وأنتهى منها سنة ١٢٩٠م.

ثم استكملها سنة ١٣١٦م بقصائد أخرى للدعـــوة إلـــى محبـــة الحكمـــة ، والمعرفة السليمة. وبعده لم تعد السريانية النسطورية لغة للآداب عندهـــم ، بـــل استُخدِمت للكلام والعبادة فقط ، مـاعدا مُؤَلفان وحيدان – في القرن ١٤- يتعلـــق الأول بالقوانين والليتورجيا الكنســـية. وكتبُـــه البطريـــرك تيموثـــاوس الثـــانى النسطورى (١٣٢٨) عن أسرار الكنيســـة المقدســـة (Sacraments) والثـــانى مجهول المؤلِف ؛ ويتحدث عن تاريخ البطريرك Yahballaha الثالث .



+ + +

الجزء الرابع

الكنيسة الأرمينية

مقدمة :

+ ملاحظات عامة :

قصة الكنيسة الأرمينية وشعبها **هى صورة للآلام والبطولة**. ورغم أن المسيحية في أرمينيا لم تصل إلى القامات العالية التى تميّزت بها كنائس قديمة أخرى ، لكنها تحمل ملامح فريدة ، يفخر بها شعبها.

فقد كانت أرمينيا أول مملكة في التاريخ تجعل المسيحية ديانة رسمية للدولة وللشعب ، في نفس الوقت. وسجل شهدائها وقديسيها يبدأ مع المسيحية الأولى. واستمرت المذابح للأرمن، حتى القرن العشرين !!.

ورغم تشتُت الأرمن في كل بلاد الشرق الأوسط ، وقارات العالم ، فقد احتفظوا بشخصياتهم ولغتهم وحياتهم الاجتماعية وخصائصهم العرقية (الجنسية) ورغم أن أعداداً قليلة من الأرمن صاروا بروتستانت أو تبعوا رومة ، لكن الغالبية تتمسك بالأرثوذكسية .

ويُقدّر أنه على الأقل ، إن ثلاثة أرباع الأرمن – في كل العالم– ينتمون إلى كنيستهم الجريجورية (Gregorian) الوطنية القديمة .

وتمتد حدودهم الجغرافية القديمة تقريباً من جبال القوقاز في الشمال إلى جبال طورسوس في الجنوب. ومن بحر قزوين في الشرق إلى البحر الأسود في الغرب ، ويذكر التقليد أن أرمينيا هى منبع الفرات أحد أنهار الجنة الأربعة (تك ٢:١٠) . وهناك أيضا جبل أراراط (وارتفاعه ١٧,٠٠٠قدم) الذى استقر عليه فُلك (ark) نوح . ولذلك ترتبط أرمينيا بالكتاب المقدس منذ عهد بعيد

ويدّعى الأرمينيون أن لديهم قطعة من فُلك نوح ، في أحد أديرتهم المُسَّمَى : Etshmiadzin ، وهو حاليا (١٩٦٨م) على حدود الاتحاد السوفيتى .

ونظراً لوجود أرمينيا بين دول متصارعة في الشرق الأوسط ، فقد هاجمها الفُرس واليونان والعرب والمغول والمصريون والأتراك، حتى القرن الماضى ، عندما تعرضّت الأمة الأرمينية للإبادة الجماعية ، في وطنهم . ولذلك تفرّقوا في أجزاء من كردستان وشمال العراق ، والقوقاز والبحر الأسود.

وكانت حدودهم مُتحرّكة، وتعتمد على الغزوات من الشرق والغرب ، بهدف السيطرة على طرق التجارة مع الشرق ، وهو ما يوضح تأثر مصير الأرمن بالملامح الطبيعية لأرمينيا .

وكلمة "أرمينى" من أصل يونانى. أما هم فيطلقون على أنفسهم اسم أمة "**Haikh**" وعلى بلادهم "**Hayastan**" ، وتقول الأسطورة أنهم ينتمون إلى Haik حفيد يافث Japheth (ابن نوح = تك٥ : ٣٢) .

ومن الناحية الجنسية فهم من الجنس الهندو – أوربى.وتستمد لغتهم منه- ويبلغ عددهم بين ٣,٥-٤ مليون، ومنهم جماعات في روسيا وتركيا وأمريكا الشمالية والجنوبية وفرنسا وإنجلترا وبلجيكا وإيطاليا ومصر والسودان والشام والعراق والهند وجاوة والفلبين ...الخ.

ويمتازون بقدرتهم الغير عادية في العمل الفنى والصناعى والتجارى ، مما زاد من ثرائهم، وأثار الغيرة عليهم من الذين يعيشون بينهم .

والأرمن المسيحيون لهم خصائص الكنائس الشرقية القديمة ، لاسيما الكنيسة القبطية في مصر . وهذه الاتجاهات يمكن تلخيصها في شخصيتها الوطنية، وتنظيمها الكنسى الديموقراطى .

ومنذ أن انفصلت الكنيسة الأرمينية عن قيصرية، فقد عزمت على عدم الخضوع لإنطاكية أو القسطنطينية أو روما . ومن جهة أخرى لم ترفض أبداً أن تتحد روحياً مع أخواتها الكنائس الأرثوذكسية ، على أساس التمسُّك بمبادئ الكنيسة الأولى .

ومن الجدير بالذكر، أن الأمور الكنسية الأرمينية يتولاها الاكليروس المنتخب من الشعب ، ويشارك العلمانيون في مجالس الكنائس ، دون الدخول في الأمور العقائدية .

+ + +

موجز تاريخى :

نظراً لقُرب أرمينيا من فارس، فقد تعرضت لغزواتها. فقد ضمها داريوس الأول لإمبراطوريته (٥٢١-٤٨٦ق.م) وخضعت للإسكندر الاكبر (٣٣٦-٣٢٣ق.م) وورثها السلوقيون ، عندما هزم أنتيوْخس الثالث الرومان في الشرق سنة ١٩٠ق.م ، ثم خضعت للرومان سنة ٦٦ق.م ، ثم للبيزنطيين ، ثم عانت من غزَوات العرَب، وخضعت لهم حتى مجيء الصليبيين سنة ١٠٧١م.

ثم قضىَ الأتراك السلاجقة على استقلال أرمينيا. وبدأ منذ ذلك الوقت الخروج من الوطن • فهاجروا بأعداد كبيرة للدول المجاورة ، في ساحل الليفانت (الشام) Levant.

وزاد الموقف تعقيداً بالضغوط التي تعرضت لها البلاد من الباب العالى (السلطان العثمانى التركى) من الخارج ، ومن الثورات الداخلية . وفي عام ١٨٩٤م هاجم الأكرَاد إقليم Sasun الأرمنى ، قرب دياربكر ، وتحرك الجيش التركى لقمع الحركة، ولكنه في الواقع قام بحرق العديد من القرى الأرمينية وقتل سكانها.وحدثت استجابة الشباب الأرمنى لنداء الدولة، بنشاط حربى سرى.

وفي عام ١٨٩٥م، أصدر السلطان العثمانى أوامره ، لتنفيذ اكـــبر مذبحـــة، هلك فيها ٨٠,٠٠٠ من الأرمـــن ، فـــي Trebizond والمحافظـــات الأرمينيـــة المجاورة.وقام الأرمن بحرق بنك عثمانى في اسطنبول سنة ١٨٩٦م، وفى يومين تم قتل ٦٠٠٠ أرمنى .

وكان انتخاب البطريرك الأرمنى Malachia Ormanian في نفس العام ، وحل السلام نتيجة سياسة التصالح التى اتبعها مـــع البـــاب العـــالى ، والقبـــائل الكردية. وظل السلام حتى عام ١٩٠٥م، حيث تم ذبح ٢٠,٠٠٠ أرمنى آخر .

وكان آخر فصل في المأساة الأرمينية – تحـــت تـــأثير الأتـــراك – خـــلال الحرب العالمية الأولى، فقد أعلن قادة الأرمن ولاءهم للســـلطان، وانضـــم إليـــه متطوعون أرمَن للقتال معه، ولكن الأتراك شكوًا فيهم وأســـاءوا معاملتـــهم.ثـــم سرّحّوهم .

ثم اتخذت الحكومة التركية قراراً خطيراً بالترحَّيل الجماعى للأرمن ، مـــن أناطوليا (بتركيا) إلى سوريا والعراق . وقيل إن ثلث السكان الأرمن قد أُرغِمـــوا على ترك ديارهم في تركيا ، والثُلث الآخر هرّب ، وأما الثُلث الآخـــر، فقـــد تـــم ذبحهم سنة ١٩١٥.

وفي العام التالى، غزت روسيا أرمينيا التركية، بهدف تحريـــر أهلـــها مـــن النير التركى، ولكن توقفت بسبب الثورة البلشفية (الشيوعية) سنة ١٩١٧م، كمـــا تخلى القوزاق (Cossacks)، في القوقاز، عن الأرمن، الذين استمروا في القتـــال وحدهم لقوات العدو الكبيرة، ورغم عدم المساواة في القوات في المعركة، لكـــن الأرمن نجحوا بعزمهم في قتالهم الأتراك على إنقاذ عاصمتهم إريڤان (Erivan).

وفي نفس الوقت ، كانت الهدنة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ سبباً في توقـــف العمليات الحربية ، وأعطت الأرمن الفرصة لالتقاط الأنفاس ، إلـــى أن وصلـــت قوات من الشرطة البريطانية إلى القوقاز .

أما تفاصيل الأحداث التالية ، التى قررت مستقبل الشعب الأرمنى ، فتدخل تحت نطاق التاريخ السياسى. وقام الأتراك بقتل ٣٠,٠٠٠ أرمنى . وتقدم الجيش الروسى داخل أذربيجان، وحل السلام بعقد معاهدة موسكو سنة ١٩٢١م .

ونال الأرمن استقلالهم في إطار الاتحاد السوفيتي ، في مرحلتين متتاليتين ، الأولى سنة ١٩٢٢م، عندما اتحدت أرمينيا وجورجيا وأذربيجان في دولة واحدة، وسُميت :"الاتحاد (الفيدرالي) للجمهوريات السوفيتية الاشتراكية عبّر القوقاز" . والمرحلة الثانية ، عندما تم حل الاتحاد المذكور سنة ١٩٣٦ ، وصاروا ثلاثة أعضاء (دول) في الاتحاد السوفيتى ، وصار لأرمينيا دستورها .

وفي عام ١٩٣٩ وصل عدد الأرمن في كل روسيا ٢,١٠١مليون ، وبقى ١,٠٢٥مليون داخل أرمينيا (في نطاق جمهوريات روسيا) ومساحتها ١١,٥٠٦ ميل مربع وعاصمتها السياسية إريڤان ، وعاصمتها الدينية اتشميادزين (Etshmiadzin) .

وقد تمسك الأرمن بالإيمان المسيحى رغم الاضطهادات القديمة والمذابح الحديثة ، واحتفظوا بشخصيتهم الخاصة ، وحضارتهم ، ورفضوا الخضوع لأى مستعمر، مهما كانت شدة التجربة .

+ + +

أصول وتطوُّر المسيحية الأرمينية :

الفصل الأول في تاريخ المسيحية الأرمينية غير واضح ، لنُدرَة مصادرها في الثلاثة القرون الأولى . وقد كان للأرمن لغة للحديث ، ولكن لم تكن لها حروف هجائية ، يتم بها تسجيل تاريخهم القديم .

وفي بداية العصر المسيحي كان الأرمن خاضعين للتقليد الفارسى الدينى ، رغم أن الغزو الأسيوى للإسكندر الأكبر قد ترك طابعه الإغريقي ، على طرق

عبادة الأرمن. ولذلك نجد أفكاراً زرادشتيه ومثيرانية، مع العديد من الأساطير الهلّينية في أرمينيا ، في وقت تبشير الرسل الشعوب الوثنية في العالم القديم .

ونظراً لقُرب أرمينيا من فلسطين – منبع الإيمان المسيحى– فربما زارها المبشرون الأوائل بالمسيحية. مع أنه من الصعب تحديد مدى انتشار الدين الجديد بين سكانها .

ويسعى المؤرخون الأرمن الأرثوذكس ، لإثبات سلسلة الخدمة الرسولية بالتتابع في كنيستهم. ومن أول المبشرين – في أرمينيا– القديس تداوس الرسول، والقديس برثلماوس. ونجد هياكلاً بإسميّهما للآن ، في كنائس (Macoo) Artaz، في جنوب شرق أرمينيا ، ولا يزال يكُرمَّها الأرمن .

وهناك تقليد مشهور بينهم ، ينسب التبشير بالإنجيل عندهم للقديس "**يهوذا الرسول**" (تداوس أو لباوس) ، الذى طبقاً لتواريخهم ، قضى السنوات ٤٣–٦٦م في أرمينيا. وقد لحق به الرسول القديس **برثلوماوس** ، في عام ٦٠م . والأخير استُشهد سنة ٦٨م في Albanus ، طبقاً للتقليد الأرمنى .

وعلى ذلك صار تداوس الرسول أول بطريرك للكنيسة الأرمينية . وهناك تقليد آخر ، يُنسِب لكرسى Artaz سلسلة من سبعة أساقفة معروف أسماؤهم ؛ وفترات أسقفياتهم ترجع بهم إلى القرن الثانى .

وعلاوة على ذلك ، فإن تواريخ الشهداء الأرمن (السنكسار) تشير إلى مجموعة من الشهداء من العصر الرسولى ، فقد استشهد نحو ألف مع القديس تداوس الرسول ، وعدد آخر نال إكليله أيضاً مع القديس برثلوماوس الشهيد .

ومن الجدير بالذكر ، أن قصة الملك أبجر – الابوكريفا– مع السيد المسيح ، التى رواها مؤرخون محليُّون ، يشيرون إلى أنها حدثت في أرمينيا، لجعل المسيحية قديمة العهد في بلادهم .

ورغم أنه من الصعب تأكيد هذه القصص ، لكن يمكن استنتاج من كتابات المؤرخين المعاصرين ، أنه كان يوجد مسيحيون في أرمينيا، قبل مجيء القديس غريغوريوس المنير (illuminator) .

ولو صدقنا المؤرخ الأرمني Ormanian وغيره من مؤرخي الأرمن عن إشارة العلاّمة "ترتليانوس" (Tertullian) عن المسيحية في أرمينيا في القرن الثاني ، فيجب الإقرار بأن المسيحية كانت معروفة هناك في وقت مبكر ، وخاصة عندما نقرأ عن الاضطهادات الفارسية للمسيحيين في أرمينيا بمعرفة أرتاشيس Artaashes (Artaxerxes) نحو عام ١١٠م ، وبيد خسرو (Chosroes) نحو عام ٢٣٠م ، الذى حاول القضاء على المسيحية في أرمينيا ، وبذل جهوداً في إحلال ديانة Mazdaism محلها .

ولا تزال المسيحية الأرمينية في مهدها (طفولتها) !! ويظن بعض الكتاب أنها ليست أرثوذكسية ولا رسولية ؛ ولكنها أبيونية (Ebionite) أو يهودية الشكل !!

ورأى البعض أنها لم تكن أرثوذكسية (heterodoxy) في إيمانها عن بنوة ولاهوت ربنا يسوع المسيح. وكانت بها هرطقة قديمة تزعم أن بنوّة المسيح للآب لم تكن بالطبع بل بالوضع، هذا الفِكر قد تسرّب من إنطاكية إلى أرمينيا، وخاصة في أيام مطرانها (الهرطوقى) بولس السيمساطى، خلال القرن الثالث[1].

وكان عقل الأرمن غير مستقر على عقيدتهم . وكان الصرّاع بين الوثنية والمسيحية – في أرمينيا – قد انتهى على يد رسول المسيحية الأرمينية التاريخى، والمؤسس الحقيقي لكنيسة أرمينيا، وهو القديس غريغوريوس الأرمنى (Gregory) المدعو :"المُنير" (illuminator) .

(1) Harnack, History of Dogma (New york 1957), p. 173.

وقبل أيامه كانت المسيحية غير معروفة تماماً. وكان يقاومها دائماً ، ليس فقط الغُزاة الوثنيون الأجانب ، ولكن أيضا بواسطة حكامها الأرمن . وحتى ذلك الوقت نفترض أنه لم يُمارّس التبشير بطريقة منتظمة في أرمينيا ، ولكن مجموعة من المبشرين ، كانت تأتى من ثلاثة مصادر رئيسية هى أورشليم وقيصرية (في كبادوكيا) وإديسا .

+ + +

• القديس غريغوريوس الأرمَنى (المُنِير) : (Loosavoritsh)

والدور التاريخى للكنيسة في أرمينيا بدأ بخدمة هذا القديس ، نحو نهاية القرن الثالث، وبداية القرن الرابع[1] . وكانت البلاد واقعة تحت نير (yoke) الفُرس ، وكان الأباطرة الساسانيين يجتهدون في نشر دينهم الوثنى Mazdaitic نحو منتصف القرن الثالث .

ولذلك فَّر كثير من الأرمن من وجه مضطهديهم إلى البُلدَان المجاورة . وكان من بينهم إثنان من الشباب المستحقين الإشارة إليهما . والأول كان ابن الملك الأرمّنى Khosrov ، الذى اغتاله أحد أعضاء أسرته المُسمى Anak ، وهو نفسه قد تم قتله بدوره بيد الحاشية .

وكان اسم الشاب الأول Trdat (Tiridates) . والآخر هو ابن Anak واسمه غريغوريوس . وكانا كلاهما من أصل أرِستوقرَاطى . ومضى الأول إلى روما ، حيث ترَّبى على التقليد الغَربى الوثنى (pagan) ، بينما الثانى

(١) ويُسمى أيضاً St. Gregor Partev أى غريغوريوس البارثيان(Parthian) والذى يوضح أصله (بارثيا غرب بحر قزوين).كما يقول المؤرخ الأرمنى أورمانيان ، وقد عاش تقريباً بين عامَى ٢٤٠ إلى ٣٣٢م .

(غريغوريوس) فقد توقف في قيصرية في كبادوكيا (بآسيا الصغرى) ، وهناك تعلم الإيمان المسيحى على يد القديسين في كنيستها الأولى .

وفيما بعد ، استرد ابن خوسروف عرش أبيه المفقود سنة ٢٨٧م ، بمساعدة الإمبراطور الرومانى دقلديانوس (Diocletian) ، عدو المسيحية اللدود . وبعد ذلك صار هذا الشاب ملكاً باسم "Trdat" الثانى . وفي نفس الوقت ، عاد غريغوريوس إلى الوطن ، بعد طرد الفُرس . وبدأ على الفور تبشير الوثنيين الذين في بلاده بالمسيحية .

ولم يمر وقت طويل ، قبل أن يكتشفه الملك Trdat الثانى. فقبض عليه على الفور ، بصفته ابن قاتل أبيه ، وعدو آلهته (أوثانه) . وبعدما عانىَ غريغوريوس من عذابات شديدة ، تم إلقاؤه في زنزانة (جُبْ) في قلعة Artaxata في منطقة أراراط .

وقضى تقريباً ١٥ سنة في تلك الحُفرة (الجُب) وكانت أرملة تأتى إليه بالطعام سراً . وفي تلك الفترة استمر الملك الأرمنى في اضطهاد رعاياه من المسيحيين. ونال كثيرون أكاليل الشهادة على يديه .

وكان من بين ضحاياه مجموعة من ٣٧ عذراء نلن الشهادة ، ومنهن القديسة Gayane (وكانت رئيسة للراهبات) والقديسة أربسيما (Hripsime) ، ولا يزال يُحتَفل بتذكارهما – في الكنيسة الأرمينية – يوم ٥ أكتوبر ، في كل عام .

وتذكر سيرة أربسيما ، إنها كانت عذراء رائعة الجمال ، وقد أسَرَت قلب الملك ، ولكن قابلت رغباته الشريرة باحتقار. وبعد شهادتها ، أصابه الجنون بسبب قسوته عليها. وصرَعه الشيطان ، وصار كخنزير برى (boar).

وكاتب سيرته هو سكرتيره Agathangelas (= الملاك الصالح).ويقدم لنا تفاصيل ما حدث له بعد ذلك ، حتى آمن الملك Trdat أخيراً بالمسيحية ، واعتبرها ديانة الدولة الأرمينية الرسمية .

إذ يشير الكاتب إلى رؤى إلهية. رأت الأولى أخت الملك (Khosrovittookhd) وأخبرته بأنها رأت – في حلم – رجلاً بوجه منير . وقال لها أنه يجب وقف الاضطهاد على المسيحيين ، وأنه ينبغي إحضار القديس غريغوريوس ، ليدلهم على طريقة لشفاء الملك من آلامه !

وقَبِل الملك مشورتها ، وتم استدعاء القديس من الحُفرَة (الجُب) ، وبصلواته استرد الملك صحته وعقله ، فتم تعميده مع كل أهله .

وكانت الرؤيا الثانية قد جاءت للقديس غريغوريوس. إذ بينما كان في تأملاته – ذات مرة– في منتصف الليل ، وفيها جاءه الرب يسوع مع جمهرة من الملائكة، وأعلن له أنه سيكشف له عجائباً . وقرَع الرب على الأرض بمطرقة ذهبية-وظهرَت أعمدة من نار وعمود من ذهب وسط المدينة ، وصلبان مُنيرة على مذابح كثيرة ، وجاء قطيع من الماعز (الجداء) الأسود ، وعبر الماء وصار حملاناً كثيرة بيضاء .

وفجأة عبر نصفهم الماء مرة أخرى ، وتحولوا إلى ذئاب ، هاجمت الحملاَّن حتى صار الدم ينزف منها ، ولكن الحملان صارت لها أجنحة ولحقت بجوقة ملائكة الرب. ونزلت نار من السماء والتهمت الذئاب ، وتزلزلت الأرض عند ظهور ضوء النهار ، وانتهت الرؤيا !!.

وقيل إن القديس غريغوريوس ، بنى نموذجاً لما رآه ، في مكان عمود كبير كان بوسط مدينة Vagharshapat ، وغيرّ هذا الإسم إلى إتشميادزين وتعني: "تنَزّل المولود الوحيد" .

وربما يرمز عمود الذهب الذى رآه القديس – في رؤياه– إلى أن السلطة الأرمينية ستحمل كنيستها المُستقلة ، وأن الأعمدة الأخرى هى أرواح الشهداء.

وأن الجداء (الماعز) السود ، والخراف البيضاء هم الشعب الأرمنى ، قبل وبعد التبشير بالمسيحية ، وأن الذئاب هم مضطهديهم .

وبتعميد الملك وأعضاء حاشيته ، نفترض أن المسيحية قد نمت بسرعة ، تحت إشراف الدولة . واختار الملك القديس غريغوريوس ليكون "كاثوليكوس" الكنيسة الأرمينية • وتم إرساله إلى قيصرية كبادوكيا لرسامته بيد المطران Leontius وأساقفته ، نحو عام ٣٠١م.

والتقى موكب القديس مع موكب الملك وحاشيته ، وساروا بجوار جبل Nbad على شاطئ نهر الفرات الأعلى ، وبدأ الحوار بينهم . وبذلك صارت المسيحية ديانة الدولة ، لأول مرة في تاريخ أرمينيا ، وكان ذلك قبل إثنى عشر عاماً من اعتراف الدولة الرومانية بالمسيحية ديانة رسمية (قرار الإمبراطور قسطنطين الكبير، صدر في ميلانو سنة ٣١٣م) .

وكانت المرحلة التالية في حياة القديس غريغوريوس (الأرمنى) بعد رسامته، هو استكمال إيمان شعبه ، وتأسيس الكنيسة الأرمينية . وبدعم من رجال الملك ، بدأ القديس حملة منظمة لتحطيم الأصنام القديمة ، وهدم معابدها أو تحويلها لكنائس .

وكان بعض كهنة الأوثان – مثل أُسرة Albianos – قد آمنوا واعتمدوا. وتمت رسامتهم كهنة ، في الكنيسة الجديدة !!. وصار معبد Anahit ، في Yeriza ، ديراً باسم القديس Karapak . وتم تحويل معابد ميثرا إلى كنائس ، وضُمّت أملاكها إليها . وتم تدمير ثلاثة معابد أخرى متجاورة ،وأُقيمت محلها كاتدرائية ، وتقدست هياكلها بأعضاء(relics) القديس الشهيد يوحنا المعمدان،التى أتى بها القديس غريغوريوس معه ، من مدينة قيصرية كبادوكيا .

وكان الملك نفسه يصحب القديس معه ، عند هدم معاقل الوثنية الأرمينية . وقد كانت شخصية القديس غريغوريوس عظيمة في جهادها ، حتى أنه قد تم

تسجيل أنه عمّد أربعة ملايين شخص في سبعة أيام ، وإن كان ذلك يعتبر مبالغة (في نظر الكاتب) ولكنه يشير إلى حقيقة إيمان أعداد كبيرة من الأرمن .

وقد امتدت بطريركيته من دياربكر (Amid) إلى نصيبين . وهناك خلاف في الرأى حول عدد مارسمه من الأساقفة. فقد قيل إنه رسم نحو ٤٠٠ أسقف تحت سلطانه .

ومن المؤكد أن أرمينيا قد صارت بلداً مسيحياً في حياة القديس، التى انتهت نحو عام ٣٢٥م. ومن ناحية أخرى، فإن الرأى عن استئصال الوثنية، في تلك الأيام – والذى دعّمه المؤرخون الأرمن المُدققون – يمكن أن نأخذه بحذر شديد !!. فإن الكهنوت الوثنى – في أرمينيا – كان ثرياً وقوياً ومسلحاً ، ولم يكن من السهل استئصال الوثنية ، على الأقل في الأقاليم الحدودية البعيدة .

وقد تبنّى القديس سياسة حكيمة ، في رسامة أساقفة من بين أبناء كهنة الأوثان ، كنوع من الحِكمة السياسية ، كما تم دفن أحد الزعماء سنة ٣٧٨ بالطريقة الطقسية الوثنية القديمة ، كما ذكرُه المؤرخ فاوستوس البيزنطى .

ومع ذلك ، يجب الاعتراف بأنه قام بأعمال أكثر من كل معاصريه من الأساقفة ، خلال حبريته. وخلف كنيسة منظمة جيداً ، ومسيحية للدولة والشعب الأرمنّي.

وقد انزعجت الدولة الرومانية من تقدم المسيحية في أرمينيا ، والإيمان بها، حتى أن الإمبراطور مكسيميانوس (٢٨٦–٣٠٥م) قرر أن يُقيم الحرب ضد الأرمن ، الذين صار منهم مسيحياً ملكاً على العرش الأرمنى !!.

وقد ظهرَت مشكلة كهنوتية ، نبعت من رسامة القديس غريغوريوس الأرمنى. فإنه نظراً لأنه قد تمُت رسامته بيد مطران قيصرية ، فإن الإغريق زعموا – فيما بعد– أن كاثوليكوس (جاثليق) الأرمن يكون تابعاً لكرسى

قيصرية، بينما زَعم اللاتين (الكاثوليك) أن أرمينيا قد نالت استقلال كنيستها ، ليس عن طريق قيصرية ، ولكن بجهود البابا سيلفستر (Sylvester) الأول (٣١٤-٣٣٥) الذى منح الأرمن تصريحاً بذلك ، مما يستوجب طاعة كرسى روما !

وأما بالنسبة للرأى الأرمنّى ، عن السلطة البطريركية الأرمينية ، فقد ذكره الكاتب أُورمانيان ، مُلقياً الضوء على سياسة هذه الكنيسة القديمة والتى يُصِبّر مؤرخوها على أصلها الرسولي ؛ وأن الذى أسسها هما القديس تداوس، والقديس برثلوماوس. وأن سلسلة الآباء لم تنقطع حتى مجيء القديس غريغوريوس ، الذى استلم عصا الرعاية من Leontius مطران قيصرية شخصياً ، ودون أن يلغى التقليد الرسولى .

ومن ناحية أخرى ، فإن النظرية (الكاثوليكية) الرومانية لابُد أن تُنقَض ، لأن منح سلفستر تصريحاً ، هو اختراع غير مُعترَف به ، ويرجع لزمن الصليبيين ؛ وأن أرمينيا كانت بعيداً عن نفوذ الإمبراطورية الرومانية . كما أن تطورها الكنسى لم يتأثر بأفكار روما (الكاثوليك) .

أى أن كرسى أرمينيا – مثل فارس أو إثيوبيا – كان مستقلاً عن سلطان الرومان . وكذلك لو درسنا الموضوع من جهة العلاقات الكنسية للكراسى الرسولية الموجودة قبل مجمع نيقية (٣٢٥م) يتضح أن أياً منها لم تتدخل في شئون الكنائس الأخرى . وأن المدافعين عن آراء البيزنطيين والرومان يبنون أفكارَهم على فروض ، ليست لها قيمة تاريخية .

وربما كان الضعف الحقيقى للكنيسة الأرمينية – خلال حبرية القديس غريغوريوس– راجعاً إلى حقيقة أن المسيحية كانت ديانة أكثر أرستقراطية منها شعبيّة !!.

فقد كان الكاثوليكوس يتحرَّك – داخل البلاد– بحاشية ، وحرس من عند الملك . وكان هو وأساقفته أُمراءً للكنيسة ، وكبار سادة إقطاعيين ، نظراً لأنهم وضعوا أيديهم على إبعاديات واسعة ؛ موروثة من عهد الكهنوت الوثني !!.

ولم يستفِد الشعب بالأدب الديني ، الذي كان إما باللغة اليونانية أو السُريانية، رغم محاولات القديس غريغوريوس إنشاء مدارس لتقليل فجوة الجهل ، وتعليم اللغتين . وقد قُدِّر لهذا الضعف أن يختفي في القرن الخامس بفضل كثير من الأبطال الكنسيين ، الذين سعوا لاقتلاع الخُرافات الوثنية من قلب الشعب .

ونظراً لأن القديس العظيم غريغوريوس الأرمَني قد اقترب من الرحيل من العالم ، فقد اختار ابنه الثاني Aristakes ، وكان بتولاً ، ليخَلفَه ، وقام برسامته فعلاً . وقد حضر أرستاكس المجمع المسكوني الأول في نيقية سنة ٣٢٥ ؛ وهو العام ، الذي اعتزل فيه القديس في صومعته انتظاراً لنياحته .

وفي ذلك الوقت كان يوجد أساقفة وخُدَّام كنسيين متزوجين. وقد لاح خطر وراثة البطريركية في أرمينيا ، كنتيجة لمحبة الشعب لأسرة القديس غريغوريوس. فقد جلس أرستاكس على الكرسي الأرمَني من عام ٣٢٥ إلى ٣٣٣م ، وخَلفَه أخوه الأكبر ، والمتزوج Vrtan (٣٣٣-٣٤١) ثم إبنه Hoosik (٣٤١-٣٤٨) وشخص آخر متزوج. وقد رفض أولاده الرسامة .

ثم صار الكرسي البطريركي مؤقتاً ، لأحد الأقارب وهو pharan (٣٤٨-٣٥٢م) ثم استرَدَّه حفيد Hoosik المدعو نرسيس (٣٥٣-٣٧٣م) الذي كان عهده علامة هامة في تاريخ أرمينيا .

وبعده انقطعت سلسلة أسرة غريغوريوس ، وصارت البطريركية إلى ألبينوس ، وكان من أصل كهنوتي مسيحي. وكان قد تحَوَّل للمسيحية عن طريق القديس غريغوريوس نفسه .

وقد أصبح خلفاء أليبنوس منافسين حقيقيين للسلسلة الغريغورية، في دعوتهم التقليدية، للحصول على المنصب البطريركى .

ويبدو النظام الكهنوتى اليهودى في الإكليروس الأرمني ، فقد نادَى الأرمن بأنهم من سلالة إبراهيم ، وأن البطاركة الأرمن الأوائل كانوا متزوجين، مثل الآباء اليهود . كما تبع الأساقفة مِثال رؤسائهم الدينيين ، وأصبحت الإيبارشيات وراثية (كما هى الحال عند الآشوريين).

والمظهر العجيب الآخر ، المستمد من الاتجاه الهرطوقى "الأبيونى" ، هو الفكر الميال إلى تعدد الزوجات (polygamy). فقد كان للملك Arshak الثالث (في النصف الثانى من القرن الرابع) زوجتين هما : Pharndzem، Olympia[1]، ولو أنه لا يجب تعميم ذلك ، لوجود حالات فردية ومنعزلة.وكان البطريرك نرسيس قد اعتزَل في الدير، احتجاجاً على تلك الممارسات الفاسدة .

ولا يزال الأرمن يُحيُّون تذكار القديس غريغوريوس حتى اليوم. وتشمل أعياد ميلاده ونياحته ونقل أعضائه . وله دير وكنيسة باسمه .

+ + +

الإصلاح في القرن الرابع وترجمة الكتاب المقدس بالأرمينية :

لكى نفهم جيداً الدور الذى لعبته الكنيسة الأرمينية –عبْر العصور– في الحياة الأرمينية والحضارة هناك. لابُد أن نتذّكر أن المسيحية كانت ديانة الدولة، وأن الدولة في تلك الأيام المبكرة قد نشأت على نظام إقطاعى، مع ملكية شبه بربرية .

---

(١) يذكر فاوستوس ، وفورتسكيو أنه قتل زوجته Olympia ، فيما بعد ، ليتزوج بنساء أُخر، ووضع نظاماً يناقض به الكاثوليكوس ، ويحقق أغراضه الخاصة ، وانتهى الشقاق بينهما بموت هذا الملك الشرير ، في حروب مع الفُرس سنة ٣٦٧م.

والكنيسة بقوتها الروحية الكبيرة ، واتساع مصادرها الاقتصادية، كانت لذلك هى العامل الرئيسى المفيدً للمجتمع ، لاسيما تحت رئاسة راعٍ مُستنير. هذا المَظهر الذى صاحَب الكنيسة الأرمينية القديمة طوال حياتها ، وحتى بعد اختفاء الملوك الأرمن وضياع الاستقلال الأرمنى، وكانت ممتازة في أيام حفيد القديس غريغوريوس المدعو "ترسيس الأكبر" (٣٥٣-٣٧٣م) ، وكان من آباء القرن الرابع ، واستحق فعلاً لقب "الأكبر".

ومعظم تبشير الأرمن بالمسيحية – على الأقل رسمياً– كان خلال حبريّة القديس غريغوريوس وخلفائه القريبين . وأما المرحلة الطبيعية التالية فكانت إتمام تنظيم إدارة الكنيسة ورعاية الشعب روحياً ومادياً.

وكان مقر الكنيسة (البطريركية) في البداية في Ashtishat في مقاطعة Taron ؛ التى صارت العاصمة الكنسية لأرمينيا، والموازية لمدينة Etshmiadzin عاصمة الدولة-والمَقر الملكى .

وبذلك استعادت الكنيسة استقلالها عن الدولة. وكان أُمَراء الإقطاع يلجأون إلى Ashtishat لحل خلافاتهم ومنافستهم التى كانت تصل أحياناً إلى التاج الملكى نفسه . وفي عام ٣٦٥م عقد نرسيس مجمعاً مقدساً في أشتيشات ، ودعا إليه النُبلاء والأُمراء والأساقفة ، لعلاج بعض الأمور الخاصة بقانون الأرض ، وعمل الإصلاحات الأخرى المُلِحَّة .

وقرر المجمع إعداد نُظم جيدة للزواج . ومنع العادة السائدة هناك بالزواج من أبناء العم. وكان يداوم عليها الإقطاعيون ، حفظاً لأملاكهم. وكذلك حاول إقتلاع الخرافات والعادات الوثنية ، التى كانت لا تزال سائدة ، مثل العويل على الموتىَ ، واستعمال التعاويذ (الأحجِبة).

ثم قرر المجمع – بعد ذلك – عمل إصلاحات مدنيّة ، مثل تخصيص مساعدة مالية من الشعب ومن مجالس المدنَ ، لإنشاء مستشفيات للمرضى ،

ومستعمرات للجُذام ، ودور للعميان ، وملاجــــئ للأيتــام والأرامــل ، ومقــار للمسافرين. وأديرَة على النظام القبطى ، وتضم النُساك والمتوحدين. وبلغت جملـة المؤسسات الصغيرة والكبيرة – في ذلك الوقت– نحو ألفين .

وقد عانت هذه الأعمال العظيمة من هجوم فارسي جديـــد، ضـــد أرمينيـــا. وفشلت محاولة الساسانيين لإعادة نشر عبادتهم :"المزديَّة" (Mazdaism) بيـــن الشعب الأرمَنى . وكذلك عانىَ الأرمن من السلوك الشرير، فـــي عـــهد الملـــك Arshak الثالث وإبنه Pap ، واللذين انتهت حياتهما بالعُنف .

وكانت أيام Pap العاصفة ، قد أدت إلى معاناة الكنيسة. فقد قيل – في بعــض التقارير– إنه قام بقتل الأب نرسيس بالسُم. ورشح كاثوليكوس آخر، على حســـب مُرادِه ، واسمه yusik والثانى من عائلة Abianos المُنافِس .

ونظراً لخوفه من الخلافات مع قيصرية في رسامته ، فقد قرر رسامته بيـــد الأساقفة الأرمينيين في بلاده ، في أواخر السبعينيات من القرن الرابع . واستقلال كنيسته عن قيصرية .

وقد استمرت فترة الكاثوليكوس Sahak من عام ٣٨٧ إلـــى ٤٣٩م ، مــع وجود فترة من النفى ، والانشقاق ، ولكن بدون عائق للتقدم الدينى الضخم الـــذى حدث في هذا العصر .

وكانت اللغة الأرمينية مكونة من عدة لهجات محلية مختلفة ، ولكـــن بـــدون أدب دينى أو علمانى مُسجّل ، أو حتى بدون حروف هجائية . وكـــانت الكنيســـة تعتمد تماماً على اللغة اليونانية في الأقاليم الغربية ، وعلى السريانية في الولايـــات الأرمينية الشرقية ، ولكن غالبية الشعب لم تفهم كلتا اللغتين .

ولذلك كان يجب اختراع طريقة لعامة الشعب،لفـــهم القُـــداس ، والقـــرَاءات الكنسيّة. لذلك تم إدخال نظامين في خدمة الكنيسة هما : مــــا يُســـمَى "**بـــالقُرَّاء**"

(Vendzanogh) الذين يقرأون الكتب المقدسة والمواد الأخرى ، "**والمترجمون**" (Thargmanitsh) الذين يترجمون القراءات إلى الأرمينية للمواطنين .

كان هذا هو الوضع ، إلى نهاية القرن الرابع ، وأما الكاثوليكوس Sahak الذى أدرك عدم فائدة ذلك ، وبحث عن وسيلة لعلاج هذا الأسلوب في نقل المعلومات للشعب . ووجد ضالته في شخص أرمنى موهوب. ويدين كل الأدب الأرمنى بوجوده إلى عبقريته .

وكان من الإكليروس ، وإسمه "Mesrop" ، فرسمه سنة ٣٩٦. وكان في الأصل سكرتيراً للمَلك ، ثم صار تلميذاً للكاثوليكوس. وقد أرسله في حملة لمقاومة الوثنية ، والتعاليم الهرطوقية،في المناطق المتطرفة من البلاد .

وخلال رحلاته الأولى ، لابُد أنه شعرَ بالحاجة إلى كتاب مقدس للشعب الأرمَنى ، كسلاح أساسى لمقاومة الخُرافات الوثنية . ولذلك عند عودته إلى Ashtishat ، أثار موضوع وضع حروف هجائية أرمينية مع الكاثوليكوس ، وعقد مجمعاً خاصاً لمُباركة هذا المشروع ، الذى شارك فيه الملك الحاكم Vramshapooh بدعم من الدولة .

وأخيراً صمم Mesrop أبجدية جديدة مكونة من ٣٦ حرفاً في بداية القرن الخامس ، وُوافق عليها Sahak والكنيسة . وفيما بعد – في القرن ١٢ – زيد حرفان ، حتى بلغت الأبجدية الأرمينية ٣٨حرفاً .

وكانت تعتبر تلك الحادثة (الثقافية) تالية في الأهمية – في تاريخ أرمينيا – لإدخال المسيحية هناك . وكان جزء من الأدب الأرمَنى قد تم تدويَنه بها. وتمت ترجمة بعض أجزاء من الكتاب المقدس ، والقُداس للشعب ، وساعد ذلك على اجتثات الوثنية من البلاد ، كما ساعد على توحيد اللهجات المحلية المختلفة وتقوّية الرابطة بين قسمَى الأمة ، الواقعين تحت حُكم الفُرس والإغريق .

وكانت الخطوة التالية إعداد نسخة معتمدة للكتاب المقدس كله بالأرمينية . وتألفت لهذه الغاية لجنة من مائة مترجم ، دربهم Mesrop، Sahak ، لمساعدة الأخير في هذا العمل العظيم سنة ٤٠٤م .

وقامت اللجنة بترجمة العهد القديم من النسخة السبعينية اليونانية (Septuagint) بالاستعانة بالترجمة السريانية القديمة (Peshitta) . وقد تم الانتهاء من النص كله قبل نهاية سنة ٤٣٣. ويشمل الكتاب المقدس بالأرمينية الكتب القانونية ، وبعض كتب الأبوكريفا ، المستمدة من النصوص اليونانية الإسكندرية مع مصادر سريانية .

وكانت أيام ضغط شديد من المستعمر الفارسى . وقد جاهد Mesrop مع رفاقِهِ ضد جهود الساسيين ، الذى سعوا لإحلال الزرادشتية والمزديانية محل المسيحية ، ومقاومة ترجمة الكتب المقدسة حسب الحروف الهجائية الأرمينية الجديدة .

وفي نفس الوقت ، أنشأت الكنيسة المدارس في الإيبارشيات لتدريب الشباب الأرمنى على قراءه نصوص الكتب المقدسة ، حسب النسخة الجديدة .

وتمت ترجمة القُداس الباسيلى ، والطقوس الخاصة بالمعمودية والميرون ، وكتب خدمات الرسامة الطقسية ، والزواج ، والصلاة على الموتى . كما تمت ترجمة كتب الصلوات وسِيَر القديسين ، من السريانية واليونانية . وأقوال الآباء ، التى أثرَّت فى الأدب الأرمنى تدريجياً . كما وُضِعَت ألحان وترانيم شعبية ، مستوحاة من أعمال القديس مار افرآم السريانى الخالدة ، والمكتوبة بالسريانية .

وكان الكتاب المقدس بالأرمينية له تأثيره القوِي على الشعب، فلم يتأثر بالمتاعب السياسية (الفارسية) ولم تستطع أن تنزع الإيمان المسيحى من قلوب الشعب . فقد شدد الفُرس في معركة Avarayr عام ٤٥١ على الأرمن، ولكن

القائد والزعيم Mamiconian قد انتصر على الفُرس ، وأعلن Yezdegird الثانى (٤٣٨-٤٥٧) الحرية الدينية في أرمينيا ، وعيَّن Mamiconian على رأس حكومة البلاد. وتعاون كل من الحاكم والكاثوليكوس، في أوقات الخطر.

+ + +

الأرمن ومجمع خلقيدونيا: (Chalcedon)

ربما لم يهتم الأرمن بمجمع خلقيدونية، المنعقد بها في أكتوبر سنة ٤٥١م ، رغم أنه قيل إنه شارَك فيه عشرة من الأساقفة الأرمن[1] ، فقد كانت أرمينيا تُحارب الفُرس . وكانت الكنيسة الأرمينية تتعرَض لمرحلة إضطهاد قاسية ، وانتهت باستشهاد الكاثوليكوس Hovsep سنة ٤٥٤م.

وحتى ولو كان قد تم إعلان الأرمن ، ودعوتهم للمجمع (المشؤوم) ، لما كانت حالتهم المعنوية تسمح للاستجابة لمؤتمر عقَدَه الإمبراطور (البيزنطى) ماركيان Marcian (٤٥٠-٤٥٧م) الذى خذَلهم في صراعهم مع قوات الظلام (الفُرس) .

أما بالنسبة لرأى الأرمن، بالنسبة لقرارات مجمع خلقيدونيا ، فقد تأجل إلى وقت حلول السلام في بلادهم . وأخيراً ، عند عودة السلام النسبى للكنيسة ، وإعلان الحرية الدينية ، في العقود الأخيرة من القرن الخامس ، شعرُت الكنيسة الأرمينية أنها في موقف يجعلها تُفكِر جيداً في قرارات مجمع أفسس المسكونى

---

(١) يرى مؤرخون أرمن وغيرهم أنهم كانوا وفداً ، مُرسلاً إلى القسطنطينية ، لطلب النجدة ، ولكن الإمبراطور ماركيان لم يُعِرهم إهتماماً - كما قال أورمانيان - ولذلك من الصعب وصفهم بأنهم كانوا ممثلين للكنيسة الأرمينية في مجمع خلقيدونيا .

•Tournebize, Hist. De L'Armenie (Paris,1910) p. 87.

الثانى (٤٤٩م) والتى اعتبرتها قانونيـــة (وبالتـــالى رفضـــت قـــرارات مجمـــع خلقيدونية) .

وكانت عبارة القديس كيرلس الأول (عمود الدين) الإسكندرى، التى ذكرَهـــا بإيجاز عن لاهوت المسيح بأن : له " **طبيعة واحدة، متحّدة في الكلمة المُتجسِّد**":

one nature united in incarnate Word") قد تغيرَّت – فـــى مجمـــع خلقيدونيا– بتعريف البابا الرومانى ليو (Leo) الشهير ، فـــي رســـالته العقيديـــة (Epistola dogmatica) إلى فلاڤيان ، بطريرك القسطنطينية ، بأن : " الـــرَب يسوع طبيعتان ، بدون اختلاط ، بدون تغيّير ، بدون انفصال ، بدون إنقسام".

لذلك عقد الكاثوليكوس Babguen (٤٩٠-٥١٦م) مجمعاً عاماً مـــن كـــل الأساقفة الأرمَـــن ، وأســـاقفة جورجيـــا (Georgian) وقزويـــن ، وألبانيَـــان (Caspio - Albanian) عام ٥٠٦م في مدينة Dwin ، لاستصدار قرار عـــن الموضوع .

وقد رَأىَ هذا المجمع أن العبارات الخاصة بمجمع خلقيدونيا (عـــن طبيعـــة المسيح) تميل للهرطقة النسطورية ، وتُضاد قرارات مجمـــع أفســـس. وحينئـــذ **اتخذت أرمينيا قرارها التاريخى ، بالوقوف إلى جانب الأرثوذكسية الشرقية** .

وقد رأت الكنيستان الأرمينية والقبطية ، أن الشروط التى فرضتـــها كنيســـة روما – وأدّت إلى الصرَاع بين الشرق والغرب – بسبب سعى الكاثوليك للهيمنـــة على الكنائس كلها ، وأن التردّد في كرسى القسطنطينية، قد أمَالَه نحو الغرب .

وبالرغم أن الإمبراطور ماركيان وافق على قرارَات مجمع خلقيدونية ، لكـــن عدداً من خلفائه ظلوا في شك. فقد اعترَض عليـــها الإمـــبراطور باســـيليكوس ، واستصدر زينون (Zeno) قرار الاتحاد (Henoticon) الذى أقترَب من الصيغة

الأرثوذكسية. ورفض الإمبراطور أنسطاسيوس سنة ٤٩١م الإعتراف بقـــرارات مجمع خلقيدونيا .

وأمام هذه الاحتجاجات ، لم يجد الأرمن سوى الاعتقـــاد بإيمـــان مـــا قبــل خلقيدونيا. فقد كان عداؤهم التقليدى للنسطورية والنساطرة. بالإضافة إلـــى عـــدم رغبتهم في ترك تعاليم كنيستهم ، وعدم التخلىّ عن استقلالهم عن اليونان (الروم) ، والرومان أيضاً ، كانت من العوامل الحاسمة فـــي عـــدم قبـــول أفكـــار مجمـــع خلقيدونيا .

وكان تأثير هذه القرارات سياسياً ، بعيد المدى. وكـــان انقطـــاع العلاقـــات الودية مع قيصرية ، وكذلك رفض قرارات خلقيدونيا ، قد نتج عنها عُزلة كنســية للكنيسة الأرمينية (كما حدث للكنيسة القبطية) . وقد تمت المحافظة على الإيمـــان الأرثوذكسي ، وهو ما أكد عليه خلفاء الكاثوليكوس Babguen .

وكان مجمع Dwin في عام ٥٥٤م برئاسة نرسيس الثـــانى (٥٤٨-٥٥٧م) ، لتجديد الانحياز الأرمّينى لقرار مجمع أفسس ، مما حفظ الأيمـــان الأرثوذكســـي للأجيال التالية ، وظلّت الكنيسة الوطنية تتمسك بعقيدتها القديمة .

وبعدما عانى الكاثوليكوس "عزرا" (Ezra) من اضطـــهادات الإمـــبراطور هرقل (Heraclius) للاتحاد مع اليونانيين (البيزنطيين) سنة ٦٢٩م ، قام مجمـــع: Manzikert (في عام ٦٥١م) برفض قرارات مجمع خلقيدونيا صراحةً.

وأخيراً ، تخلصّت أرمينيا من مزيد من الإغرّاءات ، للاتحاد مع اليونـــانيين (الروم) بسبب الغزو العربى ، وقيام إمبراطورية إسلامية في الشرق الأوسط .

+ + +

١٩- أزمنة المتاعب :

• **الخلافة الإسلامية :**

فتّح الغزو العربى لأرمينيا ، عهداً آخر من التناقضات في تـــاريخ كنيســة أرمينيا. فإن العرب الذين استولوا على البلاد من كلٍ من الفُرس والروم ، أسســوا حكومة مختلفة السياسة .

فقد وجدوا أن من مصلحتهم حُكم تلك المنطقة الجديدة ، من خـــلال كبـار الأُمرّاء الإقطاعيين (feudal) ، الذين أَظهروا الولاء للســادة الجُدُد، مــع دفـع الضرائب لهم .

وقد جاهدت الدولة البيزنطية التى كانت تفقد أراضٍ بتقدُّم الجيوش العربيـــة لاستعادة – على الأقل – غرب أرمينيا لسيطرتها. وكان هذا الانقســـام – مـرة أخرى– بين أثنين مختلفين من تقاليد الشرق والغرب ، قد أضعَّف الأمة الأرمينية سياسياً، ولكن ليس كنسيَّاً .

فقد كانت الكنيسة هى العامل الهام الوحيد في حياة أرمينيـــا ، ســواء مــع العرب أو الروم.ولم يكن هناك صرَاع عربى خاص مع الكنيسة. علـــى عكـس الروم . فقد كانت الحماية العربية تتفق مع عهد عُمر بن الخطاب .

ولذلك شعرَت الكنيسة الأرمينية أنها في وضع أفضل ، عندما تناقشت مــع الروم عن مبادئ مجمع خلقيدونيا . وكان الآباء الأرمن يستطيعون بحرية إعــلان إيمانهم بالأرثوذكسية ، دون أن يضايقهم أى تدخُّل بـــيزنطى . وبذلــك أعلنَـت الكنيسة الأرمينية قرارها التاريخى بعدم قبول قرارات مجمع خلقيدونيا. ورفضـت الاتحاد مع القسطنطينية .

وقد ظهر ذلك بوضوح في مجمــع Manzikert ســنة ٧٢٦ ، الــذى عُقِد بمشاركة أساقفة ســريان ، برئاســة الكـــاثوليكوس الأرمنـــى الشـــهير يوحنـــا

(Hovhannes Otzun) الملقب "بالفليسوف" . وكان عالماً كبيراً . وقد كتب العديد من المؤلفات اللاهوتية ، وأدخل عدة إصلاحات تنظيمية في الكنيسة الأرمينية .

كما كان دبلوماسياً قديراً. وكان ينتهز أية فرصة للحصول على امتيازات لشعبه . وهناك رواية عن لقائه مع الخليفة عُمر الثانى (بن عبد العزيز) [٧١٧-٧٢٠م] عندما ارتدى أفخر ثيابه الكهنوتية في حضرته . فسأله الخليفة عما إذا كان المسيح قد علمّ تلاميذه بارتداء الملابس البسيطة ؟! فطلب منه الكاثوليكوس الانفراد به وحدهما. ثم كشف له عن ملابسه الداخلية وهى رداء من شعر الماعز، كان يرتديه على اللحم . وأدرك الخليفة أنه لا يمكن احتمال هذا اللبس الخشن ، بدون معونة الله. وأبدى استعداده لإعطاء هذا القديس كل ما يطلبه منه. فطلب يوحنا الحرية الدينية لشعبه. وإعفاء الكنائس والإكليروس من الضرائب. وقد وافق الخليفة على طلبه. كما تم تحرير المساجين، بناء على أمر الخليفة.

وطبقاً "للعُهدَة العمرية" سُمِح بوجود المنشآت المسيحية الموجودة عند الغزو العربى، ولكن عدم بناء الكنائس الجديدة ، أو ترميم القديمة، ولكن هذا الشرط لم يكن مرَّعياً فى أرمينيا، خلال حكم المُلك Bagratuni فى القرن التاسع. فقد قامت إبنته "مريام" زوجة الأمير Siounie ببناء كنيسة فى Taron ، ٤٠ كنيسة وديراً فى مقاطعة زوجها، وعدد آخر فى منطقة أرارَاط.

وتم استخدام الأحجار فى هذه المبانى الفخمة بقبابها الجميلة. وتم ترميم الكنائس القديمة، وزُيّنت بالأيقونات والفُسيفسَاء.

أما بالنسبة **للأمور العقيدية**. فقد رفضت الكنيسة الأرمينية كل تقرُّب من بيزنطة. وعندما بذل فوتيوس (Photius) [٨٥٨-٨٦٨] بطريرك القسطنطينية محاولة للإتحاد مع الأرمن ، صدَّه مباشرة الكاثوليكوس زاخارياس ؛ فى رسالة

سنة ٨٦٢م ، وأعلن له فيها أن مجمع خلقيدونيا يتعارض وروح المجامع المسكونية الثلاثة الأولى (نيقية + القسطنطينية + أفسس الأول).

كما تمسّك مجمع Shiragaven ، الذى اجتمع فى نفس العام، بنفس التعريفات القديمة لطبيعة المسيح المتحدة، ضد " أكاذيب" الروم.

وأنه من الخطأ افتراض أن الأرمن قد عاشوا فى حرية كاملة تحت سيادة العرب. بل إن المتاعب التى عانوها من العرب كانت كثيرة وثقيلة. ومن قبيل إضاعة الوقت فى إحصاء الصِدام الإسلامى – الأرمينى ، منذ القرن السابع وما بعده.

وكان البطاركة الأرمن (Catholicoi) يقومون برحلات شاقة إلى عاصمة الإسلام، ليدافعوا شخصياً فى قصر الخليفة عن شعبهم. وفى حبريّة يوحنا الخامس (٨٩٨-٩٢٩م) خرّب العرب Dwin العاصمة الكنسيّة. وتم نقل كرسى الكاثوليكوس إلى Van ثم إلى Ani ، المدينة السياسية الكُبرَى فى أرمينيا، فى ذلك الوقت. وكانت سلسلة رؤساء الكنيسة – فى تلك الفترة – متجولين. وعانى كل المجتمع الأرمنى من الانشقاق والهرَطقة، وفى وسط متاعب الشعب لم يتركوا ولاءهم لمبادئهم (المسيحية) التاريخية، وأى كاثوليكوس كان يميل نحو الروم كان حتماً يخلعه الأساقفة الوطنيون.

أما بالنسبة لهرَطقة بولس السيمساطى (الأنطاكى) Paulician باتجاهاتها المُتطرِفة ، فقد تمت مطاردة أتباعها – بدون رحمة – من كل الكنيسة والدولة.

وعندما بدأ نفوذ العرب يضعُف فى أناطوليا وشمال الرافدين، بدأ الأتراك السلاجقة سياسة التوسُع فى المنطقة ، وحاولت الدولة البيزنطية استرداد بعض أملاكها المفقودة فى غرب آسيا الصغرى. وبذلك عادت أرمينينا لتصير مجالاً للصرَاع بين القوَى القديمة والحديثة. وأخيراً حدثت معركة Manzikert – شمال

بحيرة Van في أرمينيا – سنة ١٠٧١م ، وحاصر القائد السلجوقي Alp Arslan القوات البيزنطية. وقبض على الإمبراطور Diogenes وأخذه أسير حرب.

ولما استرد الأسير المسكين حريته بدفع فدية كبيرة ، عاد إلى عاصمته ليجد ميخائيل دوكاس (Ducas) على عرشه. وكان انتهازياً، فقام بإلقائه في السجن بعدما أفقدَه بصرَه، ليموت فيه في بؤس. وبعد معركة Manzikert صارت أرمينيا تحت رحمة عدو لا يرحم.

ولم يكن الأتراك السلاجقة مثل العرَب الذين حكموا أرمينيا عن طريق ولاة. فقد جاءوا للإقامة الدائمة، سواء من الناس أو الحُكام، في الأرض. وكذلك لم يُشبهوا العرب في سياستهم، بل كانوا جبابرة، وسالبون للشعب الأرمني المسيحي.

وبعد سقوط مدينة Ani، اكتسح الاضطراب الكنيسة والدولة. وكان البطاركة يتجولون من مكان إلى آخر، وقد اضطروا لتغيير مقر إقامتهم من Ani إلى مدن : ثيؤدوسيوس (Theodosiopolis) ، وسبسطيا، وتارنتيا (Tarentia) ، Tavpulr، Zamanta وغيرها.

أما بالنسبة لطبقة النُبلاء الأرمن، فقد عاش كل واحد منهم لذاتِه، وعلى حساب الحكومة المركزية التي كانت تحتضر. وأما باقي الأرمن، فقد هاجروا بأعداد كبيرة إلى مناطق : إديسا، وخلف جبال طرسوس وكيليكيا. وأستولى Philaretus وهو مغامر أرمني، على إديسا سنة ١٠٨٣م وتلاه آخر يُدعى Thoros سنة ١٠٩٠م ، وأستولى جبريل على ملاطيا، واستولى Kogh البارون اللص على Raban وماحولها في وادي أعالي الفُرات.

كما نسمع أيضاً عن دوق أرمني يحمل إسماً عربياً " أبو غارب" . وقد حكم طرسوس، وامتدت غزواته إلى مويستيا، وما حولها. كما أسس أمير أسرة Reubenian الجديدة. وأقام دولة أرمينيا الصُغرى، بالاستيلاء على عدد من

الحصون فى جبال كيليكيا، من القوات البيزنطية، فـــى آســيا الصُغــرى ســنة ١٠٨٠م، وكان ذلك قبل مجيء الصليبيين من أوربا فى فترة أقل مـــن عقديـــن ، وبدء فصل جديد فى التاريخ السياسى والكنسى الأرمنّى.

+ + +

• **الصليبيون :(Crusades)**

عصر الصليبيين هو نفسه عهد مملكة أرمينيا الصغرى، التى ظهرت ونمـت فى كيليكيا، وعاصمتها سايس (Sis). وقد حكمَها أسرتان متواليتـــان، فـــى الأول كيارونات (Barons) ثم كملوك. وأسرة روبنيان، من ســـنة ١٠٨٠م إلـــى ســنة ١٢١٩م. وأسرة هيثوميان من سنة ١٢٢٦م إلى سنة ١٣٧٥م.

وكانت هاتان الأسرَتان فى علاقة ودية مع الصليبيين، رغم مواقفهم العدائيـة أحياناً. وكانا كلاهما لهما مصالح مشتركة ، فى مقاومة الأتراك ، وكلاهما شارك فى نفس العداء للروم، والاقتراب من الجيران اللاتين، وساعد عليـــها علاقـات التزاوج بينهما، حتى قبل إنشاء مملكة أورشليم (الصليبية).

فقد تزوج بلدوين من مورفيا (Morfia) إبنه الأمير غبريـــال مـــن إديســـا. وتزوجت إبنة قسطنطين (١٠٩٥-١٠٩٩م) الثانى فى أسرة روبنيان، من اللـــورد Jocelyn من إديسا. وتمت زيجات أخرى بين الأرمن وأُمــرَاء الصليبيــن فـــى الأرض المقدسة وإنطاكية وقبرص.

وفى ظل هذه الظروف السياسية والتحالفات الحربية بيـــن حُكـــام أرمينيـــا والصليبيين، سقطت الكنيسة الأرمينية تحـــت النفـــوذ اللاتينـــى، خـــلال الفـــترة الكيليكية. فتحرّك الكاثوليكوس إلى Sis ، العاصمة الأرمينيـــة الجديـــدة، ليكـــون بجوار الملوك.

وكان هذا الاقتراب من روما، قد أملته الظروف السياسية، وليس عن طريق الاقتناع العقيدى. وكان يتم عن طريق رئيس الكنيسة الأرمينيـــة، بينمـــا كـــانت

غالبية الأساقفة والكهنة – الذين تسمّوا : " فريق قديسّي المشرق" – قد تعلقوا بالتعاليم الكنسيّة الأرمينية القديمة، حتى قبل مجئ الصليبيين. فقد أرسل الأرمن أسقفاً إلى مقر البابا جريجورى السابع (عام ١٠٧٣-١٠٨٥م) لكى يقيم حرباً مقدسة، ويساعد الأرمن وكنيستهم.

وكان هناك لقاء على مستوى أرفع بين الأرمن وروما، وقد تم فى حبرية غريغوريوس الثالث (عام١١١٣-١١٦٦م)، حيث زار الكاردينال Alberic ممثل البابا الرومانى فى إنطاكية سنة ١١٤١م . واشترك فى مجمع أورشليم سنة ١١٤٢م . وتم تبادل الهدايا والمندوبين، مع البابا Lucius الثانى (سنة ١١٤٤-١١٤٥م)، والبابا Eugenius الثالث (١١٤٥-١١٥٣م)، ولكن لم تتضمن اللقاءات عقد أية إتفاقية عن الإيمان ، ولكن الكاثوليكوس نرسيس الرابع (١١٦٦-١١٧٣م) آمن بفكرة توسيع دائرة المفاوضات، من أجل الاتحاد الكبير بين الروم والرومان والسريان والأرمن. ولكنها لم تتحقق لإصرار الإمبراطور مانويل الأول على قبول صيغة مجمع خلقيدونيا، ولم تسمح ظروف الإمبراطورية البيزنطية بإعادة المفاوضات.

ثم عزف الأرمن عن الاعتماد على اللاتين تحت سلطان الملك ليو (Leo) الثانى. ولكن بعد ذلك مال الكاثوليكوس – الواحد تلو الآخر – إلى العقيدة الكاثوليكية، ثم جاءت الإرساليات. وأنشأت لها فرعاً بهدف إكمال تحويل الشعب الأرمنى كله للكاثوليكية (Romanization)، ولكن الأساقفة المقاومين لمجمع خلقيدونيا اختاروا بطريركاً أرمينياً وطنياً (أرثوذكسياً).

وبذلك صار هناك – فى تلك الفترة – إثنان من البطاركة الأرمن، واحد مرتبط بروما فى مدينة Sîs ، والثانى أرثوذكسى فى Aghthamar ، وظلت هذه الازدواجية مستمرة فى الكنيسة الأرمينية، حتى انهيار الأسرة الكيليكية.

وكان فى Sïs خمسة عشر بطريركاً متحداً مع روما، مــن ١٢٩٤-١٤٤١م. وبُذِلت محاولة يائسة لإرسال مندوب أرمنـــى إلــى مجمــع فلورنســا (١٤٣٨-١٤٣٩م)، وبعد جهد وصل يواقيم أسقف حلب وثلاثة علماء لاهوت أرمن إلـــى فلورنسا، بعد شهرين من انقضاء المجمع ورحيل الممثلين الروم.

ثم استلم البابا Eugenius الرابع طلب تبعية الأرمن له. وبعد ثلاثـــة أشـــهر (٢٢ نوفمبر ١٤٣٩م) أصدر قرار الانضمام (Exultate Deil) الذى أعلن فيـــه إعادة اتحاد الكنيسة الأرمينية مع روما ، بعد ٩٠٠ سنة من العُزلَة والخَطأ !! .

ولكن هذا الاتحاد الباهت لم يُعجِب المجمع الأرمنى. واتسعت الثغـــرة بيـــن أرمينيا وروما، وأراد الإكليروس الوطنى أن يجتمـــع مـــع البطريـــرك الجديـــد " غريغوريوس التاسع" فى Sïs سنة ١٤٣٩ ولكنه ظل فى Etshmiadzin . وقيل إنه كانت له ميول إتحادية، وفضّل البقاء حيث هو، ولم يقبل الدعوة. وسمح لـــهم بانتخاب آخر.

وفى عام ١٤٤١م تم عقد مجمع كبير ضم ٧٠٠ أسقف وكاهن،ومن النبـلاء، فى Etshmiadzin ، واختاروا الكاثوليكوس " قرياقص" من Virap ؛ والذى يُمثِّل مرحلة جديدة فى تاريخ كنيستهم .

+ + +

خمسة بطاركة :

كانت الظروف المضطربة التى عاشها الأرمن ، والتى رافقتها الأنشـــقاقات المتتالية فى الأكليروس، قد أوجدت موَاقفاً صعبة، فى حبرية **خمسة من البطاركة فى خمس عواصم كنسية أرمينية، وكيف حدَث ذلك ؟! .**

عندما دمر العرب مدينة Ani ، فى القرن العاشر، اضطربت البطريركيـــة ، وتم الاستيلاء على أملاكها، وقرر البطريرك يوحنا الخـــامس (٨٩٨-٩٢٩م) أن

يبحث عن مكان آخر. وفى تلك الأحوال الغير مستقرة شكّل النُبلاء الإقطاعيون ممالك محلية صغيرة. وبمعرفة رجالهم حارب كلٍ منهم مستقلاً، بقواتِهم الخاصة. ووجد البطريرك ملجأً مع أُحد هؤلاء الأُمرَاء، وَهو ملك Vaspuragan ، وجعل مقره Aghthamar على جزيرة صغيرة فى بحيرة Van سنة ٩٢٧م.

ثم تبع ذلك الانشقاق. فاختار الأكليروس التابعون لعرش Ani بطريركاً آخر، إلى أن قام Khatshik الأول (٩٧٣-٩٩٢) بالاتحاد مع Ani سنة ٩٩١، ثم صارت Sïs عاصمة مملكة أرمينيا الصُغرَى، ومقراً للكرسى البطريركى.

وكان ميلها نحو روما – فى عصر الصليبيين – قد أحيا كرسى Agthamar، إلى أن تم إنتخاب قرياقص فى Etshmiadzin ، ثم انكمشت Agthamar فى مساحتها وتبعها إسمياً أبروشيتان. وعانت من الاغتيالات، بينما كانت Sïs – بثلاثين إبرُشيَة – قد عادت للكنيسة الأم.

وأما بطريركية Sïs – أو Cilicia – فقد هُجِرَت أخيراً – مع معظم شعبها – خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م). وصار مقر البطريرك فى أنتلياس فى لبنان، بمساعدة هيئة إغاثة الشرق الأدنى. وعلى أية حال، فى نهاية العصور الوسطى، **نجد ثلاثة بطريركيات أرمينية مستقلة عن بعضها**[1].

وتم حل مشكلة السيادة على البطريركيات بتقليد له اعتباره – منذ عدة قرون – باحتفاظ الرئيس العام للكنيسة الأرمينية بالذراع الأيمن للقديس غريغوريوس المُنير، ويحملِه البطريرك الجديد – عند رسامته – فوق رأسه، وأنه من المعروف أن البطريرك الذى يمتلك هذا الأثر المقدس (Atsh=relic) هو البطريرك

---

(١) جاء فى نشرة لكاثوليكية الأرمن فى أنتلياس بلبنان بأنه كان يوجد فى ذلك الوقت (١٩٦٨) بطريركيتان: فى اتشميادزين وكيليكية، واثنتان فى أورشليم والقسطنطينية، وكانت الرئاسة لاتشميادزين، ماعدا كيليكية التى كان لها استقلالها.

الكاثوليكوس الأعلى لكل الأرمن (Supreme Catholicos – Patrairch) ، كما يُدعَى :" خادم اليد اليُمنَى، وكرسى القديس غريغوريوس المُنير"(١).

أما البطريركيتان الباقيتان فهما فى أورشليم (القدس) والقسطنطينية (أسطنبول)، ويدينان بتكوينهما إلى مجموعة من الظروف الخاصة.

وكانت لأورشليم مطرانية أرمينية. وأول إشارة لبطريرك أورشليم كانت سنة ١٣١١م ، عندما سافر الأسقف الأرمنى سرجيوس إلى القاهرة.وحصل على التصريح من السلطان المملوكى الناصر محمد (١٣٠٩-١٣٤٠م) بإعتباره بطريركاً للأرمن بالقدس.

ولكن لم ينتخبه أحد واختفى هذا اللقب، حتى القرن الـ ١٨م، وأما فى أيام يوحنا جولود Golod (١٧١٥- ١٧٤١م) بطريرك القسطنطينية،فبمساعدته تم منح لقب "بطريرك" لمطران القدس الأرمنى. وعندما بدأ البطريرك الأرمنى الجديد فى رسامة أساقفة لإيبارشيته، منعَه كاثوليكوس Etshmiazin ، مُتعللاً بأن الرسامات والمسح بالميرون من سلطة الآباء البطاركة، الجالسين على كرسى اتشميادزين وسايّس فقط.

ومن الطبيعى أن المرشحين من قِبَل الجمعية العامة لبطريركية القسطنطينية – بموافقة الباب العالى، وبطريرك أورشليم – يتم اختيارهم بمعرفة المجلس الإكليريكى العام للقديس يعقوب فى المدينة المقدسة.

وقد ارتفع مركزه الروحى بإنشاء كلية اللاهوت بدير القديس يعقوب الرسول فى القدس. وهذه المؤسسة الدينية ترجع لعهد البطريرك Doorian (١٩٢١-١٩٣٠م)، والبطريرك Gooshakian (١٩٣١- ١٩٣٩م) وقد أخرجت

---

(1) Attwater, The Christian Churches of The East, p.251.

خُداماً ممتازين، للعديد من المجتمعات الأرمينية، فى عدة أجزاء من العالم، ولاسيما فى الولايات المتحدة.

وأما بالنسبة لبطريركية القسطنطينية الأرمينية، فقد ظهرت فى عهد الغزو العثمانى، وكانت القسطنطينية معروفة بوجود عدد كبير من الأرمن، ولهم أسقفهم، فى أيام الروم. وعندما استولى السلطان محمد الفاتح على المدينة سنة ١٤٥٣م ، ووضع نظام الملل Millet حيث يتولى إدارة الأمور الدينية – للطوائف المسيحية – بطاركتهم – ومنح السلطان البطريرك اليونانى Gennadius السُلطة على الروم، وعلى كل الأرثوذكس من أصحاب الطبيعتين فى البلقان. وقام بعمل مُشابِه مع الأسقف الأرمنّى Hovacim ، الذى استدعاه من Brusa للإقامة فى القسطنطينية سنة ١٤٦١م، وصرح له بأن يكون له السلطان على كل المسيحيين الأرثوذكس من أصحاب الطبيعة الواحدة.

ويذكر المؤرخ أورْمنيان أن البطريرك الأرمنّى كان مسئولاً – فى الواقع – عن خدمة الأرمن، والسريان، والكلدان، والأقباط !!، والجُورجيين، والأثيوبيين!!. ومن المشكوك فيه أن السلاطين العثمانيين ظلوا راضين عن الأرمن ، لعدة قرون !!.

وكان نظام المِلل يُعطى البطاركة سلطة واسعة للإشراف على كل الأمور الدينية والتعليمية والاجتماعية بما فيها الزواج والميراث وأوجُه البِّر، والأوقاف، وإحصاء الرّعية، وكل السُلطات الممنوحة لشيخ الإسلام ، بالنسبة للمسلمين فى الدولة العثمانية.

وكان الرومان الكاثوليك، حتى هؤلاء الذين تحولوُا إلى الكاثوليكية من المواطنين، لم يتمتعوا بتلك الميزات ، وكانوا يُعتبرون – بصفة عامة– أجانب، ولكن وضعهم كطائفة منفصلة جاء مُتأخراً، أى عام ١٨٣٠م، عند إقامة

البطريركية الرومانية الكاثوليكية ، عندما نالوا نفس ما تقرر لغيرهم من الطوائف في اسطنبول.

وقد تقلصت هاتان البطريركيتان في أعداد المنتمين إليهما (من الأرمن) أثناء السنوات الصعبة، التي سادتها المذابح والهجرة للخارج.

وبهذا وُجِدَت بطريركيات مساعدة في أجثامار، سايس، وأورشليم والقسطنطينية. وعلى رأسها اتشميادزين قبل الحرب العالمية الأولى(١)، وانتهت أجثامار ، وأما سايس فقد صارت بطريركية كيليكية في المنفى.

وأما الكاثوليكوس المسكوني، لكل الأرمن، فكان تحت إدارته المباشرة، محافظة أراراط، المُسماة الآن :" **إريڤان**" (Erevan) ، مع ١٦ إيبارشية أخرى، أغلبها في الاتحاد السوفيتي وإيران، والقليل في العالمين القديم والجديد (في العراق، اليونان، بلغاريا، رومانيا، فرنسا، مصر ، وإثيوبيا، والسودان والولايات المتحدة وكندا، وكوبا والمكسيك، والأرجنتين،وأورجواى، والبرازيل وشيلي). وقيل إن الأرمن في روسيا ٢,٧ مليون(قبل تفكك الإتحاد السوفيتي).

وداخل حوائط دير مُحصن، يقع مقر البطريرك، ومطبعة ومعهد لاهوتي، ومكتبة ، ومقر للزوار، الذين يزورون هذا المذبح القديم(٢).

+ + +

---

(١) جاء في إحصائيات أورماثيان أنه قبل الحرب العالمية الأولى كان في بطريركية القسطنطينية ١٤ مطرانا ، وكانت أعداد كنيسة الأرمن ١,٣٩٠ مليون منهم ٥٨,٥٠٠ كاثوليكي، ٢٥,٥٠٠ بروتستانتي. وفي عام ١٩٥٤م لم يكن للبطريرك الأرمني أية إيبارشية خارج أسطنبول.

(2) Dowling, The Armenian Church (London 1910).

مجئ الإرساليات الأجنبية :

منذ انتهاء استقلال أرمينيا، وهجرَة الكثيرين، ومُعاناة المجتمعات الأرمينية من الظروف الاقتصادية الصعبة، فقد صار تاريخ كنيستها مجرد قصة حزينة، ملفوفة فى رداء ظلام الجهل، والانقسام ، والخرافات والشكلية. ويحتوى تاريخها على العديد من الصرَاعات ، التى سجلّها المؤرخ أورَمنيان بالتفصيل. مما أضعف أخلاق الشعب، وأصبح يعانى من النقص فى الخدمة الروحية، عند مجئ الحمَلات (الإرساليات) التبشيرية (الغربية).

وأهم الملامح فى تاريخ الكنيسة الأرمينية – أثناء القرن ١٨ – هو إعادة ظهور المبشرين الكاثوليك، تحت حماية فرنسا، والسُفرّاء الفرنسيين فى القسطنطينية. وقد تم إغراء أسقفّى ماردين وحلب لإعلان الاتحاد مع روما. وقد عاقبتهما الكنيسة الأرمينية الوطنية على انسحابهما منها !!.

وفى الواقع ، استخدَّمت الحركة التبشيرية الكاثوليكية سياستين متضادتين: وكانت **الأولى : الإجبار**، وفيها استخدم السفير الفرَنسى نفوذَه، لحبس البطريرك العنيد Avedik of Tokat ثم سعىَ لنفيه إلى جزيرة Tenedos ، حيث تم خطفه لمحاكمته، والحُكم عليه، لإدانته– فى محكمة باريس– سنة ١٧١١م. (ولم يُحدد الكاتب ماجرَى له).

وكانت **الثانية** : استمرت الإرسالية الكاثوليكية فى محاولة تحويل الأرمن إلى مذهبها بطرق سلمية، وتمكنت من كسب واحد من أكبر المستنيرين الأرمن الكنسيين، وهو Mekhitar من سبَسطيا (Sivas) ، وهو الذى أنشأ مؤسسة – على نظام رهبانى جديد – سنة ١٧١٢م لخدمة التعليم الأرمنّى.

وبحلول عام ١٧١٧م أدرك أنه لا أمل فى مشروعه، فقرر الذهاب إلى البندقية، بناء على دعوة من البابا الرومانى. وقد تبعَه إلى إيطاليا عدد من الأرمن

من المُعجَبين به، ووضعوا نواة نظام دينى، استقر على جزيرة San Lazaro فى البندقية .

وقد وجه النظام الجديد انتباهه إلى البحث العلمى، فى ميدان اللغة الأرمينيـة وآدابها. وحتى أورمانيان، الذى لم يتوقف عن معارضته للتسـرب الكـاثوليكى، إمتدح Mekhitrists – فى البندقية وفيينا – علـى خدماتـهم الممتـازة للثقافـة الأرمينية.

وقد أسس البابا ليو/١٣، كلية أرمينية (دينية) فى روما سنة ١٨٨٣م، ممـا يوضح مدى اهتمامه بجذب الأرمن إلى جانب الكاثوليك.

وفى نفس الوقت ، قرر الكاثوليك إنشاء هيئة لكسب النـاس لمذهبـهم فـى لبنان، لسببين :

١- إن المسيحيين فى لبنان كانوا من الموارنـة (Maronites) التـابعين لروما.

٢- أن الأرمن الذين من أصل كيليكى ، الذين هاجروا إلى سوريا، أو بقـوا فى تركيا، كانت لهم العديد من الروابـط التاريخيـة مـع الكاثوليكيـة الرومانية ، منذ عهد الصليبيين.

وعلى هذا الأساس، أنشأ إبراهام Attar الجمعية الرهبانية الأنطونية، وقـابل نجاحاً مبدئياً. وباشتراك أسقفين، وحفنة من الكهنة أسسوا البطريركية الكاثوليكيـة الأرمينية ، واختاروا لها إبراهام Ardzivian (١٩٤٥م) باسم :"بطريرك الأرمن الكاثوليك، وكاثوليكوس كيليكيا"، وكان واسع المعرفة والمقدرة فى الخدمة، وقـد تمت مناقشة إمكانية ترشيحه للبابوية سنة ١٩٥٨م.

وكان من تأثير التعليم الكاثوليكى الضاغط، فى القرن ١٨، قد دفع لصحـوة الإكليروس الأرمنى الأولى ، فشجـع الأب Abbot Vardan of Baghesh على

الالتحاق بالمعهد اللاهوتي، في ديره في Amlordi، ومن بين تلاميذه بطريركان للقسطنطينية، والثالث رُسِم لبطريركية أورشليم.

وقد شهد القرن ١٩ ثلاثة أحداث لها أهمية كُبرى في الأحوال الكنسية الأرمينية :

وأولها : السعي الدائم لعلمانية الإدارة في الكنيسة الأرمينية (Secularizing). فقد أقيمت لجنة مشتركة من اللاهوتيين والعِلمَانيين (laymen) لحل المشاكل المشتعلة ، مع العنصر الروماني الضاغط.

واستمرت المناقشات عدة سنوات، وأخيراً قررت السُلطات العثمانية إنشاء هيئة رومانية كاثوليكية جديدة سنة ١٨٣٠م، وكان ذلك هو **الحَدَث الرئيسي الثاني**.

والحدث الثالث، هو قرار البروتستانت دخول السباق في أرمينيا ؛ لكسب البعض إلى مذهبهم . وكانت أول إرسالية أمريكية قد وصلت إلى تركيا ، في السنة التالية ، عندما تم نقل القس Rev. Goodell من مالطة إلى القسطنطينية ؛ بهدف الإسرّاع في حركة الإصلاح في الكنيسة الوطنية الأمريكية هناك. وإنقاذها من الشكليات .

وفي نفس السنة أرسل الأنجليكان Rev. Tomlinson في رحلة استكشافية إلى أثينا والقسطنطينية ، ومعه رسائل توصية من رئيس أساقفة كنتربري وأسقف لندن إلى بطاركة وأساقفة الكنائس الشرقية.

وكانت خطوط السياسة ، التى إتبَّعها المشيخيُّون والأنجليكان مختلفة كليةً ، مع أنهما اتفقا في التعليم والخدمة الاجتماعية. إذ بينما كان الهدف من إرساليات الهيئة الأمريكية هو كسب الأرمن للمذهب البروتستانتي (proselytizing)، وكان الانجليكان يرون مساعدة الكنائس الشرقية ، ليتم الإصلاح ، طبقاً لما جاء بوضوح في تقرير Badger (السابق الإشارة إليه في الحديث عن النساطرة).

وقد نجحت الإرسالية المشيخّية – في الواقع– في الحصول على قرَار رسمى (millet) باعتماد وجودها سنة ١٨٤٧ . وهو مؤشر واضح على إنهم ، في ذلك الوقت ، قد كسبوا قوة عددية ونفوذاً سياسياً ؛ لتبرير اعتبار مؤسستهم وحدة منفصلة. رغم أن الكنيسة الأرمينية الأم قد حرمَت كل من يحضر الاجتماعات البروتستانتية ، التى أضعَفت الأمة الأرمينية . ومع ذلك ختم البطريرك والمؤرخ أورمَانيان عبارته بقوله :

- "إنهم – على أية حال– جلبوا لها ميزات مُعيَّنة ، بالنسبة لعلاقاتها مع العالم الغربى".

ولا الأرمن ولا الإغريق أظهروا نكراناً لجميل البروتستانت في ميادين التعليم وفعل الخير ، ولكنهما انزعَجا كلاهما ، بسبب زيادة أعداد المنضمين للبروتستانت .

وكانت كنيسة الانجليكان وكنيسة اسكتلندا مُشفقتين على البطريرك الأرمنى، ويمكن للمرء أن يقرأ بين السطور التى كتبها الأسقف Southgate عن عدم حكمة إقامة طائفة (sect) أرمينية جديدة. كما حزنت إرساليات – بعيدة النظر– من نفس الفِكرَة .

وقد كتب القس Rev. Paxton –من بيروت– إلى خادم زميل له ، في أزمير (symrna) في ٩ يناير سنة ١٨٣٧م قائلاً :" إن الخطة تتعلّق بفكرة عدم فصل الأشخاص عن تلك الكنائس الفاسدة (القديمة) ولكن تركِهم فيها . وليس هدمه أو الإساءة إلى تلك الكنائس ، ولكن العمل فيها ، وتنقيتها وإصلاحها "!!.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الروس ، قد ظهروا على مسرح الأحداث بين القُوَى الأوربية، التى واجهت الإمبراطورية العثمانية ، والمشكلة الأرمينية في القرن ١٨م . وقد أراد القياصرة أن يظهَروا كأهم أُناسٍ مدافعين عن الأرمَن.

وكانت تلك هى إحدى الطرق لعلاج متاعبهم ، بسبب قُرب حدودهم ، وسهولة الهجرة من تركيا إلى روسيا . وكان مشروع الهروب قد احتضنه المطران Arghoutian ، ورَعته بشدة الإمبراطورة كاترينة الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦م) والقيصر بولس (١٧٩٦-١٨٠١) ، وبفضل تعاون الآباء الأرمن والشعب سيّطر الروس على إتشميادزين وإريڤان.وكانت خطوة هامة ، جعلت البطريركية الأرمينية تسير في فلك الروس. وفي عام ١٨٣٦ أصدرت الإدارة الإمبراطورية الروسية عدة قوانين (prolojenye) تُنظِّم العلاقات بين الدولة والبطريركية .

وقد وعدت تلك الترتيبات ، بعدم التدخُل في شئون الأرمن الكنسيَّة ، ولكن تلك الوعود، للأسف لم تُنفّذ في السنوات التالية .

وتلك القوانين دعمت موقف الإكليروس في إدارة الكنيسة،على نقيض القوانين العثمانية، التى زادت من رقابة العلمانيين (lay)، على أمور بطريركية القسطنطينية . وفي روسيا حل مجلس دينى عام محل المجلس الأرمنى القديم بشخصياته المختلطة (الكهنوتية + العلمانية).

ولكن العلمانية الحقيقية في الكنيسة الأرمينية قد بدت تأثيراتها التامة ، بعد قيام الثورة الشيوَعية – في روسيا– بعد الحرب العالمية الأولى. وكان هذا هو اتجاهها العام ، ولم تُعامِل الكنيسة الأرمينية مُعامَلة خاصة .

وكانت المرحلة الأخيرة هى فترة مذابح ، وتشتيت للأرمن – في تركيا– وعمل إرساليات أوربية وأمَريكية . وكانت تحت حماية دبلوماسية من دولها. وقد لعبت دوراً هاماً في رفع المعاناة عن هذا الشعب المُضطهَد من الأتراك .

وقد قام كثيرون من الأرمن بأعمال بطولية ، تحت إشراف رؤساء اللاجئين منهم خارج الحدود التركية ، وآخرون عَرضوا اللجوء السياسى على الضحايا الأرمن .

ورغم نظرة كل من المنظمات الكنسية الغربية ، الكاثوليكية والبروتستانتية الغربية ، لأتباعهم الجُدد من الأرمن ، إلا أن خدماتهم لهذا الشعب كانت عديدة .

وكانت هيئة الإرسالية الأمريكية قد أنفقت وحدها – في خدمتها– لمدة ٩٦ سنة ، قبل الحرب العالمية الأولى ٢٠ مليون دولار[١] ، على إرسالياتها في تركيا، وشملت الأعمال التبشيرية، والمساعدات المادية إلى الأرمن ، والسوريان ، واليونانيين المقيمين فى تركيا.

وكانت يقظة كلٍ من الأمة والكنيسة الأرمينية ، ترجع إلى دور الإرساليات الغربية في ميادين التعليم ، والخدمة الاجتماعية ، والرعاية الصحية .

+ + +

٢٠– إيمان الأرمن وثقافتهم :

معظم الكنيسة الأرمينية – السابق ذكرها– ظلت أرثوذكسية ، ولم تتحوّل عن رفض القرارات الخلقيدونية ، ودخلت في صراع كنسى مع بيزنطة وروما ؛ وكذلك رفضها للغتين اليونانية والسريانية وممارسة كل الطقوس بالأرمينية .

وكان اختراع حروف هجائية خاصة بها ، قد قاد إلى ترجمة الكتاب المقدس، وكل كتب الصلوات والقُداسات ، إلى الأرمينية . مما جعلها كنيسة مُكتفِّية بذاتها ، ولها شخصية وطنية مُحدّدة . لذلك أغلقت على نفسها وعلى شعبها . ومن المشكوك فيه جداً ، إن كانت إحدى زميلاتها الأرثوذكسيات قد اتحدت بالكنيسة الأرمينية ، التى كانت مؤسسة وطنية تماماً .

---

(١) ويذكر Arpee أن من هذا الرقم مبلغ مليونان للمباني والأجهزة ، وأن البعثة الإنجليزية ساهمت بأكثر من ٥٤٠,٠٠٠جنيه إسترلينى في خدمة الأرمن في آسيا الصُغرى وتركيا ، في القطاع الأوربى (القسطنطينية).

وحدث الانقلاب ، عندء سمح جزء صغير ، من الشعب الأرمني لنفسه ، بأن يصيروا رومان كاثوليك ، أو بروتستانت. وهؤلاء كان يُنظر إليهم على أنهم دخلاء (exotic) وسط غالبية الشعب المتجانسة (الأرثوذكسية).

وكانت الكنيسة الأرمينية مرتبطة بالشعب عبر العصور. وأن الإيمان الأرمنى ، المتمثّل في الكنيسة ، كان عاملاً حاسماً . وقد أعطى الأمة- حتى في النفى- مبدأ الترابط والشخصية الواحدة .

كما أن تمسك الكنيسة بالتقليد القديم قد حفظها بدون تغيير ، ولا فلسفة قابلة للتطوير والتحويل عن تعاليم الآباء القدماء . وهذا هو أحد المميزات في كل الكنائس الشرقية القديمة (مثل الكنيسة المصرية). وقد حفظها حية وقوية في الماضى ، وغير قابلة لعناصر ما يُسمَّى "**بالتطوُّر**". وأكد على ثباتها ودوامها في عالمٌ متغيِّر.

وقد ربطت دماء الشهداء الأرمن ، هذا الشعب البائس بكنيسته ، وجعلت الاثنين كأنهما شخصية واحدة . ولا توجد أمة في التاريخ (المسيحى) بهذا الكم الهائل – من شهدائها- في كل سنواتها ، مثل الأرمن[١] .

ويقبل الأرمن جميع تعاليم المجامع المسكونية الثلاثة الأولى. وكقاعدة عامة لا ينظرون باستحسان إلى العدد المتزايد من القوانين عن العقائد[٢] المسيحية (dogmas).

---

(١) وإن كانت الكنيسة الأرمينية قد قدمت شهداء كثيرين جداً ، لكنها على أية حال – في نظرنا- لم تصل بعد إلى مستوى عدد الشهداء الأقباط ، الذين وصل عددهم إلى نحو مليون شهيد على الأقل ، فى عهد دقلديانوس وحده ، علاوة على ما قبله وما بعده .

(٢) يدافع أورمانيان – في مؤلفه – عن تركيز الأرمن على المجامع الثلاثة الأولى (نيقية + القسطنطينية+ أفسس ، كما تفعل الكنيسة المصرية) . ولا يقبل المجامع السبعة التى يؤيدها

ولا يؤمن الأرمنى أن خلاص الإنسان قاصر على كنيسته فقط ، وهو يتسامح مع الكنائس الأخرى ومع كل نُظم الفِكر والعقائد الأخرى، وهو لا يشبه الكاثوليك ولحدٍ كبير الروم أيضاً – في عدم أيمانهم بأن الخلاص (salvation) يتم لأعضاء الكنائس الأخرى !!.

وكان هذا الموقف الليبرالى (الغير مُتزمت) نحو الآخرين ، قد قاد إلى انتشار المذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى ، بين الأرمن ، في رأى البعض .

وقد احتفظت الكنيسة الأرمينية – مثل مُعظم الكنائس الشرقية القديمة – بالعقائد والتقاليد الرسولية ، مع مِسحَة من الديموقراطية ، رغم شكلياتها ، وأصلها الأرستقراطى . فالدور الذى يلعبه العلمانيون (laity) في مجامعها ، والتزام الكاثوليكوس بكل القرارات الوطنية والمجمعية ، هى من ملامح الشخصية الديموقراطية ، التى نلاحظها في نصوص الكنيسة الأولى .

ولا يؤمن الأرمن بعصمة الكاثوليكوس . وتوجد أمثلة للذين استقالوا،أو تم خلعهم ، لعدة أسباب. وتشمل الخطأ ، عدم الكفاءة ، عدم الانسجام مع الشعب ، ويتشارك الإكليروس مع الشعب في السُلطَة الكنسيّة ، ولذلك التعاون – بين العنصرين– أثرُه الواضح في ارتباط الشعب بالكنيسة. وأعطى كل مراحل الحضارة الأرمينية الطابع الدينى الدائم ، والملموس– بدون صعوبة– في آدابهم وفنونهم ومعمارهم .

+ + +

الروم ، أو المجامع العشرين للاتين ، ولكن يعارضه المبشر الكاثوليكى أدريان فورتسكيو ، الذى يهاجم كل من لا يوافق على التعليم الكاثوليكى ومجامعه :

Cfr. Fortescue, The Lesser Eastern Churches, p. 425, N.I.

الطقوس والقُداسات الأرمينية:

ترجع طقوس القُداس في الكنيسة الأرمينية إلى أصول يونانية. ويفترض أن الليتورجيا المستعملة هى للقديس باسيليوس ، والتى كانت مستخدمة في كنيسة قيصرية الكبادوك ، حيث قضى هناك القديس غريغوريوس المنير شبابه ، ونال معرفة عن المسيحية وتعاليمها .

ولم تستطع الكنيسة الأرمينية الهرب من تأثير السريان ، من جارتها إنطاكية. وقد ظهر تأثير قُداس القديس يعقوب الرسول في الطقوس الأرمينية . وأخيرا تمت مراجعة نصوصه بمعرفة علماء اللاهوت ، الذين ترجموا الكتاب المقدس والليتورجيا، إلى اللغة الأرمينية .

وفي القرون التالية ، استخدمت مصادر يونانية ولاتينية. فقد تمت إضافة قُداس القديس يوحنا ذهبى الفم (بطريرك القسطنطينية) بينما أنه أثناء عهد الصليبيين ؛ لابُد أن إدخال الصيغة الدينية اللاتينية في كيليكية ، قد تركت ملامحها على الليتورجيا الأرمينية .

وحاليا يوجد قُداس واحد ، معروف للأرمن. وهو بالضرورة ، له طابع يونانى ، ويربط بين نصوص الليتورجيات الغربية والشرقية ، في تركيباته ، وتتم الصلاة به أيام الآحاد ، والاحتفالات الكُبرَى ؛ وكذلك في أيام السبوت ، إذا كان هناك جمهور كبير من المصلين بالكنيسة .

ومثل معظم القُداسات القديمة ، فإن القداس الأرمنى يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية : الجزء الأول هو "المقدمة" ، حيث يرتدى الكاهن المُصلِى ملابس الخدمة ، ثم يتقدم مع الشمامسة ، إلى أمام الهيكل ، حيث يغسِل يديه ، وينال الحِل (absolution) من كاهن آخر ، بعد الاعتراف . وقبل دخول الهيكل ، يرفع الكاهن ستارته .

والجزء الثانى هو "**قُداسّ الموعوظيـــن**" (Catechumens) ، وكـــان فـــي السنوات الأولى،حيث كانت لا تزال الوثنية منتشرة . وكـــان يُســـمَح للذيـــن لـــم يتعمدُّوا بحضور هذا الجز فقط . ويبــــدأ بالتقديســـات الثلاثـــة (Trisagion) ، وينتهى بقانون الايمــان النيقــوى ، وحَــرْم (anathematization) الهرَاطقـــة **الأريوسيين** ، **وأتباع مقدونيوس** Macedonius (الذى مات سنة ٣٦٢م وكـــان يدافع عن رأى يشبه هرطقة آريوس).

وأما الجزء الثالث من القُداس ، **فهو الليتورجيا الأساسية** ، أو مـــا يُســـمى "المدخل الكبير" لتقديس الذبيحة (سر الشكر) ، وهو القُداش البيزنطى الأصـــــل ، وينتهى بنزول المُصَلى إلى وسط الكنيسة ، حيث يُردّد طِلبة من أقـــوال القديـــس يوحنا ذهبى الفم، ثم يرتل – حسب الطقس الرومانى – الجزء الأخير من إنجيـــل القديس يوحنا ، ويتبعه بالبرَكة للشعب (benediction) ، ثم يدخل ليخلع ملابـس التقديس ، ويتقدَّم لتوزيع السِر المقدس !!. وعلى كلٍ ، فـــإن القـــداس الأرمنـــى معروف بأنه إحدى أجمل الطقوس الشرقية القديمة .

وأن ملأبس الخدمة التى يستخدمها الكهنوت الأرمنى فـــي الصـــلاة جميلـــة ومتنوعة ، وتشمل كل ما هو يونانى ورومانى ، ويضع الأساقفة التـــاج (mitre) الرومانى ، بينما يضع الكهنة التاج (crown) البيزنطى أثناء القُداس . ويرتـــدى رجال الإكليروس الأرمّنى العباءة (الفراجية) السوداء العادية ، بأكمام واســـعة ، وعمامة مستديرة لها قمة مخروطية ، ويستعمل الكهنة الرهبان غطـــاءً للـــرَأس كعلامة خاصة لتمييزهم عن الكهنة العاديين .

ويستعمل الأرمن – من بين الكنائس الشرقية القديمة– الخبز الغير مختمـــر (مثل الموارنة) للسِر الأقدس ، ولا يخلطون الخمر (الدم) بالماء !! وكـــل أوانـــى المذبح من نوع بيزنطى . والمذبح مُربع ، وله مظلة فوقه وعدة درجات للصعـود

إليه. ويُغطىَ بالقماش،وله رباط ، ويوضع فوقه شمعدانات وكتب طقسية وأواني السر الأقدس ، وذخائر مقدسة. وله ستائر تغلق في وقت معين ، أثناء القُداس .

وليس للأرمن حامل أيقونات (iconostasis) لأن معظم أيقوناتهم توضع على الحنية الشرقية (apse) خلف المذبح . ويرفضون استعمال التماثيل . ويمارسون الأسرار السبعة ، ولكن باستبعاد الدَهن بالميرون (unction) ، ويتم تعميد الأطفال بالتغطيس ، ولكن يُستخدَم الرش في حالة الضرورة القُصوَى .

ويحتفلون بعيد الميلاد يوم ٦ يناير (ويعادل عيد الظهور الإلهى في الغرب Theophany) ، ومجموع أيام أصوامهم ١٥٧ يوماً في السنة . وقد ظل الأرمن يحتفلون بأعياد قديسيهم حسب التقويم اليوليانى القديم ، حتى سنة ١٩٢٤م ، عندما طبقوا التقويم الغريغورى . ولا يؤمن الأرمن بالمطهر (purgatory) ، وإن كانوا يُصلّون من أجل الموتى .

وبناء الكنيسة الأرمينية معروف بقبتها المركزية ، وهو في الواقع برج له قمة مخروطية. وداخل الكنيسة يرتفع المذبح على رصيف ، وينفصل عن صحن الكنيسة بسور ، وبالحنية الشرقية (apse) بالهيكل ، توجد ٣ درجات ، ويتم الوصول للهيكل من مدخلين جانبيين ، وخلف apse منطقة مغلقة لحفظ الذخائر . ولها بابان في الحائط ، عن يمين وعن يسار الهيكل .

+ + +

الكهنوت الأرمنى :

درسنا معاً التطورات التى قادت إلى قيام خمسة بطريركيات (catholicates) ، وتوجد منها أربعة مع Etshmiadzin –كمركز رئيسي ورئيس للكهنة الأرمينية، في كل العالم . وهم أرفع درجات الكهنوت (hierarchy). ويتم اختيارهم من بين الأساقفة .

وُيستخدم لقب رئيس أساقفة أيضاً (=مطران) ولكنه لقب شرف فقط ، ودوره فقط في عقد اجتماع للأساقفة – في منطقة ما – لو أن ثمة ضرورة حتمية لذلك .

ويحمل إثنان من البطاركة – السابق الإشارة إليهم – لقب catholicos. وهما في اتشميادزين ، سايس ، ويحملان لقب كاثوليكوس كيليكية، وكلاهما يقومان بتقديس الميرون (chrism) ورسامة الأساقفة ، بينما بطريركي القسطنطينية وأورشليم ليس لهما هذا الحق .

وتقوم الكنيسة الأرمينية على مبدأ عدم المركزية، ويمارس كل أسقف كل سُلطاته في مكانه باستقلالية، وفي إطار التقليد الرسولى. وسُلطته على الكهنة في إيبارشيته مُطلقة. وأحكامه على موضوعات مثل الزواج والتطليق نهائية. وتسمح الكنيسة الأرمينية بالطلاق، في حالات محدودة وموضحة في قانونها الكنسى.

ولكن لابُد أن يكون واضحاً في الأذهان ، أن ممارسة السُلطة تتم بالتعاون مع المجالس المحلية ، والتى يكون فيها أعضاء من رجال الإكليروس ومن العلمانيين فى كل منطقة.

ويلى رُتبة الأسقف ما يُسمَّى "Vartapet" ، وهو أب راهب له معرفة دينية كُبرَى ، ويكون له المقدرة على الوعظ والتعليم ، وأحياناً يُختَار من بين الكهنة الأرامل ، وله قدرات روحية غير عادية . ودرجة "**فرتابت**" ظاهرة قاصرة على الإكليروس الأرمنى، وتعادل درجة "**رئيس دير**" (archimandrites) في الكنيسة البيزنطية، وعادةً يتم اختيار الأساقفة من بينهم .

وكان الآباء الأرمن من المتزوجين ، حتى نهاية القرن ٤م. وكان البطاركة التسعة الأوائل متزوجين. وكانوا يُولُّون أبناءهم البطريركية بعدهم. وكان

الأساقفة يفعلون نفس الشيء، حتى عهد Sahak الأول الأكبر (تنيح سنة ٤٣٩م)، الذى نجح في فرض البتولية على كبار رجال الدين .

ومن الصعب تحديد متى توقفت تماماً رسامة آباء أرمن متزوجين ، ولكن على الأقل في القرن الخامس ، وسُمِح للدرجات الدنيا من الإكليروس بالزواج . ويجب أن تكون للشماس (deacon) زوجة ، قبل رسامتة ، وحينئذ قد يمكنه أن يصير كاهناً ، وفي بعض الحالات ، "**رئيس كهنة**" (قمص) عندما يخدم عدة كنائس ؛ ولو فقد زوجته الأولى ، قد يتمكن من الزواج بأخرى ، بشرط عدم ممارسة الخدمات الدينية .

ولتلخيص درجات الإكليروس في رأى البطريرك والمؤرخ أورمانيان ، نجد أن هناك ٨ **درجات كما يلى** :

١- **الكاتب** : (dpir).

٢- **الشماس** : (sarkarag).

٣- **الكاهن** : (Kahana, eretz).

٤- **رئيس كهنة** : (archpriest = aragueret) .

٥- **رئيس دير** : (Vartapet. Archimandrites, doctor).

٦- **أسقف** : (episcopos).

٧- **بطريرك** : (Patriark).

٨- **كاثوليكوس (جاثليق)** : (Catholicos) .

ويذكر أورمانيان أربع درجات أخرى للشمامسة . ويشاركون في الخدمة بالكنيسة، ويرتدون رداء خاصاً - وله زرّاير - أثناء الخدمة ، ويستعملون الملابس العادية، في الحياة العادية ، خارج الكنيسة .

وكقاعدة عامة ، يتم اختيار الكهنة من الشمامسة (precentor) ، ولا يمكن لكاهن تغيير كنيسته بدون انتخاب جديد من أعضاء الكنيسة الجديدة . ويكون المرشحون للرسامة للكهنوت على معرفة تامة بالطقوس والأمور الكنسيَّة .

ويجب أن يكونوا مشهورين بالتقوَى ، ولا يمكن رسامتهم بدون موافقة زوجاتهم . والكهنوت الأرمنى ظل وراثياً – في عدة حالات – ويتم الاختيار من نفس الأسرة، وبعدة أجيال مُتعاقِبة. ويعتمدون في معيشتهم على عطايا الشعب التطوّعية . وأما مبالغ التقدمات والصدَقات ورسوم المعمودية والخطبة والزواج والجنازات ، والقداسات الخاصة ، ومباركة المنازل في عيدىّ الميلاد والقيامة ، فتُقسَّم على رجال الدين الموجودين بكل كنيسة .

وعند بدء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) كان عدد الكهنة الأرمن المتزوجين نحو أربعة آلاف ، والبتوليون ٤٠٠ تقريباً ، بما فيهم الأساقفة ، ومن الظاهر أن هذه الأعداد قد قلت كثيراً بعد المذابح التركية للأرمن ، وهجرتهم خارج البلاد .

+ + +

الآداب الأرمينية :

وُلِد الأدب الأرمنّى مع نشأة الكنيسة وفيها. وهو ما يُفسِّر طبيعته الدينية . وسبقت الإشارة إلى اختراع الأب Mesrop (المتنيح سنة ٤٤٠م) حروف الهجاء الأرمينية ، في عهد الكاثوليكوس Sahak الأول "الأكبر" (٣٨٧-٤٣٩م) ، كما شكَّل لجنة من مائة لترجمة الكتاب المقدس والطقوس والقُداس، وتلخيص أقوال آباء الكنيسة الأولى.

وكانت تلك الترجمات قد تمت باللغة الأرمينية الكلاسيكية النقية ، والتى وُصِفَت بأنها "ملكة" كل الترجمات الكتابية . وهو بداية ما عُرِف باسم " **العصر**

الذهبى" للأدب الأرمنّى ، والذى امتد من القرن الخامس إلى الثانى عشر. وخلاله ظهر نحو خمسين من أشهر الكُتاَّب. وتركوا آثارهم على تاريخ البلاد .

وعُرِفت المرحلة الثانية "**بالعصر الفضى**" للأدب الأرمنى ، وخلال فترة طويلة من الزمن ، يشير فيها أورمَنيان إلى أربعة أو خمسة أمثلة من المؤلفين العلمانيين ، يستحقون الذكر.

وقد شهدت المرحلة الأولى عدة ترجمات أرمينية لكثير من مؤلفات الآباء مثل إغناطيوس الانطاكى ، وأثناسيوس الإسكندرى ، وأبيفانيوس أسقف قبرص ، وباسيليوس أسقف قيصرية ، وغريغوريوس النزينزى ، وغريغوريوس النيصى، ويوحنا ذهبى الفم ، إفرآم السريانى . وتمت الكتابة عن نقد الفلسفة الوثنية والهرَطقة المازدية والمانوية . وتُرجِمَت كُتب أُخرى .

وفي المرحلة الأخيرة ، لوحظ انحطاط الأدب الأرمنى. وتم التركيز العام على التاريخ والحروب الفارسية والمغولية ، وبعض المؤلفات اللاهوتية والتفسيرية . وكان الأرمن من أول الشعوب الشرقية في استخدام الطباعة. فقد تم طبع أول كتاب أرمنى سنة ١٥١٣م في البندقية. وقد تغيرّ الأدب الأرمنى تغيراً جذرياً في العصر الحديث ، وضم الشعر وغيره من أعمال العلمانيين. ومن أهم الملامح تطورّ الصحافة الأرمينية ، التى كانت لها القوة كأداة لحفظ الشعور الوطنى ، في الأزمنة الحديثة ، ولها أهميتها بين الأرمن في كل العالم .

+ + +

الفن والعمارة الأرمينية :

رغم معرفة التصوير الزيتى وعمل الفَسيفَساء (mosaics) في أرمينيا، فلم يلعب دوراً عظيماً في تزيين الكنيسة ، كما في المؤسسات البيزنطية .

ورسوم الحوائط – في القرن العاشر– التى تُمثِّل حياة المسيح في كاتدرائية Aghthamar–هى شاهد على اهتمام الفنان الأرمنى بهذا العمل .

كما نرى تزيين المخطوطات، والتى تأثرت بالمدارس السريانية الفنية ، كما وُجِدَت رسوم على إنجيل بمدينة Erevan ترجع لعام ٩٦٨،وتُشبه تلك التى كانت تُصنع في صعيد مصر (نسيج Panopolis= أخميم).

كما كثُر النحت على حوائط الكنائس من الخارج ، برسوم دينية ، ولكنهم رفضوا عمل التماثيل . وبداخل الكنائس نحتاً يمثل الآباء والأنبياء القدماء والرسل والقديسين.

وفي دراسة مقارنة للآثار الأرمينية الباقية ، يتضح أن مصدرها مصرى ، ومنها مثلاً المنحوتات على حوائط كنيسة أجثامار حيث تتصف بنفس خصائص نقوش الهياكل الجنائزية في مقبرة البجوات المسيحية في واحة الخارجة بمصر ، وكل هذه الهياكل – في مصر وأرمينيا– يرجع تاريخها إلى القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس .

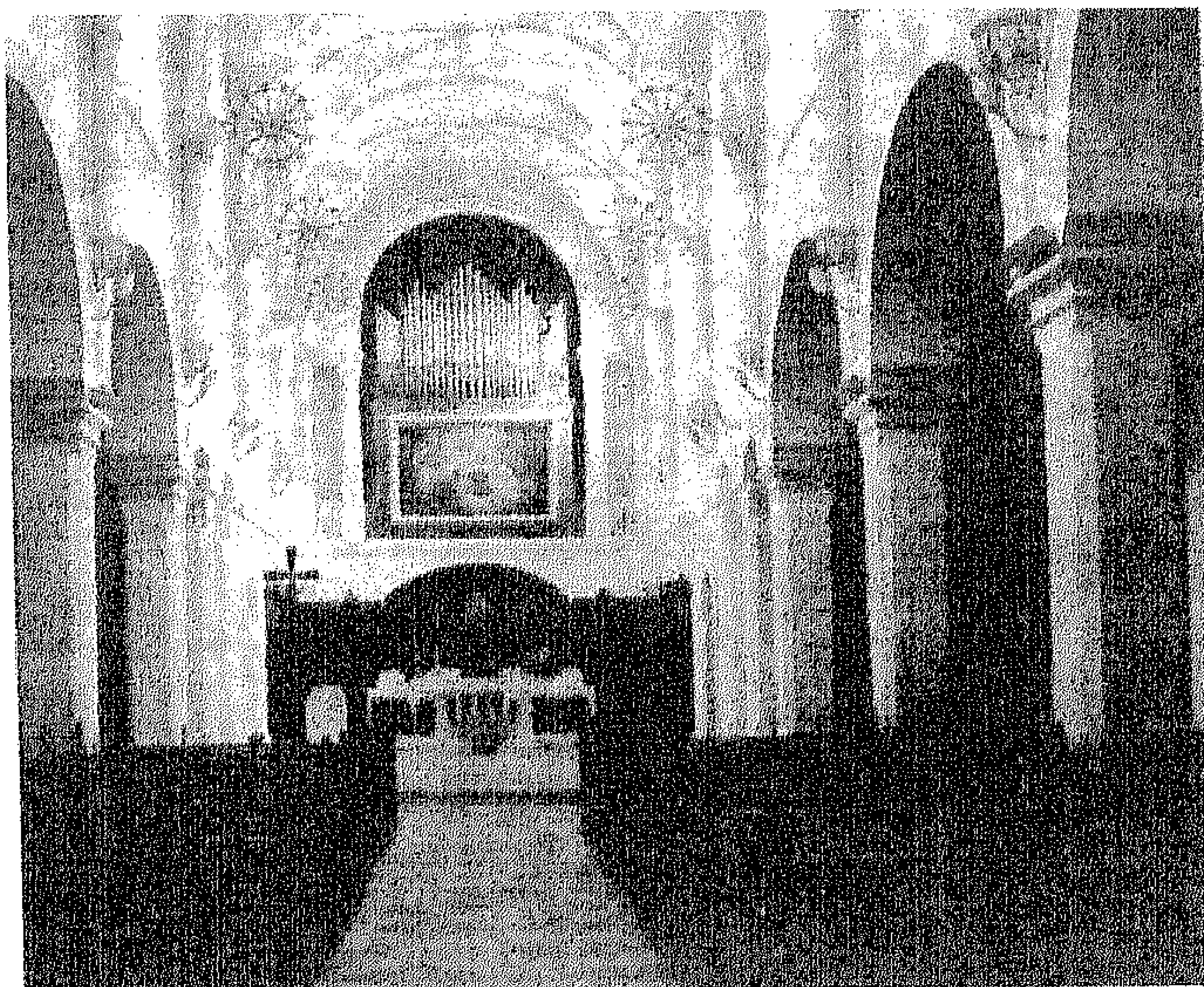
وقد تأكدت معرفة أثر الفن المصرى في أرمينيا بوجود حفر على حجر في اتشميادزين ، ويرجع للقرن الخامس أو السادس ، ويمثل القديس بولس والقديسة تكلا (تلميذته) جالسين يتحاوران . وأسماهما منقوشان باليونانية ، أو ربما بالقبطية . ونفس الشيء في البجوات المصرية .

وكذلك من المدهش ، أن نجد على نسيج من أنتينوى (قرب ملوى) رسماً يمثُل صيد تمساح ، كرسم زخرفي داخل إطار معمارى من القرن التاسع، تم العثور عليه ، في إنجيل للملكة MIK (موجود بمكتبة دير Mekhitarist بسان لورنزو) ومكتوب في دير Varag قرب Van، مما يدعم النظرية التى تقول إن الفنان الأرمنى تعلم مناظر وأفكار فنية مصرية، نقلها فنان زار مصر، وتأثر بفنها القبطى.

كما تأثرت الكنائس الأرمينية بالفن البيزنطى في العصور الوسطى ، ومنها إقامة قُبة على أربعة أعمدة ، وكنائس على شكل صليب .

وكانت الحضارة البيزنطية هى الوسط الذى نقلت عـن طريقه الحضارة الأرمينية إلى الغرب ، وكان الحرفيون الأرمن في القسطنطينية في تاريخ مبكر، كما زادت الهجرات الأرمينية إلى الإمبراطورية البيزنطية من القرن التاسع ، كما استعان الأباطرة بعمال من أصل أرمنى لتزيين قصورهم .

وتدل السجلات على أن Trdat المهندس المعمارى الأرمنى ، الذى شيّد كاتدرائية Ani الشهيرة، قد اختير لترميم قبة كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية، عندما تأثرت بزلازل سنة ٩٨٩م . كما وجد نقش يوضح باليونانية دور مهندس أرمنى في كنيسة في Mistra ، كما ترى باحثة أثرية أرمينية أن الرسوم الهندسية الأرمينية قد انتشرت في جوامع المسلمين في الشرق .



+ + +

الجزء الخامس

المسيحيون التابعون للقديس توما الرسول في جنوب الهند

٢١- مقدمة تاريخية :

- **مَلَبَار (Malabar) وشعبها :**

الأرض التى بشر بها القديس توما الرسول – في جنوب الهند– تمتد بين نهر Ponnai في الشمال ورأس Comorin في الجنوب ، وتقع بين الجبال والخليج العربى في الشرق والغرب ، وطولها ٢٥٠ميلا ، وعرضها ٥٠ ميلاً . وكانوا تحت إشراف كنيسة واحدة ، حتى مجيء البرتغال ، حيث أرغموهم على التحول للكاثوليكية،مما أوجد شِقاقاً واضطرابات مُكثفة . كما جَاء البروتستانت ، الذين بدأوا بدورهم يجذبونَهم إلى مذاهبهم ، تحت ظل الاحتلال البريطانى ، إلى أن تم استقلال الهند .

وكان المبشرون الأوائل بينهم من التجار من أصل سريانى شرقى ، ولاسيما من تجار الفلفل الأسود ، الذين استقروا بين الوطنيين الهنود ، وبشروهم بالإنجيل، وأصبحت لهم مكانة كبيرة، لمهارتهم في الصناعة وغيرها .

وأما نظرية اكتشاف هؤلاء المسيحيين عن طريق الغرب ، عندما نزل فاسكو دا جاما – مع رفاقه البرتغال– على شاطيء جوَا (Goa) هي بالطبع خاطئة . إذ عُرِفَ مسيحيو مَلَبَار ، في تاريخ مبكر . فقد قيل إن العَالِم المصرى الكبير بنتينوس Pantaenus– الذى صار فيما بعد مديراً لمدرسة الإسكندرية المرقسية– قد تم تعيينه مُبشراً بإنجيل المسيح إلى أمم المشرق ، وأنه قد تم

إرساله إلى الهند ، طبقاً لشهادة المؤرخ الكنسى الأسقف يوسابيوس القيصــرى[١] ولابُد أنه وصل إليها قبل نهاية القرن الثانى الميلادى ، وأنه طبقا لروايــة نفـس المؤرخ ، وجد أن آخرين قد سبقوه فــي المجــيء للــهند :" لأن برثــلوماوس [Bartholomew][٢] قد بشرَهم وترَك لهم إنجيل مار متى بحــروف عبريــة ؛ والذى تم الاحتفاظ به ، حتى التاريخ المذكور" .

ويمكن الاعتماد على شهادة يوسابيوس القيصرى ، كمــا أنــه كــان هنــاك طريقان تجاريان ، عن طريق البحر الأحمر ، ومن أرض الرافدين (العراق) إلــى الخليج الفارسى (العربى حالياً) ، ويشير Milne[٣] إلى وجود تجارة بين الــهند وروما في عهد نيرون (٥٤-٦٨) ، أنطونيوس بيــوس (١٣٨-١٦١) ومرقــس أوريليوس (١٦١-١٨٠) ودقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥).ويُشير المؤرخ بلينــى إلــى تلك التجارة ومقدارها في نهاية القرن الأول .

ومن الأمور العادية أن تنتقل الأفكار وتسافر مع التجارة ، بالإضافة إلى أنــه كانت تُقيم هناك جماعة يهودية صغيرة -في مَلَبار- في تاريخ مُبكــر ، وكــانت تُشير إلى تبادل التجارة بين جنوب الهند والساميين في سوريا وفلسطين .

ويُشير برَاون (Brown)[٤] إلى تقليد قديم بوجود مستوطنة يهودية في القرن الأول - في عدة أماكن حددها- وأنها قد تقبلّت الإيمان المسيحى، كما تم تســجيله

(1) Eusebius, Eccles. History, V,I.

(٢) مواطن هندى كان سكرتيراً للمطران السريانى في مَلَبار ، يُسمَّى Philip فــي كتابــه : "كنيسة القديس توما الهندية" (١٩٥٠) يذكر أن اسم برثلوماوس ، هو خطأ في نطــق الإسـم السريانى "مار توما" أو Barthoma (بارصوما).

(3)Milne, History of Egypt Under Roman Rule (London, 1924)., pp. 24, 56, 260.

(4)Brown, The Indian Christians of st. Thomas (Cambridge 1956) p.62.

على أطباق نحاسية. كما يشير فيليب الهندى إلى تل يحمل اسم اليهود قرب كنيسة Paluyar حيث كان هناك مجمع يهودى (Synagogue) سابق .

كما نجد الإشارة الأولى إلى كنيسة مَلَبار في منتصف القرن الرابع ، في قصة ثيؤفيلس الهندى (Theophilus) ، وفي محاضر المجمع المسكونى الأول في نيقية (٣٢٥) نقرأ عن :"الأسقف يوحنا الفارسى ، أسقف جميع كنائس فارس والهند الكبرى" ، وكان مع وفد أساقفة السريان الشَرقيين من إديسا ونصيبين .

ومن الشهادات المقبولة ، تلك التى سجلها رحالة مصرى وجغرافى شهير ، وتاجر ، ثم فيما بعد راهب في جبل سيناء ، وَيدعَى قزمان Cosmas Indicopleustes ، الذى كتَب عن طبوغرافية الأماكن الشرقية التى أبحر إليها[٥] بين عام ٥٢٠-٥٢٥م ، أيام حكم الإمبراطور البيزنطى جستنيان. وهو يؤكد على وجود كنيسة مسيحية – بداخل الهند– ولها كهنة وشعب ، وأسقف لمنطقة "Kalliana" واسمه ومكانه : Quilon in Travancore.

كما أن **ماركوبولو الإيطالى** قد نقل أخبار مسيحيى مَلبَار (Malabarēse) ، وكان قد زار الهند ، في العقد الأخير من القرن ١٣م . وفي هذا الوقت أرسل البابا إنوسنت (Innocent) الثالث مبشرين (كاثوليك) إلى الشرق الأقصى وأول مُرسل، للبقاء عام كامل (١٢٩١م) في مَلبَار ، في طريقه للصين، وهو يوحنا (John of Monte Corvino). وتبعه الراهب الدومينيكانى Jordanus ، الذى جاء مرتين إلى الهند. الأولى سنة ١٣١٩م ، والثانية سنة ١٣٢٨م، بعد رسامته أسقفا لمدينة Quilon بيد البابا يوحنا ٢٢ (١٣١٦-١٣٣٤م).

وفي نفس الوقت جاء Oderic of Udine سنة ١٣٢١ إلى قيلون وميلابور Mylabore ليجمع أعضاء جسد الأخوة الرهبان، الذين استشهدوا على

(5)Winstedt, The Christian Topography of Cosmas Indicopleustes (Cambridge 1909).

يد الحُكام المسلمين ، في جنوب الهند ، سنة ١٣٠٢م. وقابل العديد من الأسَر النسطورية في تلك المنطقة .

كما وصل راهب أخر John of Marignolli إلى قليون سنة ١٣٤٨ م، وترك وصفاً للمنطقة كأكبر مساحة في العالم لزراعة وتجارة الفلفل الأسود (pepper) وكان يملكها مسيحيون من أتباع القديس توما الرسول .

ونظراً لانتشار تقارير كثيرة عن المجتمع المسيحى ، في جنوب الهند ، فقد أرسل البابا Eugenius الخامس (١٤٣١-١٤٤٧م) سفارة خاصة لحاكمها ، مع رسالة مليئة بالبرَكات الرسولية له .

وقد قابل المغامر التاجر الإيطالى Nicolo di Conti نحو ألف من النساطرة التابعين للقديس توما الرسول ، في Mylapore سنة ١٤٤٠م ، وذلك قبل سنوات قليلة من مجيء الملاح فاسكو دا جاما البرتغالى .

والمسيحيون في مَلَبار ، الذين صارت لهم صلات مباشرة مع أوربا ، بعد الغزو البرتغالى ، كانوا سُرياناً مقيمين ومقبولين لدى المواطنين الهنود ، واختلطوا بهم وعاشوا بينهم في راحة . وكان اقتصادهم قائماً على الزراعة والتجارة . فكانوا يزرَعون المحاصيل ليعيشوا بها ، ويبيعون إنتاجهم من الفلفل الأسود ، للتصدير ، منذ عهد قديم .

وقد تغير وجه منطقة مَلَبار ، واقتصادها الريفى بسرعة ، في العصر الحديث، بسبب تطورها الصناعى ، وانتشار التعليم الغربى ، وطرق الحياة الأوربية العصرية فى الهند.

+ + +

• التقليد القديم عن القديس توما الرسول :

يفتخر الشعب الهندى المسيحى في جنوب الهند ، بالتقليد الذى يفيد أن مسيحيتهم منذ العصر الرسولى. وأنها أُدخِلت إلى ملَبار على يد القديس توما الرسول ، والذى ينتسبون إليه إلى الآن.

وأصل هذه القصة موجود في كتاب أعمال يهوذا وتوماس الأبوكريفا ، والمنسوب إلى الكاتب الإديسى المشهور Bardesanes (١٥٤-٢٢٢) ، وقيل إن شخصاً يُدَعَى Abbanes ، وهو تاجر، أُرسِل من ملك الهند Gondophares إلى سوريا، لإيفاد مهندس ماهر من هناك ، لبناء قصر عظيم له.

ويدل هذا التقليد أيضاً أنه قد تم توجيهه ، إلى الرب يسوع نفسه – في لقائه معه بسوق أورشليم – وقد قام المخلص بطلب قيام القديس توما الرسول بهذا العمل !!. واصحبه الشخص الهندى معه إلى الهند!! (والراجح أن هذه الرحلة قد تمت بعد صعود المسيح للسماء).

وقد وافق القديس توما على بناء القصر للملك الهندى في الشتاء ، بدلاً من الصيف ، وهو فصل البناء العادى هناك. وكان القديس ينوى بقلبه أن يبنى له قصراً في السماء ، وليس قصرًا أرضياً ماديا . ولذلك قام القديس بتوزيع ما أخذه من مال من الملك ، وأعطاه للفقراء ، فقبض عليه الملك، ووضعه في السجن .

وفي ذلك الوقت مات أخو الملك المدعو جاد Gad. وبعد دفنه شاهد قصراً سمائياً عظيماً، كما وعد به القديس، وبمعجزة قام أخو الملك من الموت، وقص عليه رؤياه العجيبة، ولهذا أدرك عظمة الرسول وتعمد على يديه. وتستمر السيرة في وصف معجزات أخرى، آمن بها كثيرون. ثم أوكل الرسول خدمة الكنيسة إلى شماس (deacon) اسمه Zenophus !! (ولم يوضح القصة هل رسمه كاهناً ؟!). ومضى ليبشر بالإنجيل ، في أماكن أخرى بالهند ، حيث نال إكليل الشهادة ، ودُفِن هناك .

ثم نقل شخص سريانى جسده المقدس إلى إديسا ، بدون أن يعرف الملك ، الذى أراد أخيراً أن يُعالج إبنه المريض بلمس أعضاء الشهيد القديس توما الرسول. وعند فتح القبر لم يجدوها . فأخذوا بعض التراب من القبر ، ووضعوها على المريض ، فتم شفاؤه. فآمنت كل الأسرة بالمسيحية .

وهناك رأيان – لمدرستين– فيما يختص بهذه القصة الأبوكريفاء . الأولى رفضتها ، واعتبرتها غير تاريخية (لم تحدث)، والثانية لم ترفض إرسالية القديس توما للهند، ولكنها لا تقبل ما ورد فيها من معجزات فعلها الرسول هناك !!

وترَى أن الطريق لجنوب الهند للتجارة ، قد تأكد الوصول إليه في عهد قديم جداً.وأكده العثور على عُملات ذهبية وفضية رومانية قديمة في مَلَبار . كما أن السريان قد وصلوا إلى هناك. كما ظهر في أدب السريان الشرقيين . كما ثبَت وجود شخصيتّى الملك Gondophares وأخيه Gad ، وليستا أسطورتين ؛ طبقاً لنقوش عُثِر عليها هناك .

وهناك رأى آخر ، يذكر أن الرسول توما قد تم طرده من الإمبراطورية الهندية البارثية (Parthian) بيد الغُزاة Kushan سنة ٥٠م . وأنه قد أبحر إلى جزيرة سوقطرة ، ثم وصل إلى جنوب الهند ، على مركب تجارية مارة. ويرى البعض أن الرسول توما ربما ألتحق بمستوطنة يهودية وبها سريان ويونان على ساحل مَلبَار (غرب شبة الجزيرة الهندية).

ومهما كانت محصلة تلك الآراء ، فإنه من الواضح أن المسيحية قد زُرِعَت في مَلبَار ، في تاريخ مبكر للغاية. وبالتأكيد قبل نهاية القرن الثانى ، كما شهد به العلاَّمة المصرى بنتينوس .

وقد قيل في تاريخ Scert النسطورى ، أن داود أسقف العرب ، قد أراد ترك كرسيه في البصرة ، ليكرس نفسه للتبشير في الهند .

كما أوفد الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الصغير Constantius (٣٣٧-٣٤٠) إرسالية للأراضي الشرقية بما فيها الهند . كما تمت هجرة جماعية سريانية إلى الهند ، بقيادة "توما" الكنعانى . وهو تاجر كان تحت رعاية الكاثوليكوس الشرقى (٣٤٥) المدعو : Ishu Dad's Colophon ، وهو – في تفسيره لرسالة رومية – يذكر كاهناً هندياً ، يُسمَى "دانيال".

وكذلك ما سجله قزمان الجغرافى القبطى – في أوائل القرن السادس – من وجود كنيسة منتظمة في جنوب الهند . وكانت الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون الفارسيون ، أثناء الحكم الطويل للإمبراطور شابور الثانى (٣٠٩-٣٧٩) في كل إمبراطوريته الواسعة ، والتى شملت أراضى الرافدين (العراق) كانت من العوامل الرئيسية ، **التى أدت إلى هجرة** مجموعات كبيرة من **السريان** الشرقيين ، لاجئين إلى مَلبار ، خلال القرن الرابع .

+ + +

تاريخ مَلَبار قبل مجىء البرتغال : (Pre-Portuguese)

يُفترَض بثقة أن كنيسة القديس توما السريانية ، ظهرت على مسرح التاريخ المسيحى ، بروابط قوية واتصالات مع كرسى السريان الشرقيين في Seleucia-Ctesiphon (قرب بغداد فيما بعد) في تاريخ لا يتعدى منتصف القرن الخامس ، وقد نمت هذه العلاقات بتقدم الوقت .

وفي أيام الكاثوليكوس النسطورى Sabar-Ishu (٥٩٦-٦٠٤م) يسجل تاريخ : Scert ، إن ماروتا ، مفريان (مطران) تكريت فيما بعد، قد وصلته هدايا من الهند والصين. وفي عهد الكاثوليكوس Ishu Yahb (٦٥٠-٦٦٠م) حذر المطران Rewardashir ، في جنوب غرب إيران، من الفوضى الروحية السائدة ، لعدم متابعة كرسى جنوب الهند .

وربما كانت أهم الأحداث ذات المغزى، والمسجلة – في قرون متتالية – هـــى موجتان من المهاجرين من سُريان المشرق إلى الهند بقيادة الآبـــاء النســاطرة . وكانت الهجرة الأولى قد حدثت نحو عام ٧٧٤م ، عندما جاء الأسقف تومـــاس ، وجماعة من رفاقه – مع عائلاتهم– من أرض الرافدين ، ونزلوا على شــــواطئ ولاية كيرّالا الهندية .

ومرة أخرى ، في القرن التاســـع –نحـــو عـــام ٨٤٠م– اقتفـــى الأســـقفان النسطوريان Mar Sabar-Isho (Sapor) ، Mar Peroz (Parut) ، آثـــار الأسقف توماس – مع مزيد من المهاجرين الســـريان – وســـكنوا فـــي منطقـــة Quilon ، ومنح الحُكام المحليُّون – في الإقليم– كلتا الجماعتين مواثيق منقوشـــة على مجموعتين من الصفائح النُحاسية ، وهى حالياً مملوكة لكنيسة مار تومـــا ، في Tiruvalla ، والنقوش بلغة تاميلية قديمة. وتحمل توقيعات شهود بحـــروف عربية كوفية ، وفارسية وعبريَّة . وقد وهبوا المسيحيين مكاناً رفيعاً فـــي ظـــل نظامهم الدينى الطَبقي (الموجود حتى الآن في الهند).

وكان المطارنة مسئولين عن الأحوال المدنيَّة والكنسيّة لجماعـــة المؤمنيـــن المنتسبين للقديس توما الرسول ، بينما مُحاكمة الجرائم كـــانت مـــن اختصـــاص الإدارة الهندوسية .

وفي ظل سياسة التسامح الدينى من السادة الهنود ، تمكـــنّ المطرانـــان مـــن كسب نفوس كثيرة للمسيح. وبناء كنائس، ونُقِش عليها صلبان مُعينَة الشكل مـــن الخارج ، وهى – بصفة عامة– شعارات سريانية ونسطورية واضحة .

ولما تشدّد مسيحيو القديس توما ، تاقوا للإستقلال ، وتكويـــن سلســـلة مـــن الحُكام المسيحيين. ولكن حُكام كوشين (Rajahs of Cochin) منعوهم من تنفيـذ ذلك. وكانت هذه المطالب قبل مجيء البرتغاليين بوقتٍ قصير .

واستقر مطرَانهم في Angamali ، وساعدَه في خدمتــه رئيــس شمامســة archdeacon رسَمه الكاثوليكوس النسطورى. وبعد وفـــاة المطـــران ، تولـــى الإرشيدياكون مسئولياته. ورَجا البطريرك في رسامة مطران بديل .

وليس من السهل رسم صورة عن قصة المسيحية القديمة، خـــلال العصـــور الوسطى ، لأن مصدر هذه المرحلة المُظلمة ، التى وُجدت في خزائن النســاطرة في أرض الرافدين ، والسجلات القديمة - الخاصة بالكنائس الهندية - قد دمرّتــها جيوش المغول من جهة ، والغُزاة من البرتغاليين للهند، من جهة أخرى .

وكان مجمع Diamper سنة ١٥٩٩ قد قـــرر حــرق كــل المخطوطــات الهَرطوقية النسطورية ؛ ولذلك فإن السجلات التاريخية المَلبَارية (الهندية) قد تـــم القضاء عليها، ومع ذلك يُسجّل الكاردينـــال Tisserant مصدريــن صغــيرين ولكنهما هامين ، يتحدثان عن تاريخ هذه الكنيسة في أواخر العصور الوســطى • **والأول** يرجع للقرن ١٤م ، عندما أشار ناسخ - يُدعى زكريا بار (ابن) يوســف- إلى الكاثوليكوس Yahballah الثالث (١٢٨١-١٣١٧م) وإلى مار يعقوب أسقف الهند سنة ١٣٠١.

والمصدر **الثاني** ، في مخطوط بالفاتيكان ، يبدو أنه من أوائـــل القـــرن ١٦ مكتوباً بالكلدانية مع نصوص عربية وسرّيانية. وقد جَلبَه لروما - من الشـــرق - أندو إسكندر ، بعد إرسالية في السنوات ١٧١٨-١٧٢١م . وهذه الوثيقـــة الغـــير عادية، تُلخِص تاريخ النساطرة .

ويُشير الكاتب أن كرسى مطرانية الهند ، كان شـــاغِراً لمـــدة طويلـــة ، وأن مسيحيّى القدّيس توما اختاروا - أخيراً - وفداً من ثلاثة أعضـــاء للذهـــاب إلـــى الكاثوليكوس (النسطورى) الخاص بسلوقيا - ستيزيفون (قـــرب بغـــداد) لطلـــب

رسامة مطران جديد لمَلبَار، وأن واحداً من الوفد مات في الطريق (en route)، وأما الإثنان الآخران فقد وصَلاَ بسلام إلى العراق.

وقد تمت رسامتهما كاهنين بيد البطريرك نفسه ، ثم أرسلهما للدير الأثـــرى الذى حَمل اسم "مار أوچين"، للبحث عن مُرشحين للأسقفية. فوقع اختيارَهما علـــى مار توما ، ومار يوحنا ، فرَسمهما الكاثوليكوس على الفور ، واســـتُقبلا بـــالفرح في مَلَبار .

وعاد مار يوحنا إلى أرض الرافدين، بـــهدايا مـــن شـــعبه ، وطلـــب مـــن الكاثوليكوس مار إيلياس (Elias) الخامس (١٥٠٢-١٥٠٣) ليرسم آباءً ســـريان آخرين لإيبارشية الهند . وبالتالى ، يرى البعض أن الكنيسة السريانية الهندية قـــد تبعّت النساطرة ، منذ رسامة هؤلاء الأساقفة لها .

+ + +

البرتغاليون والرومان فى الهند :

استطاع فاسكو دا جاما الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح – لأول مـــرة– وبإرشاد بحار عربى اسمه ابن ماجد ، استطاع عبور بحر العرب ، والوصـــول إلى الشواطئ الجنوبية للهند ، قُرب كلكوتا سنة ١٤٩٨م. وهو ما فتـــح طريـــق البحر – المباشر– إلى الهند والشرق الأقصى بمعرفة البرتغـــاليين. وكـــان أهـــم أحداث التاريخ الغربى ، مثل اكتشـــاف كريســـتوفر كولومبـــس لأمريكـــا ســـنة ١٤٩٢م. وكانت بالتأكيد نقطة تحوُّل في تاريخ الـــهنود المســـيحيين المنتســـبين للقديس توما الرسول .

وقد حقّقت رحلة البرتغاليين للهند نجاحاً ، حتى أن فاسكو دا جاما قد زارَهـــا مرة أخرَى سنة ١٥٠٢ ، وقد قاوَمه المسلمون ، بينما ساعدَه المسيحيون ليضمنوا

حليفاً لهم ضد عدوهم ، وأرسلوا معه هدية لملك البرتغال ، وتشمل عصاً من الفضة المنقوشة ، وأعلاها ثلاثة أجراس فضية ، وقد قبِلها دا جاما ، باعتبارها رمزاً لخضوعهم التَطوُعِي للبرتغال !!.

وكان يهدف البرتغاليون إلى احتكار تجارة التوابل ، وانتزاعها من أيدى الوسطاء المصريين ، وقاموا بالسيطرة التدريجية على أجزاء من جنوب غرب الهند، وتكوين مستعمرة جديدة. وجعلوا عاصمتهم جوَا (Goa). ونتج عن ذلك اتصال أقوى بمسيحيّى الهند ، الذين لم يُبالوا بعُمق الخلافات الطائفية التى تفصل بين كنائسهم ، والاستعمار الاستبدادى الدينى لروما.

وبدأت مأساة الكنيسة الهندية ، بغزو دينى موازٍ من الچيزويت (Jesuites) وتعيين راهب أوغسطينى تقى.ولكن مُتعصِب (للكاثوليكية) هو Alexis de Menezis كرئيس أساقفة لجوَا سنة ١٥٩٨م ، وكان مُدعَماً بقُوَى كبرَى ، للقضاء على كل آثار النسطورية وكل هرطقة لهذه الكنيسة. وفرَض الكاثوليكية الرومانية – بكل الوسائل الممكنة– على كل المسيحيين الشرقيين .

وفي نفس الوقت ، كان الأساقفة السريان القُدماء ، المعاصرون للغُزاة الجُدد قد ماتوا – الواحد تِلو الآخر– وحل محلهم أساقفة جُدد ، أعلنوا الاعترَاف بالمذهب الكاثوليكى ، وخضعوا لرئاسة بابا روما .

أما الذين أُقنِعوا بالارتداد عن المذهب اللاتينى ، فقد تعرضوا للتعذيب عن طريق محاكم التفتيش (الظالمة) والتى امتد عملها عبَّر البحار ، إلى الهند ، بناءً على توصيات من أحد مسئولي الإرساليات التى تحمل اسم القديس فرنسيس ، في الشرق الأقصى .

وبلغت الضغوط الكاثوليكية ذرَوتها في مجمع Diamper ، والذى أدارَه بمهارة الأسقف منزيس ، لدرجة أن المندوبين ، الذين اجتمعوا سنة ١٥٩٩ قد استسلموا للإملاءات الرومانية .

وقد تم حرم أخطاء نسطور. وفُرِضَت البتولية على الكهنة ، وإعلان الخضوع الغير مشروط للكرسى الرسولى . وتم إقامة محاكم للتفتيش ، وكان من سوء حظ مؤرخ الكنيسة. أن يتم حرق الكُتب القديمة والسجلات، وكل ما يتم الشك في هرطقته قد تعرَّض للنيرَان .

ولكن الميزة الوحيدة ، التى أفادت الكنيسة الهندية ، كانت في استمرار استعمال اللغة السرَيانية – الكلدانية ، في صلوات القُداس ، وأضيفت ما يوافق المذهب الكاثوليكى ، وقد قاد المجمع السابق إلى إتمام سيطرة الفِكر الكاثوليكى على كل المجتمع المسيحى الهندى.وانتشرت إرساليات الجيزويت (الرهبان اليسوعيين) في معظم الكنائس لنشر تعاليمها ، ونقض النظام القديم .

وكانت الجيوش البرتغالية تقف بقوة ورَاءها ، وقام رئيس الأساقفة الكاثوليكية برشوة حُكام (rajah) كوشين للإبتعاد عن الأمور الدينية .

ومن الناحية النظرَية ، كان الانتصار البابوى كاسحاً في مَلَبار ، وغير قابل للتغيير نهائياً . ومن الناحية العلمية ، كانت هناك قصة أخرى مختلفة ، فإن الأساليب والتقاليد السرَيانية القديمة ، كان متعمقة الجذور بشدة ، فلا يمكن القضاء عليها بدون مقاومة .

واختفى المواطنون تحت الأرض وفي الجبال ، واتصلوا ببطاركة الشرق الأقباط ، واليعاقبة ، والنساطرة – على حدٍ سواء– لرَسامة أسقف يقودهم ، ويحميهم مما يفرَضه الكاثوليك عليهم من أفكارهم .

وكان هذا الأمر صعبا للغاية ، لأن اللاتين قد حرَسوا كل الموانئ البحرية ، ضد هذا التسرب للخارج.وفي نفس الوقت تم تعيين أسقف لاتينى للسريان ،ممثَلاً في شخص الدبلوماسى فرنسيس روز Roz (١٥٩٩-١٦٢٤) ، وقد حاول أن

يجذب قطيعَه إلى الحظيرة بإعطاء بعض سُلطانه مؤقتاً للأرشيدياكون الـــهندى ، لممارسة الطقوس القديمة .

وقد قام البطريرك الإسكندري القبطي برسامة كاهن سرياني يعقوبى يُدعـى : "عطاالله"،كأسقف سرياني للهند. وحمل اسم إغناطيوس. وقد نجحَ في الذهاب إلـى إيبارشيته ، حيث نزل إلى Surat سنة ١٦٥٢، ووصل إلى Mylapore ، حيـث فرح المواطنون الهنود بوصوله ، ولكن سُرعان ما قَبض عليه الچيزويت ، ثــم نقلوه إلى Goa حيث حاكمته محكمة التفتيش كـــهرطوقى ، وتــم حرقِـه ســنة ١٦٥٤م !!.

وقد أصبح موقف الچيزويت حَرِجاً ، عندما ثار مسيحيو الهند ضد حكمـهم ، كما أضعفتهم منافسة إرساليات الدومنيكان، في عينىّ العاهل الروماني. لذلك قرر البابا اسكندر السابع إرسال حملة جديدة من رهبان الكرمليت ، لإعـــادة الــهنود المتعثرين إلى طاعة روما .

وكانت أول إرسالية قد وصلت إلى مَلَبار سنة ١٦٥٧ ، كما تدعَّمت بـــأخرى سنة ١٦٦١ ، في وقت كان يخبو فيه نجم البرتغاليين ، ويرتفع نجم الـــهولنديين . وسيطر الهولنديون – في نفس تلك السنة – على Quilon . ثم استولوا – فـــي السنة التالية– على مدينة Cranganore . وأصبحت منطقة Cochin هولنديـــة سنة ١٦٦٣ ، واستطاع هنود الجنوب أن يتنفسوا نسيم الحرية تحت حُكمهم .

وعلى الفور ، أمر الهولنديون برحيل كل الإرســاليات الكاثوليكيـــة وكهنـــة الچيزويت من مَلَبار . وأما الأب يوسف أسقف الچيزويت السريان ، الذى يبـــدو أنه استرّد ٤٨ إيبارشية لروما ، في مقابل ٣٦ كانت مواليـــة للكنيســـة الوطنيـــة القديمة ، طُلب منه أيضا الرحيل من البلاد ، فأسرّع بترك مكانه لخليفته الوطنـــى Kattanar ، والذى حمل إسماً لاتينيــاً Alexander de Campo مــع لقــب

"أسقف Megara" ، وبذلك ، رحَّب المسيحيون الوطنيون – بصفة عامة– بالهولنديين ، الذين أنقذوهم من نير البرتغال .

وكانت الإرساليات الكاثوليكية – تحت حماية البرتغاليين – **أول من** بذر بذور الشقاق والخلاف الدائم ، بين المسيحيين الهنود !!.

إنشقاقات واضطرابات وحلول :

كانت الفترة التالية إحدى فترات الاضطراب الكُبرَى،في صفوف الكنيسة ويلزم أن نعلم أن الهنود المسيحيين كانوا يختلفون عن باقي المسيحيين الشرقيين والغربيين باختلافاتهم العقائدية . فلم يهتم الهنود بالتعريفات اللاهوتية ، ولم يُبالوا –أو حتى يفهموا– أسباب الصرّاعات التى قامت بين الرومان واليعاقبة (السريان) والنساطرة .

فكل ما كان يُهِّم تلك الجماعة البعيدة هو المسيح ، والتوالى الشرعى للأساقفة في الهند ، للإهتمام بالمؤمنيين. وهو ما كان يسير في القديم بميثاق غير مكتوب، حيث كان الأسقف السريانى الغريب عادة ما يُركِّز على مهامِه الدينية ، بينما تقع المسئوليات المدنيَّة على عاتِق مُساعده ، "الأرشيدياكون" الوطنى (الهندى).

ومن جهة أخرى ، فإن الچيزويت كانت لهم سلوكيات استبدادية ، ولم يستطع رهبان الكارمليت أن يخفِفُوا منها . وبالتالى انقطعت كل أساليب حياة الهنود عن قنواتها القديمة . وقد أراد قطاع كبير من المجتمع المسيحى الهندى – حتى قبل انتهاء الحُكم البرتغالى– العودة إلى النظام القديم ، بأسقف شرّقى .

وفي عام ١٦٥٣ ، لما فشلت الجماهير الغاضبة ، في إنقاذ الأسقف إغناطيوس – عطا الله ، المُسِّن السُريانى ، الذى رسمه البطريرك القبطى– زحفت إلى كنيسة Mattanchari في كوشين ، وحلفوا – عند صليبها القديم–

للتحرُّر من نِير روما ، وطرد الچيزويت ، وطلب أسقف من كنائس الشرق. وفي نفس الوقت ، عُقِدت اجتماعات عامة ، تم فيها اختيار الأرشيدياكون كرئيس مؤقت للكنيسة ، وتمت رسامته بمعرفة إثنى عشر كاهناً ، وقد حُمل اسم "**مار توما**" الأول ، وبدأ سلسلة جديدة من الأساقفة بنفس الاسم .

وهكذا ، عند مجيء الهولنديين ، انقسمت الكنيسة بين الذين دانوا للمذهب الكاثوليكى برئاسة الأسقف Chandy ، والذين عادوا للمذهب السريانى ، تحت رئاسة مار توما .

وضعُف موقف الكاثوليك ، في بداية النظام السياسي الجديد ، بتعيين مساعد، وخليفة في المستقبل للأسقف Chandy ، وهو شخص يُدعى رفائيل Raphael من نسل برتغالى وأسيوى . وكانت خطوة غير حكيمة ، إذ اعتبروه عملاً يقلل من كيانهم الاجتماعي، ويحد من كرامتهم !!.

ونتيجة لطلبات مار توما – من الكنائس الشرقية – تمت رسامة أسقف يعقوبى سريانى جديد ، هو مار جورَجيوس ، وقد تم استقباله في مَلبَار بفرح عظيم سنة ١٦٦٥ ، وبدأ خدمته بحرم بابا روما ، وأتباعه ، ومجمع Diamper والمذهب الكاثوليكى .

ورغم وجود بعض الشك في صحة رسامة مار توما ، فقد كانت العلاقات بينهما وديَّة ، إلا أن الكاتب Brown يشك في ذلك بسبب معارضة مار توما لمجيء أساقفة يعاقبة سنة ١٦٧٨م، ولعدم وجود وثائق تؤيد تلك العلاقة الحميمة.

ويبدو أن معاهدة الهولنديين مع البرتغال سنة ١٦٩٨ قد خفَّفت من حَّدة الضغوط على الكاثوليك ، بإعطاء تصريح لأسقف وأثنى عشر كاهناً رومانياً ، لدخول الهند ، في مقابل عفو البابا عن البروتستانت البلغاريين !!.

وصارت الصورة اكثر تعقيداً بوصول المزيد من مُدَعِّى الأسقفية الأجانب ، ففي سنة ١٦٧٦ ، ظهر على المسرح – المدعَّو مار أندرو – Andrew ، بصفته مُعَّيناً من العاهل الرومانى إلى الهنود الرومان السريان. وقد تبرَّأ منه الكارمليّت، وانتهت خدمته عندما تم تغريقه فى البحر سنة ١٦٨٢ .

كما ظهر حزب ثالث مهم ، بمجيء مار جبرّيل ، الذى أرسله البطريرك النسطورى سنة ١٧٠٨ للسيطرة على الكنيسة الهندية . وقيل إنه تبعه ٤٢إيبارشية رومانية ، ولكن استردّت الإرساليات الكاثوليكية عشرة منها(١) .

وبعد نياحة مار غريغوريوس سنة ١٦٧٢ ، كان لليعاقبة أساقفة آخرون بعده، ولكن بعد نياحة مار باسيليوس –كما توضح في خطاب إلى البطريرك اليعقوبى (السريانى) سنة ١٧٢٠م – انقطع توالى الأساقفة السريان، مما عرّض قطيعهم (الأرثوذكسي) للهرّطقة النسطورية .

وعمل مار توما وخلفاؤه على إعادة توحيد الهنود تحت سُلطة كنسية (أرثوذكسية). ونظراً لأن ذلك لا يمكن أن يتم بدون دعم من السلطة المدنّية ، فقد طلبوا المساعدة من الهولنديين . ولم ينالوها ، لأن كل الطوائف كانت كلها متساوية في الهرّطقة ، في نظر الحاكم الأجنبى (الهولندى) للبلاد (جنوب الهند).

ولم يؤدِ موت مار جبرّيل (النسطورى) في نهاية سنة ١٧٣٠ إلى إعادة السلام . وقد عاش النساطرة – في جماعة صغيرة– بعيدين عن السريان الكاثوليك ، الذين كانوا هم أنفسهم قد تمزّقوا بإعادة إحياء العلاقات مع أرض الرافدين ، بمطالبة البطريرك السريانى– الكلدانى في بابل (العراق) فجأة بخضوع السريان (الكاثوليك) في مَلَبار لسُلطته.

(1) Le Quien, Oriens Christianus, Tom.11, p.589.

وقد أُعيدَت سلسلة الآباء النساطرة ، في عام ١٩٥٢ ، عندما قام البطريرك شمعون ٢١- المَنفِى في الولايات المتحدة الأمريكية- برسامة مار توما ، كمطران (نسطورى) لمَلَبار الهندية .

ورئيس الأساقفة النسطورى هذا يرَعى نحو ٥٠٠٠ نسطورى في Trichur في ذلك الوقت (١٩٦٨). ويرى Tisserant أن عددهم يقل، بسبب الزواج المختلط مع ١٥٠٠٠ سريانى كاثوليكى في تلك المدينة.

أما بالنسبة لليعاقبة (السريان الأرثوذكس) فقد نجحوا في إقامة أساقفة أجانب لهم ، ولكنهم أقل فى مستواهم الروحى من مار غريغوريوس الراحل .

وقد نشب شِجار بينهم ، وبين زملائهم الوطنيين ، ولكن تبعَه عقد إتفاق مذبذب بين الكاثوليك والأرثوذكس ، ومع الإنجيليين أيضاً ، لحل مشاكلهم ، واستردَاد سُلطاتهم .

وهناك قصة معقدة ، وفصل كئيب آخر ، في تاريخ المسيحية الهندية ، وتتمثل في سِيرَة مار ديونيسيوس الأول ، المُحيِّرَة ، في نهاية القرن ١٨ ، وبداية القرن التاسع عشر .

وهو يعقوبى بالمولِد والرسامة ، ثم صار كاثوليكياً سنة ١٧٩٩م ، وبدون فاعلية . ولذلك عندما عاد لليعقوبية (السريانية الأرثوذكسية) ناقش إمكانية الاتحاد مع الكنيسة الانجليكانية بعد سنة ١٨٠٠م ، ثم عاش بروح الود مع مار ديوسقورس ، الذى رسَمه البطريرك اليعقوبى السريانى (الإنطاكى) لمَلبار سنة ١٨٠٧م.

وقبل نهاية القرن١٨ ، حدث تغيُّر جذري ، كل له تأثير كبير ، على مجرَى الأحداث ، في تاريخ كنيسة الهند . فقد حل **الإنجليز** محل الهولنديين في الجنوب،

وتم تعيين إثنين من المقيميـــن البريطـــانيين لإدارة Cochin ، Travancore . وكان هذان الحاكمان من الإنجليكان البروتستانت المتدينيـــن بحكمـــة ، ودون أن يُعاديا المَلَبار السريان الكاثوليك ، وقصدًا أن يُعالجا الأوضاع المُحزِنـــة للكنيســـة اليعقوبية الوطنية (الهندية) ، بمساعدتها على إصلاح نفسها بنفسها.

ولتحقيق هذا الهدف ، قرر المســـتوطن الأول- الكولونيـــل مونـــرو- أنـــه بالإضافة إلى فرض النظام ، يجب أن يتسلّح الكهنة (Kattanars) بمزيـــد مـــن العِلم الروحى ، وأن تزداد معرفة الشعب بالكتاب المقدس (Scriptures). وطلب من جمعية إرسالية الكنيسة (الإنجليزية) المُساعدة في هذه الميادين ، دون الإساءة للعادات والطقوس والقُداسات والمنظمات الكنسية التقليدية . وبمعنى أخر ، فـــإن الإرسالية تقوم ببناء النفوس ، وليس تغيير مذهبـــها (edification without proselytization) وهو اقتراح مقبول تماماً للإكليروس الهندى .

وقد وصل أول مُبشِّر إنجليزى – توماس نورتون- سنة ١٨١٦، ثـــم تـــلاه آخرون ، ووافق المطران السريانى على أن يعظوا في كنائس يعقوبية. وشـــجع الحاكم الإنجليزي على عودة الكهنوت للحياة الزوجية ، حسب الطريقة اليعقوبيـــة. وكان يقدم مساهمة مالية للذين تزوجوا من الكهنة . كما تمت مراجعة نصـــوص الكتاب المقدس باللغة Malayalam وتنقيحها وطبعها سنة ١٨٣٠م ، وأُنشـــئت كلية تم التعليم بها باللغتين السريانية والمَلبارية .

ورغم أن جمعية التبشير الكنسى تجنبت بكل شـــدة التدُّخـــل فـــي سياســـات وممارسات الكنيسة ، لكن ظهرت جماعة صغيرة من المُصلحين السريان بزعامة ابراهام ملبان (Malpan) وكان مدرساً في كلية الكهنوت ووكيلاً لطائفة المرمون (Maramon) ، وقد عَرفته الأجيال التالية باسم :" المؤسس الأول لكنيسة مـــار توما المُصلَحة".

ووَقع إبراهام ورفاقه تحت تأثير الأفكار البروتستانتية ، ولكن ليس مثل باقى الأقلية السريانية ، التى كانت قد تركت الممارسات القديمة علناً ، وصارت بروتستانتية ، ثم عادت وقررت البقاء في الكنيسة (السريانية) بعد إصلاحها .

ولذلك قرر إبراهام الاحتفاظ بالأشكال الخارجية للعبادة ، حسب الطقس اليعقوبى ؛ ولكنه قام بوضع ترجمة مَلبارية للقُداسَ ، مع تحوّير ، ليتطابق مع الفِكر البروتستانتى • وكسَّر تمثالاً لأحد الآباء ، وألغَى تذكار قديس محلى !

وانزَعج المطران مار ديونيسيوس الرابع ، من هذا التحَّريف الغير قانونى ، وحرَم كل مجموعته . ونظراً لأن إبراهام أدرَك أن تعاليمه لن تكون لها فاعليتها بدون دعم أسقفى ، لذلك أسرع بإرسال ابن أخيه ، إلى المقر البطريركى في دير الزعفران ، في طور (جبل) عابدين ، وبعد تدّريبه ، قام البطريرك إغناطيوس إيلياس الثانى برسامته أسقفاً باسم : مار متى أثناسيوس سنة ١٨٤٢م ، رغم تحذيرات مار ديونيسيوس .

وقد تم حرمه هو وأتباعه ، وتم طردهم من الكنيسة . ونظراً لأنهم صاروا طائفة جديدة ، فقد بدأوا في إنشاء كنائس مستقلة ، خاصة بهم . ولا يضعون فيها صوراً (أيقونات) ولا يوقرونّ القديسين ، أو يُصلُّون على الموتى ، ولا يقبلون التعليم الخاص بذبيحة الأفخارستيا ، ويُصلُّون باللغة المحلية ، بدلاً من السريانية. وخلال الحُكم البريطانى ، انضموُا للمذهب الإنجليكانى؛لكنيسة جنوب الهند .

ويذكر الكاتب فيليب :"أن كنيسة مار توما ، كانت مِثل مَعبَّر (كوبرى) بين الكنائس الهندية ، إذ تحوَّى في داخلها كل أشكال العبادة التقليدية الشرقية ، ومبادئ مارتن لوثر الإصلاحية، والكنائس الغربية البروتستانتية".

وبعد الانشقاق الجديد، عاشت البقية اليعقوبية من الإكليروس في سلام نسبى، إلى أن نشب شِجَار آخر ، على الامتيازات البطريركية المالية ، وقد زادت الحالة سوءاً بوجود انقسام في الكنيسة الأم .

ولتدعيم مركزه ، في إيبارشية الهند ، جاء البطريرك أغناطيوس عبد الله إلى ملبار شخصياً سنة ١٩٠٩ . والظاهر إن الآباء الهنود ، اختلفوا حول حق البطريرك للإهتمام باستثمارات الكنيسة ، مما أغضبه إلى حد أنه حرم ديونيسيوس السادس ، وأحل محله مطراناً آخر هو مار كيرلس .

مما أدى لحدوث انشقاق آخر في الكنيسة اليعقوبية . وكانت له نتائج كبيرة ، إذ بينما تقبّل البعض حُكم البطريرك ، وأُطلِق عليهم اسم "حزب البطريرك" ، ظل آخرون مُخلِصين للمطران القديم . واجتمعت جماعة منهم، وأعلنوا عدم سريان الحَرم ، وعُرِفوا باسم:"حزب المطران" ، وفيما بعد حملوا اسم "حزب الكاثوليكوس" (في محاولة للاستقلال عن إنطاكية) .

وحدث في نفس الوقت ، أن الحكومة التركية قامت بخلع البطريرك أغناطيوس عبد المسيح ، الذى كان مواطناً في تركيا . ونظراً لأن خلع الأتراك له ، لا يلتزم به الهنود ، فقام ديونيسيوس بدعوته إلى الهند . فجاء عبد المسيح إلى ملبار سنة ١٩١٢ ، واعتبر ما صدر ضد ديونيسيوس باطلاً ، وحرم البطريرك عبد الله ، والمطران كيرلس ، وثبّت ديونسيوس ، ورَسم المزيد من الأساقفة له .

ورفع مستوى مار إفانيوس (Ivanios) إلى رتبة "**كاثوليكوس**" ، وبذلك عُرِف أن هناك إتجاهاً محلياً لإدارة الكنيسة الهندية باستقلالية ، ولكن بدون انفصال تام عن إنطاكية .

كما أنه يعني أيضاً قيام الكاثوليكوس برسامة أساقفة بإرادته . وهذه الانقسامات وفروعها ، صارت أكثر تعقيداً، نتيجة للظروف الخاصة بالإنقسامات الجنسية للسكان المَلبار ، إلى شماليين (Nordhists) وجنوبيين (Suddhists) ، وكلٍ له إنتماءاته إلى الأحزاب الدينية ، وتلقي بظلالها حتى

على الحزب المتحد (مع إنطاكية). وفي نفس الوقت ، اجتمعوا جميعاً لتوزيع الثروة ، وأموال الكنائس . وفي عام ١٩٣١ ، دعا اللورد إيروين (Irwin) نائب ملك إنجلترا في الهند ، البطريرك اليعقوبي إيلياس الثالث شاكر Shakar (١٩١٧-١٩٣٢) لزيادة البلاد ، على أمل حل تلك المشاكل والخلافات.

فاستجاب البطريرك السرياني ، وجاء إلى مَلبار . وتنيح هناك ودُفِن في إحدى كنائسها ، بدون إتمام الصُلح . وتبعه مار ديونسيوس إلى القبر بعد عامين، وفي الواقع كان هو المهيّمِن على الكنيسة حتى موته .

وفيما بعد ، جاء الكاثوليكوس الهندى إلى حمص للقاء البطريرك إفرايم الأول ، ولكنه فشل في الاتفاق معه . وفي طريق عودته إلى مَلبَار سنة ١٩٣٤ ، تم وضع قانون للكنيسة السريانية ، عن طريق الحزب المؤيد لها، لإبطال الموقف السائد (Status quo) عن إدارتها الذاتية (المستقلة) .

ويبدو أن هذا الوضع قد غيَّر النظرة القانونية لكل الموقف ، لأن قادة الهنود قد اعتبروا هذه الخطوة الحديثة بمثابة إنشاء كنيسة جديدة . ومع ذلك لم تتأثر حياة الكنيسة الهندية بشدة بهذه الخلافات .

ولم يتأثر رجال الإكليروس الهندى بالحرومات المتبادلة . وأن الصرَاع بين الأحزاب – رغم أنه كان مريراً في بعض الأوقات– إلا أنه لم يصل إلى أبعاد الانشقاق ، الذى حدث في الكنيسة اليعقوبية ، كما حدث في حالات الخلاف المَلبَارى السرياني الكاثوليكى ، أو مع أتباع مار توما ، السابق الإشارة إليهم .

وبُذِلت جهود مستمرة لإعادة السلام بين الآباء ، الذين لم تلمس خلافاتهم الإيمان ، ولكنها كانت قاصِرَة على الإدارة ، والمالية والتبعية . وسادت إشاعات، بأن الأساقفة – في كلا الحزبين – قد التقيا في مكان يُدعى المعهد القديم في Kottayam في ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، وختموا صُلحهم بخدمة قداس

الشكر في الكنيسة في حضور ممثلين من العلمانيين من الكنيسة السريانية الأرثوذكسية.

ويبدو أنه تم توقيع معاهدة من الأساقفة والكهنة ومندوبي الإيبارشيات من العلمانيين. ومن شروطها، أن كنيسة كيرَالا الهندية المتحدة أصبحت مستقلة في إدارتها وفي مجمع أساقفتها تحت رئاسة الكاثوليكوس ، وأن تحل محل البطريركية (الإنطاكية) في كل أمورها الكنسية ، وأن العلاقة بينهما تقتصر على إبلاغ البطريرك أو الكاثوليكوس، عندما يموت أحدهما أو عند انتخاب جديد ، ولو حضر البطريرك (السرياني) رسامة كاثوليكوس جديد ، يقود قداس الاحتفال ويقلده منصبه ، وتنتهي عند ذلك حدود سُلطته .

وفي مُوازاة لحركة المصالحة مع الكنيسة السريانية، في العقود القليلة الأخيرة (قبل عام ١٩٦٨) كان هناك اتجاه عام نحو "المسكونية (Oecumenicity) ونرى هذا الميل في ثلاث مجالات. في المحل الأول، فيما يختص بالهند ذاتها. كانت هناك محاولات غير واضحة لوجود اتحاد بين الكنائس اليعقوبية ومار توما والانجليكان في ترافنكور وكوشين. وعُقِدت مؤتمرات على أساس أن يكون لكل كنيسة إدارتها وكهنوتها ورئاساتها وإيمانها وتقاليدها، مع وجود هيئة فيدرالية مركزية، للرقابة على التعليم والثقافة ، وأنشطة التبشير .

وفي المحل الثاني ، تزايد التعاون بين إنطاكية وكنيسة جنوب الهند صاحبته دعوى لمزيد من الروابط الروحية، مع الأخوَة في الكنائس الشرقية المسيحية بالخارج ، ولاسيما من اليعاقبة والأقباط والأرمن ، من المعسكر الأرثوذكسي .

وفي المحل الثالث ، تطلعت كنائس جنوب الهند بحماسة شديدة نحو المسكونية، وانضمت إلى مجلس الكنائس العالمي .

ومن الجدير بالذكر أن المندوب الهندي للكنيسة اليعقوبية – في اجتماع Evanston سنة ١٩٥٤ ، قد انتهز الفُرصة ، لعقد اجتماعات مع الأقباط

والأرمن ، وحتى مع الكنائس اليونانية ، بأمل إيجاد نوع من الاتصال و التفاهم المتبادل بينهم ، ولتدعيم الرابطة بين الكنائس القديمة .

+ + +

٢٢- الحياة الاجتماعية والدينية للكنيسة الهندية :

+ الوضع الاجتماعي:

قبل مجيء الغربيين ، عاش مسيحيُّو مَلبَار حياة بسيطة،تعتمد على الزراعة والتجارة ، بينما ظلت الكنيسة مركز حياتهم الاجتماعية والدينية . وبعد مجيء البرتغاليين ، تعرّض مجتمعهم الذى لا حول له ولا قوة للاضطهاد، وعانى من الغزو ، عدواً وراء آخر ، ولكن تماسكهم للآن راجع إلى عُمق إيمانهم وتقوّاهم .

وقال أول رئيس بريطاني-وهو مونرو- فى خطبة في مِدرّاس - عن رجال كنيسة القديس توما :" رغم ما عانوه من ظروف صعبة ، لا يزالون يعيشون في الفضائل التى تَميَّزوا بها ، وهم مشهورون بالاعتدال والبساطة والأمانة في العمل، وقد اقتصروا على الزراعة والتجارة. ورغم أنهم فقَدوا المراكز العالية ، لكنهم لا يزَالون ينالون الاحترام ، لسلوكهم الممتاز"(١).

وكانت العوامل الجغرَافية ، مثل الأصول البعيدة التى أتوا منها ، والتطوّر التاريخى لمجتمعهم عبَّر القرون،قد أعطى مجتمعهم تلك الشخصية الخاصة ، التى ميزّت نموذج حياتهم . وانحصارهم بين جبال Ghat والبحر العربى ، مع منبع وفير من المياه ، فقد استطاع مسيحيوّ القديس توما أن يظلوُّا في تلك المساحة ، التى عاشوا فيها، في قُرَاهم المنتشرة بها. وأصبحوا مُكتفين بإنتاجهم الزراعى. وفي نفس الوقت ، أثرُوا من تجارة الفلفل الأسود ، والتوابل الكثيرة التى عندهم . ورغم أنهم أتوا أولاً كمهاجرين وتُجار أجانب ، لكنهم اندمجوا

---

(1) Address quoted by: Whitehouse, Lingerings of light in a Dark Land, pp.11-12.

تماماً في سلالة Dravidian الوطنية ، واستخدموا لغة Malayalam لحديثـــهم العام ، واللغة السريانية للطقوس الكنسية فقط .

ويبدو أنه قد أصبحت الحاجة الشديدة إليهم – في مَلَبار – لتنشـــيط التجـــارة الخارجية. وعلاوة على ذلك فقد نالوا شُهرَة عظيمة كفنيين ، وحِرَفيين نـــافعين. ولذلك حملوا الصفات التى قّربت المبشر السريانى إلى قلوب الأجناس الأسـيوية ، حيثما ذهب ليبشر بالإنجيل .

وبسبب هذه المواهب ، لم يتم قبولهم فقط فى المجتمع الهندوسى والـــبرَاهمى والناير (Nayars) الجديد ، ولكنهم أيضاً نالوا مكانة سامية ، واحترَاماً خاصـــاً ، في مجتمع متعدد الطبقات .

وقد تمتعوا بعدة ميزات ، وكان كلٍ من الأساقفة،والعرسَـــان فـــي حفلاتـــهم مسموحاً لهم باستعمال المَواكِب المُحَلاّة بالزينات ، والقاصرة على أُمراء الراجـــا (rajas) ، كما يمكن مشاهدة المظلات الحريرية ، والأعــــلام ، والســيوف ذات الأيدى الخشبية ، والدروع المُغطاة بجلد النمر في مواكبهم .

وكان يمكن للعريس أن يمتطى ظهر فيل ؛ أو يسير تحت محَفة مـــع فرقـــة موسيقية ، وتضئ الفوانيس الطريق لهم ، وتُقام أقواس نصر، في تلك المناســـبة السعيدة.

وعلاوة على ذلك ، فإنهم كان – مثل Nayars الذين جـــاء منـــهم أمـــرَاء الراجا – يتمتع المسيحيون بألقَاب وراثية؛ كما كانوا يُعرَّفون بمهارة حربية. كمـــا سُجلَت حالات من الزواج مع Nayars ، كما تعلم كلاً من النـــاير والمســيحيين معاً.

وكان المسيحيون يعتبرون أنفسهم – وعموماً يُقبلون – كمتساوين مع النـــاير. ويأتون في ترتيب السُلَم الاجتماعي بعد طبقة البرَهما مباشـــرة . ومـــن الجديـــر

بالملاحظة أن المسيحيين كانوا يُرسلون تقدمات للمعابد بحرية ، وكان الهندوس أيضاً يشاركون في أعياد المسيحيين ، ويطلبون شفاءً لمرضاهم ، بتقديم هدايا عينية – لقديسى المسيحيين والكنائس طواعيةً !

ونجد عاملين هامين في تكوين العادات الشعبية لمسيحيِّى القديس توما ، وأحدهما من أصل هندى وطنى ، والثانى من التقليد الدينى المسيحى والكنسى . وكلاهما معاً يؤثران جيداً على مناسبات الاحتفال بالميلاد والزواج ، والدفن للموتى .

وحتى الوقت الحاضر ، فإنه يُمارَس التنجيم عند الميلاد ، والاعتقاد بالتشاؤم والتفاؤل بالأشياء. وتُرَاعى قواعد التطهير ، بعد الميلاد والموت. ولم يتم التخلُص حتى الآن بالعادات الخاصة بعدم لمس الأشياء النجسة أو المنبوذين ، رغم محاولة المسيحيين نُصحهم بنبذها .

ويقول الكاتب Brown إنه يتم كسر الصوم لو لمسَ الصائم منبوذاً !!، وأن أصحاب الأراضي ، الذين يعودون إلى دورهم من حقولهم مع عامل من المنبوذين (مثل السيخ) لابُد لهم من تغيير ملابسهم ، والاستحمام للتطهير !!

وحفل إطعام الطفل،لأول مرة،من الأرز ، في سن ٦ شهور ، يتم لدى الهندوس في معبدهم ، ولدى المسيحيين في الكنيسة ، بشمعة مضاءة لا يجب إطفائها بالنفخ بالفم. وإذا ما أُطفِأت فهى تدنس الإلهة الهندية الخاصة بالنار !!.

ومن ناحية أخرى ، فإن الكاهن ، أو شخص (ذكر) ينوب عنه يجب أن يقول بصوت مرتفع عبارة :" يسوع المسيح هو ربنا" في أُذن الطفل عند مولده. والعماد ضرورى ليصير الطفل "نصرَانىٌ" (Nasrani) ، كما أن الوَلد يُستقبل بترحاب وفرح أكثر من البنت !

وحفلات الخطبة والزواج مناسبات مَهيبة. وكقاعدة عامة ، فهى تُعَّد أمراً عاماً لكل الأسرة ، ويجب أن تتقرر في مجلس. ومثل باقي الهنود غير

المسيحيين ، فإن زواج الطفل شائع ، وتصبح الفتاة صالحة للخطبة عند ثقب أذنها !

ويذكر Brown أن ذلك يتم عادة في سن ٦ أو٧ ، وأن الذكور كانوا يتزوجون في سن ١٠ أو ١٢ . وأن هذه العادة قد ظلت تُمارس إجبارياً – لدى اليعاقبة – حتى عام ١٨٨٠م ، ثم اختفت بعد ذلك من هناك .

ويتواجد الكاهن خلال المداوَلات على شروط الزواج كشخصية مركزية. ويتم تحديد المَهر عادةً حسب مقدار ميراث البنت . ويتم الزفاف (الإكليل) في الكنيسة بعد القُداس (Qurbana) ، ويكون موكب العُرس مثل موكب الهندوس. ويجب أن يُضَاء مصباح مُعلَق أمام المذبح، أثناء الاحتفال . وتتحلّى الفتاة بالجوَاهر ، سواء من عندها ، أو من المُستعارة من آخرين للمناسبة . وترتدى زهرة من ذهب مربوطة في شعرِها .

ويرتدى العريس سلسلة ذهبية لها صليب. وكان في الأيام الأولى يُستخَدم تاج ، طبقاً لتقاليد الكنائس الشرقية ، عند الاحتفال بالزواج . ومثل البراهمة ، يؤخذ عدد من الخيوط من ثوب العروس ، ويُغزَل فيما يُسمَّى Minnu ، ويُربَّط حول رقبة الفتاة بمعرفة عريسها ، عندما يُعلن الكاهن أنهما قد صارًا زوجاً وزوجةً . ويجب الاحتفاظ بهذا الخيط (Minnu) طوال حياة الزوج . وخلال الاحتفالات التالية –والولائم– يجب أن يظل مصباح المسيح المسمى " مصباح الشهادة " منيراً !!.

وقرب نهاية حياة الإنسان السريانى – مثل الهندوسى– يُفضِل الاعتزال عن العَالم، للتأمل في هدوء ؛ ويحدُث ذلك عادةً عند سن ٦٤ . ويُمارَس له سِر المسحة (صلاة القنديل ويتناول) من الأسرَار المقدسة قبل نهاية عمره .

وبعد الموت ، يُغسِّل الخُدّام الجثة ويكفنوَنها ، لأنه ممنـــوع علـــى الأقـــارب لمسها!! ، ثم توضع على سرير مُواجِه للشرق ، مع بخـــور تحتـــها ، ويجلـــس النائحون على حصير على الأرض، حول الميت ، إلى أن يؤخذ الجسد للكنيســـة ، لإجرّاء مراسم الصلاة عليه. وتُمنع النساء من حضورها . وتظل أسرة المتوفـــى ملوثة بعد الدفن – مثل البرّاهمة – إلى أن يستحموا في النهر، في أول عيد يأتى، بينما تُقام قُداسَات طوال الأربعين يوماً، بعد الوفاة. كما يتم نفـــس الشـــيء عنـــد مرور عام على الميت. وفي تلك المناسبة تُقدَمّ الصدَقات ، وتُوزع الحلوَى !!.

ويذكر الكاتب Pothan أن الأساقفة يُدفَنون وهم في وضع جلـــوس. وهـــى عادة هندية في الدفن (Sanyasi) ويُمَلأ القبر بالزهور والبخور والـــتراب ، قبـــل غلقه !!.

ويحترم السريان الشيخوخة ، ويظل الجد – في الأسرة – هو مركز السُـــلطة فيها . والروابط الأسَرية قوية . ويقلد المسيحيون الهنود الجنوبيين ببعض خرافات وعادات جيرانهم الهندوس ، ولهم أيضا عاداتهم الخاصة بـــهم . ومـــن أهمـــها استعمال كتاب عنوانه : Palpustakam يتكون من ٤٩ مَثَـــل (حكمـــة) adages محفوظ في الكنائس، للاستعلام عن المستقبل فيما يختص بحالات الزواج . وبعـــد ترديد الصلاة الربانية (Pater) وقانون الإيمان (Credo) يرسم الكاهن الصليـــب، ويستدعِى شخصاً ما ، لاختيار العدد الذى لا يزيد عن الرقم السابق ذكره بعاليـــه، فإن العبارة التى تتفق مع الرقم المختار ، تدل على الحـــظ ، وتَقـــدِم النصيحـــة المطلوبة !

وفي الأيام السابقة، كانوا يستخدمون، في وقت المحنة :"**النار والمياه**"، وهـــو ما يشبه تقريباً المستعمل في المجتمع الإقطـــاعي، فـــي أوربـــا، فـــي العصـــور الوسطى، ولكى يُثبِت المتهم برَاءته، كان يقبض بيده على قطعة من حديد مُحمـــاة

بالنار ، أو يضع يديه في زيت مغلى. أو بالسباحة عارياً ، عبرّ النهر، في منطقة بها تماسيح !!.

وكل هذه العادات القديمة قد تغيرَت ، أو تتغيرّ بسرَعة ، في المجتمع الحديث ، بتقدُّم التعليم العام .

+ + +

• **التعليم والكتاب المقدس :**

ربما كانت أكبر لعنة للمسيحية الهندية ، في فجر التاريخ الحديث ، هى نقص التعليم ، وانتشار الخُرّافات . ولم يحاول البرتغاليون ولا الهولنديون بذل أية محاولة جادة ، لتغيير هذه الظروف البائسة .

وبالنسبة للكنائس ، كان جهل الكهنة (Katanars) ظاهرَة عامة . وكان يزيد منه استعمال اللغة السريانية – كلغة أجنبية – في القُداسات ، وقرَاءات الكتاب المقدس فى الكنيسة.

وكان أهم قرار اتخذه الإنجليزي Norton دعوة جمعية مُبشّرى الكنيسة للمساعدة في منطقة ترافانكور –كوشين ، لحاجتها الماسة لتعليم الزُعماء الدينيين اليعاقبة . كوسيلة وحيدة لفهم الإيمان المسيحى ، ولما وافق المطران ، أصَّر على تعليم الكهنة والشمامسة اللغتين السريانية واللغة المحلية (Malayalam).

وقد صار يوسف Fenn نشيطاً كمدرس ومُبشِر ، في المعهد اللاهوتى القديم، المُشيَّد سنة ١٨١٣م في Kottiam. وقد وافق مار ديونيسيوس على رسامة الكهنة من الخريجين الذين حصلوا على شهادات من المعهد. كما تم تقديم دَعم مالي لإنشاء كلية للتبشير سنة ١٨٣٨م ، وفتح مدرسة مسيحية. كما شُيدت مدرسة للبنات في Tiruvalla. وتعددت المدارس في كثير من الإيبارشيات، للتعليم الحديث .

وتم تطبيق النظام الإنجليزي. وكانت له نتائج باهرَة . كما أقيمت كلية ضمت مختلف الطوائف سنة ١٩٣٧م . وقام الكاثوليك في مَلَبار بإنشاء مدارس أخرى. وقامت جماعة الكرَمليت بإنشاء ١٦ مدرسة سنة ١٩٤٢م. كما أنشئت كلية جامعية، وبعد الحرب العالمية الثانية أُنشئت كليتان ، في أماكن أخرى .

ونهض اليعاقبة السريان بالتعليم أيضاً ، فأنشأ الكاثوليكوس معهداً ، بينما قام أتباع البطريرك (الانطاكى) بإنشاء معهد مماثل ، كما تم إنشاء أديرة للرهبان وللراهبات تحت إشراف مندوب البطريرك . كما اهتم بالإشراف على هيئة مدارس الأحد ، التي احتفلت بيوبيلها الفضي سنة ١٩٤٦م.

وأعد الكاثوليكوس أيضا مدارس أحد مشابهة ، وبذلك بلغت جملة التلاميذ في مدارس الأحد كلها نحو خمسين ألفا .

وبالنسبة للتعليم العام ، فقد نشط فيه اليعاقبة السريان. وأنشأوا العديد من المدارس ، مما قلل نسبة الأمية إلى ١٢,٢% ، وضمت الهند في وظائفها العُليا خريجي كل المدارس المسيحية .

كما تم طبع الكتاب المقدس باللغة المحلية (Malayalam) ، وإن كان كهنة الهنود المحافظين قد احتجوا على استخدام هذا الكتاب ، ليس في الكنائس فقط ، ولكن في البيوت الخاصة ، ولكن حالياً تغيَّر موقفهم . ويمتلك السريان على الأقل أربعة مطابع تطبع الكتاب المقدس باللغات المحلية والسريانية والإنجليزية ، وكذلك طباعة المواد الدينية، والدوريات المكرسة للطقوس والكُتب الكنسية .

كما عملت الكنيسة السريانية على نشر الإيمان بين الجماعات الهندية الوطنية، المطحونة والمنبوذة. وأُنشئت عدة مؤسسات تبشيرية لهذا الغرض. وإن كانت تُعاني من نقص الموارد المالية ، لكنها تنال دعماً من مؤسسات بالخارج .

+ + +

الإكليروس فى مَلَبار :

مسألة الكهنوت اليعقوبى – في مَلَبار– كانت بسيطة عبّر التاريخ . إذ كلما مات مطران ، يتولى مساعده الإرشيدياكون المسئوليات المدنية ، ويُرسِل إلى البطريرك (الانطاكى) لطلب رئيس أساقفة (مطران) جديد.

وحينئذ يقوم البطريرك باختيار من يخلفه. وعادة ما يكون راهباً سريانياً وطنياً . ثم يُرسله إلى مَلَبار ، فيستقبله الشعب بفرَح .

وكان يُرسِل أحياناً مُساعداً ، مع المطران الجديد . وفيما بعد كان يتم اختيار مساعد المطران هذا (Suffragan) من الكهنة الهنود البتوليين . وبينما يكون المطران الأجنبى (السِرياني) مُهتماً بالاحتياجات الروحية لقطيعه ، فإن الأمور المدنية تُوكل لوكيله الهندى ، وللأرشيدياكون . ومن أهم واجبات المطران رسامة الكهنة .

وقد تعددت الزيارات البطريركية لجنوب الهند ، في الجزء الأخير من القرن ١٩ ، وكانت لها نتائج هائلة على إدارة الكنيسة الهندية ورعايتها.وخلال زيارة البطريرك بطرس الثالث الانطاكي – عامى ١٨٧٥-١٨٧٦م– لملَبّار ، قام بتقسيم المِنطقة إلى ٧ إيبارشيات . ويكون أساقفتها مسئولين أمام البطريرك مباشرةً ، في مهامهم الروحية وغيرها ، دون وساطة المطران . ولكن البطريرك أغناطيوس عبد المسيح جاء إلى الهند سنة ١٩١٢ وأنشأ داراً للكاثوليكوس الشرقى (Catholicate) واضعاً بذلك الأساس القانونى للإدارة الذاتية للكنيسة السريانية اليعقوبية في كيرَالا ، وانتهت الخلافات السياسية بين أتباع البطريرك والتابعين للكاثوليكوس – والتى استمرت لمدة ٥٠ سنة– بعد صُلح سنة ١٩٥٨ .

ونظراً لأن الأساقفة يجب أن يكونوا من الرهبان ، ولعدم وجود مؤسسات ديريَة منتظمة ، فإنه يتم اختيار الأساقفة من طبقة الكهنة البتوليين (Rambans) الذين يعيشون مثل المتوحدين في عُزلَة . أما الكهنة العاديون فيتزوجون قبل

رسامتهم، وطبقاً للسائد في الكنيسة الشرقية. ولو أنهم فقدوا زوجاتهم بعد الرسامة، لا يمكنهم إعادة زواجهم .

وهم مثل اليعاقبة ، يتم ترقيتهم إلى رتبة Chorepiskopoi أو وكلاء ريفيين يقومون بواجبات الأساقفة ، دون أن يكونوا فى درجة أساقفة .

والكاهن (Katanar) مُوقّر للغاية في المجتمع الهندى ، رغم فقرة النسبى ويعتمد في معيشته على رسوم العماد والزواج ومراسم الموت ، والمساهمات الشعبية التى ترد له في الأعياد ، والاحتفالات بالقديسين . وفي الحياة العامة يسبق الكاهن كل العلمانيين ، ويكون في مقدمة المواكب ، وفي أرفع مكان في أى اجتماع ، ويَفتتح الولائم ، بعد تبريك الطعام بالصلاة.

وكقاعدة عامة ، يصحبه شماس ، وخادم في القرية ، ولكن ليس كذلك في المدينة . وكانت تُنسب تُهمَة الجهل للكهنوت اليعقوبى في الماضى ، ولكنها اختفت . وحاليا يحمل الكهنة مؤهلات لاهوتية من جامعات ومعاهد غربية .

ويستقر الكهنوت اليعقوبى في أماكن غير جنوب الهند ، لرعاية الشعب وخاصة في المدن الكبرى، مثل نيودلهى ، كلكتا ، بمباى ، مدرَاس . وأماكن أخرى. مما جعل من الضرورة للكنيسة أن تُقيم لها أماكن للعبادة في تلك البلاد، مع كهنتهم، أو تستعير كنائس انجليكانية لاجتماعاتهم. ويُرسَم أسقف عام بغرض رعاية هذا القطيع ، في هذه الشتات (diaspora) .

ونظراً للإختلافات الحادة بين المسيحيين الجنوبيين والشماليين ، وبسبب تشتُت الجنوبيين ، في عدة إيبارشيات ، فقد تقرر – بمرور عام ١٩٠٩– إنشاء إيبارشية إضافية في Knanaya . ولها أسقف متجول (itinerant)، لرَعاية هؤلاء المسيحيين المتناثرين في الولايات الهندية.

+ + +

الإيمان المسيحى وطقوس الكنيسة الهندية:

يؤمن المسيحيون السريان التابعون لمار توما في الهند بالتعـــاليم اليعقوبيـــة الإنطاكية (الأرثوذكسية).فيستعملون قانون الإيمان النيقوى -القسطنطينى بـــدون كلمة و"الإبن" (filioque)، ويرفضون مجمع خلقيدونيا (٤٥١م) ويقبلون قــرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى (oecumenical councils) فقط (مثل الكنيســة المصرية).

ويؤمنون بأسرار الكنيسة السبعة وهي: المعمودية، الميرون، الاعتراف، ســر الشكر، الكهنوت، الزواج، مسحة المرضى. ويمارسون التغطيس ثلاث مرات فــي ماء العماد.

وقداسهم هو الليتروجية القديمة للقديس يعقوب الرسول باللغة السريانية، مــع الإيمان بأن أم النور هي "والدة الإله"(Theotokos) والنص الكامل لتسبحة الثلاث تقديسات (trisagion) الشرقية ، ومن ضمنها العبارة المثــيرة للجــدل :" يــامن صُلِّبت عنا "، (التى يرفضها النساطرة).

ومع ذلك فلهم ملامح عديدة وواضحـــة، تُعطــى كنيســتهم لونــاً خاصــاً، وشخصية خاصة بها ، كما يلي:

ربما كانت أهم ملامح مسيحية ملَبَار ، أنها نُقلت - عـــبر القــرون - إلــى الذُرِّية، من خلال الصلاة والقداسات، وليس عن طريق اللاهوت والجدل الكتـابي، وكانوا يحتفلون بالليتورجيات المقدسة ويسمعون الكتاب المقدس مقروءاً لهم بلغــة أجنبية يعرفون عنها القليل .

ومن ناحية أخرى، فان كل المجتمع العلمــاني شــارك مــع رجــال الديــن المكرسين، في دراما الأفخارستيا المؤثرة !!. ففي القرى ، بدأ الشعب يتجمّع فــي

الكنائس أيام الآحـــاد قبـــل ظـــهور ضـــوء النـــهار، تـــاركين صنادلـــهم عنـــد الرواق(porch) الخارجي. ويمضي الرجال إلى الجانب الشـــمالي مـــن صحـــن الكنيسة (nave)، وتذهب النساء مغطاة الرءوس إلى الجانب الجنوبي، وبينما تبـــدأ صلوات التسبحة ورفع البخور، تكون الكنيسة قد امتلأت بالمؤمنين. وفي الكنيســـة الهندية، معظم الطقوس الشرقية، ويشارك فيها الشعب، بدور نشيط للغاية. وبدون مساهمتهم في الترانيم والمردات في القداسات ـــ ماعدا في الجنـــازات requiem ـــ تعتبر غير كاملة !!.

وبالنسبة للهندى الجنوبى، تعتبر الكنيسة هى مركز التعزية الروحية ومكـــان لقاء كل الأسرات، التى تعيش فى مكان مُعيَّـــن. والذهـــاب للكنيســـة فـــى كـــل المناسبات الممكنة أمر واجب، وبالنسبة للمسيحي الهندى أيضاً، تعتبر المســـيحية طريقة حياة كاملة للإنسان.

ولا يرتكز اهتمامه على الصيغ العقائدية، التي كانت سبباً فـــى الصراعـــات الدينية بين الشرق والغرب. بل كل هندي، يهتم أكثر بحياة التكريس والتعمُّق فـــى الفلسفة الباطنية للديانة. وهذه الصفة الخاصة بهم ربما تكون قد ساعدت فى فـــهم سبب تحوّل مسيحييّ القديس توما من النسطورية إلـــى الكاثوليكيـــة واليعقوبيـــة (الأرثوذكسية).

والكلمة السريانية "قربانة" (Qurbana) أى سر الشُكر(Eucharist)، وبالنسبة للذهن الهندى معناها الّحرفى، أى " تقدمة " ، وبأكثر تحديد "ذبيحة" (أو أُضحَيـــة) فى شكلها ومبدأها.

ويرى Brown أنها تقف فى مُحاذاة ذبائح الأسلاف الـــهندوس(١). وعـــلاوة على ذلك، فإن أعيادهم المسيحية تشبه الهندوسية. ومع ذلك تظل مسيحية صرُفه.

(1) Brown, Indian Christians of St. Thomas, P. 259.

وفى العيد، يتجمعَ القرويون فى الكنائس منذ منتصف الليلة السابقة. وهى تدل على بداية اليوم، حسب تقويم الكنيسة الهندية. وبعد ترنيم بعض الترَانيم، يخرج الشعب إلى الخارج فى موكب حول الكنيسة، حاملين صُلباناً،ومباخراً، وأعلاماً، ومظلات، ومحفات، كعلامة للطبقة الأرستقراطية. ويرفعون أصواتهم كإشارة لفرحهم، وأخيراً يمضى الجميع ليقفوا أسفل صليب حجرى كبير فى فناء الكنيسة، حيث يصلى الكاهن صلاة فى العرَاء ، ويُقدِم البخور لله ، قبل أن يقتفى الشعب أثرَه إلى داخل الكنيسة . ثم يشارك الكهنة معاً مع الشمامسة وشيوخ الكنيسة فى وليمة العيد مساءً .

وفى صباح اليوم التالى ، بعد الاحتفال بالقربان (القُداس) وتقديم عظة عن سِيرَة حياة القديس ، الذى يحتفلون بتذكاره، فى ذلك اليوم. يُقام موكب آخر. وتُقَدَم النقود فى وعاء أسفل الصليب ، وأحياناً يقدم الأعضاء فطيراً ، يأخذه الكهنة ، ويُعيدون توزيعَه على المُصلين ، بعد القُداس .

ويستخدم القُربان لسِر الشُكر من خبز مختمر. ويُسمح بوضع القليل من الزيت وبعض الملح ، في العجين . وفى الأيام القديمة عندما كانت الخمر الحقيقية غير معروفة (فى الهند) كان الهنود التابعين للقديس توما ينقعون الزيت فى ماء ، ويستخدمونه كبديل للخمر فى سر الشكر .

وتوقير الهنود السريان للصلَيب عظيم جداً. ومن مظاهر، ورمز ذلك التكريم، الصلبان الحجرية المُقامَة فى كل أفنية الكنائس . وتُزيَن منازل المسيحيين وورشهم – وحتى بعض أدواتهم – بعلامة الصليب ، كما أن أهم ما يُزيَّن داخل الكنيسة هو الصليب .

ويستخدم كل رجال الكهنوت صليباً فضياً صغيراً ، شرقَى الشكل. ويُعلَّق به منديل من الحرير ، عند مباركة الشعب (congregation) . ودائماً ما يَرسم الناس علامة الصليب ، فى صلواتهم الخاصة والعامة، وفى أوقات الحُزن!!.

وبالنسبة للصوم، فهم يُرَاعون تماماً نفس مايفعله أخوتـــهم اليعاقبـــة ، فـــى سوريا ، ولكن مع اختلاف فى درجة الانقطاع. والواقع أنه فى الأزمنة الحديثـــة أصبح الهندى المسيحي أقل نُسكاً عن أسلافه. ولكن بصفة عامة ، يرَى الـــهندى أن الصوم ضرورة دينية . وعلاوة على تجنُّب المنتجات الحيوانية ، لا يشـــربون التودى Toddy (وهو مشروب مُسكِر) ولا يمضغـــون أورَاق betel ، وهـــو المعادل للتدخين الحالى (مثل القات فى اليمن حالياً) . وقد تضايق الهنود ــ فـــى القرن ١٧ ــ عندما لاحظوا أن البرتغاليين يأكلون الأسماك ، خلال الصوم الكبير (Lent)!!. ولكى يزيلوا أى أثر حيوانى من طعامهم اليومى ــ فـــى الصـــوم ــ يسدون أماكنه بالجص ، ويغيّرون أدوات مطابخهم !!.

واعتاد أبناء الجيل القديم على الإفطار مرة واحدة بعـــد غـــروب الشـــمس. والأربعاء فى منتصف الصوم الكبير ، وكذلك اليـــوم الأربعيـــن مـــن الصـــوم، وخميس العهد ، هى ثلاث مناسبات ، يجتمع فيها المسيحيون عادةً ــ فى وجـــود كل أفراد العائلة ــ للإحتفال بتذكّار العشاء الأخير (سِر الشُكر) !!.

ويذكر براون أنهم كانوا يُعِدُون نوعاً معيناً من الخبز الأسمر، غير المختمـــر، وتوضع فى وسطه سعَفة نخل ، ويتم كسره إلى ١٣ قطعة ، ويقوم رئيس العائلـــة بتوزيعها على الموجودين ، مع مشروب خاص مُكوَّن من سائل جـــوز الـــهند ، والموَلاس (العسل الأسود) ونبات لسان الحَمَل ، بدلاً من الخمر !!.

وكان هناك نذوراً بالصوم لعام كامل ، ولكنها لم تكن عادة شـــائعة ، بينمـــا صام بعض القدماء الأتقياء طوال حياتهم (نباتيين)!! .

كما يلزم الصوم عن الطعام والشرَاب قبل التناول من السِر الأقدس. كمـــا أن الكاهن الذى يصلى القُداس يتجّنب الحديث إلى غير المسيحيين ، أو يركب عربـــة يقودها أحدهم !! ، والظاهر أنها من أفكار هندوسية. ولعدم حصول الدنس منـــهم

فى زَعمهم . ويترجّم مسيحيُّو القديس توما القيامة يوم الدينونة حرفياً ، **بقيامة الجسد من بين الأموات**. وعلى ذلك يكرَهون العادة الهندية والخاصة بحرق الأعضاء البشرية (cremation).

وقيل إن الشيوخ القُدامَى ، الذين سقطت إحدى أسنانهم يحافظون عليها بدقة، ليتم دفنها مع أجسادهم بعد موتهم ، لكيما إذا عادوا للحياة مرة أخرى – فى اليوم الأخير – يكون الجسد كاملاً !!.

وتتمشى الملابس الكهنوتية مع تلك التى لليعاقبة (السريان) ، ماعدا إحلال الأشياء الصغيرة والقليلة بتأثير روما والغرب. وخاصة تاج الأسقف الذى يجمع بين الشكلين الرومانى والسريانى . ويفترَض أن يمثِّل الكاهن ، المرتدى كل ملابس الخدمة ، ملاكاً بجناحين. وأما الأسقف فيشبه السيرَاف (الملاك) ذو الستة أجنحة. ويعتبر قرع الأجراس ، والضرب بالدف ، من العادات المُصاحِبة للترانيم بالكنيسة.

وتعتبر الكنيسة هى القلب النابض بالحياة الدينية والاجتماعية للشعب، منذ عهد بعيد . ويمتلئ ريف مَلبار بكنائس الإيبارشيات ، بعماراتها الكنسية الخاصة. وعند تأملها نجد أن داخلها يحمل نفس خصائص الأقسام فى الكنيسة اليعقوبية فى سوريا ، كالصحن ، والهيكل، ومكان الشمامسة المرتفع قليلاً والمحَاط بسور منخفض ، والمذبح المرتفع درجة أو إثنتين .

والخارج له صورة أخرى. والى الشرق نجد منارة مربعة بقمة هرَمية . وتُشيَّد الكنيسة فى وسط فناء واسع. ومثل المعابد الهندية ، هذا الفرَاغ له سور ، وأربعة مداخل. وباب الكنيسة نفسه دائماً فى الغرب. ويقود الى دهليز.وله باب آخر يوصل الى الصحن، وهو مثل صالة بدون أجنحة أو أعمدة. والسقف يرتفع أكثر فى الشرق، فوق الهيكل . والكنيسة كلها مُعتِمة الضوء ، وتُضاء بنوافذ قليلة وصغيرة ، ويعتمد الشعب بالضرورة على الشموع أثناء القُداس .

والكنائس السابقة على مجيء البرتغاليين إما من أحجار، أو من خشب، وهى نادرة . وذكر الكاردينال Tisserant أنه قد تم تحويل معبد بوذى إلى كنيسة مسيحية فى Travancore ، وكذلك تحوّل معبد إلى كنيسة يعقوبية فى Chengannur . وترجع للقرن ١٣ .

ولا يستعمل الهنود صِورَاً أو صُلباناً مصلوب عليها المسيح ، وإنما صليب بسيط ، والقليل من الأيقونات، أو رسوماً على الجدران . ويظهر التأثير البرتغالى أكثر فى بعض الكنائس دون غيرها .

وكانت تسود بعض الممارسات الخُرَافية ولكنها انتهت بانتشار التعليم الحديث، ومنها مثلاً السِحر والشعوَذة . ويعتقدون أن الأمراض النفسية من أرواح شيطانية ، ويقومون بحرق صليب من سعف. ويوضع رماده فى ماء يشربّه المريض يوم أحد السَعف . وكذلك قد يكتب الكاهن ورقة بالسريانية ويحرقها، ويُذاب ترابها فى المياه، ويشرَبها المريض. أو تعليق أحجبة على الذراع ، مُغلّفة بفضة أو بذهب !! . ولكن الإرساليات عملت على محوها.

هذا ويتم غسل أرجل الشعب بمعرفة الأساقفة الشرقيين ، يوم خميس العهد ، كما جزت عليه العادة فى كنيسةُ سوريا الأم.



الجزء السادس

الكنيسة المَارُونيَّة

مقدمة :

فى العصر الحاضر ، تُعتبَر الكنيسة المارونية (Maronite) أهم حصون الكاثوليكية الرومانية فى الشرق الأوسط . وتُشكِّل كتلة صُلبة من المسيحيين الرومان. ومعظمهم فى لبنان وسوريا.

وهى كنيسة عالية التنظيم ، وكهنتها يتكونون من رجال رفيعي المستوى التعليمى ، وعلى الأقل فى الدرجات الروحية الأعلى . وبمرور السنين زادت الصلة الروحية بين الموارنة وروما. وبدأوا يتطلعون نحو الغرب بدلاً من الشرق.

وأما متابعة تاريخهم ، وسط عائلة الكنائس الشرقية القديمة ، التى ليست هى رومانية ولا يونانية فى شخصياتها ، هى مجال للتساؤل !! فمع أن الكثير من كبار الموَارنة – بما فيهم عدد من كبار رجال الدين – قد كتبوا يؤكدون أن كنيستهم "لم تكن يوماً ما" ، خارج تبعية روما. لكن الحقائق التاريخية لا تدَع مجالاً للشك فى أن الكنيسة المارونية من أصول مسيحية شرقية نقية [1] .

---

(١) كتب البطريرك المارونى الدويهى (تاريخ الطائفة المارونية ، بيروت ١٨٩٠) مُدافِعاً عن تبعية الموَارنة لروما منذ العصور الأولى ، وكتب الكاهن المارونى ميخائيل غبريال عن تاريخ الموارنة (بعابدة،لبنان ١٩٠٤). والمطران يوسف Duryan (١٩١١) أكد طاعة الموارنة لروما ، منذ القرن ١٢م. وذكر رفائيل (Ohio,1946) أن تلاميذ القديس مارون ، مؤسس هذه الكنيسة ، كانوا مؤيدين لوجهة النظر الغربية فى مجمع خلقيدونية (٤٥١) ، ونفس الفِكر ذكره الأسقف المدعو الديب (باريس سنة ١٩٣٠م) وكذلك نفس الكلام ذكرَه المطران والمؤرخ السورى يوسف الِدبس فى مؤلفه عن الموارنة (بيروت ١٩٠٥) .

وكما سنرى فيما بعد ، أن تحوُّل الموارنة للكاثوليكية، قد بـدأ مـع مجـئ الصليبيين للمنفعة، وليس عن اقتناع. وحتى البعض من مؤرخى اللاتين ــ فـى روما ــ لم يُخفوا أن الموَارنة كانوا فى الأصل من أصحاب الطبيعـة الواحـدة Monophysite ثم آمنوا بالمشيئة الواحـدة (فـى عـهد الإمـبراطور زينـون) Monothelete ثم انضموا للكاثوليكية فى أواخر العصور الوسطى [1] ، أو فـى عصور أحدث .

ومع ذلك قد احتفظت الكنيسة المارونية بالكثير من الملامح التى تُعتبر فريـدة من نوعها فى تاريخ الكاثوليكية الرومانية . وأولها أنها نالت استقلالها المحلـى ، تحت قيادة البطريرك المارونى ، الذى ُينتخب محلياً ويُعتَمد من البابا الرومـانى. وفى المحل الثانى ، احتفظت بقُداسها السريانى القديم ، ولا يزال مسـتعملاً مـع بعض التعديلات المحدودة ، للتأكيد على تبعيتها للعاهل الرومانى .

وفى المحل الثالث ، لا يزال صغار الكهنة يتزوجون. وإن كانت هذه العـادة قد بدأت بالاختفاء حديثاً فى درجات الإكليروس العُليا ، وإذا تم سؤال أى عضـو، إن كان كاثوليكياً ؟! يكون ردّه أنه "**مارونياً**" .

وبدون شك ، فان الكنيسة المارونية نبعت من الجماعة السريانية الإنطاكيـة، التى أدت الحركة المسكونية الأخيرة لظهور الكنيسة الأرثوذكسـية الأنطاكيـة ، واليعقوبية ، أو الكنيسة السريانية الغربية ، والنسطورية أو الكنيسـة السـريانية الشرقية . وأخيراً الى ظهور المارونيين ، الذين يحمل بطريركهم – حتى اليـوم – لقب :" البطريرك المارونى لإنطاكية وسائر المشرق" .

ويُعتبر الموارنة إحدى الأقليات الهامة فى الشرق الأوسط. ونظراً لأنهم مـن أحفاد الفينيقيين ، فقد احتفظوا بأهم خصائصهم ، فهم يُولَدون تُجـاراً نـاجحين ،

---

(1) + Attwater, The Christian Churches of the East, vol.I , p. 165 et seq.
+ Janin , Les Eglishes Orientales (Paris,1926) p.552.

ومثلهم أيضاً ورثوا حبهم للمغامرة فيما وراء البحار ، ويُقال إن هناك نحو ١٠٠،٠٠٠ مارونى فى الأمريكتين ومصر وقبرص وغيرها . ويُشكِل الموارنة غالبية سكان لبنان ، ويسندون الكنيسة فى النواحى الدينية والسياسية .

وكان السكان اللبنانيون سنة ١٩١٣م، ٤١٤،٨٠٠ منهم ٣٢٩,٤٨٢ مسيحيون ويشملون منهم ٢٤٢,٣٠٨ مارونيون ، والباقى كانوا من الدروز والمسلمين من السنّة والشيعة ، والذين زادت نسبتهم فى لبنان لهجرة المسيحيين للخارج بكثرة .

وقد جعلت طبيعة البلد الجبلية حِصناً للكنيسة المارونية ، لان الموارنة يحبون الجبال ، وكانت سبب سلام لهم مع الدروز والشيعة ، الذين هربوا من مضطهديهم فى العصور الوسطى، وأيام الاحتلال التركى حديثاً . ويقع مقر بطريركية الأرمن – منذ قرون عديدة – فى Bkirki بين الجبال ووادى قادش.

وفى سلاسل جبال لبنان شيّد آباء هذه الكنيسة العديد من أديرتهم ، التى صارت قلاعاً للإيمان ، وحمتهم من الاضطهادات والغزوات المتتالية . وفيها احتفظوا بأنوار المعرفة من الانطفاء فى الظلام، عبر التاريخ الطويل .

+ + +

٢٤– الأصول والتطور :

القديس مارون (St.Maron) :

إن تاريخ المسيحية فى لبنان غامض لحدٍ ما ؛ وقيل إن القديس بطرس الرسول هو أول من بذّر بذور الأيمان الجديد بين الفينيقيين. وأنه ضمهم لبطريركية إنطاكية القديمة .

وهناك رواية أخرى إن أحد الأحبار الأوائل من كرسى روما ، كان من أصل لبنانى ، وهو القديس أنسيتوس (St.Anicetus) الذى صار بابا لروما نحو سنة ١٥٧م، ونال إكليل الشهادة بين عامَى ١٦١–١٦٨م، ونقل لبلده المسيحية.

ولكن اقدم تقليد لاشك فيه ، بأن المسيحية فى جبال لبنان ترجع للقرن الرابع، عندما صار القديس **مارون** (Maro=Maron) [٣٥٠ـ٤٣٣] راهباً ، واعتزَل فى وحدة على ضفاف نهر الأورَنت ، بين Apamea (Afamiyah) ومدينة حِمص (Emesa) . وقيل إن ٨٠٠ راهب جديد انضموا إليه ، وصار رئيساً لهم . وبدأ يُبشر بالإنجيل فى المناطق المحيطة به .

وشخصية هذا المسيحى العظيم – تعتمد فى معرفتها بدون شك – على مصادر أصلية مُعاصرَة له . وقد أشار إليه القديس يوحنا ذهبى الفم بأنه كان كاهناً متوحداً ، وذلك فى إحدى رسائله المؤرخة ٤٠٤م .

وقد أشار المؤرخ ثيؤدوريت (Theodoret) [نحو ٣٩٣ ــ ٤٨٥ ، أسقف Cyrrhus ، وأحد مواطنى إنطاكية] ، الى قداسته ، ولأعماله الصالحة . ويبدو أن هذا الكاتب كان يعرف جيدا بعض تلاميذ القديس مارون (ومن بينهم القديس يعقوب المتوحد ، والقديس limné ، وقديسة تُدعَى دميانة)[1] .

وبعد نياحته شيَّد، أتباعه كنيسة فوق قبره . وأقيم دير من حوله . وقد صار مركزاً للتبشير ، فى كل الاتجاهات. وكانت تُقدَم للدير الهبات الكثيرة والمستمرة. وقد عانى هذا الدير من الدمار الضخم ، خلال حرب الفُرس ، ولكن الإمبراطور جستنيان أعاد ترميمه ، كما فعل فى كل المبانى الكنسية ، فى كل الإمبراطورية البيزنطية .

ومن ملامح تاريخها – قبل مجئ العرب – ارتباطها بالإمبراطور البيزنطى هرقل، إذ أنه بعد هزيمته للفُرس ــ قبل مجئ الإسلام للشام ــ زار موقع دير الموارنة سنة ٦٢٨، ليناقش مع رهبان القديس مارون أفكارَه عن حل المشاكل المسيحية اللاهوتية. واستطاع هرقل أن يكسبهم إلى جانبه، فى المبدأ الذى نادى به مقدونيوس، والذى نوَى به أن يقضى على الانشقاق الناتج عن مجمع خلقيدونيا.

(1) Dib , Eglise Maronite , p.40.

وكان هذا هو مبدأ "المشيئة الواحدة" (Monotheletism) ، وعلى أساسه يظن إن مشيئتيّ المسيح،الإلهية والبشرية ، تُكوِّنان مشيئة واحدة وغير منقسمة . ولم ينجذب أصحاب الطبيعة الواحدة إلى هذا المبدأ الجديد . وفيما بعد حرَمته المجموعة الأرثوذكسية الغربية (الأوربية) باعتباره هرَطقة .

إلا أن السريان فى لبنان ظلوا متمسكين بمبدأ المشيئة الواحدة ، وانسلخوا تدريجياً من الأرثوذكس اليعاقبة . وبمرور الوقت ، صار مبدأ المشيئة الواحدة هو كل آمالهم الدينية !!.

وفى الواقع ، يتضح لنا أن هناك ظرفين حاسمين ، ساهما فى عملية تحرير كنيستهم من النفوذ الغربى . أحدهما عام، والآخر خاص:

أولاً: وضع الغزو العربى نهاية ، لاضطهادات المجموعات الهرطوقية المسيحية، المنبثقة من بيزنطة .

ثانياً: خلال العقد الأول من القرن الثامن ، قادت الخلافات الحادة الى نفى بطريرك إنطاكية الى مدينة القسطنطينية ، فأمكن للمسيحيين اللبنانيين انتخاب بطريركهم الوطنى ، الذى حمل لقب "**بطريرك إنطاكية والمشرق**" والذى يتمسَّك به حتى الوقت الحاضر .

وبذلك ، نرى الكنيسة المارونية ، لها شخصيتها الوطنية المستقلة من الناحيتين : السياسية والدينية (فى لبنان).

+ + +

- **القديس يوحنا مارون والموَارنة :**

لو كان قديس القرن الرابع "مارون" هو رسول المسيحية للبنانيين ، فإنه يمكن اعتبار القديس **يوحنا مارون** ــ فى القرنين السابع والثامن ــ هو الرسول الحقيقى للكنيسة المارونية، ومؤسس القومية السياسية والدينية المارونية .

ولا يوجد بالكاد مادة ولو محدودة ــ وأصلية معاصرة ــ لحياة هذا البطل الجديد ، ولكن أطرَاف سِيرَته تجمعت من كتابات ، من نهاية العصور الوسطى ، ربما استُمِدّت من سجلات قديمة ، اختفت في المذابح المتتالية ، ودمار مؤسسات الموارنة عبر القرون .

وكان رهبان دير القديس مارون القديم ، يتمركزون قريباً جداً من إنطاكية ، وهى مكان كرسى البطريركية ، لينعموا بالسلام ، حيث قاد يوحنا مارون قطيعَه إلى الجبال وقُرَاها طلبا للأمن . ثم صار بطريركهم المنتخب من عام ٦٨٥ــ٧٠٧ .

وخلال مدة رئاسته وقع الموارنة فريسة لكل من الإغريق (الروم) والعرب، الذين حاربوا بعضهم البعض باستمرار فى لبنان ، ولكنهما لم يُخلّيا الأرض من السكان .

وفى عام ٦٩٤م هاجم الروم دير القديس مارون ، وقتلوا نحو ٥٠٠ راهب مقيم هناك ، وفيما بعد ، أكمل العرب تدميره. ولم يجد القديس يوحنا مارون أمامه سوى وضع كرسيه وشعبه الجبلى فى وادى قادش الوعر. وهناك لم يتمكن أحد من اختراق مكانهم حتى مجئ الصليبيين .

وقد جعل الخليفة الأموى الأخير مروان الثانى (٧٤٤ــ٧٥٩) البطريرك الانطاكى Theophylactus ألعوبَة فى يده . وقد استخدم سلطة سيده ، فى مطاردة الموارنة المعاندين له ، بمساعدة عساكر المسلمين !!

وبحلول منتصف القرن العاشر ، نفترض أن دير القديس مارون ــ الذى كان مهد المسيحية المارونية – قد اختفى من الوجود كمنشأة دينية . ومع ذلك فإن المؤرخ والجغرافى والرحالة الشهير "المسعودى" يكتب سنة ٩٥٠ عن موضع الموارنة ، بأنهم كانوا يمتلكون ديراً ضخماً فى وادى الأورنت ، وكان به

ثلاثمائة قلاية رهبانية ، وله ثروة ضخمة من الذهب والفضة والجواهر . ثم يقول انه قد تدمر بيد العرب والخليفة العربى .

وعرف المسعودى أن الموارنة كانوا حينذاك من أصحاب مبدأ المشيئة الواحدة للمسيح ، وأنهم كانوا يختلفون عن الملكانيين والنساطرة واليعاقبة . وأنهم كانوا عديدين فى لبنان .

وإنه من الصعب تقديم سيرة تفصيلية للمسيحيين الموارنة ، أثناء الحُكم العربى ، قبل الصليبيين . ورغم أنهم شغلوا أماكن مُحصنَّة ، فى جبال لبنان ، فأنهم أيضاً اشتغلوا بالتجارة والملاحة . وقد قامت أعداد من المجتمعات السريانية بقيادة السفن للجيوش العربية والتجار فى البحار. وآخرون كانوا يعملون فى الإدارة وفى خدمة الخلفاء والسلاطين .

والبعض خدموا حتى فى القوات المسلحة. وكان كل من المسيحيين والمسلمين قد تعلموا كيف يعيشون جنباً إلى جنب ، تحت قيادة الخلفاء المتسامحين ، ماعدا فى مناسبات ، كان فيها وكلاء الخلفاء ــ دون الخلفاء ذاتهم ــ يُثيرون الناس ضد الموَارنة: للثورة بسبب الرغبة فى ابتزازهم.

وقد انتشرت الثورة اللبنانية فى ٧٥٩ــ٧٦٠ بمنطقة Monaitra الجبلية، الى سهول البقاع . وقد تشجع الجبليون ــ فى ثورتهم ــ بسبب الغارات المؤقتة للقوات البيزنطية فى المنطقة .

ثم هبط الموارنة من الجبال ، وعاشوا فى المدن اللبنانية الكُبرَى والقُرَى الصُغرَى . وتم تشييد العديد من الأديرة والكنائس بيد الإقطاعيين. وأصبحت لها دورها فى المجتمع . وامتد الموارنة خارج لبنان. فقد وجدهم الرحالة الألمانى Wirzburg فى أورشليم فى القرن الحادى عشر. وان كانوا قد سبقوا إلى الإقامة

فى جزيرة قبرص – منذ القرن التاسع – حيث بنوا لهم كنائس. وكان لهم دير هناك فى النصف الأول من القرن ١٢ .

وقد تصادق الموارنة مع نساطرة العراق وفارس ، مما أعطى لهم فرصة القيام بالتجارة معاً فى بغداد ، والمدن الشرقية فى الإمبراطورية العربية .

+ + +

الصليبيون وتحوُّل الموارنة للمذهب الرومانى :

خلال عصر الصليبيين ، تم وجود صلة مباشرة بين الموارنة والأمم الغربية، ومع كنيسة روما . ومثل الأرمن ، يبدو أن الموارنة قد رحبُّوا بالصليبيين ، كمشاركين لهم فى الدين ، ومساعدين لهم ضد بعض الحُكَّام المسلمين الذين كانوا ينهبونهم .

ومنذ بداية الحملات الصليبية ، يبدو أن الموارنة تعاونوا مع هؤلاء الغُزاة ، وكانوا يعرفون الممرات الجبلية والأودية والممرات الضيقَّة ، فى الأرض المقدسة. وكنتيجة لذلك صاروا مرشدين نافعين للحَملة الأولى ؛ وبعد ذلك استخدم الصليبيون الرُمَاة الموارنة ، كقوات مساعدة الى جانبهم .

ونتج عن الزواج بين الأجانب الغربيين – الذين استقروا فى لبنان – وبين المسيحيين الوطنيين، جنس جديد مختلط عُرِف باسم "Pullani" ، فى تاريخ الحروب المقدسة.ومعظم هؤلاء قد اندمجوا بالضرورة فى الشعب اللبنانى . وسكنت أعداد كبيرة من الموارنة فى منطقة طرابلس ، وبدأ كهنتهم يُقلِدون اللاتين ويستخدمون أموراً لم تكن معروفة فى الكنائس الشرقية ، ومنها ارتداء التاج (mitre) والعِصَابة. وحضَر العديد من الموارنة ــ بإرادتهم ــ الصلوات فى كنائس الصليبيين اللاتين. وفى عام ١١٨٢م ، يخبرنا مؤرخ الحرب المقدسة،

رئيس الأساقفة وليم الصوريانى (Tire) : "أنه بإلهام إلهي ، هبط نحـو ٤٠ ألفـاً من الموارنة من الجبال ، لنبذ هرطقتهم القديمة عن المشيئة الواحـدة للمسـيح ، وليقدّموا الطاعة للحَبر الرومانى فى حضور أمـورى (Amaury) ، البطريـرك اللاتينى لإنطاكية " . ولو اعتبرنا أن كل هؤلاء من الرجال فقط – كما هو متوقـع فى الأحوال الاجتماعية فى المشرق فى تلك الأيام – فربما يكـون المنضمـون للكاثوليكية ـــ من الموارنة ـــ أكثر من مائة ألف ، فى القرن ١٢م مـن الرجـال والنساء والأطفال .

وكتب سائح ألمانى دومنيكانى ، ويُدعى Wilhelm ، أنه فى عـام ١٣٣٦م، بعد القضاء على النفوذ اللاتينى فـى الأرض المقدسـة ، وصلتّـه تـأكيدات أن الموارنة سيحاربون مع المسيحيين الغربيين ـــ فى الحَملة الصليبية التالية – ضـد المماليك[1] .

وكان فتح الطريق لروما ، عن طريق الصليبيين، قد أكده الأب المـارونى ـــ وأول مؤرخ مارونى حقيقى – جبرائيل بن القلاى (المتوفى سنة ١٥١٦م) ، والـذى سجل أنه حدث تبادل ١٥ رسـالة بيـن بـابوات رومـا ، وبطريركيـة لبنـان (الموارنة).

ونلاحظ أنه منذ تحوُّل الموارنة للكاثوليكية ، أن الرومان قد عملـوا بنشـاط بينهم . وقد تم إقناع البطريرك إرميا الأمشيطى ، للذهاب الى رومـا شـخصياً ، لحضور مجمع لاتيرَان سنة ١٢١٥م . وفى طريق عودته إلى لبنان ، أرسل معـه البابا إنوسنت الثالث مندوباً بابوياً ، ليأخذ من شعب الموارنة توقيعاً بإعلان عـام بقبول العقيدة والطقوس الكاثوليكية .

---

(1) Atiya , The Crusades in the Later Middle Ages (London 1938) p.161.
Cfr. Runciman , History of the Crusades , 3 vols. (Cambridge . 1951-4).

وعلاوة على ذلك ، جاء مبشرون من الفرنسيسكان والدومنيكان الى لبنـان . وتبعتهم أخيراً أعداد من جماعة اليسوعيين ، المؤسسة حديثـاً . وتمـت دعـوة الطلبة الموارنة ، للدراسة فى الفاتيكان . وفى عام ١٥٨٤م دشن البابا جريجورى (١٣) كلية للموارنة، لاستقبالهم فى روما . ومن أشـهر خريّجيـها Assemani (يوسف السمعانى :١٦٨٧م ــ ١٧٦٨م) وكان أصلاً من مواطنى لبنان ، وكـانت له دراسات شرقية هامة. وقدم للفاتيكان مخطوطات كثيرة بالسـريانية والعربيـة والعبرية والفارسية والتركية والإثيوبية ، أثناء دراسته عـن الكنـائس الشـرقية هناك.

مع كثرة مؤلفات الكتّاب المارونيين ، فإن من الخطأ اعتبار تحويلـهم إلـى المذهب الكاثوليكى قد اكتمل فى العصور الوسطى ؛ علما بـأن معظـم الشـعب المارونى لم يقبلوا الصلاة بقَداس كاثوليكى الطقوس ، بل استمروا فـى العبـادة بالسريانية ،وحسب تقاليدهم القديمة .

ثم أن إعادة الاستيلاء على الأرض المقدسة ، الذى تم سنة ١٢٩١ ، بسـقوط عكا فى آيدى سلاطين المماليك ، لابُد أن نتائجه قد خدمت العلاقات بيـن رومـا والموارنة . ولم نعد نسمع عن إرساليات لاتينية موسمية إلى لبنان ، مثـل تلـك التى جاء بها الفرينسيسكانى Lewis de Ripario الذى أوفَـده البابـا Calixtus الرابع فى عام ١٤٧٥م ،والذى مضى إلى البطريرك المارونى بهدايا من الصلبان الخاصة بالمواكب والرعاية والتيجان .

لكن الرابطة مع روما كانت واهية. وحتى مبدأ المشيئة الواحدة ظل موجـوداً فى القرن ١٥م ، ولكن فى عام ١٤٤٥م تخلّى فقـط إيليـاس رئيـس الأسـاقفة (مطران) قبرص وشعبه المارونى عن تلك الهرطقة .

والظاهر أن الموارنــــة اشــتركوا فــى مجمــع فلورنســا (١٤٣٩م) بــأخ فرنسيسكانى يُدعى يوحنا من بيروت. وقد سلَّم رسائل بطريركية إلى البابا يوجين الرابع (١٤٣١ــ ١٤٤٧م) مُؤكداً له على تبعيَّة الموارنـــــة لرومـــا . ويبـــدو أن ظروف التغيرّات الدبلوماسية فى وقت مجمع فلورنسا ـــ وما بعده ـــ قد أدت إلـى الشك فى دور الحاكم المسلم،والذى أدى إلى ذلك التحوّل . فقد أمر جنوده بالـهجوم على دير Meifuq وحرّقه . وكان يُقيم به البطريرك المارونى !!.

وقد تم قتل كثيرين. وهرَب البطريرك للإحتماء بمرتفعات وادى قادش ســنة ١٤٤٠م ، حيث أقام كرسيه فى دير Qannubin . ولا يزال مُستعملاً حتــى الآن. ولم يطرأ أى استقرار على الموارنة تحت رعايـــة رومـــا ، حتــى القــرن ١٦، أو ربما حتى القرن ١٧ .

وبعد مجمع لاتـــيرّان الخـــامس (١٥١٢ــ١٥١٧م) لــم تنقطــع الصـــلات المباشرة بين الموارنة والبابا ، عندما يتولى كرسيه الجديد . ومعها رسائل تؤكــد الخضوع للعاهل الرومانى. وكان يتم الموافقة عليها ، كما تســـجلّه الحوليــات ، التى سجلها "**الدويهى**" فى تاريخه ، على الرغم من أنه ـــ بصفة عامة ـــ كـــانت كل الكنيسة المارونية مرتبطة بوفاء تام ، بممارساتها وبتقاليدها الشرقية .

وتعددت البعثات التعليمية للكلية المارونية فى رومـــا. ومـــن أول خريجّـــها – على سبيل المثال – **جرمانوس فرَحات** ، الذى صار مطراناً لحلــب (١٦٧٠ – ١٧٣٢م) وأسس نظام الرهبنة المارونية الأنطونية الحلبية فـــى Ehden،ومـــن العلماء ذوى الشُهرَة كاسيرى (Casiri) ، وهو من أهل طرابلس واسمه العربـــى ميخائيل الغزيرى (١٧١٠ــ١٧٩١م). وتعلَّم فى روما ، وصـــار أمينـــاً لمكتبــة Escorial الشهيرة فى أسبانيا ، وقام بفهرَسة ١٨٠٠ مخطوط عربى .

وقد شارك كل من Assemani ، Casiri فى مجمع لبنانى مشهور ، انعقد فى سنة ١٧٣٦م بدير سيدة اللوَّيزة على نهر الكلب. وكانت له فائدة حاسمة فى العلاقات المارونية ــ الرومانية، ونظام الكنيسة . واجتمع فيه ١٣ أسقفاً مارونياً. وفيه تم قبول رأى الكاثوليك فى إضافة عبارة "**والابن**" (Filioque) لقانون الإيمان النيقوى !!.وكتاب **التعليم اللاتينى** (Catechism ، على هيئة سؤال وجواب ، وهى طريقة العهد الرسولى).

كما وافق المجمع على إضافة اسم البابا فى الليتورجيات السريانية. وتم تنظيم الرهبنة على أسس حازمة ، ومنع إقامة الرهبان والراهبات فى نفس الأديرة. وقصر الزواج على الدرجات الكهنوتية الدُنيا . ومراجعة قانون الأحوال الشخصية، وإدخال أمور تنظيمية للزواج، والميراث .

ولم يتم تنفيذ القرارات بسبب خلافات مُحزنة بين رجال الدين الموارنة ؛ وعلى الصرُاع على كرسى البطريركية بين سمعان عوض مطران دمشق سنة ١٧١٦م ، وطوب الخازن مطران حلب. وحسم البابا بندكت الموضوع لحساب الثانى .

وقد عُقِدت عدة مجامع متتالية لدراسة واعتماد القرارات السابقة. وآخرها مجمع غُسطا (Ghosta) سنة ١٧٦٨ فى عهد حبرية يوسف استفان ، إلا أن هذا المجمع تخبَّط فى الظلام بسبب ميل البطريرك إلى آراء راهبة منحرفة لاهوتياً ــ من راهبات القلب المقدس ــ ادعت الرؤى المقدسة ، وأعُجِب بها العامَّة !! فتم إيقاف البطريرك. وقَدِمَ لروما لسؤاله عن أخطائِه .

والفوضى التى وُجِد لبنان مُنغمِساً فيها ، مع الاضطهادات التى لم تتوقف للمسيحيين، انعكست على الكنيسة والبطريركية المارونية. وفى أيام البطريرك بولس مبارك مسعد (١٨٥٤ ــ ١٨٩٠م) زادت درجة الاتجاه نحو المبادئ

الروحية والتقاليد الشرقية . وكان طالباً فى كلية روما ، وأجاد اللاتينية والإيطالية بالإضافة إلى السريانية والعربية.

وقد عقد مجمعاً فى Bkirki سنة ١٨٥٦م بناءً على توصية من الكرسى الرسولى. ولكنه فضّل أن يرسل أربعة أساقفة من الموارنة لحضور مجمع الفاتيكان ــ بدون الذهاب بنفسه ــ خوفاً من ضغوط الحَبر الرومانى عليه، للتخلىّ عن امتيازاته المحلية التاريخية . وكتب مقالات لاهوتية عديدة، كما أكمل التاريخ الذى كتبه الدويهى .

ورغم شدة ارتباط الموارنة بروما ، لكن هذه الكنيسة استمرت فى ممارسة طقوس وعادات شرقية عديدة ، واستقر البطاركة الموارنة فى كانوبين فى الشتاء، وفى بكرّكى فى الصيف . وهو الجارى حتى الآن.

ونلاحظ أن الكهنة الموارنة يرغبون فى الارتباط بالعاهل الرومانى، مع التقيد بتقاليد آباء الكنيسة القديمة، كما هو الجارى فى الكنائس الشرقية. واحتفظوا باللغة السريانية، ولا يتخلّون عن استعمالها فى قُداساتهم، لأنها لغة أجدادهم، رغم أنهم أَدمجوا أجزاءً صغيرة فى القُداس، لتُوافِق الطقوس الكاثوليكية .

وقيل إنه حتى القرن السابع عشر (أو فى رأى البعض الثامن عشر) إن الموارنة كانوا يتكلمون اللغة السريانية ، فى مجتمعاتهم الجبلية بلبنان .

+ + +

التاريخ الحديث للموارنة :

• الموارنة و الدروز : (مذابح الستينيات)

إن تاريخ لبنان فى العصور الحديثة هو فى معظمه يتعلّق بالموارنة والدروز. وبينما يزكز الموارنة ــ بدرجة كبيرة ــ فى الأقاليم اللبنانية الجبلية

الشمالية ، فقد اختار الدروز المرتفعات الشمالية فى حـوران ، حيث عاشوا حياتهم الغريبة والخاصة، فى انعزالٍ وغموض. كما أن العنصرين يتفرَقان أيضاً فى العديد من المناطق اللبنانية.

ومن الصعب معرفة الشيعة الدرزية . ونحاول أن نعرف شيئاً عن طبيعتهم، لكى يساهم ذلك فى فهم مكانتهم وسط المسلمين والموارنة . وطبقاً لأسطورة من القرن ١٧م ، ويُقال إن الدروز من نسل Godefroy de Bouillon الذى جاء مع أول حملة صليبيه . ولكن تم نقد هذا الرأى . فإن أصول الدروز ترجع إلى الخليفة الفاطمى **الحاكم بأمر الله** (٩٩٦ـ١٠٢١م) الذى زَعم مؤيده محمد بن إسماعيل الدُرزّى أنه : تجسَّد فى شكل بشرى للذات الإلهية[١]. (human incarnation of deity) ورغم أن الدُرزى قد تم قتله سنة ١٠١٩م ، فقد وجد مَبدأه طريقَه للإنتشار ،عن طريق عالِم فارسى اسمه : Hamzal Zuzani .

وهو الذى نظّم هذا المذهب بأن جعله مذهباً باطنياً (سرياً) **esoteric** . وكان نشره فى سوريا من مجهود تلميذ آخر ، قيل إنه مسيحى، من أصل سورى، وأسمه بهاء الدين (المتوفى بعد سنة ١٠٤٢م) وكان عمله هذا قبل عقود قليلة من مجئ الصليبيين للشام. وقبرُه لا يزال معروفاً فى أبية بلبنان، ويزوره أتباعه !! .

ويزعمون أن الديانة الدُرزية تتكشف للْعقَلاء وللْعلماء ، وتَخفَّى عن الجُهَلاء، وأن الحُكماء (sages) الذين يبلغون درجة ممتازة فى التقوَى ، يكونون فى كمال القداسة . وإن كبار رجال الدين الدروز يعيشون فى بتولية ، ويختلون مساء الجمعة، للعبادة فى خَلَّوَات . ولا يعتقدون بموت الحاكم بأمر الله

---

(١) قيل إن كلمة "دُوزى" من: "ترزى" ، وقيل أنها طائفة شيعة إسماعيلية شيعية. وأن الإمام إسماعيل (مات سنة ٧٦٠) هومؤسس هذه العقيدة، فى القرن الثامن !!. **[هامش أصلى]**.

(الفاطمى). وأنه سيظهر فى الموعِد المحدد ، كما تُنادِى بـــه نظريـــة "المـــهدى المنتظر" (لدى الشيعة).

وطبقاً لرأى بهاء الدين ، فإن هذه الديانة ـــ من الناحية النظريـــة ـــ دائـــرة مغلقة ، لا تسمح بخروج المؤمنين منها ، ولا قبول لأحد مـــن خارجـــها . مـــع الطاعة العمياء لقادة مجتمعها ، ونظامها الأخلاقى صارم. وكل واحـــد مُطـَـالب بالدفاع عن كل عضو فى العشيرَة . وأن الصالحين سيُعاد ميلادهم بعد موتـــهم ، فى أشكال بشرية. وسيعود الأشرار للدنيا ، فى شكل كلاب !!.

وقد أعطتهم وحدتهم قوة كُبرَى. وقد ثَبَت أنهم فى موُدّه مع الموارنة. وغالبـا ما يشتركون فى احتفالاتهم الدينية ، ويحترمون الكنائس المسيحية !! .

وكان الموارنة يحترمون أُمرَاء الدروز ، مثل فخر الدين الثانى من معـــان. وقد امتد نفوذه من إنطاكية إلى صفد فى فلسطين ، بيـــن ســـنة ١٥٩٠م وســـنة ١٦٣٥م .

ومن ناحية أخرى ، هناك حالات للتحوُّل من الدُرزية الى المارونية ، ومـــن أمثلتها عائلة الشهابى الكُبْرَى ، التى ظلت تتردّد بين الإيمانين إلـــى أن انضمـــتّ للمعسكر المارونى المسيحى . وكذلك أُسرَات أخرى محلية تبعت مثالـــها، ومـــن أشهرها دار Bellama.

وفى وسط صورة لبنان الحديثة ، فإن حُكم الأمير بشير الثـــانى، الشـــهابى الكبير (١٧٨٨ ـــ١٨٤٠م) كان عامل استقرار. وفى طليعة تحدّيث لبنان . وقـــد حارب معركة تحرير لبنان ببرُاعة . وقد تم نفيه أربع مرات مـــن وطنـــه. وقـــد عَمِل على طرد عُملاء السلطان التركى. وتأثر بعُمق بإصلاحات محمد على فـــى مصر ، وحاول تطبيق نفس الطرق الحديثة والمتقدمة فى لبنان، وأرسل الشـــباب الواعد لدراسة الطب فى مدرسة قصر العينى، المنُشَأة حديثاً فى القاهرة. وكـــان مقر إقامته الجبلى الرائع ـــ المسمىَ "بيت الدين" ـــ قد تم بناؤه بعمـــارة جميلـــة

وتزيينه بديكور فنى ، وله خزان مياه لاستقبالها من قمم الجبال الثلجية ، مما يدل على عِظَم خيالِه، وقوة شخصيته .

وقد وصفه المؤرخ اللبنانى فيليب "حتّى" (Hitti) بأنه "مسيحى بالعماد ، مُسلم بالزواج ، درزى بالعادة ، وليس بالإقتناع ، وبشير - حسب تقليد عائلته وسابقُه - كان يتبع سياسة دينية ليبرالية (متحررة) ومستنيرة" .

وقد استراحت الكنيسة المارونية فى عهده ، ومال الدروز للإكليروس المارونى ، لذلك عاشوا فى سلام تام وتناغم مع جيرانهم الدروز . وفى بيت الدين ، شيَّد بشير كنيسة بجوارها جامع للمسلمين ، وشجع التعليم بدون تحفُّظ ، وتحوّل المعهد الدينى المارونى المتواضع إلى كلية فى "عين ورقة" ، ومن خريّجيها يوسف الدبس (١٨٣٣ـ ١٩٠٧م) مطران بيروت ، وأحد كبار مؤرخى سوريا ، وقد شيّد "مدرسة الحكمة" سنة ١٨٧٤م على النظام الغربى ، فى إيبارشيته .

وما خلَّفه حُكم بشير من آثار فى لبنان ، فهو ــ أولاً ــ فتح البلاد للنفوذ الأجنبى ، وثانياً ، ساعد على تقوّية رابطة السلام بين الموارنة والدروز .

وكان تحالف بشير مع محمد على فى مصر ، وحملاته الحربية المشتركة مع أبنه إبراهيم باشا ضد الأتراك فى سوريا ــ فى الثلاثينيات من القرن ١٩ ــ قد ساهمت فى تدُخل إنجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا فى لبنان .

أما بالنسبة للتعاون المشترك بين الدروز والموارنة ــ فى عهد بشير الشهابى ــ فإنه للأسف كان قصير الحياة . فقد كان هناك عاملان هامان ، أسهمّا فى قطع العلاقة بين أعضاء المجتمعين المتجاورين . **وأولهما** : أن اختفاء بشير، خلال آخر نفى له من البلاد ، وموته بالخارج سنة ١٨٥٠م ، قد ترك فراغاً فى القوة. وعانى لبنان من اضطراب تام، وعمل الولاة الأتراك - بكل ما لديهم من قوة - لتشجيع هذه الفوضى .

وثانياً ، أصدر البابا العالى فى القسطنطينية فرماناً يـأمر فيـه المواطنيـن اللبنانيين لتسليم كل أسلحتهم للسلطات ، كأمر ضرورى ، لإعادة الاستقرار ، بعد انسحاب إبراهيم باشا والقوات المصرية من على أرض سوريا . وما حدث فـي الواقع أن الأتراك قد نفذُّوا هذا الأمر حرفياً بالنسبة للمسيحيين ، وتجاهلوا تنفيـذه على السكان المسلمين. ومع أن هذا التصرُّف كان ضاراً بالموارنة ، إلا أنـه زاد منه أن الأتراك سلحوُّا المسلمين ، بصفة عامة ، والدروز بصفة خاصة .

وهذا التفضيل كان مصحوباً بسياسة ثابتة لبذر بذور الانقسام بين المسـيحيين وغير المسيحيين. والتى كانت من الأمور المُفجعة فى حينه .

وفى نفس الوقت، كانت السياسة الداخلية للموارنة وكنيستهم غير مُرْضيـة . فقد سادت الكراهية وسط الأرستقراطية الإقطاعية المارونية ، وحدثت تغـيرات اجتماعية كبيرة .

فقد قام اللبنانيون بالتخلُّص من نير الإقطاع ، وانضم صغـار الكهنـة إلـى الطبقات الفقيرة ، بينما كان كبار رجال الإكليروس فى صف الإقطاعيين ، بينمـا اهتم الأتراك بإثارة المشكلة . وأما الدروز الذين أضعفهم إبراهيم باشا قد بـدأوا فى الاشتداد من جديد . وكان الأمر ينذر بالسوء . ولم يفعل الموارنة شيئاً لتجنب الصدامات مع جيرانهم الدروز الثائرين ، لاسيما وأن قُرَاهم كانت مُتداخلة معاً .

وكانت قرية دير القمر المسيحية ، ومبوطن كميل شمعون ، آخـر رئيـس للجمهورية اللبنانية (فى زمان الكاتب) قد تعَرضت للحرق والتدمّير، بيد عشـائر الدروز المتحدة معاً سنة ١٨٤١م ؛ كنتيجة لصيد طائر الحجل الدرزى. وصـرّاع عائلى تالٍ .

وفى عام ١٨٤٢م ، تم طرد آخر حاكم من عائلة الشهابى. وأحلّ السـلطان العثمانى محله عُمر باشا النمساوى، الذى صار مسلماً. وشغل بيت الدين فى قلب

لبنان ، وقد جلب الشقاء للمنطقة ، في نفس الوقت.إذ قسَّم لبنان إلى منطقتين لهما حاكمان : الشمالية حاكمها مسيحى ، والجنوبية حاكمها دُرزِى.

وهذا النظام لم يكن عملياً ،إذ قاد للمتاعب ؛ لأن دروز الجنوب كان بينهم ١٨,٠٠٠ من الموَارنة ، وأكثر منهم من الدروز فى منطقة المسيحيين شمالاً.

وفى عام ١٨٤٥م بدأ كلٍ من المسيحيين والدروز حرق قرى الطرَف الآخر، وانتهت بثورة عارمة ومذابح كاسحة سنة ١٨٦٠م وسُميت "مذابح الستينيات" . واستمر الهياج من أبريل حتى يوليو من نفس السنة. ودب الرُعب فى القُرى المسيحية غير المُسلّحة . وهلَك فيها إثنى عشر ألف مسيحى. وبلغت الخسائر نحو ٤ مليون جنية إسترلينى .

ولم تَسْلم المنشآت الدينية المسيحية من التدمير. وصارت كومة تراب . وهرَب البعض ، بينما تم قتل الآخرين بالنيران. ووصلت نيران الثورة الى دمشق . وتم الهجوم التركى على الأغنياء المسيحيين فى الحىَّ الخاص بهم ، فى العاصمة السورية . وقيل إن إحدى عشر ألفاً قد فَقَدوا أرواحَهم . وقام فارس يُدعى "عبد القادر" – وهو لاجئ جزائرى من الحُكم الفرنسى فى شمال أفريقية – بإنقاذ باقى المواطنين المسيحيين .

وقد بلغت جملة اللاجئين ، مائة ألف نسمة من لبنان ، والمدن السورية المجاورة . وقد اعتُبِروا بلا مأوى. وبدَت عليهم علامات الجوع والمرَض !!.

وأخيراً استيقظ ضمير العالم الغربى، وتولّت فرنسا المبادرة بالدعوة لتدخُّل القُوَى الأخرى، لإنهاء هذه المأساة، دون انتظار لنتائج المفاوضات، لعمل جماعى. فهبطت حملة فرنسية على شواطئ لبنان،لاسترداد النظام وإعادة الأمن. وعيَّن الباب العالى وزير خارجيته فؤاد باشا ، للإشتراك مع القُوَى الأجنبية، لاستقرار الوضع ، ومُعاقبة المُجرمين .

وتم إعدام نحو ١١١ جندى رمياً بالرصاص ، وشنْق القليل من المدنيين ، وسجْن غيرهم ، أو طردهم من البلاد . وفُرِضَت غرامة على الدروز قدرها مليون وربع جنية للخزانة التركية .

وفى العام التالى ، تم إعلان دستور جديد للبنان ، وإعطاء الحُكم الذاتى تحت قيادة حاكم مسيحى (مُتصرِّف) ، اختاره السلطان لمدة خمس سنوات . ويساعده مجلس من ١٢ عضواً ، يُنتخَب من مختلف الطوائف الدينية ، ويشمل خمسة من المسيحيين . وبذلك عادت الوحدة للبنان ، وصار البطريرك المارونى أقوَى شخصية ، ليس فقط فى الكنيسة ، ولكن أيضاً وسط شعبه ، وجرَت إصلاحات اجتماعية وسياسية ودينية ، حتى بداية القرن العشرين .

+ + +

- **الكنيسة المارونية والاستقلال والوطنية :**

ظل الدستور الجديد ، حتى السنوات المصيرية للحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) . وخلال ذلك الوقت ، هبَّت موجة من العطف على مسيحيِّى الشرق الأوسط ، وبالذات المارونيين في سوريا ، من الكثير من دول الغرب، وخاصة من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية،كنتيجة لمذابح الستينيات والأحدَاث التالية.

وقد جاء الرواد البروتستانت سنة ١٨١٩ من بوستن الى سوريا ولبنان . ووجدوا المنطقة فى فقر شديد وجهل ومرض وخُرَافات ، تحت نير الحُكم التُركى. كما جاء المُبشرَان إسحق بيرد ، وجودل (Goodell) إلى بيروت سنة ١٨٢٣م وقامَا مع غيرهم بأعمال الخير، وعلاج المرضى، والتبشير الإنجيلى .

كما تم إنشاء الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وهى أول جامعة حديثة فى الشرق الأوسط ، وساعدت على تمدُّين لبنان . وقَبلت كل الطلبة من المسلمين والمسيحيين واليهود والسود والبيض .

كما قامت المؤسسات الكاثوليكية بإنشاء معاهد لاهوتية للمارونيين،ومنها معهد للچيزويت فى غَزير (Ghazir) سنة ١٨٤٦م ثم انتقل إلى بيروت.وأصبح أساس الجامعة الفرنسية للچيزويت (سان چوزيف) سنة ١٨٧٥م ، كما أُنشئت مدارس وملاجئ وجمعيات خيرية ومؤسسات ديرية للرجال والنساء ، وكانت أدوات فعالّة للعلوم الغربية . وفجأة انتقلت لبنان من جهل العصور الوسطى إلى نور الحضارة الحديثة ، وتحسنّت أوضَاع الكنيسة هناك .

كما كان تأثير الإكليروس على الحركة الوطنية الحديثة – فى سنواتها الأولى – هائلاً أيضاً ، نظراً لأن المسيحيين اللبنانيين، قد ربطوا استقلال وطنهم بالكنيسة المارونية .

وكانت الأحزان التى عانى منها لبنان على أيدى القادة الأتراك ، فى سنوات الحرب ، قد ثبت أنها كانت أخطر من أهوال مجازر الستينيات . وقد تم قتل ١٠٠,٠٠٠ نسمة من جملة السكان البالغين ٤٥٠،٠٠٠ فقط .

وقد تم إخلاء الأديرة فى النقاط الجبلية الإستراتيجية من رهبانها وتحوّلت الى قلاع حربية . وكان من بينها أديرة القديس إشعياء ، ويوحنا . وتم إخلاء قُرَىً كاملة من سُكانها .

وتم نفى الأسقف المارونى فى بيروت . ثم استشهد فى أناطوليا ، وتظاهر البطريرك بالمرَض، وأرسل بديلاً له لاستلام فرمان سلطانى فى بيروت .

وقد تم الشك فى ولاء بعض المسيحيين والمسلمين الوطنيين للأتراك. وفى يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦م تم إعدام ١٤ ضحية فى بيروت ، وسبعة آخرين فى دمشق،بزعم ميلهم للعرب والفرنسيين . وقد انتهت فظائع العثمانيين بمقدم الجنرال اللنبى مع القوات المتحالفة ، والقوات العربية بقيادة ابن الشريف حسين (الملك فيصل الأول فى المستقبل) فى سبتمبر سنة ١٩١٨م .

وأما الأحداث التى تلت إعلان ولسُن لمبدأ الاستقلال الذاتـــى فـــى مؤتمـــر السلام بفَرساى ، وفرض الانتداب الفرنسى علـــى لبنـــان ، والإنجلـــيزى علـــى فلسطين. والكفاح الذى قاد إلى استقلال لبنان ، فى ٢٣ مايو سنة ١٩٢٦م ، كانت لها أهمية كبْرَى فى حوليات لبنان ، والشرق الأوسط .

وخلال هذه الثورَات الوَطنية ، كانت الكنيسة هى أهم عامل ، ونفوذها علـــى مجرَى الأحداث كان تاريخياً ، وأن البطريرك المارونى فى ذلك الحين – بطرس إلياس ، الذى تنيحَّ سنة ١٩٣٢م بعد خدمة ممتازة – ولم يكن فقـــط أبـــاً روحيـــاً مشهوراً فقط ، ولكن أيضاً شخصية وطنية متميزة .

فقد مضى إلى باريس على رأس الوفد اللبنانى ، خـــلال مؤتمـــر الســـلام ، للمُطَالبة باستقلال بلاده ، وتبادُل المُذكرات مع كليمنصو ، الذى أعطـــاه تـــأكيداً مكتوباً ، لإيجاد حل مُرضِيِ لآماله .

وفى مرحلة تالية ، نجحت مفاوضـــات البطريـــرك فـــى إنـــهاء الانتـــداب الفرنسى، وصارت لبنان الكُبرَّى جمهورية فى ٢٣ مايو سنة ١٩٢٦م .

وشمل دستورها مبادئ أنه يجب **أن يكون رئيس الجمهورية مارونيـــاً ، وأن يكون رئيس الوزراء مُسلِماً سُنياً. وأن رئيس مجلس النواب شيعياً، وأن يكـــون وزير الدفاع دُرزياً.**

وحل محل البطريرك بطرس إليـــاس ، البطريـــرك (المـــارونى) أنطـــون عريضه ، وكان نشيطاً وشُجاعاً ومخلصاً بشدة لوطنه ، وقد رَضِـــىَ المســـلمون والمسيحيون والقادة السياسيين عن سَهره على استقلال بلاده . وخـــلال أحـــداث عام ١٩٥٨م المؤسِفة ، عندما أرادت ثورة سياسية خلع الرئيس كميل شـــمعون ، وأخذت طابعاً دينياً ، فإن البطريرك المارونى بولس المعوشـــى ، الـــذى قضـــى جزءاً من حياته فى الكهنوت بالولايات المتحدة ، تمكنّ إنقاذ الموقف المُـــترّدِى ،

بالإعلان أن الكنيسة مع القومية العربية ، وخذل رئيس الجمهورية ، الذى كـــان يُنادِى بالتَدخُّل العسكرى الغربى . وكان الاحتجاج البطريركى ــ بدون شـــك ــ قد قضَى على المستقبل السياسى لرئيس الجمهورية المارونى ، فاضطر إلى تـرك قيادة العمل السياسى .



+ + +

الجزء السابع

الكنائس التى تلاشت

مقدمة:

الكنائس التي تلاشت (اختفت): (vanished)

رغم أن غالبية الكنائس الشرقية قد عاشت وسط أحداث صعبة متتالية ، ملأت عالمها بالسيف ،والنار ، خلال تاريخها الطويل ، فإن بعضها لم تستطع أن تقف أمام هذه الصعوبات ، واختفت تماماً من الوجود.

ومع أن هذا الكتاب كان قاصراً علي الكنائس الباقية ، ولم يشمل التى اختفت،لكن من المنصِف أن نذكر لمَحات عن تلك المؤسسات القديمة ، كتذكّار لأمجادِها القديمة . ولأنه فى مجري سرد تاريخ الكنائس اليعقوبية والنسطورية، كانت هناك إشارات عن المجتمعات المسيحية فى شبة الجزيرة العربية ، فى إياريشيه البصرة ، وفى الكنائس النسطورية التى كانت فى وسط آسيا ، ومنغوليا وفي وسط الصين .

وكلها قد انتهت الآن ، وقد حاولنا الإشارة إلي الأدلة الأثرية والكتابية ، التى تُثبِت وجودها في الماضى . وهناك كنائس في أماكن أخرى، عانت نفس المصير، رغم نشاطها،ومجدها القديم !!.

وإذا ما رجعنا إلي خريطة المسيحية الشرقية ، نجد أن الكنيسة الأولي قد غرَست جذورها في ثلاثة مراكز رئيسية ، بعد فترة ازدهر فيها الإيمان ، والعِلم المسيحي، فوق كل توقّع ، ولكنها اختفت تماما من العَالَم !!.

ومنها كرسي قرطاجة Crathage (قُرب مدينة تونس الحالية) علي جانب ، وبنتابوليس [Cyrenaica = Pentapolis] (الخمس مدن الغربية الليبية) علي

الجانب الآخر . ومملكة النوبة في أعالي وادي النيل خلف الشلال الأول ، ويمكن للمؤرخ أن يفسر سبب قيامها الغير عادى ، وكذلك اختفائها الغير عـادى . وقـد تركت قرطاجة (قرطاجنة) بصمتها علي تطور اللاهوت المسـيحي والمعرفـة . ومع ذلك لقيت مصيرها القاتم قبل المركزين الآخرين .

ومن الصعب تحديد مصادر تقديم المسيحية لشمال إفريقيا ، وإن كـانت قـد أتت من الشرق أو من الغرب، أو من كليهما ؟!. بينمـا كـانت منطقـة الخمـس المدن الغربية مرتبطة بالإسكندرية ، وأكدها القانون السادس من قوانين مجمـع نقية (٣٢٥م) .

وهذان القسمان في شمال إفريقية ،كانا ملتقى لعدة أجناس ، عـلاوة علـي الجنس الأصلي " البربر ". وحتى الغزو الإسلامى – في القرن السـابع – كـان هناك الفينيقيون، والإغريق ، واليهود والرومان ، والمصريون ، وكـان النفـوذ اليوناني أكبر في سيرينيكا (الخمس المدن الغربية) ، بينما ساد التأثير الفينيقـي في قرطاجنة .

وهذا الخليط العرقى (الجنسى) والثقافى فى شمال أفريقية كان أساس النهضـة الدينية (renaissance) التى تركت وراءها تراثـاً أثريـاً، وعلمـاء مسـيحيين مشهورين.**كما سنرى فيما يلى:**

قرطاجنة : (Carthage):

ليس هنا هو مجال عمل مسح عام بتفاصيل المسيحية ومنظماتها الكنسية فـي شما ل إفريقية ، لكن هدفنا ذكر أهمية مرحلة الكنيسة الأولي ، وذلك عن طريـق الإشارة إلى بعض الشخصيات الخالدة فيها ، والذين صاغوا الفكر المسيحي،طول هذا الوقت.

وتتشرف قرطاجنة بالعلاّمة **ترتليانوس** ، والقديس **كبريانوس** والقديس **إغسطينوس** أسقف إيبونا Hippo (حالياً: bona , bone) . وكان كل واحد منهم عملاقا شامخاً ، في العصر الذى عاش فيه . وفى هؤلاء الثلاثة وجَدت الكنيسة أمثلة مُهِمَة في الاعتراف بالإيمان، والدفاع عنه.والترجمة النافعة .

العلاّمة ترتليانوس : (Tertallianus)

كان أبن قائد مُقيم في قرطاجة ، وولِد في الوثنية في تلك المدينة نحو عام ١٦٠م.وقد تثقف بعلوم الوثنية وتعلّم في روما ، وصار مسيحياً في وطنه ، حيث كَتَب فيها كل مؤلفاته . ونظراً لأنه كان محامياً بارِعاً ؛ فقد أستغل موهبته ولباقته في الدفاع عن الشُهداء المسيحيين ، والأيمان المسيحي .

وكان ذلك خلال الاضطهاد الروماني المُكثَّف . ومن أشهر ما قاله : " لو أن (نهر) التيبر فاضَ علي جانبيه (في روما) ولو أن النيل انخفض ولم يروِّ الحقول. ولو حدَثت مجاعة أو وباء ، فالكل يصرُخ (مُلقياً سبب الكارثة على المسيحيين) ويقول": ألقُوا المسيحيين للأسود " .

وقد حدثت عذابات واستشهاد القديسة **بربـاتّوا** (Perpetua) . والقديسة فليسيستاس (Felicitas) مع قلائل آخرين، ألقوهم للوحوش . بـأمر الإمبراطور سبتميوس (Severus) في مسرَح قرطاجنة ، يوم ٧ مارس سنة ٢٠٣ م . وكان ترتليانوس حاضراً هناك ، وسجّل تلك الأحداث ، وكان في شمال إفريقية العديد من الشهداء ، من أجل الإيمان المسيحي .

وفي مِجرَي دفاعه عن المجتمعات المسيحية شجَّع ترتليانوس المضطهدين بقوله "إن البذور هى دماء المسيحيين" (semen est sanguis christianorum) ، مؤكداً أنهم سيتكاثرون في العدد فوق كل وصف .

وكان ترتليانوس لاهوتياً وكاتب عظيماً ، وهو بحق أوريجـــانوس كنيســة شمال إفريقية ، ومع أنه كَتَب عدة مقالات باليونانية ، كـــان أول آبـــاء الكنيســة بالكتابة باللاتينية ، التى أستخدمها فى معظم مؤلفاته الأخيرة .

وندين له بأنه أول من أستعمل كلمة " **الثالوث** " (Trinity) وهو من إبداعِــه المَنطقي في تعرِّيف " وِحدَة الله " ، عندما دافع عـــن المســيحية ضــد التغــاليم الغنوسية ؛ وهو الذي وضع الخطوط الرئيسية للاهـــوت الغربـــي ، والمـــوازي للعلاّمة أوريجانوس في الشرق .

وربما كان أول لاهوتي مسيحي في تطبيـــق علـــم النفـــس الناشـــئ حديثـــاً (Psychology) علي الفِكر الديني ، بعنوان :عن " النَفس " (De anima).

وكانت حماسته الغير محدودة للإيمان السليم قد دفعته إلي التشدُّد في الوقوف ضد الهبرطقة المونتانية التي كانت ضد شروط الصـــوم ، ومنـــع الـــهرَب مـــن الاضطهاد ، وضرورة عماد الذين ارتدوا عن الإيمان (بسبب شـــدة الاضطـــهاد) معمودية ثانية .

وسقط مع البابا Calixtus الأول الروماني ، في منع العفو عن الخاطئ فـــي حالة الخطية الأخلاقية (الزنا) التى يتوب عنها !!. ووصل ترتليان إلي حد اتـــهام الكنيسة الكاثوليكية بنقص الانضباط (النظام) الروحي .

وقد ازداد زُهداً في حياته ، وحارَب الوثنية والهرطقات بكل أشكالها ، ســواء كانت غنوسية أو مانيَّة ، أو مركيانية . ورغم أنه لم يصدُر له قـــرار رومـــانى رسمي باعتباره قديساً (canonized)، إلا أنه يجب أن يُنظَر إليه علي أنـــه كـــان أكثر آباء ما قبل نيقية (Ante-nicene) شُهرَة في الكنيسة . كمـــا أن الأجيـــال التالية استمرت في الاستفادة من دراسته عن الثالوث القـــدوس (Tritarianism) وعن لاهوت المسيح (Christology) ، بعد موته نحو عام ٢٢٠م.

القديس كبريانوس : (St. Cyprian)

هو الشخصية العظيمة الثانية في شمال إفريقية (تنيّح سنة ٢٥٨م) ،وتختلف شخصيته عن ترتليانوس . وقد وُلِد وثنياً ، وتعلَّم البلاغة . وصار مسيحياً بعد موت ترتليانوس بعقدين ، وعرف كتاباته اللاهوتية .

وقد عاش في زُهد . ثم اُختِير أسقفاً لقرطاجة ، بعد سنتين من إيمانه سنة ٢٤٨م. وفرَّ من اضطهاد الإمبراطور داكيوس (Decius) سنة ٢٥٠م ، وعند عودته لكرّسيه أُثيرت مشكلة إعادة عماد الهراطقة ، مرة أخرى ، وشعر كبريانوس تراخي روما في هذ المجال . وقد دعمتّه العديد من الكنائس الإفريقية، في ضرورة تعميد ما سبق للهراطقة والمُنشقّين (schismatics) تعميده.

وقد كتَب مجموعة كبيرة من المؤلفات . ولكن كتاباته تعكس طبيعة خدمته الرعوية العملية . وقد درس شروط قبول المرتدين (لشدة الاضطهاد) ودفع الصدقات للمتورطين. والعلاقات بين الأساقفة، ووحدة الكنيسة .

وكتَب أيضاً في امتداح البتولية ، وناقش موضوعات تتعلَّق بالخدمة وبأسرار الكنيسة السبعة (sacraments) . ومن بين رسائله العديدة تلك المرسلة لأسطفانوس (Stephen) أسقف روما ، التي لها أهمية خاصة ، لاسيما وأن لهجته استُخدِمت لتفنيد الافتراض التقليدي الذى يزعم خضوع إيبارشية قرطاجنة لرئاسة (supremacy) كرسى روما .

وقد عاش كبريانوس يعاني من تجارب صعبة من الكنيسة وخارجها. وقد طارده أعوان الإمبراطور الروماني ، حتي تم استسلامه في النهاية ، واستشهاده سنة ٢٥٨م.

+ + +

القديس أغسطينوس : (AUGUSTINE)

بعد نحو قرن من استشهاد القديس كبريانوس ، وصلت قمة عبقرية الكنيسة الإفريقية الشمالية، ممثلة في شخص القديس أغسطينوس أسقف هيبو HIPPO (٣٥٤-٤٣٠) ، وأصبحت حياته – وأعماله – علامات عظيمة في تطور اللاهوت المسيحي .

وقد كان القديس أغسطينوس مواطناً إفريقياً ، ووُلِد من أب وثني وأم مسيحية . وتعلّم في قرطاجنة. وتحوّل من دراسة البلاغة إلي الفلسفة ، وأثار عدة مشاكل خطيرة عن المسيحية. وقد عاش لمدة ١٥ سنة مع إمرأة لم يتزوجها!

وقد تبع رأي الهرطوقي ماني (Manichaean) لمدة نحو ٩ سنوات ، وخلالها أثار العديد من المسائل المُحيَّرة . وقد فشل أستاذه فاوستوس أن يعطيه جواباً شافياً عليها . ثم سافر إلي ميلانو ، حيث حضر عظات القديس أمبروسيوس الكبير (St.Ambrose).

وفي البداية تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، التى قادته إلى أن يتفتح ذهنه على تعليم السيد المسيح العظيم.

وفي النهاية وجد عزاءً في قراءة سيرة حياة القديس أنطونيوس ، التي أمدته بالحل الوحيد للمشاكل المُتعِبة لروحه . وفي عام ٣٨٦ قرر الاعتكاف لعدة أشهر للتأمل ، قبل عماده في العام التالي . ثم صار راهباً ، وعاد إلي محل ميلاده ، في شمال إفريقية. وهي قرية تاوغُست ، حيث أقام ديراً مع بعض أصدقائه القُدامَى سنة ٣٨٨م .

وفيما بعد ، زار مدينة Hippo ، ولما تحدث مع سكانها أُعجبوا به ، فأخذوه بالقوة إلي أسقفهم المُسِّن المدعو Valerius – فرَقّاه إلي درجة أُسقف . وجعله

أسقفاً مشاركاً له . وعند نياحة هذا الأب نحو عـــام ٣٩٦ صـــار أغســطينوس أسقف " هيبو" (غيبونا) الوحيد، حتى نياحته سنة ٤٣٠م عندما كان الأعداء مـــن قبائل الوندال (Vandals) يدقون أبوابها .

وقد كتَب أغسطينوس ضد كل الهرطقات في زمانه. وفنَّد ما أعتقد بـــه مـــن قبل، من بدعة ماني . وكذلك أنتقد الأريوسية . ويبدو أن تأثيره علي اللاهـــوت المسيحي قد فاق سابقيه. وفي الأيام الأخيرة من حياته ، تعامل بوجهٍ خاص مـــع الهرطقة البلاجية. ويبدو أنه دافع عن مبدأ " القضاء والقدر " المقرر سابقاً للمـــرء (predestination)[١].

أما بالنسبة للمؤلفات التـــي جعلتـــه أكـــثر شُـــهرة فـــهي " الاعترافـــات " (confessions) " ومدينة الله ". والاعترافات تشمل سيرته الذاتية ، والتي ســـجلّها حتى سنة ٣٨٧م، وهى السنة التى تنيحَّت فيها أمه (القديســـة "مونكـــا" ، التـــى صلت إلى الله لمدة عشرين سنة حتى تاب). ثم سجّل نشاطه الأدبي إلـــي ســـنة ٤٢٧م ، في كتابه الذي لـــم يقـــم باســـتكماله (Retractions) (أى الـــتراجع أو الرجوع).

ويُلخِص الكاتب Altaner موقع اغسطينوس بين الآباء القدمـــاء بقولـــه : "جمَع أسقف Hippo العظيم بين القوة الإبداعية لترتليانوس ، والأتســـاع الفكـــري لأوريجانوس ، والفهم الكنسي لكبريانوس ، والجدل الذكي لأفلاطـــون ، والفـــهم العملي للغة اللاتينية ، مع الذكاء الفطري للإغريق ".

---

(١) تري المسيحية أن الإنسان " **مُخيَّر** " في أعماله ، " **ومُسَيَّر** " في أعمال تختص بالخـــالق مثل خلقته ذكرًا أو أنثي-أو بشكل مُعيّن-وأمثال ذلك • (لمعرفة تفاصيل ذلك راجـــع كتابنـــا : " **الإيمان المريض** " طبعة مكتبة المحبة).

وقد أسهمت أفكاره في كتابه "مدينة الله" ، في تشكيل الوجدان المسيحي في العصور الوسطي . فبعد سقوط روما سنة ٤١٠م في يد القبائل الأليرية (Alaric) الشريرة ، انهار الرجاء والإيمان المسيحي بشدة. وقد بدا كما لو كانت الحضارة المسيحية قد قُضِيي عليها ، وأن العالم قد أنتهي. كما زعم البعض أن المسيحية هي المسئولة عن تلك المصيبة !!.

وقد ظل القديس أغسطينوس يُجاهِد لمدة ١٣ سنة (٤١٣-٤٢٦م) لتقوية الإيمان المُزَعّزَع ، وتبرئة المسيحية مما حدَث من خرَاب ، في كتابه : " مدينة الله " . وقد تحول هذا المؤلَّف ،ليكوِّن فلسفة للتاريخ والدين . والذي قال عنه البابا ليو (Leo) الثالث عشر :" بأنه الكاتب المسيحي المملوء بالحكمة ، والذي شجَّع المسيحيين في زمانه . وفند بنجاح كل التُهَم المُزَيفة إلي الأبد ".

وأن ملكوت الله – أورشليم السمائية – هى خالدة وبعيدة عن متاعب الدنيا. وقد استطاع أغسطينوس أن يُقنِع شعب الكنيسة الكاثوليكية في روما – من أقوال الكَتَاب والأباء القُدامَى – وبطريقة فعَّالة أكثر من سابقيه : ببَرَكة الألم ، وأن متاعب الدنيا تُؤهِّل لرَاحة وسعادة أبدية . مماً أرَاح الشعب المُتألِم من غزو البرابرة .

ومع . الأباء الثلاثة السابقين ، وُجِدَت مجموعة أخرى تفخر بها كنيسة شمال إفريقية ؛ ومنهم خطيب ومُعلِّم يُسمَىَ " **أرنوبيوس** " (Arnobius of Sicca) ، الذي عاش بين ٢٥٣-٣٢٧م. وكان قد أمن من الوثنية بالمسيحية .

• **ولكتانتيوس** : (Lactantius) وكان أيضاً مُعلِماً للخطابَة ، ومعاصراً للإمبراطور الكافر دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٤م) . ولما صارت المسيحية ديانة الدولة الرومانية ، دعاه الإمبراطور قسطنطين الكبير ليكون مُعلِماً خاصاً لإبنه

كريسبوس في تريف في بلاد الغال (فرنسا) سنة ٣١٧م . وكان متقدماً في الأيــام. فتنيّح سنة ٣٢٠م.

ويُرّجح أن فى فترة السلام الروماني (Pax-Romana) بعد انتـــهاء عصـــر الاضطهاد، استمرت المسيحية في الازدهار والانتشار ، فاخترقت أماكن بعيـــدة فى إفريقية ، مثل نوميديا وموروويتانيا وقرطاجة .

وبالإضافة لمشاهير اللاهوت ، كانت لها مجامعها ، التـــى انعقـدت لحـل المشاكل اللاهوتية والخلافات العقائدية، ومن أشهرها مجمع قرطاجة سـنة ٣٩٠م، والذي أنعقد للنظر في الانشقاق الدوناطى في البلاد . وهو الانشقاق الـــذى ظـل حتى مجيء الإسلام، وبدأ فى أوائل القرن الرابع كذريعة لرسامة أسقف قرطاجـة أسمه Caecilian بيد فيلكس Felix ، الذي أعتبره رجال الدين خائناً لأنه ســلم الكتب المقدسة لمضطهدي المسيحيين .

وحينئذ رسم سبعون من أساقفتهم أسقفاً منافساً ، هـــو : Majorinus ســنة ٣١٢م . وبعد حلول السلام علي يد قسطنطين وموت مـــاچورينوس نحـو سـنة ٣١٥ ، خَلَفَه دوناتيوس (Donatius) الذي كان قد قاد الثـــورة ضــده . ورســم الكثير من الأساقفة المحليين في القرى لكي يكسب نسبة عددية ، للتفـــوُق علـــي منافسيه .

وكان الدوناطيون قُساة ووطنيين في نفس الوقت . وقد مـــالوا إلـــي سُــلطة كيريانيوس ، ليُدّعِم استقلالهم عن روما . أما القديس أغســطينوس فــرَأى عــدم الموافقة علي اتجاهات الدوناطيين.

وساء الموقف أكثر بعد غزو الوندال فى القـــرن الخــامس .والذيــن كــانوا يعترفون بأنهم أريوسيون . واستبدلوا الكهنة الكـــاثوليك والدونـــاطيين ، بكهنـــة أريوسيين . ومن الجدير بالذكر، أنه بينما استُخدِمت اللغـــة اللاتينيـــة لأغـــراض دبلوماسية وقانونية ، وكلغة كتابة، كانت القُداسات الكنسيّة تُقام بلغـــة الونـــدال أو

الألمانية العامية ، وهو عنصر آخر للاضطراب،أُضِيف إلى القائمة التى لم يستطع السكان البربر هضمها . وكانت المسيحية قد اختلطت بالأفكار الخرافية الوثنية الموجودة لدى البربر .

وكانت عودة ولاية شمال إفريقية تحت حكم الإمبراطور جستنيان البيزنطى تعنى شكلاً جديداً من الاضطهاد للأريوسيين و الدوناطيين واليهود والوثنيين. وأن التبشير البيزنطي بالإنجيل قد وصل إلى أدنى أعضاء العشائر البربرية وليس لزعمائها . وعلى ذلك بدأ المسرح يُعَدّ للغزو العربى ، فى القرن السابع.

+ + +

الخمس المدن الغربية : (CYRENAICA= PENTAPOLIS)

تقع الخمس المدن الغربية بين بنغازي والسلوم . وتضم المنطقة خمسة مدن هى،سيرين Cyrene (قيرين) وهى الشحات حالياً، وأبوللونيا (مرسى سوسة) وبتوليمايس (طلميتة) وبرنيس (بنغزي) ، وبرقة .

ونظراً لأنها كانت نهاية محطة القوافل من قلب الصحراء ، قد كانت لهذا السبب مَطمَعاً للإغريق ، واليهود من التجار ، للاستقرار فيها . وكانت لها صلة قوية بالمدينة الأم (Metropolis) **الإسكندرية** . مما مهد الطريق لنشر المسيحية بها – فى نفس الوقت – فى مصر.

وكان القديس مرقس الرسول مواطناً يهودياً من سيرين (قيرين) ، وقد جاء إلى الإسكندرية عن طريق بنتابوليس. وبعد نشر المسيحية فى مصر، عاد إلى سيرين ، ليعمل علي نشر الإيمان لدى مواطنيه اليهود، أكثر من مرة .

ومن الناحية الكنسية قد ارتبطت المنطقة من البداية بالعاصمة المصرية. وأكد مجمع نيقية أنه ينبغي أن تتبع البابا المصري ، ولا يزال البطريرك القبطى يحمل لقب بطريرك الخمس مدن الغربية. وأن التبشير المصرى، كان مثل ما حدث بين روما وقرطاجة .

وقد سهّل العنصر اليونانى في سيرينيكا الاتصال بينهما ، لأن اللغة اليونانية كانت لغتهما معاً (Linqua Frnaca) . كما كان معظم رجال الإكليروس الليبي يتعلمون فى مدرسة الإسكندرية المرقسية ، رغم قلة المعلومات المتاحة عن تلك العلاقات، ولكنها بدون شك كانت نشيطة [١] .

والمثل الواضح لتسرب العنصر الليبي – إلى مصر – الهرطوقى أريوس ، الذى كان كاهناً بالإسكندرية. وفي الجانب الآخر تتمثل الثقافة والفلسفة والعلوم اللاهوتية فى شخص "**سينسيوس**" أسقف بتوليمايس الليبى ، وهو من إحدى الشخصيات الهامة فى الكنيسة الشرقية ، والليبية بالأكثر.

وقد وُلِد سينسيوس (Synesius) من والدين يونانيين وثنيين غنيّين – فى سيرين – نحو عام ٣٧٠ م ، ثم مضي إلي الإسكندرية وحضر محاضرات هيباشيا (Hypatia) آخر أساتذة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة في المتحف الإسكندرى، وقد تأثر بفلسفاتها.وصار يتذكّرها باحترامٍ عميق، حتى بعدما صار مسيحياً. وماتت هذه الأستاذة بالرَجم من مسيحيين للأسف !

ومن الإسكندرية، مضَى إلي أثينا لمزيد من المعرفة، لكنه لم يجد بها أساتذة ولا فلسفة زائدة عما درَسه بالإسكندرية. فعاد إلى وطنه، حيث طلب منه أصدقائه – من مواطني ليبيا – التوجه إلي القسطنطينية، ليرجو الإمبراطور تخفيف الضرائب عنهم. ولقد أحبه الشعب لنجاحه فى مأموريته.

---

(١) رسالة الدكتوراه (بالإيطالية) للمترجم.وهى دراسة رائدة، تضم كافة التفاصيل عن تلك العلاقات.وغيرها من المعلومات الجغرافية والتاريخية والأثرية ... الخ.، وقد نشرتها مطرانية البحيرة (باللغة العربية) سنة ١٩٨٧م ، وكانت الطبعة الثانية (٢٠٠٥) بمعرفة مؤسسة مار مرقس للتاريخ ، ويمكن الإطلاع عليها للإستفادة من معلوماتها (٥٢٦ صفحة) ورسومها وخرائطها ، ومصادرها الأجنبية اللازمة للبحث العلمي؛ عن تلك الإيبارشية المصرية الليبية.

ثم عاد إلي الإسكندرية، حيث قام البابا ثيؤفيلس Theophilus (٣٨٤-٤١٢م) بتزويجه من مسيحية ، وهو تأكيد على أنه صار مسيحياً ؛ رغم أنه لا يوجد دليل - على زعم البعض - إنه تعمّد مؤخراً في سنة ٤١٠م !! ، واختاره الشعب أُسقفاً لهم ، وتمت رسامته في الإسكندرية وصار قائداً للشعب في الروحيات وفي مواجهة غارات البربر، التي كانت شديدة جداً في بداية القرن الخامس، على منطقة بنتوبوليس . وقام بكتابة ترانيم وكذلك أرسل ١٥٦ رسالة لأصدقائه ، وهي غنية بالمعلومات عن المنطقة .(١)

ويُعّد أعظم شخصية في الخمس المدن الغربية ، ويُوصف بأنه أحد الأعمدة في كنيسة مارمرقس - في القرن الخامس - والثاني هو القديس إسيذيروس الفرَمي ؛ والقديس أنبا شنودة رئس المتوحدين .

وقد تعرّضت ليبيا الشرقية لاضطهادات وشهادات ، وهرطقات كثيرة ، وقد وقف ثاونا (Theonas) أسقف مارماريكا (مرسَى مطروح) وسيكوندس أسقف بتوليمايس خلف الهرطوقي أريوس ، فقام البابا أثناسيوس الرسولي بحرمهما ورسامة غيرهما. كما انتشرت بدعة سايليوس أسقف بتوليمايس ، الذي فصَل بين الآب والابن ، أو بين الكلمة (Logos) وخالق اللوغوس .

وقد ترَكزت المسيحية أساسا بين السكان الإغريق، الذين حاربوا البربر، على حواف الصحراء الكُبرَى، ولم يستطيعوا العمل على تمدينّهم، أو التقليل من عَنفهم .

ولما جاء العرب إلي ليبيا هاجر اليونانيون ، وتفاهم العرب مع البربر لأنهما جنسان بدويان ، وهذا هو ما يُفسِر الاختفاء المُفاجِئ للمسيحية في

---

(١) قمنا بدراسة سيرته وأعماله ، في فصل كامل ، بكتابنا عن الخمس المدن الغربية ، وترجمنا قصائده وعظاته اليونانية . وأفدتنا كتاباته في دراسة أحوال الكنيسة الليبية وشعبها في بداية القرن الخامس ، ونرجو الرجوع إليها للفائدة العامة.

بنتابوليس وانتشار الإسلام بسرعة فى شمال أفريقية، بعد الغزو العربـــى (وقــد ناقشنا تاريخ اختفاء المسيحية من بنتابوليس منذ القرن ١٢م ، طبقا للمخطوطــات التي عثرنا عليها وشرحنا بإسهاب الأسباب المختلفـــة التـــى أدت إلـــى اختفــاء المسيحية هناك ، وعلى الباحث الرجوع إليها).

المسيحية فى النوبة: (Nubia)

طبقاً لما أوضحناه خلال ما ناقشناه لحركة التبشير القبطي فى إفريقيا ، فـــإن المسيحية دخلت النوبة عن طريق مصر ، فى وقــت مبكــر . وكــانت النوبــة منفتحة على مصر، منذ الأسرة الفرعونية الحادية عشــرة (٢١٠٠-٢٠٠٠ ق.م) خلال الدولة الوُسطى .

وقد قَبِل النوبيون الحضارة المصرية والدين المصرى ، وقد شُيِّدَت العديــد من المعابد في المنطقة، ولاسيما فى فترة حُكم رمسيس الثاني ؛ وخاصـــة معبــد أبوسنبل .

وقد نمت ثقافة مَرْوِي النوبية، وقد اكتُشفت آثار مسيحية فى إقليم شندى فـــى حفريات حديثة.

ويذكر التاريخ أن ملوك النوبة أنفسهم كانوا يطلبون من بطاركـــة الكنيســة المصرية رسامة أساقفة لهم ،لنشر المسيحية فى بلاطهم وفى بلادهـــم. ويمكــن الافتراض باطمئنان، أنه قبل نهاية القرن السادس ، كانت المسيحية قد انتشـــرت فى الممالك النوبية الممتدة من جنوب سين (Syene) [وهى أسوان الحالية] إلـــى وسط وجنوب السودان. وأولها مملكة نوباديا (Nobadae) ، بين الشـــلال الأول والثاني والثانية مملكة مقرة (Makorites) عَبر الشـــلالات : الثـــالث والرابـــع والخامس ، وحول ثنية النيل الكبرى عند مروى (Meroë) ، كعاصمة لها، إلـــى الشمال قليلاً من شندى الحالية. والثالثة مملكة علوة (Alwa, Alodae) عند التقاء

النيل الأبيض بالنيل الأزرق، بما فيها أرض الجزيرة وعاصمتها صوبا (Soba) وهى على بُعد أميال قليلة – جنوب الخرطوم – على ضفاف النيل الأزرق .

ولم تكن هناك حدوداً بين الممالك الثلاثة . وكان السكان يجمعون بين خصائص كثيرة مشتركة ، وكانوا يتبعون عبادة مصر الوثنية حتى المسيحية . وقد سعى المصريون لنشر المسيحية بينهم ، وظلت هناك حتى مجيء الغزو الإسلامى . وقد وُجِدَت آثار مسيحية فى مروي بالسودان .

كما تأسس مالا يقل عن خمسين ديراً ومبانٍ كنسيّة فى المنطقة الواقعة بين أسون وسِنار،على النيل الأزرق. وقد قام سومر كلارك بجهد أثري،ومسح معماري على كل وحدة من تلك الأديرة(1).

وفى القرن ١٣ ذكر المؤرخ أبو صالح الأرمنى إن مملكة شمال النوبة المدعوة "**مقَرة**" كانت تشمل سبع أسقفيات والعديد من الأديرة والكنائس،بينما كانت المملكة الجنوبية "**علوة**" بها نحو ٤٠٠ كنيسة .

وحتى وإن رأينا المبالغة فى ذِكر هذه الأرقام ، إلا أنها تُشير إلى درجة تقدم المسيحية فى النوبة ، وهى حقائق أكدها بعض الجغرافيين العرب، فى العصور الوسطى. والبعض يذكر أسماءً لأشخاص ولأماكن مسيحية، من أصل قبطى، لا تزال تحيا وتُستخدَم فى النوبة. وكانت الصلات بينها وبن مصر قوية، إلى أن ضعفت بعد الغزو الإسلامي لمصر، حيث تُرِك المسيحيون النوبيون تدريجياً لرعاية أنفسهم ، إلى أن أحاطت بهم موجة الإسلام ، وقضت على بقايا المسيحية هناك (فى العصر المملوكى).

+ + +

---

(1) Somers Clarke, Antiquities in the Nile Valley (Oxford 1912) , P.34

مجيء العرب : بداية النهاية :

أكتسح العرب أجزاء من أسيا وإفريقية فى القرن السابع ، واستولوا على مصر (٦٤٠- ٦٤٢م) ثم برقة (الخمس المدن الغربية) ثم واصلوا الزحف فى باقى الشمال الإفريقى. وكان الجيش العربي بقيادة "عقبة بن نافع" مُتصلباً؛ ولكن القائد " أبو المهاجر دينار " كان دبلوماسياً.وكان يأمل الصُلح مع البربر، وعرض عليهم السلام والمساواة والمشاركة فى الحرب مع عدوهم المشترك : البيزنطيون الأرستقرّاطيون !! .

وقد مر وقت لفهم البربر لسياسة العرب ، وقبول هذا العرض السخى. وقد هدأوا بعد عدة مناوشات مع زعماء قبيلة لواتة ، مثل القائد المدعو " كسيلا " ومع قائدة تدعى " الكاهنة " (وكانت يهودية وإسمها الحقيقى "**داهية**" وقد دوَّخت العرب)، وبعد السيطرة عليهما ، تم الاتفاق بين العرب والبربر ضد الروم، بالإضافة إلى سيطرة العرب على البحر ، مما أدى إلى سقوط قلاع الروم .

وتم الاستيلاء على قرطاجنة (تونس) سنة ٦٩٨م ، ثم سقطت عدة مدن فى شمال أفريقية.فهاجرت أعداد كبيرة من المسيحيين (ومنهم أقباط) إلى أسبانيا ، وصقلية، وإيطاليا، وبيزنطة، كما حدثت نفس الحال بخروج معظم الملكانيين (الروم) من مصر ، بعد الغزو العربى. وبخروجهم بدأت المسيحية تنحدر فى أفريقيا !!.

والآن، نراجع الأسباب والعوامل التى كانت وراء اختفاء الكنيسة المسيحية فى شمال أفريقيا ، منها تقوقع الكنيسة فى المدن. وعدم قيامها بالتبشير بين قبائل البربر، والاضطهادات التى تلت مجمع خلقيدونيا (٤١٥م) ضد الأرثوذكس. ولم تستطع الكنيسة المصرية رعاية إيبارشية بنتابوليس. ومن الناحية الاجتماعية كان

المسيحيون سكان مدن،بينما كان البربر قبائل رعوية مثل العرَب ، مما أدى إلى تقاربهم ، وإلى تعاونهم معاً في حرب أسبانيا سنة ٧١١م .

وأما العامل الآخر،هو موجات الهجرات العربية إلى شمال أفريقية (مثل قبائل بني هلال وبني سليم) وقد غيرَت الميزان الجنسي؛ بينما رَحل المسيحيون عنها بعد مجيء العرب، الذين ملأوا الفرَاغ بدلاً من الرومان والإغريق.وغير ذاك من تأثير الضرائب البيزنطية العالية ، ومحاولة العرب للتقرّب للبربر. ورأوا أن من مصلحتهم التقرب للعرب ضد الروم والإغريق.

وتختلف الصورة عندما ننظر إلى الكنيسة النوبية عند مجيء الإسلام ، وهنا نجد المقاومة وبقاء الكنيسة مادمت القائل النوبية قادرة عى البقاء مستقلة ، وكانت أول الغزوات العربية ء (٦١٥-٦٢٥م) ، بقيادة خليفة ابن العاص "عبد الله بن أبى سرح " الذى أستولى على دُنقلة ، واضطر إلي التقهقر وعقد معاهدة مع النوبة ، للاستيلاء على ٣٦٠ عبداً كل عام، كجزية، وصارت نافذة لمدة ستة قرون تالية.

وفي المقابل كان النوبيون يهاجمون مصر، لنصْرَة إخوتهم الأقباط ضد ظلم الولاة العرب ، في سنوات حكم الملك قرياقص (٧٤٤ – ٧٦٨م) ، وفي سنوات ٨٥٤م ، ٩٦٣م ، وأما في عام ٩٦٩م فقد أرسل الفاطميون إلى جورج ملك النوبة لدعوته لقبول الإسلام ، ولكنه رفض.

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي بدأ غزو النوبة ، لكن القضاء على المسيحية في النوبة كان في عهد المماليك ، وبدأ سنة ١٢٧٢م عندما رفض الملك داود دفع الجزية المطلوبة من العبيد للسلطان بيبرس (١٢٦٠– ١٢٧٧م) ، وانتهت الحملة الحرية العربية بدفع جزية قدرها دينار ذهب عن كل ذكر مسيحي للبقاء على إيمانه المسيحي .

وذهبت حملات حربية أخرى فى عهد السلطان قلاوون فى سنة ١٢٨٧م . وفى عام ١٢٨٩م أنتهت باحتلال مدينة دنقلة . وكرر أبنه الناصر محمد ، الحملات للنوبة فى سنة ١٣١٥م، ١٣١٦م.وأقام عبد الله بن سنبو ملكاً على عرش النوبة ، ويبدو أنه تحول للإسلام ، رغم أن غالبية السكان ظلوا مسيحيين. فى الوقت الذي عانت فيه الكنيسة المصرية من الضغوط الإسلامية ؛ ولم تستطع أن تمد رعايتها المباشرة للشعب النوبى، الذي ظل معزولاً روحياً .

وتشير سجلات البرتغاليين إلى وجود مسيحيين فى النوبة فى القرن ال١٦ ، لكنهم عانوا من هجوم عرب الشمال، ومن قبائل الزنوج فى الجنوب. ومع ذلك تمسكوا بالإيمان ، رغم اختفاء كنائس شمال إفريقية . ثم انتهت مسيحية النوبة مثل باقية كنائس الشمال الأفريقية. وإن عادت الكنيسة القبطية إلى السودان فى القرن ١٩ ، بعد استيلاء محمد على، على أعالى النيل ، وقامت حركة التبشير القبطى من جديد ، كما هاجرت أعداد من الأقباط ، حيث عمرت السودان وأنشأت الكنائس والمدارس ، ونهضت مدن السودان على يد الأقباط، وقد امتدت إلى الآن.

\+ \+ \+

تم بحمد الله

المصادر

1. Case et altri. Bibliographical Guide to the History of Christianity. Chicago. 1931.
2. Schaff, Nicene & Post-Nicene Fathers of Christian church (14 vols).
3. Kidd, Documents of the History of the Church to 461 A.D., 2 vols (London, 1920-3).
4. Idem. The Churches of Eastern Christendom (London 1927).
5. Alzog, Manuel of Universal Church History, 4 Vols. (Dublin, 1879- 82).
6. Duchesne, L'Histoire Ancienne de L'Eglise Chrétienne, 3 vols.
7. Idem. Early History of the Christian Church, (London 1950). 3 vols.
8. Fkury, Histoire Ecclesiastique (Oxford, 1842).
9. Latourette, A History of Christianity (New York, 1953).
10. Idem. A History of Expansion of Christianity, 7 vols. (New York, 1937-45).
11. Milman, History of Christianity to the Abolition of paganism in the Roman Empire, 3 vols. (London, 1840).
12. Idem. History of Latin Christianity , (London1883) 9vols.
13. Adeney, The Greek and Eastern Churches (Edinburgh, 1908).
14. Attwater, The Christian Churches of the East, 2 vols. (Wisconsin, 1940-61).
15. Leclerq, Les Eglises Unies d'Orient (paris 1934).
16. Fortescue, The Lesser Eastern Churches (London 1913).
17. Janin, Les Eglises Orientales, (Paris, 1926).
18. Le Quien, Oriens Christianus ,3 vlos. (Paris 1740).
19. Neale, A History of the Holy Eastern Church.
20. Idem. The Patriarchate of Alex. 2 vols (London 1847).
21. Rondont, Les Chrétiens d'Orient (Paris 1955).
22. Stanley, Lectures on the History of Eastern Church, (London 1907).
23. Quasten, Patrology, 3 vols (London 1951- 60).
24. Dictionaries , Encyclopaedias & Atlases.

الفهرست | الصفحة

هــذا الكتـــاب

يوضح لأول مرة، وبأسلوب علمى مُوّثق، ومُستّمد من مصادر كثيرة من أقدم المخطوطات، عن المسيحية فى بلاد الشرق. وقد ركز الكاتب على دراسة تاريخ الكنيسة المصرية، والكنيسة الأثيوبية، والكنيسة السريانية اليعقوبية، والكنيسة النسطورية الأشورية، والكنيسة الأرمينية، والكنيسة المارونية، والكنيسة الهندية، والكنائس فى شمال افريقية والنوبة والصين وشرق آسيا.

وهو يضيف معلومات جديدة وهامة للدارسين، والباحثين، ولكل مُحبّى التاريخ المقدس فى مصر وبلاد المهجر.

ونقدّمها فى ترجمة مُبسّطـــة وجذابّة، مع التعليقـات والنقد، والإضافات، والتوضيحات اللازمة.

وهو استكمال للموسوعات التاريخية الهامة التى قمنا بإعدادها ونشرتها مكتبة المحبة ومنها مثلاً :

١- الجوهرة النفيسة فى تاريخ الكنيسة، للأنبا إسيذروس.
٢- موجز تاريخ المسيحية، للأنبا ديوسقورس.
٣-تاريخ البطاركة، للأنبا ساويرس (ابن المقنع).
٤- تاريخ البطاركة، للأنبا يوساب (أسقف فوة).
٥- مصباح الظلمة، لابن كبر.
٦- تاريخ الكنيسة القبطية التقليدية، لباتريك هول (الأمريكى).
٧- تاريخ الكنيسة الليبية المصرية (الخمس المدن الغربية) للكاتب.
٨- عصر المجامع، للقمص كيرلس الأنطونى.
٩- سيرة حياة وأعمال البابا ديوسقورس الإسكندرى.
١٠- تاريخ الكنيسة المصرية، للكاتبة الإنجليزية لويزا بوتشر.
١١- تاريخ القدس وبيت لحم.

